

ما قبل الولادة الثانية

ما قبل الولادة الثانية
رواية: وليد الرشيد الحراكي
عدد الصفحات: 376

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 11234 / 2017

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 82 - 4

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم
المدير التنفيذي
سماح الجمال
إشراف فني
أحمد جابر
تصميم الغلاف
أحمد صادق
التصميم الداخلي
محمد عبد الفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

ما قبل الولادة الثانية

رواية

وليد الرشيد الحراكي

أهراء

إلى أرواح شهداء الشام والأمة الأحرار.. والثكالي والأرامل واليتامي
ومعتقلي سجون الاستبداد.. والنائرين المخلصين الصادقين.. ولاجئي
وطني المنتشرين في كافة أصقاع الأرض.

إلى كل أحرار الأمة والعالم الذين وقفوا وقفة مشرفة.. إلى أصحاب
القبعات البيضاء والأأيادي البيضاء وكل من قدّم وما زال العون.
إلى روعي والدي ووالدتي رحمهما الله.

إلى أشقائي وشقيقاتي الأحبة وعائلاتهم وأبناء عمومتي وأقاربي.
إلى رفيقة الدرب وصنو الروح وقارثتي الأولى زوجتي أم عمر عافاها
الله.

إلى فلذات كبدي أحبتي عمر وغيث ومحمد إسلام وعُلا وحفيدي الوليد
الجديد.

إلى أصدقائي ورفاق الحياة والحرف.
أهدي لهم جميعاً باكورة أعمالي الروائية.. مع كل الحب والعرفان.

وليد

مقدمة:

الحمد لله الذي تتم به الصالحات، ويُقصد لوجهه العمل،
وبتوفيقه يكتمل.. وصلّ اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم وبعد:

لا بد هنا من تقديم العرفان مع المودة والتقدير لكل من ساهم في
إنجاز هذا العمل بمشاركته نصحاً وتقويماً ومشورةً ودعمًا معنويًا..
أخص منهم نخبة الشعراء العرب وعلى رأسها الأستاذ الشاعر القدير
براء الشامي، والأستاذ الشاعر والناقد غانم ذياب أحمد لما قام به
من تنقيح وتصحيح لغوي، والأستاذ الروائي الصديق محمد فتحي
المقداد لتنسيقه ونصحه المبارك، وللأستاذ الأخ الأديب الشاعر عبد
الرحمن لطفي ولشقيقي الأستاذ معمر الرشيد الحراكي لمواكبتهم
ودعمهم ونصحهم.. وأخيرًا لا يفوتني أن أخصص بشكرٍ خاصٍ
كبيرٍ الشاعرة الرائعة القديرة نادية بوغراة لدعمها اللامتناهي كدأبها
دائمًا، ومرافقتها لكل حرفٍ من حروف هذا العمل نصحاً وتقويماً منذ
أن كان في طور الفكرة.. بما قدّمت من متابعةٍ ودعمٍ فنيٍّ ومعنويٍّ..

كما ينبغي تقديم أجمل الشكر لدار النخبة للنشر والتوزيع
والعاملين فيها، أخصّ منهم الأستاذ الفنان مصمّم الغلاف الذي
شرفني وأسعدني بتقديمه جميل ابتكاره الفني المواكب للنص
ببراعةٍ واقتدار..

أدعو الله أن ترقى هذه المحاولة المتواضعة إلى مستوى ذائقة
القارئ العربي وأن تصل إلى الحدّ الأدنى من مقومات الرواية
الصالحة فكرًا وأدبًا.. وتقدّم للمكتبة العربية النزر اليسير المقبول
الذي ينبغي للأدب الجادّ الجميل أن يتحلّى به..
والله ولي الأمر والتّدير

وليد الرشيد الحراكي

في ٢٠١٧/٥/٢٩

يدعي الراوي وعلى ذمته :

أن كل ما سيرد من أحداثٍ وشخصياتٍ فيما سيروي.. ليس من الواقع في شيء.. وأي تطابقٍ أو تشابهٍ هو من قبيل المصادفة لا غير.. لكنه يزعم أيضًا أن كل ما سيرد من أحداثٍ وشخصياتٍ فيما سيروي.. لم يخالف الواقع في شيء.. بل ويؤكد أنه شذّب الكثير من الأحداث لتكون أقل واقعيةً بدرجةٍ إيلاهما؟

(١)

نطفة قيد الانتظار

حين تشدُّ الحلَكَةُ.. ويوغلُ الطريقُ في افتعالِ المسافات
 وحين يبدو العتمُ أكثرَ قربًا من نبضِ الصُّباحِ..
 ثمَّةَ بصيصٍ ينتظرُ المقهوَرُ الباحثَ عن نهاياتِ السَّرايِبِ!
 الطريقُ إلى الأمانِ محفوفةٌ أحيانًا بالنوايا الطيبة.. وبعض
 الوهم والافتتان والمصادفات في أحيان أخرى!

لم تكنْ تلك الدَّمعات الحارقات أول عهده بالبكاء، لكنَّها المرَّة الأولى
 التي تعلن عجز وانكسار هذا الكائن البشريِّ الصامد لسنين مرَّة واحدةً،
 وانهياره كجبلٍ جليديٍّ، غير أنَّ ذوبانه لا يبدُل شيئًا في منسوب المحيط؟
 هو (ثابت) الذي شهدت له الصُّعاب المتراكمات بأنه كالصَّخر لا حول
 لها بتليينه، ولا بكسر إرادته في الحياة.. يشهد له الورى رغم ما يبدو من
 صلفه أنه رجل المواقف والمبادئ وعنوان الرجولة والوفاء، ذلك على صغر
 سنِّه الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين حوَّلاً.. ورغم أنه تحاشى طوال هذه
 الأعوام (الأيديولوجيات)، إلا أنه وبالفطرة والتربية المحافظة ينهج طريق
 الثبات خلقًا ومبادئًا.. على الأقل فيما مضى ومع من صادفهم وعاشرهم..
 لمعان أرض الممرات وبريق جدرانها، وضجيج المشهد المُترع
 بالزائرين والمرضى والعاملين.. لم تستطع كلُّها أن تحجب انكشاف يأس

الشاب المقروء في نظرات عينيه مع الكثير من الأسى بكل وضوح.. ومع هذا فالماؤون في ممرّ المشفى في الاتجاهين لم يلفت انتباه أحدهم انكفاء هذا الشاب الطويل الوسيم، ممتلئ الجثة، أبيض البشرة، مفتول العضلات، ذو العينين الواسعتين العسليتين والشاربين المرسومين بجمالية وتنسيق فوق شفتين دقيقتين.. على حافة ضعفه وحائط المشفى، كأنه يتوجّع محصوراً بين مطرقة وسندان، في صفحة وجهه المستدير المحمرّ مسحة قهر غيّت بعض أنواره.. بدا أنه لم يحلّق ذقنه منذ أيام، ولم يصفّف شعره الكثيف الطويل، بيد أن هذا كله لم يصادر الكثير من وسامته..

لم يرَ عبر عدستيّ عينيه الممتلئتين دموعاً كثيفةً سوى أطراف مارة متكسرة لا توحى إلا بلحظات تقليدية معهودة... ينشغل بها كل امرئ بما يهّمه ويعنيه....

يا الله.. قدّرني على القيام بها والاستمرار في علاجها، فأنت أعلم يا رب.. ليس لها بعدك غيري.. اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.. ضمّ صغيره الذي كان مذهولاً بما لم يره قط.. كان المسكين الصغير يتابع اللحظة مصدوماً بمشهد بكاء أسطوريته.. اشتدّ هطول دمعته على جسد ولده إلى درجة البلل، وهو لا يشعر.. بلغ الأمر به مبلغ النحيب.

في العاصمة دمشق على بعد مئات الكيلو مترات عن قريته وذويه، وفي مشفى كبير لم يكن لغيره أن يستقبل مثل هذه الحالات الطبيّة النادرة، استنفذ علاج الزوجة كل ما يملك من مال، حتى ما اقتطعه كأجرة لطريق العودة، واستنفذ مع المال القدرة على التفكير بمخرج جديد.. ما زال الطريق في رحلة العلاج الذي استنزفه روحاً قبل كل شيء.. طويلاً، كل الدروب إلى الفرج بنظره الآن سُدّت.. لم يعد يرى في الأفق سوى جدار أسود قاسٍ،

فأهله وإخوته أعلنوا له عجزهم، ولم يبقَ صديقٌ ولا زميلٌ لم يستدِنَ منه... هو الذي لم يكن ليطلب لنفسه درهماً من أحدٍ، ولو كلفه ذلك حياته..

حتى كمال الذي يكاد يكون خلّة الصامد الأوحِد في وجه رياح التغيّرات.. أعلن إفلاسه وسُقِط في يده، ووقف عاجزاً عن مساندة أخيه، بل وتوقّف عن الردّ على المكالمات الهاتفية خجلاً.. فقد بهذا ثابت أهمّ سندٍ يمكن أن يتّكئ عليه..

بلا إرادةٍ منه أخذ ثابت وهو يتواضع لعثمان مقرّضاً، ويتّخذ من ظهره المتّكئ على الحائط سنداً لخوار عزيمته.. يجترّ من الماضي مشاهد بدت متداخلة الشُخوص والأزمنة والأمكنة.. المشترك بينها.. وجهي أبيه وأمه.. وهما يرقصان فرحاً بيوم زفافه المبكر.. في عام ٢٠٠٤ للميلاد.. في منتصف نيسان.. يومٌ لا ينسى بالنسبة له، وكيف يمكن له أن يفعل.. وقد حُفِر تاريخه بقعر ذاكرته؟

تزداد قبضته على جسد عثمان النحيل، وهو يسترسل بتلك الذكريات كلما تفاعل مع مشهدٍ من مشاهد الحدث الفات الحاضر... لم تغادر شاشة تفكيره حينئذٍ مفارقة تلك الليلة، ما بين فرحهما العارم بزواج ولدهما، وضمّه إلى قائمة المنتجين للأحفاد، وانقباضه.. وكأنه يُقتاد إلى حتفه مرغماً، غير قادرٍ على التمرد، أو حتى على التصريح بمشاعره الحقيقية.. لم يكن وحيدهما حتى يعجباً بزواجه كما جرت العادة في العديد من المجتمعات الشرّقية، وخصوصاً الريفية منها، فالوالدان في هذه الحال يستعجلان زواج وحيدهما ليضمنا امتدادهما في الحياة.. لكنها ميزةٌ لوالديه اللذين كان جل ما يؤرّقهما موضوع زواج الأولاد، ومنتهى طموحهما أن يوسعا الدار شيئاً فشيئاً... لتتسع لعائلات فلذات كبديهما العامرة بالأحفاد.

لم يتجاوز عمر ثابت حينها التاسعة عشر، أو يكاد يقترب من العشرين.. كان يستعدُّ لبدء عامه الدراسي المكرّر في الصفّ الأخير في الثانوية... إذ لم يستطع

في العام الذي سبقه أن يكمل التزامه التّام فيه ويحصل على الشّهادة بسبب عزمه حينذاك على هجرة الدراسة، قبل أن يتمكّن أهله من إقناعه بالعودة، والتقدّم في هذا العام لامتحانات الثانوية العامة.. مع الاستمرار في مشروع زواجه، كان هذا شائعاً وممكناً في الكثير من الحالات.. بل إن الكثير من رفاق المدرسة كانوا كذلك في قريته، كما في معظم القرى في سورية عموماً..

بدا هنا أن عثمان شبيه أبيه، الذي تركته الظروف نحيل القد، ضعيف البدن، أقرب إلى الاصفرار.. يتململ بين ذراعي الوالد القابضتين عليه بشدّة حريص، وقد تحوّل حنان أبيه إلى وجعٍ لم يعد يطيقه الصبي المسكين؟ انتبه ثابت.. أطلق الجسد الغضّ الضعيف، واحتضنه برفقٍ وإشفاقٍ، قام واقتاده داخل الممر، قدّم له بعض الحلوى التي كان يحتفظ بها له.. مع كل هذا استمرّ المنكوب الحزين يسرح شاردًا بتلك الليلة العجيبة في حياته.. بغير انقطاع.. يعيد ترتيب أحداثها في مخيلته.. كأنها تحصل الآن؟

ما كانت هادية الزوجة المستقلية الآن على أحد أسرّة هذا المشفى هي من يهفو لها قلبه، ولا من يصبو لتكون شريكة حياته الزوجية، لكنها رغبة الوالدين، وهي تعتبر في سلم أولويات قيمه آنذاك، وعُرف البيّة المحترم حدًا يشبه القداسة.. أمراً شبه حتميٍّ مُلزم.. تحقّقت رغبتهما بمجرد إشارة توجيهٍ منهما، دون عوائق تُذكر.. وعلى الرغم من بغضه إياها في المراحل الأولى من عمر زواجهما، إلا أنه بدأ يعتادها، ثم يألفها شيئاً فشيئاً، ويأنس لمعاشرتها وحسن خلقها ومعاملتها، صار يعطف عليها.. غير أنه منذ بادئ الأمر يُحسن معاملتها، بما تربّى عليه من خلقٍ، وإحساسٍ بالواجب...

هادية التي كان يعرفها ثابت حينئذٍ مسبقاً.. بحكم طبيعة القرية واجتماعياتها المفتوحة، متوسطة الطول والجمال، بيضاء، رقيقة الحاشية،

مهذبٌ وقليلةُ كلام، نحيلةُ الجسد، وأيضًا... الثقافة والمعرفة؟ حتى إنها تطلق عليها فيما بعد لقب «المسكينة».. حينما كان يعينها في أي حوارٍ يكون لها طرف ذكرٍ فيه، أو اسم الخطاب عندما يكونان في لحظات أنسٍ، فيتعمد حينها أن يداعبها بهذا اللقب.. هي تبسم راضيةً سعيدةً، كأنها تحظى بجائزةٍ تسرُّ فؤادها المُرَهَف، وتجبر خاطرها الكسير..

عثر على مقعدٍ فارغٍ في نهاية البهو يمكنه أن يرخي عليه بدنه المتهالك.. جلس ثم جعل عثمان يستلقي على فخذه.. راح يهزُّ قدميه، ويربّت على بدنه الصغير، يفتح صفحةً جديدةً من ملفّات الذاكرة التي راحت تُشرع أبوابها، لتطوف قواريء تفكيره بمحمولها المثير؟ وبينما راح الولد يغطُّ في نوم عميقٍ، استمرَّ هو بالغوص بعيداً في لُجج الماضي.. لو دقّق أحدهم في عينيه، لهاله استغراق الرجل بعيداً عن المكان واللحظة.. ولأدرك مقدار الأسى الذي خلّفته وراء نظراته الحوادث.

ذكورية المجتمع هناك حيث وُلد ثابت، كانت وما تزال وجهًا مألوفًا من أوجه الحياة، حتى إلى درجة الظلم والقسوة.. هذا دأب معظم المجتمعات الشرقية المحافظة، خصوصًا القروية منها.. كان هذا وجهًا اعتياديًا لا تشعر بغرابته حتى النساء، لأنَّهن اعتدُنَّ عليه.. وواكبَّنه منذ عصور؟ ثابت خالف مجتمعه في تلك السلوكيات، وبدافع إنسانيٍّ محضٍ.. دعمته خلفيته التي تربّت ونمّت على يد أبي خالد المختلف نسبيًا فيما يخصُّ هذه الأمور، وما رآه طوال عمره من معاملة أبيه لأمه المتميِّزة إذا ما قورن بغيره، وأيضًا لكون ثابت يخفي الكثير من المشاعر الرقيقة والوجدان اليقظ النبيل، كما خالفه في كثرة الإنجاب أيضًا، وعن كامل قناعةٍ، ربما حفّز ذلك لديه أكثر.. ما أتى عليهما من ظروفٍ فيما بعد.. حتى قبل أن يبدأ المرض بالتطوُّر والتَّنامي في عروق

هادية.. ما اعتاد ثابت إلا أن يكون حنوًّا رائق الطبع في بيته، سخيًّا فيما توفر له من المال، والذي كان محدودًا بمقدار ما يصله من واردات الأرض والزراعة ممَّا يجوده به أبو خالد والده على أفراد العائلة الكبيرة، وما يحصل عليه شخصيًّا من بعض الأعمال أثناء العطلات.. خاصةً العطلة الصيفية الطويلة..

عثمان وحده كان ثمرة زواجهما منذ ستة أعوام، قبل أن يقررا معًا التأنّي والترثيث حتى يتبين لهما الخيط الأبيض من فجر الشفاء.. بعد قدوم عثمان الذي كان مصدر سعادةٍ للكبار والصغار في العائلة.. بحكم هاجس الوالدين بالأحفاد، ورضاهما عن كونه صبيًّا.. كانت هادية على موعدٍ مع آلام داخليةٍ غريبةٍ، راحت تشتدُّ وطأةً.. ثم تنتقل مواضعها من بقعةٍ إلى أخرى في جسدها النحيل الواهن.....

يرمق ثابت بألمٍ فلذة كبده الذي نام كالملاك الطاهر على فخذه... يمرر كَفِّه الحانيتين على رأسه وجسده وهو يهمس له:

ويح قلب أبيك يا ولدي.. شئت الأقدار أن تتحمّل مسؤولياتٍ جسامًا قبل الأوان.. هي أثقل منك وزناً أيها المسكين ابن المسكينة؟

رافق ذلك المزيد من الدموع الملتهبات.. كلما أطال النظر في قسّمات وجه صغيره، يجرين على خد الوالد، ثم يهبطن على جسد الولد، مضمّخاتٍ بالشفقة:

أما كان لك أن تترثّي في القدوم إلى هذه الحياة يا ولدي؟ .. من يدري.. فلربما كانت أسعفتك وهيّأت لك ظروفًا أفضل؟

مسح دموعه الجارية على ذراع عثمان المكشوفة، وخدّه الطريّ الرائق.. ضمّ رأسه إلى حجره، وراح يستفيض استحضارًا لفصولٍ نائمةٍ من أرشيف الذاكرة...

الطبيبة في مستوصف القرية هي المرجع الطبيّ الأعلى للجميع في ذلك الوقت، حين لم تستطع تشخيص حالتها، أو إيقاف معاناتها، رغم إجرائها

للكثير من التحاليل وتخمينها للعديد من الحالات المشابهة، ورغم وصفها
لعديد أنواع مسكنات الألم.. طلبت من ثابت أن يذهب بها ودونما إبطاءٍ
إلى حلب، التي تبعد ما يزيد عن مائةٍ وعشرين كيلو مترًا عن القرية، نصحته
بطبيبٍ اختصاصيٍّ بالأمراض الباطنية، ومذُ ذاك التاريخ.. شرع كتاب
ذكريات الأسرة بتدوين تغريبة ثابت وعائلته في العذاب والهموم...

فجأة؟ وهو يهيمُ بمتابعة شريط ذكرياته المؤلمة.. اقتحم سلسلة استعراضه
صوتٌ نسائيٌ هادئٌ يلقي التحية.. استغرق إدراكه أنه هو المعنيُّ بها وقتًا؟
تحرّك قائمًا، يحاول ما استطاع استدراك حالته المزرية، وأثار الانهزام
تكسو محيَّاه بمظاهر الهمِّ وأثار الدموع:

- حضرتك الأخ أبو عثمان؟

وجد سؤالها يباغته ويعيده فجأةً من البعيد، ويؤكد له أنه المقصود فعلاً

- نعم، ومن الذي يسأل؟

أجاب قبل أن يراجع ردّه الذي لم يأتِ بذات القدر من التهذيب والهدوء..
سيطر عليه الاستغراب.. أخذت حواسّه تستجمع وتركز في السيدة القادمة
بلا توقُّعٍ وترتيب؟

هي في نهاية العقد الثالث أو بداية العقد الرابع من عمرها كما يبدو..

- لكن من يستطيع أن يخمّن عمر امرأة؟

يقول لنفسه وهو ينظر إلى المرأة الغريبة.. التي اقتحمت عليه صومعة شروده
امرأةٌ جميلةٌ محيّا، عيناها زرقاوان، شديدة البياض، ذات شعرٍ أشقر
سافر، أنيقة الملبس.. ليست من النوع الذي ألف ثابت التحدُّث إلّيهن..
تنفوح منها روائحٍ عطريّةٍ فاخرةٍ غير مألوفةٍ لديه، وتشي طريقة ونوعية لباسها

بأنها ابنة نعمةٍ وجاه... وقد تكشَّف في أعلى صدرها ما يسمح برؤية سلسلةٍ ذهبيةٍ، تتدلَّى لتنتهي بصليب.. بادرته والابتسامة تتماهى مع نبرة صوتها الودودة لتشكِّلا هيئَةً متحضَّرةً يُفترض أن تكون مريحة:

أنا ماريًا.. والدتي هي العجوز المريضة في الغرفة المجاورة لغرفة أم عثمان عافهما الله.

رَحَّبَ بها بتحفُّظٍ، وأَمَّنَ على دعائها، سكنت ملامحه المستنفرة بعد أن توضَّحت الصورة قليلاً، حاول أن يسط وجهه الذي كانت عوامل الأزمة والاستغراب قد أحكمت قبضتها عليه... تابعت قائلةً بكل لطفٍ وهدوء:

- أودُّ لو سمحت أن أكلمك بموضوعٍ مهمٍّ.. قد يكون فيه خيرٌ لكم ولنا وللمريضتين معًا.

لم يجد بداً من الإصغاء، وهي تسترسل بعد أن اطمأنت لقبوله، وتطوُّر إشارات الفضول والتلقِّي التي تبدَّت في وجهه..

- نحن ثلاث أخوات بنات العجوز الوحيدة، كل واحدةٍ منا متزوجةٌ ومقيمةٌ خارج البلاد في دولةٍ مختلفةٍ عن أختها، نعاني من انشغالنا على أمننا بعيداتٍ عنها.. وهي تصارع أوراها ووحدها، مع صعوبةٍ بقائنا معها.. بحكم ظرفٍ كلِّ منا، وارتباطنا بإقامة أزواجنا وأولادنا وأماكن عملهم خارج البلاد.. فشلت كل محاولات إقناعها بالسَّفر إلى الخارج لتلتحق بإحدانا.. تتمسَّك بالبقاء هنا، تعتقد أن خروجها من دمشق يعني الحكم عليها بالموت، تقول إن الموت مرضًا أرحم بكثيرٍ من مغادرتها هذه الأرض؟ ما زالت تقيم وحدها في (فيلاً) كبيرةٍ في إحدى مناطق العاصمة المعروفة، باستثناء وجود بعض العاملين فيها.. وقد كنَّا أنا وأخواتي وأزواجنا قد اتخذنا سويَّةً قرارنا بعدم الضغط عليها أكثر..

لا أخفيك أخي أننا أعيّتنا الحيلة لإيجاد مرافقةٍ مستمرةٍ معها، نثق بأنّها قادرةٌ على تلبية مطالبها ومراعاتها، بينما لا نثق أصلاً بقدرة الخادّات وحدهن على الإيفاء بهذا... ولا بإخلاصهن المطلوب.. فيما لو غامرنا بتركها تحت إشرافهن.. تشرّفنا هنا بالتعرّف على السيدة الطيبة زوجتك، لاحظنا ورصدنا مقدار محبة والدتنا لها وكيف ارتاحت معها كثيراً.. وقد شاركتها همومها وأوجاعها.. تولّدت الثقة والألفة بينهما.. وإنّي أرى والدتي تأنس لها.. بعد أن تعوّدت على رؤيتها وقربها في الآونة الأخيرة.. بحكم تجاورهن هنا في المشفى لمدةٍ طويلة.. زرت السيدة هادية بالأمس، حضرتك كنت في الخارج، وقد تحدّثنا مطوّلاً، فهمت منها كم عانت وما زالت، وكم عانيت أنت معها، ناهيك عن وضع الصغير المسكين حفظه الله أيضاً.. والذي أصبح مقيماً دائماً بحكم وجودكما بهذا الوضع.. في المشافي.. ما قرأته بين حروفها يشير إلى أن السيدة هادية لم يعد يشغلها أمر مرضها كما يفعل عناؤك الذي تتجشّمه لتستمر في علاجها، ومقدار تعبك المستمر.. بالإضافة إلى ما أنفقتة حتى الآن في سبيل علاجها، ناهيك عن الضائقة النفسية والمالية التي علمت أنك تمرّ بها.. مع الأخذ بعين الاعتبار قلقها المستمر على عدم استقرار وضع الصبي الصغير.. عرفت أيضاً أن مرضها النادر في الأوعية الدموية يحتاج إلى المراقبة الدائمة والمستمرة، مع العلاج المتواصل المكلف في هذا المشفى... التي نعلم أنا وأنت جيداً أنه قلّما يستطيع الإنسان ذو الدّخل العادي أن يلجأ لمثله عند الحاجة....

لما رأّت المرأة في عيني ثابت أنه قد وصل إلى قِمة فضوله.. وتجلّتيهها بوضوح علامات الاستفهام عن نهاية هذا الحديث المفصّل، والذي ساورته الشكوك بخاتمته... انخرطت في صلب الهدف الذي أرادت الوصول إليه دون تعقيداتٍ وبشكلٍ مباشر.. وبثقة الناظر في عينيه بثبات:

- اقترح يا أخي بحكم محبة والدتي وثقتها بكم.. وحاجتكم للبقاء هنا، أن تقيم والسيدة هادية وولدي في (الفيلا) مع والدتي، وأن تقوم حضرتك على إدارة أمور الجميع دون أن تتكلف شيئاً من المصروفات.. بل وفوق هذا تتقاضى مقابلاً شهرياً مجزياً كمصروفٍ لك ولعائلتك.. وهذا ليس مقابل جهدك ورعايتك فقط.. بل لأنك ستصبح وعائلتك جزءاً من العائلة.. تتحمل مسؤولياتها، وتشاركها كل شيء؟..

لم يستطع ثابت حتى وهو في هذه الظروف الخائفة أن يخلع عنه ثوب القبيلة المطرّز بالكرامة والأنفة.. لم يستطع أن يتلع ردّة فعله المباشرة.. وخزه إحساسه بمشاعر الشفقة التي رآها تتقطر من فم المرأة، كما وصله فقط من كل ما قالته السيدة، أخذته العزة بالنفس بعيداً، حيث تلوّنت سحتته بالغضب وشمر عن ساعديّ نزقه... رفض قائلاً وبكل صلفٍ ومكابرة.. وبصوتٍ مرتفعٍ شابه الغضب:

- لا حاجة لي بمالكم ولا حاجة لكم بمثلي، وقد نويت العودة إلى قريتي وليقض الله أمراً كان مفعولاً.. وعلى العموم شكراً لعرضك السخي.

نظرت المرأة حولها لترى الوجوه القريبة.. وهي تتجه نحوهم متأثرةً بطريقته الثائرة في الرد.. ورغم هذا لم تمتعض المرأة الهادئة اللطيفة، نجحت ببراعةٍ باستيعاب ثورته.. ولم تبد شيئاً من استياءٍ، أو أي ردّة فعلٍ قد توحي بذلك.. كل ما فعلته أنها ابتسمت، وأكدت له بهدوءٍ ولباقةٍ أنها وعائلتها بحاجةٍ له ولعائلته بذات القدر الذي قد يكون هو عليه.. اليوم وفي أي وقتٍ قادم.. قدّمت له ورقةً كتّبت فيها اسمها وأرقام هواتف، طلبت منه بهدوءٍ أن يعيد التفكير بالموضوع، وتمنّت له ولعائلته الخير والعافية.. ودّعته بأناقةٍ وودّ.. وانصرفت بهدوء.. رافقها ثابت بنظراته حتى غابت عن مرمى

نظره وهو يفكر.. وعلائم الندم تصبغ وجهه المترع بالإرهاق والمعاناة؟ كم كانت كلمات هذه السيدة الرّصينة وردّة فعلها الهادئة مقابل صلفه ذات وقع مؤلم لديه.. بما سبّبت له من صفةٍ موجعةٍ للضمير.. انسحب جازاً ولده وخجله باتجاه غرفة زوجه، مفضّلاً رغم شعوره هذا التمسك بموقفه الرافض بقوة.. لكن على الرغم من هذا.. كانت كفّ يده تضمّ وتقبض على ورقة السيدة بحرصٍ لا شعوري؟ حين اقترب من غرفة هادية التي يقيمون بها منذ أيام طويلة، انتابه فضولٌ في أن يدقّق في الغرفة المجاورة.. قبل أن تردعه رغبة الرفض القطعية لمجرد التفكير في الموضوع.

عندما وصل وفتح الباب، كان ثمة ما يدعوه للاعتقاد أن العرض المقدّم من المرأة مرّ من بوابة رضى هادية قبل أن يصله، هو ليس بارعاً في قراءة الأشخاص كثيراً، كما قال لأصحابه ذات اختبار.. غير أنه يكاد يجزم باعتقاده وشعوره هذا، أكّدت له ذلك نظرات عينيها المنطفئتين انكساراً، واللتين توارتا هاربتين خلف ألم مرضها ومعاناتها والخجل.. وإحساسه الذي تطورت خبراته في التقاط كل ما يتعلّق برفيقتة الجريحة، كانت فترة عشرين عاماً لسنوات كافيةً لكليهما لكي يفهما بعضهما دون كلام.. هي بالمقابل لم تجد صعوبةً في فهم ما جرى خلف الباب قبل أن يأتي ثابت، كانت تعلم أو تتوقّع أنه فهم.. لم يراجعها بهذا الموضوع مباشرةً... ربما أرجأه كي لا يسبّب ذلك توتراً لها، وهي أبعد ما تكون حاجةً إليه الآن.. أسعد استيقاظها لدى دخولهما الغرفة عثمان الذي تهلّل وجهه بين ذراعيها، فراح يدسّ جسده المحتاج لحنانها في فراشها، أخذ يضمّها بلهفة الجائع النهم، ويكمل ما تقطّع من نوم، بينما جلس ثابت على الأريكة الوحيدة الموجودة مقابل سريرها صامتاً.. ثم شاردًا.. فمستسلماً لقبضتي الإرهاق والنعاس الشديديتين.

استمرَّ قطار الزمن بنقله بغير إرادةٍ منه إلى الماضي، قاده هذه المرّة إلى المحطّة الأهم.. إلى عقر داره، مقترنًا بحلمٍ ممتدٍّ من حدود يقظته إلى أعماق نومه، مقدّمًا مشاهدته الواقعية على طبقٍ من وجعٍ وحنين.. ممتزجًا بالكثير من الأضغاث، حين يصطدم بما هو مؤلّمٌ منها.. تبدّث له صور الأهل والأقرباء وهم يتسامرون كعائلةٍ كبيرةٍ في مضافة البيت الكبير هناك.. يجتمعون على أحاديث الكبار.. وحكاياتهم الشيّقة الجميلة الممتلئة بالتوثيق لكل ماضٍ.. جميله وقبيحه..

والده هو أبو خالد الرجل الفارع الطول، معتدل البدن قويّة.. الصلب المقدّر بين كل أبناء القرية، بصوته الرجولي الأَجَش، صاحب الشنب الكثيف والبشرة السمراء.. في ملامحه القاسية، التي ما تزال تخفي شبابًا متوّبًا وقوّةً بدنيّةً، ما زال يتشبّث بأطرافها.. معتمراً الحطّة البيضاء والعقال.. كعادة أهل المنطقة.. دائماً هو من يتزعّم الجلسة، بما حباه الله من هيبةٍ ووقارٍ، وبحكم ذكورية البيئة أيضًا التي نصّبت زعيمًا لهذا الصرح الاجتماعي.. واتّكأها على العادات والتقاليد التي تجلُّ الكبار وأصحاب الحكمة والتجربة.. أبو خالد اعتبره الكثيرون تاريخًا يمشي على أرجل، وغالبية أهل القرية يحترمونه حتى الذين لا يحبونه منهم، لهذا الرجل الصلب مواقف لا تمّحي من ذاكرة الناس والأماكن هناك بما كتبه بسلوكه من تاريخٍ مشرفٍ تصف بكل ما هو مشرقٌ وإيجابيّ في عقول وضمائر وذاكرات الناس.. كم وكم وقف مع الكثيرين في أزمتهم، رغم أنه ليس من ميسوري الحال كثيرًا، فقد كان يبذل في حال عدم توفر المال الكثير من مواقف المروءة، يملك هذا الرجل في عيون الناس صورةً حيّةً لما يعتبرونه أنموذجًا طيبًا للرجولة.. من النخوة واللهفة، إلى الاعتداد بالكرامة والاعتزاز بالنفس، مرورًا بالشجاعة وحسن الضيافة... وقد

يكون موقفه المناهض للظلم بمجاهرة، ودون خوفٍ أو تردُّدٍ هو أهمُّ ما يميِّزه في عيون الآخرين ويقرِّبه من قلوبهم وضمائرهم.. يحب عائلته وأولاده حبًّا لا تقيسه مشاعر ولا تحدُّه آفاق، لكنه حبُّ أثر أن يبقى طيَّ الضلوع، تستره قسوة الطبع الموروثة والمكتسبة في آنٍ معًا، والاعتداد بالنفس، ومهابة أن تنتقص من رجولته في عيون الآخرين تلك المشاعر؟

أم خالد امرأةٌ قويَّةٌ وصارمة، ذات شبابٍ مفعم بالطاقة والجمال، زانها التقدُّم في العمر بهيئةٍ، عَوَّضت عن مقدار التجعُّدات التي بدأت تعلن عن نفسها في بشرة وجهها، تتسلَّح دائمًا بالأنفة والإرادة القوية وقوة الشكيمة.. هي قريبته من ذات العائلة.. ترتدي دائمًا زيًّا اعتادت نساء القرية الكبيرات ارتدائه أمًّا عن جدَّة، وهو عبارةٌ عن ثوبٍ أسود طويل، وغطاء رأسٍ له طريقتة الخاصة بالإحاطة بالرأس والعنق ممتدًّا إلى الصدر.. يرافق أجسادهن طوال اليوم، لا يخلعهن من النوم إلى النوم.. لقتَّها الحياة الريفية وخبرتها وعِشرة أبي خالد الكثير من الصلابة وقدرة السيطرة على الأحاسيس والمشاعر، رغم أمومتها الفياضة فإنها لا تخالف زوجها بقراراته التي يتَّخذها فيما يتعلق بوليد أو بنت، حتى لو بدا ذلك قاسيًّا، مع كل ما تحمله في داخلها من أموميةٍ مُترعةٍ بالرأفة والحنان، غير أنَّ فرحها العارم العصبي عن كل كتمانٍ عندما كانت تلد هي أو إحدى زوجات أولادها وأحيانًا بناتها صبيًّا... لم يكن ليخفى على أحد.. ما يزال يذكر ثابت كل حينٍ ما كرَّرت أمه أمامه كثيرًا، وبحضور العائلة والكثير من الأقارب والمعارف، عن التَّزيف الشديد الذي حصل لها أثناء وبعد ولادته، والذي كاد يودي بحياتها آنذاك.. طالما دعا ذلك والده للقول في حضور الكثيرين:

- لقد وُلدت يا ولدي برفقة الدماء؟

كان هذا مدعاةً للضحك والشعور بالطرافة عند الجميع.. إلا ثابت الذي كانت هذه الملحوظة دائماً ما تثير لديه الكثير من المشاعر الحزينة، والتي لا يعرف لها سبباً وجيهًا.. إلى ما قبل شهرٍ كان الأبوان يساندان ثابت بكل ما أوتيا من استطاعةٍ، إلا أن موارد العائلة المحدودة من الأرض قليلة المساحة.. مقارنةً بغيرهم من ملاكي القرية، واستحالة تفكير أبي خالد بيع ولو شبرٍ منها مهما كانت الظروف.. حرمة من الاستمرار بتلقي ذلك الدعم إلا ضمن حدود... طلب منه أبو خالد أن يحاول التوفيق بين العناية بعائلته، وإيجاد عملٍ يساعده في السيطرة على الوضع الطارئ.. ظَلَّت العواطف والكلمات المشجعة والأدعية تقوم مقام السفراء المتبقيين لهم لدى ثابت.. مثل معظم من تعاطف معه.. وأدَّى دوره عبر الهاتف؟

خالد الابن الكبير البار للعائلة، وسيم المحيّا كأخيه، طويل القامة قاسي الملامح بحكم البيئة، قوي البنية.. تميّزه عن أخيه الأصغر حالة الاستسلام المطلقة في حضرة أبيه فكراً وقولاً، يكبر خالد ثابت بثمانية أعوام، وُلِد للعائلة بينهما ثلاثة أولادٍ وثلاث بناتٍ، أكبرهنَّ خالدة.. لم يتسنَّ لخالد أن يكمل دراسته تحت ضغط الحاجة له في أعمال العائلة في الأرض والزراعة، أثر أن يلتحق بأبيه في الحقل منذُ رُشد، منذُ ذلك الحين لا يفارقه أبداً في السراء والضراء.. وخالد المحبوب الذي لا ينافسه على قلبَي الوالدين أحدٌ.. هو بالنسبة لثابت وكل العائلة مفتاح رضى الأبوين وقبولهما لأي شيءٍ، إذ يكفي أحدهم أن يستطيع إقناع خالد بأي أمرٍ، ليتأكد أن الأمر قد تمَّ أو يكاد..

وحدها كانت خالدة دوناً عن إخوتها وأخواتها الأخت والأم والصديقة الحنون لثابت، هذا دأبها مع الجميع، إلا أن لثابت وضعاً خاصاً لديها.. تظهره سيولٌ من لهفتها واهتمامها به أكثر من إخوته، لم يجد له أي تفسيرٍ

طوال حياته .. هو أيضًا لم يستطع يومًا أن يراها سوى بعين المحبة المطلقة .. واللهفة الصادقة .. كان وما زال يعتبرها دائمًا شاطئ المشاعر الآمن الذي يرمي بحمولته على رصيفه بلا حرج أو تكلفٍ كلما دعت الحاجة لذلك ... أو ألبَّجته الظروف إلى تفرغ ما يحمله على كاهله من هموم؟

خالدة أيضًا .. الأخت البدينة الخفيفة السَّمار القصيرة، ذات الوجه الطفولي الذي ينضح طيبةً.. متزوجةً من ابن عمها .. وتقطن مع عائلتها في بيتٍ متطرفٍ في القرية.

بيت العائلة الكبير الذي يضم الجميع وعائلاتهم كان تقليديًا، فُصل على أساس الغرف المبنية إلى جانب بعضها كسلسلة، وأمامها مطبخٌ كبيرٌ وحمامٌ مستقلان .. وقد بدا دومًا أن الجميع مقتنعٌ بهندسة معماره البسيط المكرر في الكثير من قرى سورية.. في الأعلى طابقٌ ثانٍ يضم نفس العدد من الغرف، لكنها أحدث وأكثر تماسكًا.. وهناك ساحةٌ كبيرةٌ أمام المنزل، زرع في أطرافها الشجر المثمر وأنواع الورود.. بينما كان الخلف ما بين حدود البناء وحدود المنزل.. ثريًا بالمزروعات المختلفة من خضار متنوعة وفاكهة..

يزدحم البيت دائمًا بضجيج الأولاد والأحفاد والبنات المتزوجات الزائرات في الداخل.. ومن الخارج تختلط أصوات الدجاج والبط الذي أخذ موقعه الدائم في قنٍّ في زاويةٍ من زوايا الحوش.. ويتشرب في النهار طليقًا بكل أرجاء المكان.. مع أصواتٍ تجاورها لبعض الأغنام والماعز... وليس بعيدًا عنها حظيرةٌ صغيرةٌ فيها بقرتان حلوتان.. وخلف البيت من الخارج تمتد أراضي العائلة بلونها البني الصاخب كحقولٍ مخططةٍ ربيعها أخضرٌ زاهٍ، وصيفها ذهبيٌّ بلون سنابل القمح والشعير، وشتاؤها محمَّرٌ بتريةٍ خصبةٍ معطاء.. تعيد كل عامٍ تجديد نضارتها على أسنان المحراث.. تزدحم

ذاكرة هذا المكان في عقل ووجدان ثابت بكل ما فيه من أوقات قضائها طفلاً ويافعاً.. حتى أن صياح الديك، أو ثغاء الماعز.. أو خوار البقر.. لها وقعٌ شجيٌّ في نفسه.. بما تربطه لا شعورياً بفترات حياته المختلفة.. ومراحل تطورها فيه.. وبما حملته نفسه ومشاعره من بقاياها حتى الساعة..

استيقظ من رحلته الاسترجاعية بطريقة مفاجئة اعتاد عليها مذ مرضت هادية، ربما بدافع القلق المزمن عليها وتوقعه للأسوأ دائماً، أو بسبب الحالة النفسية القلقة التي خلقتها تراكمات الظروف، نهض من مقعده، ألقى بناظره الحارسين صوبها، وجدها مستيقظة تغط في شروء عميق، أشار إليها بكأس الماء، فهزّت رأسها كإشارة رفض.. راسمة على شفيتها ما يشبه ابتسامة.. تقدّم إليها وجلس إلى جوارها على السرير، أخذ بيدها بكل دفء وحنان، قرّب رأسها إليه بذراعه الكبيرة بكل ما اختزن لها من ودّ وشفقة، وصلتها من خلال هذه الضمة رسالة تجديد ولأى ومساندة لم ولن تتوقّف، وربما طمأنة غير منطوقة لنفسها التي تناهبتها الأوجاع والهموم، إضافة إلى القلق المستمرّ خوفاً من سأم متوقّع يصيب ثابت من حالتها، تحوّل هذا الشعور عندها إلى هاجسٍ مزمن... في هذه الأثناء رنّ جرس الهاتف في الغرفة، قام ثابت ليردّ على المتصل... سمع صوت موظفة الاستقبال:

- مكالمة خارجية من حمص للسيد ثابت

أتاه صوت صاحبه كمال مختنقاً بعد طول غياب:

-السلام عليكم يا صديقي

-وعليكم السلام ورحمة الله.. أهلا كمال كيف حالك؟ اشتقت لصوتك

يا رجل.. أخبرني عنك وعن أحوالك يا صديقي

-أعتذر يا صاحبي كثيراً.. والله.. والله إنني...

كان كمال يقول هذه الكلمات بصوتٍ متهدّجٍ.. تسيطر عليه بكائيةٌ آلمت ثابت الذي قدّر حرج صاحبه فقاطعه:

- عمّ تعتذر يا كمال؟ أرجوك لا تفعل.. لقد كنت وما زلت أخي الذي لم تلده أُمِّي وقد فعلت ما بوسعك وأكثر بكثير.. فعلت ما لم يفعله أحدٌ.. حتى أقرب المقربين.. فقط لا تغب عني ولا تحرمني من أنس قربك.. فهو يعني لي الكثير.

- لن أفعل أبداً، لكنه الخجل فقط يا صاحبي.. ثم أرجوك لا تذكّرني كل مرّة.. أنا لم أفعل شيئاً يستحقّ ما تقول كيف حالها الآن؟ .
- بخير ولله الحمد... أشكرك..

- أود أن أمرّ وأطمئنّ عليكم.. فأنا قريبٌ.. وربما خلال اليومين القادمين سأكون في دمشق.. هل آتيك بشيءٍ تريده، أو ترغب به زوجة أخي؟ .
- أريد فقط رؤيتك بخيرٍ أخي الغالي.. لا عدمتُ قربك.

انتهت المكالمة بكلمات المجاملة والمعاذمة.. التي سرّته كثيراً ووجد فيها رفعا للمعنويات مهماً.. سكّن له بعض أوجاعه.. وشدّ له أزره المرتخي منذ أيام؟ عاد ثابت إلى أريكته، ليعاود اجترار ذكرياته، قبل أن يغطّ في غيبوبته المؤقتة، رأى وجوه مجموعة أصحابه وزملائه جميعهم.. تمرّ كشريط صورٍ مفعم بالتفاصيل، كلٌّ منها ينطق بحال صاحبها.. كان ثابت دائماً أُمير المجموعة، وأكثرهم نخوةً وشجاعةً وخبرةً في الحياة وحكمةً بما يفوق عمره، وأشغلهم حين يتطلّب الأمر قوةً ومهارة... ساعده في هذا طاقته البدنية الفطرية، وكرم نفسه، ولهفته الموروثة، وما اكتسبه من حياة الريف.. خصوصاً وأنه ابن أبي خالد المتميز بين أقرانه وأبناء بلدته.

بدأ يفنّد على طاولة تفكيره كلّاً منهم، كأنه يفتح ملفاً له منذ عرفه حتى هذه اللحظة، لكنّه توقّف طويلاً عند أهمّهم وأقربهم كمال.. هذا الصديق اللدود متوسط الطول النحيل، أبيض البشرة، الرّصين الهادئ، ذو الشعر الطويل، بتسريحته المتفرّدة، ولباسه الأنيق ورائحة عطره المعروفة للجميع.. هو صاحب صوتٍ رقيقٍ، يجمع في حديثه كل ما يملك من لباقةٍ وودٍّ ووجهٍ ناعمٍ بملامحه الطفولية.. طريقة لباسه مميّزةٌ يستقيها دائماً من أحدث (الموضات) التي يحبُّ أن يتابعها ويهتم بها كثافةٍ مهمّة.. بخلاف الكثيرين من أمثال ثابت.. كمال ابن المدينة الوسطى حمص.. والذي يقيم مع أهله في بيتٍ قديمٍ جميلٍ واسعٍ، يملك أهله بيتاً في حلب أيضاً، استثمره في فترة دراسته، أقام فيه طوال وجوده هناك وحيداً مع بعض زياراتٍ قامت بها العائلة، كثيراً ما استضاف ثابت وعائلته فيه..

ما كان هذا الكمال بهذه المواصفات الشكلية أصلاً من الذين تستهوي العلاقة بهم ثابت الجادّ القروي الرّصين لدرجة الصلف والقسوة أحياناً، تعرّف عليه في السّنة الأولى من الدراسة الجامعية.. كان حينها مجرد زميلٍ له في كلية التجارة والاقتصاد، لا تتعدّى العلاقة به حدود التحيّة والسلام، وربما الاجتماع مصادفةً ضمن أروقة الكلية..

معظم من أثر صحبتهم ثابت في تلك الفترة من أبناء الريف، وقد تأصّلت في النفوس آنذاك مسألة الفرق بين ابن الريف وابن المدينة، وبدأ أن كلّاً منهما يميّز نفسه وينزهّها عن التشبّه بالآخر، وقد بدأ بعض أهل الأرياف في عهد البعث، وخصوصاً في عهد الرئيسين الأب والابن يعلو صوتهم ويتجلّى تمرّدهم على أهل المدن الكبيرة أكثر بحكم انتماء العائلة الحاكمة والكثير من المسؤولين لها.. مفهوم الحزب قام على هدم الفوارق الطبقيّة نظرياً،

واعتمد كثيرًا على أبناء الأرياف في تبنيّه كحزب جماهيري.. غير أن هذا أيضًا كان له درجاتٌ، تحكمها مسافة قرب الريف من الساحل والطبقة الأكثر ولاءً للنظام، ثم المسؤولين المرافقين أو المتنفذين في سلكٍ من إحدى وزارات الدولة بدرجةٍ ثانيةٍ وثالثة... وهكذا؟..

كان من الطبيعي أن يرى الجميع ويلاحظ التكتلات واضحةً، خلال وبعد ساعات الدراسة وفي السكن الخاص والجامعي وإن لم تكن تُسفر عن وجهها بفجاجة ظاهرة ومكشوفة.. لكنّ الجميع بشكلٍ أو بآخر كان يلاحظها ولا يعترض عليها، ربما بحكم أنها ناسبت بعض الأطراف، وفرضت نفسها على البعض الآخر كأمرٍ واقعٍ معتادٍ.. خلال تواصله المستمرّ مع أبناء قريته والقرى الأخرى في الجامعة.. رأى ثابت في هذا الشاب الغريب شكلاً كمال مثلاً حيّاً لآل المدينة ثقل الحضور ومائع السلوك، كان هذا الشيء الذي يشعر به ينطبق على أصدقاء كمال والمقرّبين منه أيضًا.. استمرّ ذلك الانطباع لديهيحتى تبدّلت حياة ثابت وظروفه بمرض هادية.. فوجئ بوقفه هذا الشاب معه في محنته حين عرف بمشكلته، انطلاقاً من استقبالهما معاً في بيت أهله الذي يقيم فيه بحلب أثناء مراحل العلاج الأولى.. وحتى مرحلة السفر معه إلى دمشق، ودعمه بالمال والمعنويات دونما مقابلٍ أو انتظارٍ لردٍّ أو لمصلحة.. ثابت يعلم أنه لم يقدّم لزميله هذا ما يدعو له هذه الوقفة المستمرة المشرفة، حتى ولو عن طريق مجاملةٍ واحدة، باستثناء إلقاء التحية بين حين وآخر، واجتماعه به بالقليل من الجلسات الجماعية في الجامعة، وبعض المساعدات في مجال الدراسة من إعارة مرجعٍ أو دفترٍ، وهذه بحدّ ذاتها لم تكن موجهةً خصيصاً له.. لكن كمال فعل هذا بكل إخلاصٍ ومثابرة.. إلى أن أحسّ الشاب بالعجز وقلة الحيلة، فتوقّف دعمه واختفى غير متعمّد.. أهمّ

ما في الأمر أنه لم يكن بمنّ بآية خدمةٍ يُقدّمها لصديقه، بل كان يُخفي ما فعل عن الجميع، بعكس ثابت الذي كان دائماً يتغنّى بالحديث عن عطاءات صاحبه، وكريم خلقه.. تسمّر المشهد هنا أمام ناظريه، وظهرت على شفاه ثابت ابتسامةٌ عريضةٌ تضحُّ بالتعجّب والإعجاب والعرفان:

- من كان يصدّق أنك يا كمال ستكون رجل الساعة؟ .

قالها لنفسه ممتناً، فما فعله كمال بعد كل ما كان يحتفظ به ثابت له من مشاعر سلبيةٍ غير مخفيةٍ في البدء.. كان مبهراً ومفاجئاً بالنسبة لثابت حدّ التشكُّك في بداية الأمر.. لكنه مع استمرار عطاء هذا الزميل وزيادة الاختلاط معه، تحول كمال وبقوةٍ في وجدان ثابت إلى أنموذجٍ مميزٍ للصُّحبة الصادقة الطيبة، وكأنّ ثالث المستحيلات تجلّى واقعاً ممكناً في شخص الخلّ الوفي كمال؟

قاطع انهماكه في تذكّر الماضي ومحاكمة الحاضر صوت هادية الهادئ وهي تحاول بعد كثير تردّد أن تستدرجه للحديث عن عرض السيدة الذي راق لها، وجدت فيه حلاً معقولاً وحبل نجاةٍ لها وله، ولأنّها المسكينة الخجول التي تخشى ردود أفعاله، وحيث أنها تعرفه جيداً، كان سهلاً عليها أن تخمّن بم يفكر.. وكيف.. لكنها مع ذلك وضعت لنفسها مساحةً من الأمل لإقناعه بالفكرة بهدوء:

- هل التقيت بالسيدة ماري؟

وهي تحاول أن تستر تراكمات همومها وضعفها بمسحة راحةٍ مفتعلة؟

أجاب بلا مبالاةٍ متصنّعةٍ أيضاً:

- من ماري هذه؟

- ابنة العجوز المريضة في الغرفة المجاورة

- نعم.. التقيتها.. وأنت تسألين سؤال العارف، وتعلمين ما يمكن أن يكون ردِّي على مثل هذا.. أليس كذلك؟
- نعم أعلم وقد قلت لها ذلك.. ولكن.....
- ولكن ماذا؟

قالها بنبرة حادة وبصوتٍ غاضبٍ مكتوم.. وقد بدأت عضلات وجهه بالتشنُّج تمهيداً لانفَاضٍ متوقَّعةٍ لم يستطع تأخيرها.. ولم يسيطر على تضخُّمها في قرارة نفسه؟

عاجلته المسكينة بأسلوبٍ هاديٍّ يحاول أن يمتصَّ ثورته قبل حدوث انفجارها:

- أقترح مجرد اقتراح.. أن تفكِّر بالموضوع بهدوءٍ ودون غضبٍ.. فما وجدتُ في العرض ما يسيء لنا، أو ينتقص من كرامتنا.. أليس عملاً شريفاً معقولاً كغيره؟

دون أن تنظر إليه.. منعاً لأي ارتباكٍ قد تسبَّبه نظراته المستنكرة المتذرِّمة، تابعت بصوتٍ رافقته بكائيةٌ حارقة.. أوضحت لهفتها باستعجال إيصال ما تريد، قبل أن ترغمها هيبة ثابت وغضبته على التوقُّف عن الحديث:

- أعلم كم تعاني، وكم قدَّمت لي خلال هذه المدة.. والله إنني أحسُّ بك أكثر من إحساسي بمرضِي، وقد بلغ الأمر حدًّا مرهقاً لا يمكن الاستمرار بهدون بعض التنازلات يا أبا عثمان.. وهنا بصراحة.. وأرجو ألا تغضب مني أرجوك.. لا أرى في هذا الأمر تنازلاً كبيراً مذكلاً - لا سمح الله -.. وكما ترى.....

قاطعها ثابت بنبرة صارمةٍ لا تقبل الحوار أو المعارضة.. حاسماً الأمر برمته:

- أنا لم أشكُ لك قط، ولن أفعل.. فُضي الأمر وقلتُ للسيدة ما يجب أن يقال.. سنغادر قريباً إلى حلب.. أرجو إن شئتُ فعلاً عدم إغضابي ألا تحدَّثيني بالأمر مرةً أخرى.. فهل تقبلين أنت رجائي.. وتفعلين؟

صمتت هادية صمت المستكين اليأس، أبدى وجهها المصفرُّ المريض الذي اغتسل بالدموع المنقوعة بالحزن ما لا يخفى على ناظرٍ من الألم والقنوط، اكتفت بالنظر إليه بأسى، هزّت برأسها مبديةً علامة القبول.. غادر ثابت الغرفة حائرًا متوترًا، انزوى في منطقة هادئة قليلة الإشغال، أمسك برأسه المتصدع بكلتا يديه كأنما يريد أن يثبت دماغه كيلا يغادر محلّه.. ظلّ يحاول تهدئة أنفاسه المتسارعة ويستجمع شتاته..

قبل سبع سنوات تقريبًا من هذا اليوم.. كان ثابت ووالداه وأخوه الأكبر خالد سائرين مساءً إلى بيت أهلها في القرية... الجميع ما عدا العريس تكسو وجوههم البسمات ومشاعر الفخر والفرح.. أرسل أبو خالد مبعوثًا له في الليلة السابقة إلى والد هادية، يجسُّ بها نبض قبوله لمصاهرته، بعد تبيت النية بينه وبين أم خالد وبعض أفراد العائلة من الكبار.. ما كان ليهدى سعادته لمخلوق حين أتاه ردُّ بليغٍ مبهرٍ، يدعوه للزهو أمام عائلته الكبيرة والأقارب والمعارف.. قال يومها أبو هادية لمبعوث أبي خالد:

- نسب أبي خالد يشرف الجميع، ولو لم يأت مصاهرًا لذهبنا إليه متقرّبين. ظلّت هذه الكلمات الكبيرة والمؤثرة رفيقة أبي خالد في طريق الليلة نحو بيت الأنساب الجدد، مكرّرًا إياها، متباهيًا بها، ظلّ كذلك أيضًا بعدها لسنوات طوال..

وحده كان الشاب الصغير ثابت ساهمًا ومتقبضًا.. ولو خيّر حتى إلى ما قبل قرع بابهم، لما تردّد أبدًا بالتراجع والهروب، ثمّ استقبلهم يومها استقبال الفاتحين، وإكرامهم إكرام حجيح عادوا للتو من الديار المقدسة، كان ردُّ الوالد على طلب يدها بكل ثقة وحماسة:

- هي لكم.. ابتكم.. وليس لنا منها شيء، فقد حذفناها من سجل العائلة.. نقدّمها لكم هديةً لتنضمّ إلى عائلتكم فخورةً، ونحن معها فخورون بنسبكم المشرف.. ولنا فضل الارتباط بدون تردّدٍ أو رجعة.

قدّر يومها ثابت كما فعل أهله هذا الموقف العظيم من حماه المستقبلي، وهو يعلم أنها أقوال نخوة تُقال في مجالس القبائل عادةً، حين يكون المناخ السائد هو المحبة والثقة بين الطرفين... تحمل هذه العبارات الكثير من المبالغة المشروعة في معظم الأحيان.. لكنّه أبدًا لم يتخيل أن والد هادية كان جادًا في ما قال إلى هذه الدرجة؟

أخرجته فجأةً من هذه الأفكار المتعبة ضجّةً وصل صداها إلى أسماعه، مصدرها قريبٌ من جهة غرفة زوجه.. هبّ راكضًا باتجاهها، وجد حركةً غير عادية في الغرفة وتجمّعًا من الأطباء والممرضات حول سريرها.. عاجله من الداخل بكاء عثمان وهلع، وهو يراقب تدخّل الكادر الطبي لتهديّة هادية التي ظهر عليها اضطرابات مفاجئة استدعت التدخّل العاجل، واستدعاء الطبيب المختص.. سارع إلى احتضان ولده وتهديّة روعه، وقف مرتبكا ومتألّمًا لألمها، وأخذ يحفّزهم للتصرّف بسرعة..

زاد من حزنه حينها شعوره بأن حالتها النفسية التي سبّبها هو قبل قليل كانت المحرّض الأكبر لما حصل، وآلمه أكثر أنه قد يكون سببًا لتطوّر سيّء يحصل لها، بعد أن ظلّ طويلًا رفيقها وسندها الوحيد؟

وصل الطبيب المشرف على حالتها مسرعًا، طلب بعد معاينتها نقلها إلى غرفة العناية المشدّدة على الفور، مما سبّب المزيد من القلق لثابت.. أثناء نقلها كان ثابت يجري ولسان روحه يلهج بالدعاء لربّه أن ينقذها من هذه الأزمة كما فعل في أزمتها السابقة؟

اقترب من ثابت في هذه اللحظة بشكل غير متوقَّع وتوقَّعت غريب، موظَّفٌ من موظفي المشفى، طلب أن يختلي به قليلاً عندما يكون جاهزاً في مكتب الإدارة، حاول ثابت أن يماطل كي يطمئنَّ على هادية، تفهَّم ذلك الموظف حرج الموقف، وأخبره بأنهم ينتظرونه حينما يكون مستعداً لذلك. بدأت حالتها بالاستقرار، وقد أعطيت من الأدوية ما أعاد لها نبضها وضغط دمها إلى طبيعته، راحت تغطُّ في نوم عميق، اطمأنَّ ثابت، وأمنَّ لولده من يعتني به في غيابه، واتَّجه إلى مكاتب الإدارة في الطابق السفلي من المبنى..

حينما وصل وجدهم يحيونه ويتسمون له، ويقدمون له ببعض المجاملات الجافَّة التي شعر بها خاليةً من الصدق، ويلقون أمامه بضع أدعية بشفاء المريضة.. لكنَّ كل هذا لم يشعره بأي راحةٍ في حقيقة الأمر؟ شعر بأنَّ خازوقاً يُعدُّ له هنا، فقد أصبح ذا خبرةٍ خلال المدة الطويلة من الإقامة في المشافي والمصحات.. على كثرة ما تعرَّض لمثل هذا الموقف، وهو في قرارة نفسه يتوقَّع موضوع الحديث..

صفعوه بفاتورة تكاليف المشفى التي زادت عن الحدِّ المسموح به دون تسديد، يا لها من فاتورةٍ لم تكن بمستوى توقُّعاته أبداً.. كان يُفترض أن يدفعها منذ مدة.. طلبوا منه أن يدفع حالاً مبلغاً لا يقلُّ عن خمسةٍ وعشرين ألفاً من الليرات خلال ساعاتٍ قادمةٍ وإلا...

هو لا يملك منها الساعة ألفاً، وليس في جعبة مخططاته وتدبيره مصدراً للحصول على قيمتها.. فماذا يفعل؟ وإلى من يتوجَّه؟.. لقد صدمه المبلغ حدَّ فقدان الرُّشد؟

عُصَّةٌ كبيرةٌ في حلقه منعتة حتى من الرَّد، ونظرة ألمٍ وانكسارٍ سبقت دمتين أحرَّ من شمس آب الذي أُرخت الفاتورة بمنتصفه.. الخامس عشر

من آب ٢٠١٠... في هذا التاريخ المشؤوم خرج المصدوم من باب المشفى هائماً على وجهه، لا يعرف إلى أين، ولمن يشكو أمره، كيف يداري عجزه، كل ما أحسَّ به لحظتها أن الشام بكبر مساحتها، ضاقت عليه بما رحبت، وأن عليه ألا يتوقَّف عن السير، حتى لا تتعطلَّ آمال الحل في عقله الذي أخذ يعمل بسرعة الحاسوب، لعلَّه يحظى بوميض فكرة تنقذه من هذا الحرج الخطير.. استعرض كل من عرف ويعرف، منذ ولدته أمه.. حلَّ فيه شعورٌ عارمٌ بالنقمة.. لا يدري على من، راحت قدماه تتقاذفانه بلا هديٍّ في كل اتجاه.. استجمع ما بقي من شتات قواه وعقله، وبعد طول محاكمةٍ وتفكيرٍ.. قرَّر أن يلجأ لما فرَّ منه طويلاً.. الخيار الأسوأ.. وهو أن يتصل بعمِّه الوحيد أبو مصطفى أو (أبو صطيف) كما اعتاد الكلُّ أن يدعوه في القرية، وهو الأخ الأصغر لأبيه، والذي يناقضه طبعاً وخلقاً..

لم يسبقُ لثابت أن طلب من عمِّه هذا أيَّ شيءٍ، ولا فعل إخوته ذلك، ولا حتى أبوه، بسبب مواقف قديمةٍ سببها نزاعٌ عائليٌّ، مردُّه ميراث الجدِّ وخلافٌ على أراضٍ متفرِّقةٍ وبيتٍ قديمٍ.. كان النزاع فيما يتذكَّر الجميع قوياً وطويل الأمد.. انتهى الخلاف وعادت المياه بحكم الزمن إلى مجاريها، وزادت توثيقاً بالمصاهرة، إذ تزوَّج ابن عمه مصطفى من خالدة فيما بعد.. كان هذا الزواج ضماناً لاستقرار المودة.. وتواصل العلاقات.. لكن.. مع هذا بقيت العلاقة بينهما ضمن حدودٍ ضيقةٍ، لا تسمح بتنازل أحد الطرفين بالتعاطي مثلاً مع الطرف الآخر مادياً، ولو حتى عن طريق السلف..

يجد نفسه صاغرةً لهذا الأمر تحت ضغط الحاجة الملحة، حتى أنَّه فكَّر في عدم إخبار والده بذلك، وأن يُبقي الأمر سرّاً، لعلَّه اليقيني أنه لن يوافقه على هذا التصرف.. بل وبالتأكيد كما كان يخشى، سيكون هذا سبباً

لغضب أبي خالد كثيرًا، وهو الحريص دومًا على عدم إغضاب والديه.. فما يعتبره الأب المتشرب حدَّ الإشباع للأنفة وعزّة النفس تنازلًا مذلًا كهذا الذي يحصل الآن.. لا يمكن لأي أمرٍ حتى لو وصل للموت أن يبيحه.. في خَصَمَّ كل هذه التوتّرات الداخلية التي يعاني منها، لم يتوقّف ثابت لحظةً عن التفكير في إمكانية أن يخلّده عمه، وربما أن يوجّه له عمداً ما يسيء من الرّدّ مستثمرًا هذه الفرصة.. لكنه رغم هذا، قرّر بحكم الضرورة أن يخنق حرجه، ويخدر بعض كرامته للحظات، ويقوم بهذه المجازفة.. وقف في ناصية رصيف، تحت ظلّ شجرة، يتصبّب عرقاً ربما بسبب الحرج أكثر من الحرّ الشديد.. أخرج جوّاله وطلب عمّه على الخطّ لأرضي للمنزل؟

فعلها أخيراً بعد طول تفكيرٍ وتردّدٍ.. سلّم على ابن عمه الأصغر الذي ردّ وحولّه إلى عمه.. وهو ينتظر مغتسلًا بالحرج والارتباك.. حتى أنه كاد أن يغلق الخطّ أكثر من مرّة، والثواني تمرُّ بطيئةً ثقيلةً.. بدا ثابت متوتّرًا ومتعثرٌ الحروف، وهو يقدم ويمهّد ويتردّد.. حتى صرّح بطلبه سلفه من العم.. مبلغًا وقدره ثلاثون ألف ليرة.. طلبها بلهجة متكسّرة خجولٍ فيها بعض التذلل، لم يعتدّ عليها قطّ، انتظر صامتًا وقلقًا بعدها طويلاً..

صمت العم..... وأطال السكوت... حتى ظنّ ثابت أن الخطّ انقطع، إلى أن نطق بما هو أمضى من الطعن على قلب ثابت:

- يا بن أخي العزيز لا تغضب مني.. أمضيت عمري لم أستلف ولم أسلف، حتى لولدي، وأنت تعلم ما كان بيننا من خلافاتٍ، نحمد الله أنها انتهت على خيرٍ وسلام، فلا أريد أن تكون أنت سببًا لخلافاتٍ جديدة.. أنت في الحقيقة تعتبر مثل أولادي، لا أفرّقك عنهم أبدًا.. لكن لديك مشكلة في موضوع إمكانية التسديد.. ما أعلمه أنه لا قدرة لك على ردّ المبلغ إن سلّفتك إياه..

ومن أين لك ذلك ما لم يتعهّد والدك؟ .. فهل يقبل بهذا؟ أنظريا ولدي.. يعلم الله أننا جميعاً نتعاطف معكوم مع زوجك، ندعو لكم جميعاً.. ولكن.....

لم يستطع ثابت.. الذي بدا وكأنه رغم أنف آب اللهب قد تعرّض لشلال ماء بارد في ليلة من ليالي كانون.. أن يكمل سماع باقي الديباجة الثقيلة الفاتلة، وشعر بغصّة حارقة، وحالة اختناق.. صارع كثيراً خيبة أمله ثم غصّته، واختصر الحديث مقاطعاً بالشكر المغمّس بالوجع والحسرة على نفسه التي عرّضها لهذا الموقف اللئيم.. ثم أنهاه بالسّلام المختصر، أغلق الخطّ ومضى لاهثاً مرتعشاً متعرّفاً.. كخارج من حلبة مصارعة.

- يا إلهي ما أقسى شعور الخذلان ومسّ الكرامة.. ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً..

كان لسان حاله يقول هذا.. أما هيئته فقد كانت تصرّح بكّم القنوط والذلة التي سربلتها من رأسه حتى أخمص قدميه، اختزل كل هذا المشهد وجهه الأصفر الممتقع..

بينما كان يتسحب مسحوقاً إلى داخل المشفى ماراً بجانب قسم الاستقبال، طلب منه الموظّف أن يراجع القسم المالي في الإدارة لأمرٍ عاجل؟ أثاره هذا الطلب من جديد، ذهب باتجاه مقرّ الإدارة محتقناً بثورة من المشاعر، جمعت مزيجاً منها لا يكاد يجتمع في نفس امرئ.. إلا بمثل حالته البائسة:

- ألا يستطيعون أن يتحمّلوا بعض الوقت؟ بئس الناس هم..

قرّر أن يردّ عليهم ردّاً قاسياً، فيما لو عادوا وألحوا في طلب النقود.

عندما اقترب من الموظف المسؤول، فاجأه وبادره مبتسماً بكل لطفٍ وودّ.. سلّمه ورقة وقال له:

- تفضّل أخي الكريم هذا سند قبضٍ بالمبلغ.. شكرًا لتسديدكم السريع،
نكرّرُ اعتذارنا عن الإلحاح بالطلب؟

تحنّط وجه ثابت لثوانٍ ذهولًا، ثم قرأ ليجد أن المبلغ المسدّد : خمسون
ألف ليرةٍ من حساب المريضة هادية؟ سأله ثابت مستغربًا:
- من سدّد المبلغ؟ .

- سيدةٌ وزوجها ومعهما طفلةٌ صغيرةٌ.. أتوا إلينا بعد خروجك بقليلٍ..
وأحسب فيما أذكر أن لهم مريضةً كبيرةً في السن هنا في المشفى؟
أدرك ثابت من فوره من هي السيدة المقصودة.. لأوّل مرة يشعر أن
ردّة فعله أشكلت عليه.. لم يدر.. أفرحُ بفرجٍ غير متوقّع الحدوث هي، أم
استنكارٌ وغضب؟

اتجه مسرعًا إلى غرفة العناية أولاً للاطمئنان على وضع زوجته، حائرًا
فيما يفعل مع السيدة الكريمة وعائلتها.. كيف يستدرك هذا الموقف
الصعب؟.. قيل له في قسم العناية أن وضع زوجته جيّد الآن في طور التحسّن،
وأن لا خطورة بحالتها، أعيدت إلى غرفتها، ولم يكّد يصل إليها.. حتى وجد
السيدة ماري وزوجها وطفلتها يسبقونه إلى الباب، يهْمُون بالدُخول لزيارة
المريضة، والاطمئنان على صحتها...

سارعت ماري.. متجاهلةً الموضوع.. تريد تقديم عائلتها له، قاطعها وقد
بدا على محيّا الارتباك والكثير من الخجل:

- أشكرك على دفع الفاتورة، ولكنّ فلتسمحي لي...

قبل أن يكمل جملته ردّت:

- اعتبرها هدية الشفاء إن شاء الله.. لا أعتقد أنك تفكر برّد الهدية..

كان التذمُّر والهرج لديه واضحًا، والخجل يتقطَّر مع حبات عرقٍ باردة، تساقطت من جبينه على خدَّيه، ورغم ما أبدى من التصميم.. لكنه راضحًا اضطرَّ للقبول موجَّهاً خطابه لها:

- أرجوك قد أقبلها كسلفةٍ، لكن بشرط أن تسمح لي بردِّها حين يتسنَّى لي ذلك، وأوفِّق في الحصول عليها.

وافقت المرأة.. ربما بدافع استيعابه وتمير الموقف، تبادل بعدها مع عائلة ماري بعض المجاملات أخرجته قليلًا من سطوة ما ألمَّ به من مشاعر متقلِّبة مؤلمة، وتبادلا التمنّيات بالشِّفاء للمرضى..

خرجت ماري وعائلتها معه من غرفة هادية، كانت ما تزال المسكينة تغطُّ في نوم عميق، ثم غادرت مودعةً... أخبرته بأنها على موعدٍ مع الطبيب المشرف على والدتها، وأنهم يصدد إخراجها اليوم من المشفى، كما أنها أبلغته بأنها جاءت تطمئن على هادية قبل ذلك، والدتها رفضت أن تخرج قبل أن ترى هادية أيضًا وتودِّعها... وقد وعدتها ابنتها بذلك.. مضت ساعتان من الوقت قبل أن تبدأ هادية بالاستيقاظ، واستشعار ما حولها.. اطمأنَّ عليها ثابت وعثمان، وأحاطاها بكل رعاية وحنان.. أبلغاها بقرب قدوم السيدة العجوز لزيارتها قبل مغادرتها المشفى، بُعيد هذا بقليل طُرق الباب طرْفًا ناعمًا، دخلت العجوز.. كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يراها ثابت..

خلف واجهة وجهها المتجعِّدة البيضاء التي تكسوها ندب الهرم، وتحت شعرها الفضِّي الأشيب، وفي انحناء جذعها.. يختبئ صبيٌّ متدفِّق جميلٌ، وحيويةٌ توشك أن تصرِّح عن نفسها رغم رقادها تحت وطأة السنين، والمرض، ورغم مشيتها الممتدة الرصينة التي تغالب الإرهاق والمرض، وانحناء ظهرها التي كورتها.. وقلَّت من حجمها..

أحسّ ثابت أن هذه العجوز السبعينية كائنةً من إنسانيةٍ خالصةٍ.. في نظرات عينيها المتوقّدتين رغم الوجود حكاياتٌ متراكمةٌ.. تحكي لناظرها عن الخبرة في الحياة والهدوء والرقّي والأصالة والكثير من الطيبة..

ألقت التحيّة وتوجّهت إلى سرير هادية، أخذت بيدها بكل مودّة، دعت لها واستودعتها.. حفّزتها بكلماتٍ دافئةٍ لطيفة.. من الواضح أن العجوز قد أحبّتها حبًّا صادقًا كبيرًا، وهي تتعاطف مع حالتها بقوة.. الودّ الذي انثال من بين رقيق همسها، ودعاؤها لها.. يشيان بذلك، بل أكّد ذلك هذا الشعور بالفقد الذي بدا في كلمات وداعها أيضًا..

طلبت السيدة الكبيرة من هادية وزوجها أن يزوراها مع الصغير في بيتها، عندما يغادران المشفى، وأن يتصل ثابت بها كل حينٍ.. ليطمئنّها عن صحة هادية.. وهما بدورهما شكرها وتمنّيا لها الشفاء، ووعداها بأنهما سيفعلان، وسيزورانها.. لو أمكنهما ذلك قريبًا.

خرجت بعدها من الغرفة، تبعها ثابت ليجد الجميع من عائلة ماري في الخارج بانتظار السيدة، وقد طلبوا منها أن تجلس على كرسيٍّ متحركٍ، وهي بكل أنفةٍ وتحّد لحالتها تأبى وتشاكس.. حتى استسلمت أخيرًا، توجّهوا جميعا مغادرين..

بعد ابتعادهم قليلًا، استدارت السيدة ماري لتقول لثابت بشيءٍ من الثّقة وكثيرٍ من المودّة:

- ليتك تعيد النظر في عرضنا، وأنا بانتظار اتصالٍ منك..

لم يبدُ من الرجل سوى ابتسامةٍ باهتةٍ، وهزّة رأسٍ مثقلةٍ بالكثير مما يود إخفاءه عن عيون محدّثته.. عاد إلى المسكينة يحاول شدّ أزرها والترتيب

على مواجهها، وإلى المسكين الصغير التائه بين مستلزمات طفولته المكبوتة في غرف المشافي، المتألم على أمه وهو يراها بهذه الحال.. أخذ يضمُّه ويشجِّعه، ويحاول بما أوتي من عطفٍ أن يدسَّ بعض ابتسامةٍ بين شفتيه المحترقتين بملح الحرمان..

تذكّر في هذه اللحظات بدون إرادةٍ منه أو بحثٍ يوم ولادة عثمان، كيف ابتهجت العائلة الكبيرة، وبقيت مضافة أبي خالد تجمع العائلة على بساط الاحتفاء يومها حتى الصباح.. الشيء بالشيء يُذكر... يومها حدث أبو خالد أولاده وبناته وأصهاره عن بعض ماضيه العامر بسير الكفاح والمشقة والمعاناة.. حدّثهم ليلتها عن واحدةٍ من أصعب فترات عمره، يوم مولد بكره خالد.. أثناء خدمته العسكرية.. كان يخدم في وسط سورية في أحد أرياف حمص الشرقية، وكانت الأمور لا تجري معه مجرّى حسناً، أخبرهم كيف اضطرَّ للهرب من الخدمة ولو لليلةٍ واحدةٍ، عندما تناهى إلى سمعه من أحد زملائه.. وكان عائداً من القرية نفسها بعد قضاء إجازةٍ له.. أن زوجته أم خالد أنجبت ولده البكر خالد، خصوصاً أنها كانت شبه وحيدةٍ في تلك الأيام، بحكم وجود أهلها في منطقةٍ ثانيةٍ بعيدة..

طلب من الضابط المسؤول إجازةً مؤقتةً فرفض، بل عنّفه، مما وتّر أبا خالد حينها وأغضبه.. أخرجه عن آداب الالتزام العسكرية بحضرة القائد، وكاد أن يتسبّب لنفسه بالتحويل إلى الشرطة العسكرية أو فرع المخابرات العسكرية.. لأنه ألحّ في طلب الإجازة متلفّظاً بالكثير مما لا يجروء أحدٌ على مجرد التفكير فيه.. بجرأته قديمة العهد، لمّح للقائد عن أبناء جلدته ومنطقته، وعن أبناء الأثرياء والميسورين الذين لا يكاد يراهم أحدٌ في الخدمة.. سوى في أيام بين الشهور، كان الدافع لديه أقوى حتى من رهبة

القائد والدولة برمتها.. تقياً يومها بعض ما يسبب له عسر الهضم والفهم لما يجري حوله.. يقول أبو خالد:

- كان خروجي لليلة واحدة من أجل عائلتي.. رغم امتناعه عن إعطائي إجازة.. هي من حقّي.. يعني للقائد تسليم الجولان والقدس وسيناء للعدو، وخيانة عظمى للوطن وللأمة، بينما كان التقاعس الجماعي والمحسوبيات، وعدم التدريب بكفاءة.. وتغييب الولاء للوطن وللعقيدة، والسرقة والواسطة والفساد والرشوة والمحابة بعرفه... بطولات.. قد تؤدّي إلى تحرير الأقصى واستعادة الأندلس..

من يومها بدأت رحلة أبي خالد مع المعارضة والاحتجاج.. حتى وصلت به الأمور إلى زيارة سجن (القابون) العسكري، منذ ذلك الوقت بدأ بالتدوين في سجل ذكريات قاتمة زيارته المتعددة لفروع الاستخبارات العسكرية وتعرّضه لكل فنون التعذيب الجسدي والنفسي.. يمضي بالحديث عن سورية قبل وصول حزب البعث إلى السلطة، كيف أصبحت وما آلت إليه أمورها، الأمر الذي بالطبع لم يكن يسهب في الحديث فيهمسوى لأهله وبعض الخاصة من الأقرباء والأصدقاء:

- تخيلوا أن بلداً كانت تنافس ألمانيا وإيطاليا واليابان نهوضاً وتطوراً علمياً وعمرانياً وثقافياً في خمسينيات القرن الماضي.. تتحوّل إلى دولة متخلّفة، بل وتابعة فقيرة في بدايات القرن الجديد.. وإن شئت مرجعوا إلى قلب التاريخ.. من كان يصدّق أن آلاف الأعمام من الحضارة تُسفر عن كلّ هذا التخلّف؟.. لا بد أن هذا خضع للتخطيط له بعناية..

تلك مقولة لم ينسها ثابت عن أبيه، كما لم ينس أبداً مقولته التي كانت تنتهي إلى مسامعه كلما دعا الغضب والقهر أبا خالد إلى ذكرها.. مما آلت

إليه أوضاع البلاد والعباد.. مؤملاً السامعين بيومٍ تتغيّر فيه الأحوال.. بلهجة الوثائق المتحدّية:

- الباطل أعرج مآله السقوط الحتمي.. ولو ساندته القوى، والحقُّ ثابت الخطى ولو كان يمشي على رمال متحرّكة؟

غير أنه كان يُتبع هذا بالتذكير بأن حال الناس البائسة اليوم.. والمتفكّكة ارتباطاً والمتردّية أخلاقاً.. لا تبشّر بإمكانية التغيير المرتقب هذا عمّا قريب، كما يؤكّد على استفحال قبضة النظام الفاشي وسطوته التي قطعت أنفاس أيّ رجاءٍ قريب.. وكدأبه كان لا يفوّت فرصةً سانحةً لا يذكر فيها مرّات اعتقاله، وكم تعرّض للمضايقة والتهديد في معتقلات النظام.. قبل أن تضطرّه الظروف القاسية المتعاقبة، وحرصه على البيت والعائلة والأولاد، للانحناء قليلاً في وجه العواصف..

مضت أيامٌ أخرى في المشفى من المعاناة والانتظار، قبل أن يخبر طبيب هادية المختص ثابت أن وضع زوجته مستقرٌّ، وأنه ينصح بخروجها من المشفى، على أن تبقى قريبةً في الجوار للسيطرة على أيّ نكسٍ محتمل، فوضعها قابلاً لذلك في أيّ وقتٍ.. كما أنه أكّد له أنه تواصل من أجل حالتها مع الكثير من المراجعيات الطبية العالمية، وأكّدوا له أن حالتها نادرةٌ جداً، وأن عدد المصابين بها في العالم كله قليلون جداً لا يتجاوزون العشرات، وإن من حفظ الله وحسن حفظها.. وما توفّر هنا من إمكانياتٍ علاجيةٍ محدودةٍ.. أنتمكّنت هادية من مقارعة الحالة لسنوات؟

- إلهي لم اخترت هذه المسكينة من بينهم دوناً عن كل هذه الحشود من البشر؟ أو لعلّك ربي اخترتني أنا لتختبرني بها؟

يحدث ثابت نفسه بهذا كثيرًا هذه الأيام.. وهو يكتوي بنيران الألم، حين تنقطع به كل السُّبل، ويحزنه حال المسكينة، مع الشعور بالعجز المحبط.. لكنه لا يلبث أن يستغفر ربه محتسبًا إياه، صابرًا على ما ابتلاه؟

رغم نصيحة الطبيب بعدم الابتعاد، وضرورة التواصل الدائم مع الطبيب والمشفى، فإن ثابت كان قد عقد العزم على الرحيل من الشَّام على الفور، والعودة إلى قريته مبرِّرًا لنفسه ذلك بعدم قدرته على الاستمرار..

لم يكن للمسكينة سوى أن ترضخ للأمر الواقع على مضضٍ وحزنٍ، وتنهزم أمام عزة نفس ثابت، تقبلت رفضه أي نوعٍ من المهادنة والتفكير في عرض السيدة ماري، كان عليها أن تمضي جازةً أذبال الخيبة، وجروح المعاناة المزمنة، دون أن تعترض على قرار رجلها الصارم.. أو تنبس بنت شفة؟

عندما حان موعد الرحيل، وبينما كانت هادية تستعدُّ للمغادرة، كان ثابت يراجع الإدارة لتبرئة الذمة، وجد حسبما كان يتوقع مسبقًا أن المبلغ المدفوع من قبل السيدة ماري أكثر من كامل الحساب المطلوب ببضعة مئاتٍ من الليرات... تمَّ استرداد المستحقَّات وتسليم الغرفة وما فيها، وحصل على الفواتير وبراءة الذمة، شكر الأطباء والممرضات، ودع الجميع.. وغادر مع عائلته.. ما هي إلا دقائق حتى كانت سيارة الأجرة تمضي بالعائلة باتجاه محطة الحافلات على أطراف المدينة الكبيرة....

ما هي إلا دقائق حتى كانت سيارة الأجرة تمضي بالعائلة باتجاه محطة الحافلات على أطراف المدينة الكبيرة....

في الطريق إلى محطة الحافلات كان ثابت ينظر من نافذة سيارة الأجرة التي استقلوها.. فيرى في الحشود السائرة في كل اتجاهٍ، في عيونهم

وأجسادهم وحركاتهم .. وفي كثرة أحياء الصفيح، وبؤس الطرقات والأرصفت والكثير من البيوت، والفوضى في الأبنية والتعامل مع الطرقات والنظافة .. وحتى في شقاء السيارة التي يركبونها كثيرًا من المعاني التي كان طالما يستمدّها من كلام أبيه، وهو يحدثهم بألم وحسرة عما نال هذا البلد من تخلف .. بعد أن كان يسابق أعتى الدول، وأغرقها حضارة ورقياً .. تسنى له أثناء التمعّن في الوجوه أن يستقرئ التباين في المسعى والحال والخلفيات .. لاحظ الكمّ الهائل من الوجوه التائهة في دروب البحث عن لقمة عيش، لا تحمل في تفاصيلها .. سوى رسوم أشخاصٍ قُدّر لهم أن يعانون الكثير من القهر .. بلا أدنى اعتراضٍ أو احتجاج؟ توقّف عند مثل شعبيّ شهيرٍ كان يردّده أبو خالد كثيرًا: - من يدري يدري .. (ومن لا يدري يقول كفّ عدس). يتابع بعد صمتٍ وتنهيدةٍ طويلة:

- آآه ... ما خفي خلف هذه الجدران ربّما أدهى وأمر؟ ترى كم من هؤلاء يحمل ذات الهم الذي أحمله؟

خلال سيرهم أوقفت سائق السيارة دوريةً لشرطة المرور، رأى ثابت كيف دسّ السائق نقودًا ضمن أوراق السيارة وشهادة السوق .. التقطها الشرطي وأعاد الأوراق دون أن يرى مضمونها، ودون أن يحاول حتى إخفاء ذلك، ثم طلب منه الشرطي التحرك بابتسامة الواثق الفائز المنتصر .

- رأيت يا أخي؟ لكل شيء ثمنه هنا .. كل شيء عندنا بالمال يُشترى ويباع .. حتى رُعاة الأمن والطرقات ..

أخذ السائق دون تحفيزٍ يحدث ثابت عن معاناته الخاصة، وعن همومه الشخصية والمشاكل التي تعترضه كل يوم، وانتشر منها إلى الحديث عن هموم الناس، منطلقًا مما حدث مع الشرطي .. راح يثرثر كثيرًا، ويفرغ

ما في جعبة سنيته من شكوى وتذمُّر وآراء .. تارةً يصرِّح، وأخرى يرمِّز مستخدماً لغة الأمثال والتشبيهات .. أسهب الرجل في التفاصيل، بدا لثابت المصغي إليه أن الرجل تتعلَّق في تجاعيد سنيته ملامحٌ مزدحمةٌ بالشقاء والمعاناة .. والبحث عن لقمة عيشٍ يقتنصها من الظروف كلما أدنت له .. لكن .. كما جرت العادة عند كل سوري، كان الحذر من السائق واجباً لا يخفى على حريص، ففي هذا الوطن تعلَّم ثابت كغيره، ألا يستبعد أن يكون عدد المخبرين المتعاقدين مع فروع المخابرات .. يكاد أن يتجاوز عدد المواطنين. الخشية من المجهول الخطير ربما بالنسبة لثابت .. كانت أكبر وأقوى، رغم ما يبدو في وجه السائق العجوز من علامات الصدق والمعاناة .. الشيء الأكثر أهميةً وإلحاحاً بالنسبة إليه، والذي صار يستولي على جلِّ تفكيره الآن، ويشغل قلب ثابت وعقله، هو دموع هادية يختلس النظر إليها من خلال مرآة السيارة، وهي تنسكب على الخدَّين دون توقُّفٍ، ونظرة الولد التائهة الممتلئة بالفقد .. راح يشرد متفكِّراً في حالة غيابٍ عن الواقع، تاركاً صوت القرقعة في السيارة القديمة التي يستقلونها، وحديث السائق الذي يسابق سيارته سرعةً .. خلفيةً لسلسلة محاكماته للأُمور، أشغل تركيزه بأمور حياته ومشاكله، وقد أخذ موضوع السيدة ماري ووالدتها، وما فعلاه .. وعرضها منه حيِّزاً كبيراً .. يدرس الأمر من خلال كل ما مرَّ وسبق، متذكِّراً كيف ردَّ بقسوةٍ، وما خلَّفته رعونة ردِّه في نفسه، توقَّف عند رأي المسكينة ووجهة نظرها، ورغبتها بالبقاء قريبةً من المشفى .. وبعد صراعٍ مريرٍ مع النفس، وقبل أن تتوقَّف السيارة قرب باب المحطة الكبير المزدحم .. بدا أنه أسرَّ أمراً ... أخرج ورقة السيدة ماري وأرقامها التي تركتها، ونظر فيها ملياً .. قاطع السائق المنهمك في سرد حكاياته بشكلٍ

مفاجيء، وطلب منه التوقّف بجانب الهاتف العمومي، كان هاتفه الجوال القديم يشتكي من فقر المؤونة والشحن، لعدم تزويده بالرصيد بعد أن استنزفت آخر دقائقه محادثته عمّة المشؤومة، كما استنزفت الكثير من متانة أعصابه وكرامته؟ ... ترجل من السيارة واتصل:

- ألو نعم

- أريد أن أتحدث مع السيدة ماري إن كان هذا ممكناً

- إنها معك .. تفضل .. من يطلبها؟

- أسعد الله أوقاتك سيّدة ماري .. أنا ثابت المصطفى ..

وقبل أن يطيل على المرأة طريق التذكّر تابع:

- أبو عثمان من المشفى زوج ...

قاطعته حين قالها وهو يرتعد مصاباً بهبوطٍ في الدورة الدموية .. كان يحس لحظتها بأنه يسلم مفاتيح كرامته ورجولته كلها .. ويرضخ:

- أهلاً أخي أبو عثمان يا مرحباً .. أين أنتم؟

بلهفةٍ كبيرةٍ جليّة، أبدت له ما قد أراحه، وأرّخت مفاصل رعبه المشدودة وخجله من لحظة التنازل المذلّة ... كما كان يفترضها؟

- كنت أفكر أن أعمل عند السيدة الوالدة، كما طلبت طبعاً، لأسدّد المبلغ الذي دفعتموه في المشفى

- أنت لن تعمل هنا بل ستقيم معزّراً مكرّماً .. كصاحب البيت وسيّده، وكأخٍ لنا جميعاً، وكابنٍ لهذه المريضة التي تحبكم وتقدركم ..

سرى حديثها في دمه مجرى الدواء .. كم أراحه ذلك؟

- أف ... يا الله كم أفرح قلبي حديثها وأفرغ ما بي من انهزامٍ وقلقٍ، منحني ذريعةً لما أقدمتُ على فعله.

قالها في قرارة نفسه التي هداً بركانها قليلاً .. على إثر ذلك زال ارتباكها،
وقلَّ إحساسه بالخجل الشديد، وهو يتلقَّى منها مشرق الوجه .. وصفًا
لمكان المنزل؟

توجَّه إلى السيارة، أعطى الوصف للسائق الذي عرف المكان المقصود،
وسط دھول هادية غيَّر السائق اتجاه السيارة فوراً إلى العنوان، بعد أن اشترط
عليه الحصول على أجرةٍ إضافيةٍ مقابل ذلك، نظر في عيني المسكينة ليطلع
الرَّضى فيهما والسرور من قرارٍ يعتبره كبيراً جداً كان قد اتَّخذهُ للتو، تكريماً
لها ورأفةً بحالها، وجد أكثر مما طلب، فقد تنوَّر وجهها، وتلوَّن باحمرارٍ
وفق بهجةٍ طارئةٍ وكأنَّه طرد الكآبة وأزاح الغمَّة واستبشر، ثم نظر إلى عثمان
ليلتقط ابتسامةً تزيِّن ثغره غابت طويلاً، وقال في نفسه مبتسماً:

- سبحان الله .. حتى أنت يا عثمان؟

في طريق الوصول إلى المكان كان كل شيءٍ غير الذي رأوه وعاشوه
سابقاً .. ابتداءً من الحالة النفسية لعائلة أبي عثمان ... مروراً بدمشق أخرى
مختلفة، تلك التي ولجتها السيارة بعد مسافةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ من ابتعادها عن
المحطة .. باتجاه المنطقة المُرادَة ..

شام العودة هذه لا تشبه تلك التي كان قد عبرها منذ ساعةٍ تقريباً .. حيث
تنتشر هنا القصور و(الفيلات)، وتختفي العمارات المتطاولة .. تمتد الكتل
السكنية أفقيةً ملفتةً للنظر على مساحةٍ واسعةٍ تحيطها الأشجار، تخترقها
طرقاً نظيفةً منضمةً، وأحياء توحى بالآبئة والوداعة والسكينة .. وتشي
بعوالم من الثراء والرِّخاء؟ وصلت السيارة إلى العنوان بعد مدَّةٍ ليست
بالقصيرة، وجد ثابت نفسه وعائلته أمام قصرٍ بديعٍ يقع بين مجموعة قصورٍ
فخمةٍ وكبيرة .. الهدوء يخيم على الشارع الطويل برمته .. لا تكاد ترى إلا

القليل من المآرة، وبعض السيارات العابرة، معظمها من السيارات الفاخرة الحديثة.. قبل أن يحاسب السائق ويودّعه رنّ جرس (الفيلا)، ليتأكد من أنه في المكان الصحيح، سمع صوت السيدة ماري من خلال (الأنترفون) ترحب بهم وتدعوهم للدخول، بعد أن فتحت لهم البوابة الواسعة الكبيرة بالتحكم من الداخل.. قابلتهم وهم يعبرون الطريق المرصوفة باتجاه المبنى الرئيسي شجيرات مختلفة الأنواع، تستلقي أغصانها بفعل فاعل محترف على أنابيب معدنية مبنية بهندسة وإتقان، لتشكّل قوساً يظلّ ممراً طويلاً، كأنّ هذه الشجيرات الخضراء زُرعت لتحضن القادمين، رائحة الياسمين والورود المختلفة تنعش صدر كربتهم، ورؤيتها تحيي النفوس التي كادت أن تموت جذورها، الطريق الممتدة بين كل هذا من الحجر البازلتي الأسود.. مرصوفة بفنية مذهشة.. في بدايتها وقف الحارس يرحب بهم ويقودهم إلى بوابة داخلية للمبنى لا تقل شأناً من حيث الضخامة والفخامة.. إلا أنّها مصنوعة من الخشب المميز اللّماع المحفور.. توجد مقابلها من الخارج ساحة رخامية براقّة، تعكس وهج الضّوء بقوة، وبحيرة اصطناعية، وفي المحيط مهرجان وردٍ وأزهار.

هناك وجدوا الست ماري تفتح الباب مبتسمة مرحبة، استقبلتهم بحفاوة.. أدخلتهم إلى عالم العجوز الذي يبدو وكأنه يستحضر (ديكورات) الأفلام الكلاسيكية التي كانت تطلق في ذهن مشاهداها الكثير من الأخيلة الجميلة، دخلوا إلى صالون كبير مرتفع السقف.. بدا كقبّة تعلّقت بها أنواع مختلفة من الإنارة وبمختلف الألوان، تفصل أجزاء المفتوحة أعمدة رخامية ضخمة أقيمت بفنّ وجمال، تشغل أرضيته أطقم الأرائك الفخمة، وعلى جدرانها خزائن فيها ما يبهّر عين الناظر إليها بأشكالها الخشبية المطرزة كتحفّ،

وبما تضم الكثير من الخزف والتمائيل، والأشكال المتنوعة من التذكارات والمناظر، على الجدران أيضًا لوحاتٌ فنيةٌ جداريةٌ ملفتة .. المرء ليس بحاجة كبيرة للذكاء والخبرة، ليكتشف أن أثمانها باهظة جدًا .. الأرض مغطاةً بكليتها بأنواع غريبة من السجاد الفاخر النظيف ذي الألوان الهادئة الجميلة والأشكال الفريدة .. والوبر الناعم الكثيف؟

توقّف تفكير ثابت وهادية بعد هذا الإبهار عن الامتداد لتخيّل ما خلف هذا الصالون، لأن ما رآوه حتى اللحظة كان كافيًا لحدوث الدهشة .. ولأن العجوز كانت تجلس على إحدى الأرائك الكبيرة، في صدر الصالون بانتظارهم .. استبشرت بقدمهم، وتجلّت على محياها علامات السرور لمقدمهم، راحت ترخّب بهم، وتنتظر اقترابهم لتضمّ هادية وولدها، وتسلم على ثابت مرحبةً وشاكرةً .. بعد لحظاتٍ كانت الخادمة الآسيوية تقترب حاملةً القهوة والحليب في آنيةٍ لم يريا مثلها قط، قدّمت لهما الضيافة بكؤوسٍ لم يشربا بمثلها، مما سبّب ارتباكهما وحرجهما خوفًا من ارتكاب ما يسيء لهما أمام الحضور .. أخذ كلّ من ثابت وهادية وهما يردّان على المجاملات ينظر أحدهما في عيون الآخر، فيرى كمّ التباين ما بين حال الضيوف ومستوى المضيف وبيته .. بعد قليل .. تقدّم زوج السيدة ماري وابنها وسلما على الحضور وانضمّا للجلسة .. بدأت السيدة ماري بكسر الحواجز عامدةً، لأنها ربما لاحظت أو توقّعت بذكائها أن الكثير منها الآن يقف عائقًا في وجه اندماج الضيوف بالأجواء .. سألتهم ووالدتها عن صحّة هادية، وعن التطوّرات التي حصلت بعد مغادرة العجوز للمشفى وعن رأي الأطباء، أبدى الجميع لهادية تعاطفهم الكبير مع حالتها .. انطلقت السيدة ماري بالحديث بعد ذلك نحو التأكيد لهما على أن البيت هذا ومن فيه جميعًا

سيكونون بعهدة أبي عثمان، بالإضافة إلى دور أم عثمان بما يخص السيدة الكبيرة، وأنه عليهما أن يتعاملا وفق هذه الحقيقة منذ اللحظة .. أوضحت لثابت كيف ستتم عملية تحويل المصاريف عن طريق البنك، سيكون عليه أن يفتح له حساباً خاصاً، لكي تتم عملية التحويل بسلاسة .. لم يكن لثابت أن يناقش في تفاصيل الأمور المادية وهو المدين للسيدة، ولم تسترسل هي أيضاً بالخوض في هذا الحديث، معتبرة أن هذا لا يعني بالنسبة لها الكثير .. طلبت منهما مرافقتها في جولة في أنحاء المكان الممتد الواسع، لتريهما باقي أجزاء (الفيلا) ومكان إقامتهما، وسكن الخادمتين الخاص، ومكان إقامة الحارس الذي يعمل أيضاً بالزراعة ومتابعة أمور الحديقة والزهور، وبعض الأعمال الأخرى .. كالصيانة الخفيفة، عندما وصل الجمع إلى مكان إقامة ثابت وعائلته، دُهِل الضيوف بما لم يكن يشكل يوماً بعض بعض حلم .. رأوا شقّة سكنية منفصلة رائعة التشكيل والتقسيم والاتساع والأثاث، مطلة عبر شرفة فيها كرسي عريض هزاز على الحديقة الخلفية مباشرة، حيث توجد مساحة غطّاها بلاط فاخر، وفيها ألعاب أطفال متنوعة .. زُرعت الأحواض فيها بما طاب من الزهر والورد والشجر ..

- حتى العصافير تبدو هنا مرفهة سعيدة غير التي نعرفها .. هل هذا مجرد إيحاء فرضه الانبهار بالعالم الجديد؟ أم أن كل بيئة فعلاً تنضح بما فيها؟

يقول ثابت لنفسه وهو يتفقد البحرة الاصطناعية الجميلة في الوسط ويشم رائحة الورد المحيط .. ولكي تكتمل فصول الحلم قدّمت له ماري مفاتيح السيارة الفاخرة، وقادته إلى (كراج) داخلي أركنت فيه، يمكنه الدخول إليه من أمام شقّته، والخروج من القصر عبر الباب الذي يفضي إلى الشارع في الجهة الخلفية، والعودة منه بأيسر السبل ..

يقول ثابت لنفسه وهو يتفقد البحرة الاصطناعية الجميلة في الوسط ويشم رائحة الورد المحيط .. ولكي تكتمل فصول الحلم قدّمت له ماري مفاتيح السيارة الفاخرة، وقادته إلى (كراج) داخلي أركنت فيه، يمكنه الدخول إليه من أمام شقّته، والخروج من القصر عبر الباب الذي يفضي إلى الشارع في الجهة الخلفية، والعودة منه بأيسر السبل ..

- ماذا لو أدمنت عائلتي هذه البجوحة من العيش ثم اجتثنا الظروف منها مرة أخرى وتركنا في مهبّ الرياح؟ وماذا إذا لم تتأقلم مع هذا النمط من الحياة أصلاً؟ ماذا لو ماتت العجوز بعد أيام قليلة؟ أيّ مهمّة تبقى لنا هنا؟ ماذا لو فقد شيء ثمين من هذا القصر المنيف بتحفه ومتاعه الباهظ الثمن خلال فترة وجودنا؟ أيّ موقف مهين لنا سيكون؟ ماذا لو لم أفلح في قيادة هذه الدفة إلى برّ الأمان وبالوجه الأكمل؟ .. ثم .. وماذا بعد؟

بعض تساؤلاتٍ دارت في ذهن ثابت كثيراً يومها، مع الكثير من القلق .. ذهبت بخياله كثرة التساؤلات إلى الماضي القريب في المشفى، حيث اضطرّ يوماً أن يفاضل بين وجبة طعام له ولولده بعد جوعٍ مديد، وبين دواءٍ مهمّ طُلب منه أن يشتريه من خارج المشفى لهادية؟ .. ويا لها من مفاضلةٍ موجهةٍ حتى في تذكّرها، كادت أن تذهب بكل حشود الدهشة التي يعيشها في هذه اللحظات .. بينما راودته من الماضي الأبعد لقطاتٌ من بيته المقتطع من بيت العائلة في القرية، حيث كان عبارةً عن غرفةٍ واحدةٍ كبيرةٍ مهترئة الجدران، تكاد تخلو من الأثاث لولا غرفة نومٍ تجاريةٍ رخيصة الثمن اشتراها بأقساط شهرية، وبعض مدّ أرضي بسيط .. مع اعتبار أن المطبخ الكبير والحمام مشتركان للجميع في كل طابق.

حالة ثابت الطارئة زادت من تشنّجه، وانعكس ذلك على سلوكه الجافّ المحافظ تجاه الآخرين في القصر، كردّة فعلٍ على واقعٍ جديدٍ لم يعتده،

وشعورٍ صارخٍ بالنقص أمام كل هذه الأبهة التي يراها ماثلةً أمام عينيه .. وتذكر قول جدّه لأبيه حين كان ثابت طفلاً صغيراً، ومازال هذا الموقف ماثلاً في الصفحات الأولى لذاكرته .. حين أوصى الجدُّ أبا خالد بقوله:

- كن دائماً رائق الطبع مع صديقك كالورود .. وشديد البأس مع عدوك كالأسود؟

كان ثابت لاحقاً قد بحث كثيراً عن مرجعية لهذا القول في الكتب الثقافية والدينية، فلم يجد له أثراً سوى من فم جده قبيل وفاته .. شعر في هذه اللحظات كم هو بحاجةٍ إلى تمثّل الشقِّ الأول منه على الأقل مع هؤلاء الناس الذين أبدوا لهم الودَّ الخالص، ونقلوه وعائلته بما يشبه الخيال من الحاجة والضيق .. إلى الحلم الوردي الذي يعيشونه مترعاً بما لم يخطر يوماً على البال ..

مرّت الليلة الأولى كحلمٍ عابرٍ جميل، نامت العائلة كما لم تفعل من قبل .. أطلّ الصباح بإشراقه شمسٍ وشدو عصافير، ونسائم رطبة صمّخها عبير الورود وصوت ماء البحرة .. أيقظتهم نشوة الشعور بهذه الهبة الربّانية، قبل أن يأتيهم صوت طرقٍ ناعمٍ على الباب، وصوت الخادمة الهادئ وهي تدعوهم ليتناولوا مع السيدة الكبيرة والجميع طعام الإفطار ..

هذا أول صباحٍ عمليٍّ في أول عملٍ لثابت في دمشق، افتتحه بهذه الوجبة الصباحية التي فاقت ما تخيله يوماً بما حوت من طقوس خاصة وأصناف شهية ومتنوعة من الطعام .. خرج من المنزل يحمل طلبيته الأولى باحتياجات القصر وساكنيه، ومبلغاً كبيراً من المال، شقّ طريقه بالسيارة الفارهة باحثاً عن (سوبر ماركت) قريب، عاقداً العزم أن يتحدّى نفسه، وينسجم مع واقعه الجديد، وينجح في دوره كما ينبغي .. القيادة والإدارة بالنسبة له طارئةٌ ومربكةٌ جداً، رغم تمرّسه بالقيادة سابقاً بالفطرة، ذلك أنه لم

يقْدُ قَطُّ مَوْسَسَةً بهذا الحجم، وفي مثل هذه المعايير، لم يستطع أن يحدّد ما الذي تغيّر فعلاً بالنسبة له ضمن كثافة التغيّرات التي أصابته .. نظرة الناس له مختلفة هنا، فقد رأى في عيون الناظرين إليه تقدّيراً مميّزاً منذ أن غادر وحتى عاد بعد أقل من ساعتين، مارس حياةً عامرةً بالإختلاف ملاحظةً وشعوراً، ليست هي بالتأكيد التي عاشها لسنين طوال .. كلما تساءل عن ظاهرة، وقبل أن يعثر على إجابة، كان كل ما حوله يجيبه، لكن الإجابات كلها رغم ذلك .. تخلف وراءها المزيد والمزيد من التساؤلات؟ حتى مفرزة الأمن التي تقف على حاجزٍ قريبٍ عند مدخل بيت مسؤولٍ كبير، تعامل أفرادها معه على أنه سيّدٍ لهم، وليس مواطناً عادياً عابراً .. شعر بقوة لم يمتلكها من قبل، أحسّ بثقةٍ تنساب من بين حنايا قهر السنين وحرمان الماضي، أخذت تأخذ طريقها إلى نفسه .. فترخي بظلال أمنها على سلوكه ونظراته .. ونبضه ..

مرّ اليوم الأول .. وقد حمل معه بشائر منعطفٍ جديدٍ مذهلٍ لثابت وعائلته .. فهادية اليوم غير المسكينة التي غادرت المشفى أمس بانكسارٍ ودموع، وعثمان هذا غير الذي رآه مندساً في سريرها منذ أيام يبحث عن بعض طفولته المفقودة .. وهو ثابت جديدٌ يقدّم نفسه بهيئةً مختلفةٍ وحالةٍ نفسيةٍ أكثر اختلافاً رغم ضغوط التحوّلات، ممّا خلّف عنده اعتقاداً أن كل ذلك سينعكس على رؤيته الجديدة للمجتمع الجديد، وطريقة تعامله معه، وربما على أفكاره وسلوكياته عموماً .. تدريجياً، كان ختام مهرجان الإدهاش في تلك الليلة بانتظارهم .. حظي الوافدون الجدد بمساءٍ حمل معه هدايا بالجملة للعائلة، فوجئوا بملابس فاخرةٍ جديدةٍ، وأحذيةٍ للجميع، وألعاب خاصةٍ لعثمان، وهاتفين جوالين من أحدث الأنواع لثابت وهادية، في الوقت الذي لم يكن يستعمل هذه النوعيات الذكية الباهظة الثمن حينها .. سوى المسؤولين وأصحاب الأعمال الخاصة؟

بعد أيام قليلة، وحيث بدأ ثابت وعائلته بالتأقلم مع الحالة الجديدة .. بلَّغت السيدة ماري ثابت بأنها وعائلتها اطمأنوا لوضع الوالدة معه ومع عائلته، وقد آن لهم أن يغادروا ليلتحقوا بأعمالهم ومسؤولياتهم في فرنسا، وقد حدّدوا يوم السفر بعد يومين .. طلبت منه ماريا أثناء ذلك تقارير هادية الطبية كاملة، مع الصور والتحليل، وكل ما يتعلّق بحالتها من ثبوتيات، لكي تعرضها على الأطباء المختصين هناك.

- يا ربّاه ... أجنّة هذه في الأرض تُهدى لمحرومٍ ؟ .. أم أن هذا ابتلاءٌ جديدٌ لنا .. ولكن بشكلٍ آخر جديدٍ ؟ .

كان هذا لسان حال ثابت في هذه الأثناء، وسؤاله الملحّ الذي يدور كالرّحى في نفسه رغم السعادة، ويقضّ مضجعه رغم الرّخاء الطارئ ... لعلّه يصل لتفسيرٍ منطقيٍّ لما يجري، هذا الذي تجاوز بالنسبة له قصص الحالمين، و(سيناريوهات) المسلسلات التلفزيونية ..

أثناء تجواله في القليل من الأيام التي قضاها هنا، كان يلاحظ زيادة اهتمام الجيران وأهل المنطقة ومن يعملون لديهم به وبعائلته، وتقربهم إليهم، بأثر حديث السيدة العجوز عنهم في أكثر من مجلسٍ على أساس أنهم أصدقاءٌ مقربون .. وليسوا عاملين لديها .. شعر بأنهم أصبحوا مادةً لحديث الناس هنا، ربما لأنهم وجوهٌ جديدةٌ ومختلفة، لكنه اعتاد أن يدّعي أنه لا يُلقِي بالاً لكل هذا، ويعيش حياته الجديدة بثقةٍ مرسومة، ويمضي قدماً في مهمته التي رَوّض نفسه لها، وهيّاها لقبولها، وأعدّها لها ما استطاع من ثباتٍ ويقظةٍ وإتقان .. تحوّل الرجل إلى شعلةٍ نشاطٍ وحيوية، يصحو باكراً متفقدّاً السيدة وحاجياتها وأدويتها وحاجيات القصر، فيؤمّنُها خلال يومه، وعمل الخادمتين وما يعانين منه فيجد له حلاً، أو يفتش عمّا هو ناقصٌ فيكمّله ..

وكذا الحارس وحاجيات الحداثق، دفع الفواتير المترتبة إن وجدت، وأخيرًا بيته واحتياجاته الخاصة، وزوجه التي تحتاج إلى كل رعاية ومتابعة، ووحيدته الذي لم ينل من طفولته ما يتوجب لها.. اتصل بأهله في القرية، تحدّث مطوّلًا، شرح لوالديه ما جرى معه، وأبلغهما بعمله الجديد وإقامته، وأعطاهما أرقام الهواتف الأرضية. طلب أوراق عثمان الثبوتية وشهادة الميلاد ودفتر العائلة، وهي التي بقيت في البيت لكي يتسنى له تسجيله في مدرسة قريبة، وقد كاد أن يبلغ سنّ السادسة .. هي سنّ التعليم .. قبل افتتاح موعد الدراسة لهذا العام ... الأمور في المنزل الكبير بعد سفر السيدة ماري وعائلتها، قد أخذت مسارًا اعتياديًا جديدًا بالنسبة لهم، الوضع الخياليّ المُستحدّث والغريب، بدأت عائلة ثابت بهضمه والتماهي معه شيئًا فشيئًا، هادية تقضي وقتًا طويلًا مع السيدة الكبيرة، تتعايش مع حالتها وتفرد لها أجنحة الرّاحة، تقدّم لها أذنين مصغيتين، ويدين حانيتين .. وقلبًا دافئًا، ولسانًا لطيفًا، تحدّثها وتستمع إليها، وتساعد في موضوع تنظيم أوقاتها ومواعيد تناول الدواء والغذاء الخاص، كان هذا بالنسبة للعجوز منتهى ما ترغب به وتريده، عثمان يتنقّل فرحًا كالعصفور، مغرّدًا مستمتعًا بأجوائه الجديدة ما بين الحديقة على الأرجوحة وداخل البيت العامر بالألعاب في غرفته الخاصة الواسعة، والمجهّزة بكل ما يمكن أن يحلم به طفل .. عهدٌ جديدٌ في أدواته وقيمه ومعطياته .. بدأ للتوّ مع العائلة، ثابت الذي أخذ يتماهي سريعًا مع واجبات المرحلة، راح يخطو رويدًا رويدًا بثباتٍ نحو إتقانه دور سيد القصر، ومديره المطلق .. بلا منازع؟



(٢)

مضفة

ما بين جحيم المعاناة.. وجنة الفرج.. محطة مراجعة قد لا
يراها المُسرِعُ المتلهِفُ للرَّخاء
الحقيقة واحدة..

لن ينال من وضوحها التأويل.

ما أسطع نور الشمس.. وما أغنى من يحاول حجبهُ بالغرابل..
في أعراف الغاية لا تستعين السباع بالذئاب لتحكم
بالفرائس.. غير أن أعراف غابات البشر تطورت مع تطوُّر حالة
القطيع.. صار قانون الإخضاع المزمّن تلزمه حتى الكلاب!

في صباح صيفي ريفي معتدل جميل، استيقظ الجميع مبكرًا كما جرت
العادة هنا في القرية.. لا أحد يتذمّر.. الجميع قد تعودوا على هذا النظام،
وهما أصلاً ناموا في ساعة ليست متأخرة، كدأبهم خلال أيام الأسبوع، لا
تشذ عن هذه القاعدة سوى ليلة الجمعة، أو ليالي الأعياد والمناسبات..
رائحة النسائم تعبق برائحة التربة المندّاة، والكثير من عطور الورود والزهور
المزروعة في كل مكانٍ تنشر أريجها في الموقع، تتخللها بعض روائح آتية من
الزرائب والحظائر.. لم تكن سوى مقطعٍ محبّبٍ من (الهارموني) الذي أصبح
جزءًا لا يتجزأ من تراث الريفي، يعشقه بالفطرة، يحنُّ كلما نأى عنه.. إليه.

بينما أعطت الأشجار المثمرة المتوزعة في أطراف الدار رونقاً متميزاً، بلون الحياة الريفية الحميمي الجميل، وبأطوارها المتقلبة تقلب الفصول.. معظمها الآن في طور العطاء والثمر، إذ أن الصيف هو مناخ إثمار التوت والعنب والدراق والمشمش والخوخ وغيرها من الخيرات.. الأراضي الممتدة في كل اتجاهٍ تحمل على سطح تربتها الحمراء آثار أحلام الرجال المخططة كأنها صنع رسام ماهر، كما حملت أصولها آثار جمال الخالق الذي أعطها الخصوبة والأناقة الطبيعية.. والجمال.. البيت الكبير يبدو كخليفة نحل.. الجميع كباراً وصغاراً في حركة دؤوب، ضوضاء الصباح طقس مريح للوالدين، يمنحهما نكهة الحياة المطلوبة، ونشوة التباهي بكثرة أفراد العائلة، ويبعد عنهما شبح الوحدة والفراغ.. أبو خالد يجهز معشوقته.. القهوة العربية المربة.. في المضافة، يسعد التعامل معها كدأبه، تبهجه رائحتها، فيترنم كأن في أبحرتها طرباً وحبوراً.. يُعتبر منتصف المكان مركز عملياته، مسوّراً بحجارة مبنية على شكل دائرة، تفصله عن باقي المضافة، يجلس على كرسي قصير معدني له مقعد من أشرطة النايلون الملونة، وقد وُضعت له على سطحها خصيصاً قطعة من صوف خروف صغير، وأمامه الأواني المتعددة والمواقد اللازمة (عدة الشغل)، لممارسة هوايته المحببة.. باستمتاع وشغف..

لا وقت محدد لديه لممارسة متعته اليومية هذه، فحيناً يقوم بها صباحاً، وأخرى قبل الغداء، ومراتٍ يسلي بها نفسه في المساء، وهو يسامر العائلة أو بعض الساهرين من الضيوف.. أبو خالد كغيره من أرباب البيوت الريفية يفرح كثيراً، وينتشي فخراً حين يطمئن إلى أن إناء القهوة الحافظ للحرارة (براد) ممتلئ دائماً وجاهز في كل وقت، وحينما يديرها للساهرين بين الحين والآخر خلال الجلسة، وتلقى الشاء الذي يدغدغ غروره، على جودة صنعها ولذة مذاقها.. يداعب زوجه ويسألها:

- أما سمعت صوت هذا الدِّيك المجنون؟ لقد كاد يفقدني صوابي بصياحه منذ الواحدة، لم أعرف قطُّ في عمري ديكًا يصيح قبل الفجر بساعات.. ماذا يحصل في الدنيا؟ حتى الدِّيك يا جماعة.. فقد بوصلته وتوقيته في هذا الوطن.

تضحك أم خالد وأزواج أبنائها وبعض حفيداتها.. وهنَّ ينظفن البيت والأدراج، ويتجهَّزن للدخول إلى مطبخ العائلة الكبير القديم، لتجهيز وجبة الإفطار التي تلمُّ شمل الجميع على السفرة في غرفةٍ واسعةٍ، تُفرَّش أرضيتها ببساطٍ من المشمَّع، وتملأُ سطحها الخيرات من الأطعمة، يتحلَّقون حول السفرة كبارًا وصغارًا جالسًا على الأرض بطريقةٍ تضمن انضمام الجميع، قد يتجاوز العدد العشرين شخصًا.. البنات الصغار سبقنهنَّ بتحضير بعض الصحن، ووضع الوعاء الكبير المليء بالشاي على النار.. أتى أحد الأحفاد الصغار بالخبز الطازج من المخبز القريب، كان هذا أحد الأيام القلائل التي يشترون بها الخبز الجاهز من المخبز الوحيد في البلدة.. من عادة أم خالد أن تخبز على التنُّور في معظم الأيام، وفي وقتٍ مبكرٍ بعيد الفجر بمساعدة بناتها وكنائنها.. لكن أعمالها المتراكمة اليوم منعتها من تنفيذ هذا، وألجأتها إلى مخبز البلدة التابع للبلدية.. الأمر الذي لم يعجب أبا خالد كثيرًا، وتقبَّله على مضض.. صبيٌّ آخر أتى بالبيض البلدي من خمِّ الدجاج، وصبيَّةٌ بالحليب الطازج من أثداء الغنم، وقسمٍ بقريٍ للبعض الذين يفضُّلونه، حسب المخطَّط المسبق في توزيع الأدوار.. للحلابة والعناية بالحيوانات وإطعامها، وخدمة المنزل، بينما تفوح رائحة السمن البلدي في مقلاة أم خالد الكبيرة، وهي تقلبي عددًا كبيرًا من البيض الطازج.. توزَّع الباقون إما باتجاه تقديم المساعدة في النقل وترتيب السفرة، وإما في حالة لهوٍ وصخبٍ.. بينما أخذ العاملون

يهيئون أنفسهم لما بعد الإفطار، بانتظار الانطلاق جماعياً.. كلٌ نحو وجهته.. جلس أبو خالد كزعيم في المضافة بعد تناوله لقيماتٍ، يحسني الشاي ثم القهوة المرّة، معه خالد وإخوته يتجاذبون أطراف الحديث عن مشاريع اليوم، ومخططات العمل في الأرض، قبل أن يغادر معظم شبابه للالتحاق بأعمالهم وشؤونهم، وقد تلقى الجميع تعليمات وتوجيهات الوالد بكل تقدير واحترام وطاعة..

من أبناء أبي خالد موظفٌ وحيدٌ في العائلة، يعمل في المؤسسة الاستهلاكية، وطالبٌ جامعيٌّ يتجهز للسفر إلى حلب، وتلاميذ المدرسة الصغار يستعدون للالتحاق بمدرستي القرية الابتدائية القريبة والإعدادية، الباقون وقد ارتدوا ملابسهم الخاصة يصعدون إلى الجرار، عندما أصبحوا على أتم الاستعداد لبدء يومٍ جديد... هؤلاء يقودهم خالد..

- هل اتصل ثابت بالأمس؟

سأل أبو خالد.. مبدئياً اهتماماً مفاجئاً

- نعم اتصل وهو يقبل الأيادي ويسلم عليك، وهو وزوجته بخير والحمد لله، وحبيبي عثمان أيضاً.. حفظهم الله جميعاً.

- اللهم آمين.. لم أفهم بعد كيف ومتى عمل ثابت عند هؤلاء الناس، ولم؟

- يا أبا خالد كان لا بدّ له أن يجد عملاً يعينه على حمله الثقيل.. وأنت تعلم أنه لا إمكانية لعلاج كتتنا المسكينة إلا هناك.

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. أعانه الله ووفقه لما فيه خيره وخير عائلته. قالها معلناً موافقته المشوبة بالشك والريبة وعدم الاقتناع، لكنه لم يستطع كتم مخاوفه طويلاً، أتبع حديثه بتصريح جعل أم خالد تعاني أكثر في

محاولة تهدئته، وإخماد نيران شكوكه.. بحكم رغبتها المبطنة بأن يريح هذا ابنها المُعذَّب من شدَّة العناء..

- أخشى أن نفقد الولد يا امرأة.. فهذه الأجواء ليست أجواءنا، وأولادي كما تعلمين طيبون لم يعتادوا مثل هذه المجتمعات، ففيها ما فيها من مغرياتٍ وفتن.. نعم.. قد يكون هؤلاء الناس أفضل مني، ولكن ما يريني هو عالمهم المليء بالمفاجآت.. سيكون ابننا (كالرَّاعي يحوم حول الحمى يوشك أن يرتع فيه).. لذا أدعو الله أن يعصمه من الوقوع في السوء، وأن يحفظه ويشفي زوجه عاجلاً غير آجل.

- اللهم آمين، ربنا يعلم كم أوحشوني وخصوصاً عثمان.. كم أتمنى ألا يفارقونا أبداً، لكن ليس بيدنا سوى الدُّعاء لهم.. وكما يقولون يا أبا خالد في المثل: ما الذي أحاجك للمرء؟ أليس الأمرُ منه؟

- يا إلهي كلما فكَّرت كثيراً بهذا أصابني الهلع، فأنا أدري بولدي وطيبته، رغم ثقتي به وبأخلاقه، ورغم أنني أدرك تماماً أنه ليس ساذجاً.. لا أدري لماذا.. أهو خوفٌ مشرَّعٌ؟ أم وسوسات شياطين؟ الأمر يزعيني يا امرأة، فلكلِّ منا مناخه ومجتمعه الذي يليق به ويناسبه.

- استعذ بالله يا رجل.. لقد أرعبتني أنا أيضاً.. أرجوك دع عنك هذه الوسواس والمخاوف، وادعُ لولدنا وعائلته.. فهو ثابت ابن أبيه وبيئته، وليس من السَّهل استمالاته نحو السوء، هو أيضاً متزوَّجٌ بابتنا هادية الطيبة الأصيلة، وعنده عائلة.. أمل أن زوجته قريباً ستشفى بإذن الله، وسيعودون سالمين غانمين إلى أحضاننا، وأحضان بلدتهم وناسهم.. بعون الله..

- يا رب.. آمين.. وهل أريد سوى هذا؟

قالها أبو خالدٍ مع تنهيدةٍ حارقةٍ، نفّث بها عن صدره، تشي بمقدار القلق الذي لم تستطع كلمات أم خالد أن تجلوه من قلبه، راح ينظر إلى البعيد شاردًا ومتأملًا.. في هذه الأثناء دخلت خالدة وأولادها قادمين إلى بيت العائلة من أطراف القرية حيث يقيمون، الجميع يلهثون وقد بدا عليهم الكثير من الخوف والتوتر:

- ألم تسمعوا بما جرى قرب المدرسة؟؟

دون مقدّماتٍ أو حتى إلقاء تحية.. أطلقت خالدة سؤالها، مما يشير إلى أنها أرادت إخبارهم بحدوث شيءٍ مريع؟

- ماذا جرى؟

قالها أبو خالدٍ لهفًا، وقد غيّر جلسته، وانتصب بدنه.. ودبّ الصمت في المكان...

- شجارٌ كبيرٌ حصل بين بيت الخليل وبيت الحسن، قوات الأمن والشرطة تملأ الساحات والطرق، وقد أخذوا الكثير من الشباب، لكن ولله الحمد كان شجارًا بالأيدي والعصي فقط، ولم يتطوّر أكثر من ذلك؟

أبو خالد أحد الرجال الذين تُسمَع لهم كلمةٌ في القرية، إلا من البعض الذين أثقلت فهمهم وتقديرهم للرجال ذوي الجاه والخبرة عباءة أجهزة الدولة والجيش والمخابرات، فأعمت بصائرهم وبصيرتهم عن الأصول والتقاليد التي كانت محترمةً في زمنٍ سابقٍ، وفصلتهم عن واقعهم ومحيطهم، فراحوا يصوغون عهدًا مختلفًا فيه القوة والمكانة مرهونةً بمقدار القرب والبعد من السلطة وأصحابها.. أولئك لم يعد لأي شخصٍ كبر أم صغر تأثيرٌ فيهم، وبيت الخليل رغم عددهم القليل من هؤلاء، تراكت آثار نشوزهم.. بحكم

علاقاتهم الوثيقة بأجهزة الأمن، والمسؤولين في المنطقة والمحافظة.. يقول أبو خالد لولده وهما يغادران البيت ليلتحقا بموقع الأحداث:

- من يوقف هذه الطغمة التي صارت تتحكم بمقادير الأمور، وتفعل ما بدا لها دون رادعٍ من خلقٍ أو ضمير؟

- ولم كل هذه الغطرسة يا أبي؟ .. هم في النهاية مجرد كلابٍ مسعورةٍ - كلب الأمير أمير يا ولدي، رحم الله جدك كان محاربًا وثنائًا حرًا شريفًا.. لكنه أيضًا واحدٌ من جيلٍ جليلٍ، يقدّر ويعرف معادن الرجال.. كان دائمًا يقول: التعامل مع أجهزة الاستخبارات لإيقاع الضرر بالناس تهمّة مشينة، يفوق الخجل منها خجل الوقوع في الزنى والقمار.. بينما يتبجح اليوم هؤلاء القذرون بصلاتهم المشبوهة، وباستقوائهم بأجهزة المخابرات، وهي كما يعلم الجميع أزدل مؤسسات الأرض.. على من؟ على أبناء قريتهم ومنطقتهم.. لا بارك الله فيهم..

- تقول خالدة أنها رأت دوريات الأمن وهي تعتقل الكثير منهم، كما رأت الكثيرين منهم يهربون، غير أن الشرطة والأمن لم يعتقلوا كبار العائلة..

- ماذا يريدون بالكبار؟ هم يريدون البطش بالشباب وإذلالهم، كي يكونوا عبرةً لكبارهم، ولكي يتسنّى لهم الاستفراد بمصائر الناس دون اعتراضٍ من أحد، هم أصلاً لا يعيرون اهتمامًا للكبار.. ومن غير الشباب الذين بدأوا يضيّقون ذرعًا بهذه الأوضاع المقرّفة يخيف هؤلاء المرتزقة وأسيادهم؟

وصل وابنه مسرعين إلى مضافة المختار، وعندما لم يجدوه هناك توقّعوا أنه قريبٌ من قلب المشكلة في ساحة البلد كما يسمّونها، هي مركز البلدة، وأكبر ساحةٍ في القرية، فيها المركز التجاري البسيط وهو عبارة عن سوقٍ

شعبي للخضار وبعض المحلات.. غالبًا ما تحدث الصدمات الكبيرة ومعظم المشاكل فيها.. كان خالد أكثر الناس قلقًا ساعتها، لأنه يعرف أن أباه رغم كل ما يمتلك من حكمة قد لا يستطيع ضبط وتيرة نزقه، ولن يقف مكتوف الأيدي أو صامتًا، رغم كل الظروف المستجدة التي جعلت آل الخليل مدعومين من أعلى السلطات، وأنه سيقف مع الحق ولو كلفه ذلك أي ثمن.. متجاهلاً النتائج.. هذا دأبه حينما تقع الطامة، وقد سبق له أن فعلها سابقًا، وأكثر من مرّة.. تذكّر كيف انتهى الأمر في المرّة السابقة، منذ زمن ليس ببعيد، بمواجهة أبي خالد للجميع، وتصديّهم لهم بكل حزم وجرأة، قبل أن يعلن ندمه أمام ذويه الذين أرعبهم موقفه، وما خصّ به بحديثه الدولة وأذialها، ويعدّ العائلة وأصحابه بأنه سوف يتريّث في المرّات القادمة.. لكن هيهات.. هو يعرف تمامًا طبيعة والده، وأنّ هذه الوعود ليست سوى ذرّ رمادٍ في العيون، وامتصاصٍ لانتقاداتهم ومخاوفهم؟ لولا تدخّل الغانمين والحكماء يومها من أهل القرية والقرى المجاورة، وهيبته التي تفرض نفسها في مثل هذه المواقف، والرهبة التي تترك أثرها في النفوس من صراحته اللامتناهية، وعلاقات العاقلين في القرية ببعض، والمبنية على التفهّم والود، لأودى به تدخّله القويّ ومجاهرته بالحق... إلى المكان الذي اعتاد أن يرتاده فيما مضى كثيرًا، وهو أحد فروع الأمن كما يسميها أصحابها:

- لعن الله الظالمين المعتدين.. وكل من يواليهم.

مازال أبو خالد يردّدها في الطريق، ويسمعه خالد الذي يكاد يسقط ارتجاعًا، لا خشيةً على نفسه، بل على والده السّاخط.. خالد يتورّع خجلًا عن الطلب من أبيه أن يتوقّف أو يخفض صوته، أو يمتنع عن التدخل.. أخذ يدعو الله أن يمرّ الأمر على خير..

- متى يترجّل هؤلاء المتسلّقون الفجرة عن ظهر حاضرنا ومستقبلنا؟ متى نستطيع أن نكون أسياد أنفسنا؟ ومتى نستطيع أن نختار رجالنا ومسؤولينا؟ بل متى ننفذ القهر والذلّ والخوف من نفوسنا العليلة؟ متى يا ناس؟

- صلّ على النبي يا حاج.

عندما وصلا إلى الساحة وجدا حشودًا متجمهرةً هناك، تعالت الأصوات، هرجٌ ومرج، اختلط الحابل بالنابل.. كان واضحًا لأبي خالد حضور بعض رجالات الدولة وضباط الأمن، وعناصرهم المدجّجة بالأسلحة، كانت قد أغلقت المحلّات، ونأى بسطاء الناس بأنفسهم عن الحدث، فالجميع يعرف عاقبة الأمور حين يكون آل الخليل طرفًا في نزاعٍ، وما يمكن أن يحدث في مثل هذه الأوقات..

كما توقّع أبو خالد فإن أصوات المعتدين أولياء السلطة هي الطاغية، سمع رجالهم يرغون وشبابهم يزدون ويهدّدون، ويتوعّدون الجميع.. هذا هو الوتر الذي يعرف خالد تمامًا أن العزف عليه سيحرّض غضب أبيه، مما لا يقبل السكوت عنه..

اقترب أبو خالد من التجمّع الكبير كدأبه بثباتٍ، بثقة الذي لا يخاف في الحقّ لومة لائمٍ، رمق الحاضرين يستفقدهم فردًا فردًا.. سلّم فقط على المختار، وبعض رجال القرية الذين يثق بهم ويودّهم.. عندما أحسّ القوم بحضوره وقد وشت بحاله حمرة وجهه التي توقّدت غضبًا، وظهرت عروق رقبتة على سطوح جانبيها منتفخةً تكاد أن تنفجر، وفي عينيه نظرة كاسرٍ شديد.. خفّ الضجيج وبدأت سحنته الواثقة الغاضبة تؤتي أكلها في نفوس الحاضرين.. اقترب منه المختار وحاول أن يهمس في أذنه مهدّدًا، أخذ يشرح له الذي حصل بشهادة الشهود، ثم أبلغه بأن كثيرين من بيت

الحسن اعتقلوا، منهم من اعتقله فرع المخابرات العسكرية، والآخرين ما بين فرع الأمن الجنائي ومخفر الشرطة، وكثيرون أيضًا منهم فرّوا بعيداً.. هنا وجّه أبو خالد حديثه إلى كبير من عائلة الخليل قائلاً بحدّة، وهو يرتجف من أثر حقن.. يبدو أنه كان قد تراكم عبر السنين حدّ الانفجار:

- أما شعبتم يا هذا من الخوض والعبث في أمن هذه البلدة وكرامة أهلها؟ ردّ الرجل الذي كان يتحاشى أبا خالد فيما سبق كثيراً، لمعرفته بجرأته وشجاعته، بعد أن وجد نفسه مضطراً لهذه المواجهة، وملزماً بالظهور أمام جمهوره المحتشد المتشهي.. بكونه لا يخضع لسطوة حديث أبي خالد العدائي المسلّح بلهجة التأنيب:

- أبا خالد ليس لك بالموضوع علاقةٌ فاخرج منه، وذلك أفضل لك.
أمام هذه العبارات التهديدية القوية صعد أبو خالد اللهجة.. رغم محاولات تهذئة المختار وابنه خالد له:
- نعم هذه لغتكم، وهذه طباعكم، لا تملكون من الحجّة ما تدفون به عن أنفسكم سوى الصلف والتهديد الرخيص.
- احترم نفسك أيها الرجل.. وإلا...
بقوّة وتحذّر رافعاً عقيرته.. صاح أبو خالد:
- أرني ما دمت تهدّدني أيها الشجاع.. ما أنت فاعلٌ.. هل ستعتقلني؟ أم ستضربني يا هذا؟

هنا تعالت الأصوات الداعمة للرجل من شباب آل الخليل، والمعادية لأبي خالد وعائلته، قام أحدهم بشتمه بأقذع العبارات؟
في هذه الأثناء لم يكن الكثيرون من عائلة أبي خالد أو محبيه موجودين، وقد بدأ صوته الثائر يضيع بين صخب حشود المهيمين على الحدث.. لكن

خالد الذي يملك بنيةً قويةً كأبيه وإخوته، وقلبًا لا يعرف من الخوف إلا ما يخصُّ الخشية على أحدٍ من أهله، لم يستطع أن يتمالك نفسه المستنفرة لسماع شتيمة والده... وهو يعرف ويرى الفاعل أمام عينيه يتبجح على بعد خطوات... فاردمه الحار، وتوتر كثيرًا، ثم هاجت أعصابه إلى حدٍّ غياب أي مظاهر تعقل.. هجم كالبرق على الذي وجّه لأبيه الشتيمة، كان شابًا ضخمًا من بيت الخليل، ينضح وجهه بالعدوانية والشراسة، لكمه خالد بكل ما يملك من قوةٍ وغضبٍ، فأصاب منه ما أخلَّ توازنه، وطرحه أرضًا؟ احتدم العراك، وتداخلت اللكمات والرفسات من هنا وهناك، تكاثرت شبان بيت الخليل على خالد، مما دعا الأب وبعضًا من أقربائه الموجودين ومعهم بعض المتضامنين للتدخل والمشاركة في المعركة بكل قوةٍ وحزم؟ هنا دخل الحابل بالنابل أكثر، وتداخلت الأجساد والأيدي، وتعالَت الأصوات..

لم تفلح محاولة المختار وبعض المحايدين بالسيطرة على الحدث خوفًا من تطوُّر الموقف أكثر وحصول ما لا يُحمد عقباه، خصوصًا وأنَّ غالبية الحاضرين مسلَّحون.. حين يسيطر الغضب على العقول فلا شيء مضمون.. بدأت يد أبي خالد وولده وأقاربه ومن وقف معهم.. تعلو وتسيطر رويدًا رويدًا رغم كثرة الخصوم من حولهم، بما يحملونه في قلوبهم من الشجاعة وفي أبدانهم من القوة وفي أصواتهم من الحق.. حتى بدا أنهم سيحسمون هذه الجولة من الشجار.. من سوء الحظِّ في هذه اللحظات التي احتدم بها الموقف أنه لم يكن في الساحة أحدٌ من رجال الأمن فقد ابتعدوا عن الساحة قبيل ذلك بلحظاتٍ ليتابعوا ملاحقة رجال بيت الحسن الهاربين.. أخذ الأمر منحىً خطيرًا بإشهار البعض لأسلحتهم، ظلَّ المختار وبعض العاقلين من كبار أهل القرية يحاولون مثابرين أن يمنعوا حدوث كارثةٍ متوقَّعةٍ، غير أن

خالد وأباه وأقرباءهما ليسوا من الذين اعتادوا حمل السلاح في مثل هذه المناسبات.. خوف التورط بما لا يمكن تعويضه والتغطية عليه؟ لم يمر سوى دقيقة أو اثنتين على المعركة، حتى ثبت المشهد، تغيرت المعادلة حين سمع الجميع أصوات طلقات نارية.. وتفرق الجمع على مشهد رهيب؟

انتشر الرجال وخصوصا العُزّل منهم في كل اتجاه، انكشف لأبي خالد ما كان خافياً في زحمة ما جرى بسرعة البرق، وقد فجعته وجميع الحاضرين ما رأى.. كان ولده خالد في أرض المعركة جريحاً.. مضرّجاً بدمائه، ممسكاً بخاصرته، والدم يتدفّق من بين أصابعه... يتلوّى ألماً، ينظر باتجاه والده كأنه يودّعه أو يستنجد به، مما سبّب لأبي خالد صدمة كبيرة، ووقف للحظات واجماً.. ينظر إلى فلذة كبده الملقى على الأرض بعيداً عنه، قبل أن يصحو من سكرة دهشته وينطلق إليه بسرعة الريح.. ما إن وصل إليه حتى غاب الجريح عن الوعي؟ في هذه اللحظات هرب جميع من شارك بالشجار من الطرف الآخر، باستثناء أبي خالد وعائلته والمختار والمحايدين، لأن صوت صفارات الإنذار كان يُسمع مقترباً، معلناً عن وصول أول دورية للشرطة.. هرع الجمع المتبقي في السّاحة، ليحملوا خالد بسرعة باتجاه سيارة أحدهم لنقله إلى المشفى، رغم أن الشرطة طلبت سيارة إسعاف.. الحالة لا تسمح بالانتظار.. صعد أبو خالد مع فلذة كبده وبكره المصاب صامتاً مذهولاً، وكأنّ على رأسه الطير، أتت المأساة المفاجئة على كل ما تفجّر من حمأة الغضب قبل دقائق.. استبدلتها بقلق وفزع على ابنه الحبيب، أظهرتهما دموعٌ ملتّهبة.. قلّما يلاحظها أحدٌ في القرية تسقط من عيني أبي خالد.. ربما أصبح الآن يحبس الكثير منها، مشفوعةً بمشاعر الغضب، مضافاً إليهما فكرة الثأر.. لكن صدمة القلب المفجوع أجهضت كل عنفوان، وأخذت منه كل طاقة للتفكير بغير وضع ولده.. بعد دقائق كان الخبر قد انتشر في القرية، ووصل إلى بيت

أبي خالد، خرج ما تبقى من إخوة خالد وعمه وأبناء عمه وأقربائهم باتجاه المشفى، بالإضافة لأم خالد التي لم تعرف كيف تضبط مشاعرها وتستدرك نفسها، فالمصاب كبيرٌ مفاجئاً على ما تكتنزه السيدة القوية من جلد.. وصلت منهارةً مع خالدة وباقي نساء العائلة إلى باب المشفى، تبع الجميع من لم يلتحقوا مسبقاً بالواقعة إلى مشفى المنطقة التي تتبع لها القرية.. كانت الشرطة وبعض دوريات المخابرات تحيط بالمبنى وتملاً ممراته، انتشر خبر الحادثة إلى جميع الجهات الحكومية والأمنية في المنطقة..

حين وصل الجميع كان خالد تحت مبضع الجراح في غرفة العمليات، والأب مطرّق صامتٌ ينتظر أمام باب الغرفة مظهرًا خلاصة ما أخفاه من قلبي طوال حياته.. نظر إلى الحشد القادم والذي سبّب ضوضاء ظاهرة في المشفى، أشار لهم بالسكوت والهدوء.. رافعاً يده ليراها الجميع.. منع أبو خالد زوجه وابنته المفجوعتين من البكاء بصوتٍ مسموعٍ، وأبناءه ومن معهم من أي تصرّف أهوج، أوضح لهم شعوره بالندم عما حصل لخالد، موضّحاً أن انفعالاته كانت سبباً فيما جرى لخالد... قد يكون هذا ليمتصّ فورتهم، وليضمن منع سلوك أي فردٍ منهم باتجاه الرعونة، والجري خلف ثأرٍ سريع، جعل يوصي ويؤكد عليهم بعدم التسرع، والقيام بما يؤرّم الأمور أكثر، حاول أن يهدئ الشباب ما استطاع.. فهم المعنيون أكثر الآن في ظل هذه التطوّرات.. في مكانٍ آخر في القرية.. كانت الاجتماعات قد بدأت بين عناصر خلية الأزمة من عائلة الخليل أصحاب القرار، للتصرّف حيال ما جرى، ضمّ الاجتماع المتنفّذين منهم، وبعض المحامين وأصحاب الشأن المتورّطين، قرّروا في نهايتها تهريب الشبّان الذين شاركوا في المشاجرة والشاب مطلق النار والرجل المسبّب الذي وجّه الشتيمة لأبي خالد، والقيام برفع شكوى مستعجلة على أبي خالد وولده بتهمة الاعتداء بالضرب على الرجل، مع الاتفاق جميعاً على إنكار حادثة إطلاق النار على خالد.. أرسلوا أيضاً بطلب

إلى الطبيب الشرعي، والذي تربطهم به علاقات متينة حدّ الابتزاز والتخويف، بأن يجري فحصاً فورياً، ويعطي تقريراً بضررٍ صحيٍّ مفترضٍ لأحدهم، ليقلبوا الطاولة كما اعتادوا، وكما كان قبل ساعة.. يتوقع ويحدث أبو خالد ولده عنه.. كانت هذه مشورة كبيرهم العضو في البرلمان، والذي وصل إلى مركزه هذا بترشيحٍ من فرع حزب البعث الحاكم والمتنفّذ الأوحـد في البلاد.. أمر نجاحه كان مضموناً كما كان أبو خالد يعلّق دائماً، لأنه من قائمة الدلال والولاء التي تفرضها أيادي الحزب والدولة فرضاً على من رضي أو أبى، كان كثيراً ما يدعو هذا أمام خاصّته المقربين.. بلعبة الديمقراطية الموسومة السخرية، والمغمّسة بالوهم والقهر.. أنهى الأمر وافداً جديداً إلى الاجتماع كان قد التقى بأحد ضباط المخابرات المهمّين في المنطقة، أبغهم بأنه لا داعي لكل إجراءاتهم.. فقد تلقّى وعداً حاسماً بالتصرّف وفق ما يرغبون؟

بعد مرور أكثر من ثلاث ساعاتٍ من الانتظار الرهيب والقلق والحزن، خرج الأطباء من غرفة العمليات يحملون أخباراً مشجّعةً ومطمئنةً رغم فداحة الحادث وضخامة العمل الجراحي الذي أجروه لخالد والخسائر التي سببها الحادث.. مما هدأ روع أبي خالدٍ وعائلته قليلاً، بعد طول صبرٍ وألم.. خسر الشاب إحدى كليتيه، وأصيب بنزفٍ داخليٍّ تم السيطرة عليه جراحياً.. والأمر لم يعد خطراً جدّاً على حياته.. لكنهم فقط يخشون من تطوراتٍ لاحقة.. فيما لو كان هناك نزيفٌ لم يتوقّف في جسده.. تجاوز الوضع الحرج مبدئياً.. كما صرّح الطبيب، وما هي إلا مسألة وقتٍ قصيرٍ حتى يستطيع أن يؤكّد لهم أن مريضهم قد نجا تماماً من الحادث الأليم.. يجب أن يبقى الشاب تحت المراقبة الطبية قبل أن يتماثل للشفاء.. نسيت العائلة وعلى رأسهم الوالد كل شيءٍ في هذه اللحظات، في مقابل فرحتهم بنجاة

خالد، أو تناست، انتظر الجميع ساعاتٍ صعبةً أخرى، حتى يخرج خالد من غرفة العناية والإنعاش وينتقل إلى غرفةٍ خاصةٍ.. يمكنهم فيها أن يجالسوه ويحدثوه، بعد أن بدأ يصحو من التخدير، وآثار فقد الدم الكبير..

فوجئ الجميع بوجود عناصر الشرطة عند باب غرفة خالد، أوضحوا لأبي خالد أنه وابنه مطلوبان للعدالة، وأنهما رهن الاعتقال، مما أثار حفيظة شباب العائلة وهيَّج أعصابهم.. ليثوروا على مثل هذا القرار الجائر، أبدى العناصر تقديرًا خاصًا لشخص أبي خالد ولفداحة الوضع، وأكدوا له أنهم ينتظرون تحسُّن وضع الشاب، حتى يقودون الأب إلى مركز الشرطة ليتمَّ التحقيق معه وأخذ أقواله وربما اعتقاله بناءً على ادِّعاء بيت الخليل.. هذا ممَّا لا يحصل سوى نادرًا بسبب مكانة أبي خالد في نفوس الجميع، بينما يتحفَّظون على الابن في غرفته، ريثما يتمكَّن من الخروج معافيًا لالتحاق بأبيه وراء شبابك من حديد؟

التهمة فيما يبدو أصبحت مدبرةً وجاهرةً، لم يفدَّ أبا خالد اعتراضه وتوضيحه بأنهما المعتدى عليهما، فمن أمامه من عناصر الشرطة.. وهو يعرف ذلك.. هم القطع الأصغر والأضعف قرارًا في رقعة اللعبة، في قسَمات وجه المسؤول الأمني عن العناصر كانت ثمة ملامح ملبَّدة بالعبودية وهوس تنفيذ الأوامر دون أدنى محاولة فهم أو تقدير، لم يتحرَّك لديه أي شعورٍ أمام حجة أبي خالد المقنعة، وظلَّ متمسِّكًا بموقفه.. أبو خالد في قرارة نفسه يدرك أن محاولاته يائسةً، وأنه لابد له من الرُّضوخ والتسليم حتى يدبِّر الله لهما الفرج، أو يجد أحدٌ ما حلًّا لهذه المشكلة التي لم تكن بالحسبان إلى ما قبل ساعات.. في هذه الأثناء كان الجميع من آل أبي خالد يغلي غضبًا ورغبةً بالتمرُّد على أوامره، والذهاب إلى أبعد حدٍّ مع المعتدين مهما كلَّفهم

ذلك، تجاوز الأمر حدود النوايا إلى مرحلة التخطيط، والاتفاق على موعد التنفيذ.. لكن.. خلسةً بعيداً عن سمع وبصر كبيرهم، قبل أن يدرك بحنكته ذلك، ويستبصر الأمر.. ويحذّرهم من جديد. الأمر بدا أنه يعينهم كئثاراً لكرامة العائلة كلها وسمعتها، قبل أن يكون ردّاً على إصابة خالد؟

بعد ساعاتٍ اطمأنّ الجميع لحالة خالد الصحية، وخصوصاً والدته وخالدة، ها هو يخرج للتوّ من غرفة الإنعاش.. كان أبو خالد على موعدٍ محتوم في هذا الوقت مع قدر المضيّ برفقة رجال الشرطة إلى الحجز، ليُحال إلى التحقيق موقوفاً في مركز الشرطة الرئيسي، وربما يتطوّر الأمر إلى تحويله إلى النائب العام، ومن ثم إلى المحكمة.. هذا بحدّ ذاته أمرٌ رحيمٌ غير معتادٍ في مثل هذه الحالات يستدعي الحمد والشكر، لأن أجهزة الاستخبارات العسكرية، وقبلها الشرطة العسكرية، هي التي تتدخل عادةً في مثل هذه الأمور التي يرافقها إطلاق نار.. قد يؤدّي هذا في النهاية إلى طريقٍ مظلم، وإقامةٍ غير مشروطةٍ في أحد أقبية الأمن، دون تدخلٍ من أجهزة القضاء الرسمية، ثم يتبع هذا انتظارٌ قد يطول لشهورٍ، وربما لسنوات؟ .. بذات الوقت تمّ التحفّظ على المصاب خالد، وافق عناصر الشرطة على أن يكتفوا بالوقوف خارج الغرفة دون تكييل خالد في سريره، كما يجري حسب الأصول.. غير أن الوضع تحوّل فيما بعد، وبدون مقدّماتٍ، وحدث ما كان الجميع يخشونه ويتحسّبون له... ابتعد رجال الشرطة على إثر اتصالٍ مفاجئٍ من جهةٍ مجهولة، وحلّت عوضاً عنهم دورية مخبرات تابعة لمفرزة مركز المنطقة.. تمّ تقييد خالد في سريره ومُنِع الجميع من زيارته، وانتظرت الدورية مجرد تحسّنٍ بسيطٍ في صحته، ليقنّادوه إلى المجهول الذي يُعتبر

مرهبة الجميع..... كل هذا حدث خلال دقيقة واحدة... تغيّرت فيها كل الموازين والمخططات؟

في مساء ليلة القرية الدامية.. كانت الجلسة هنا في بيت السيدة عامرةً بالأجواء اللطيفة والأنس.. جعل هذا المناخ المتميّز واللّمة الحلوة العجوز تطيل بالسهر، على غير عاداتها، وفوق طاقتها، وكانت فيما سبق قلّما تسهر إلى هذه الساعة.. الجميع في السّاحة المركزية للبيت الكبير، يجلسون جانب البحيرة الاصطناعية الجميلة، حيث يُسمع صوت خرير الماء المطرب، وحيث تُريخلائط من الألوان للماء بإنارتها المتعدّدة، ويُشْمُ عبق الورد والرياحين، ونسائم الصيف العليلة تضيء على الجلسة قيمةً جماليةً عاليةً وعلى الجالسين..

كان الجميع في القصر يتحلّقون حول العجوز يسامرونها، ويصغون إلى أحاديثها التاريخية الشيقة، بأسلوبها الهادئ المميز والودود.. سردت لهم الكثير من حكايات حياتها، وسيرتها مع زوجها وبناتها، وانتقالها من حي القصاع في قلب دمشق القديمة، حيث يقطن عددٌ كبيرٌ من مسيحيي دمشق.. المكان الذي أقام به أهلها وأهل زوجها لعقود طويلة إلى هذا البيت، في عام ١٩٩٠.. كان زوجها تاجرًا من تجار الشام المعروفين، تستورد شركته وتصدّر الكثير من المواد والبضائع، وكان يملك مقرّين لإدارتها، ومستودعاتٍ ضخمةً في دمشق وطرطوس، حيث الميناء الذي كانت تصل إليه، أو تنطلق منه بضائعه.. استمرّ بممارسة عمله بنجاح ويسرٍ على مدى سنين، وكان يتمنّى أن يكون له ولدٌ يساعده في عمله ويحمل عنه عبئه حين تقدم به العمر، لكنهما لم يُرزقا سوى بالبنات اللواتي كنّ يسرن باتجاه

مختلفٍ عن أبيهما بما يخصُّ الدراسة والميول، فكلهن الآن مهندساتٌ وأزواجهن أيضًا.. ويعملن في مجال التصميم العقاري والمقاولة والبناء..

استقرّين خارج البلاد مع عائلاتهن، لأن ظروف العمل في الخارج كانت أفضل كما ذكرت العجوز ناقلةً عنهن، ثم إنهن اعتدُن على أوضاعهنّ الحالية، وكلُّ منهن تعيش سعيدةً ومرتاحةً سواءً ماديًا، أو على صعيد العمل، غير أنهن يحاولن دائمًا وبلا ملل أن يقنعن بتغيير رأيها، ومغادرة القطر لتعيش متنقلةً بين مقرّات بناتها، لكنها تأبى ذلك، وترتبط كما تقول أنفاسها بهذه المدينة، كما أنها تعيش هنا ذكرياتها مع زوجها المرحوم الرفيق الطيب الذي أكرمها طوال حياته، وخصَّها بالكثير من الأملاك والعقارات والمال، ومنها هذا البيت الكبير الذي تعيش فيه..

ظَلَّ الزوج حريصًا لمدةٍ طويلةٍ على عدم مغادرة منطقته، حيث أهله وأقرباؤه وأصدقائه، وحيث يأنس إلى قربه من دمشق القديمة، والكنيسة القديمة التي اعتاد وزوجته وأولاده على ارتيادها، رغم أنه مذ ذاك يملك الكثير من المال، يخوِّله أن يبني قصورًا... وفي أي منطقةٍ يشاء.. وقد شاركته زوجه وبناته في هذا الشعور، فأثروا أن يبقوا طويلاً هناك، حتى اضطرَّهم ضيق المكان حين كبرت البنات، وصار لزامًا أن يجد مكانًا أرحب.. يبني عليه هذه الفيلا الواسعة..

رنَّ جوال ثابت ليقطع سلسلة حديثها.. ثابت الذي كان مسرورًا مع العائلة والعجوز في حديقة الفيلا، ويتناول معهم بعض أنواع الحلوى والقهوة، وهو يصغي لحديثها الشيق، لم يجد بُدًا من الردِّ حين رأى أن المتصل هو أخوه من القرية.. ارتاب كثيرًا لهذا الاتصال الذي يعتبر متأخرًا بالنسبة لما هو معروف عن أوقات نوم العائلة هناك...

لاحظ الجميع مقدار التغيّر الذي طرأ عليه.. كيف تأثّر وبشكل مفاجئ، تلوّنت سحنته ووقف مشدوهاً، وبدا عليه الغضب الشديد لدى سماعه أخباراً لم تسرّه في القرية، حتى أن الجميع تأثّر لحاله، وخاف على إثر ردة فعله، وبالأخص هادية التي انتصبت واقفةً.. تشير له بقلق وفضول..

بدأ يتمالك نفسه حين هدأت أحواله نسبياً أخبار تحسّن حالة خالد، وزوال الخطر عنه بتقدير الأطباء، ونتائج الصور والتحليل والمراقبة.. على الأقل، ورغم الأحداث المزعجة التي حصلت.. زال الخطر عن حياة أخيه؟ جلس متنهّداً وهو يتمتم، وأخيراً محتسباً الله، وعلى تقاسيم وجهه المحمرّ تربّعت كل مشاعر التذمّر والغضب، والكثير من القلق على ملفّ اضطرابات متوقّعة، ستحدث وفق توقعه مع هذه العائلة المزعجة هناك.. هو يعرف تماماً أن فتحه يعني المزيد من المشاكل والقلال في المستقبل، ولن يكون بأي حالٍ من الأحوال.. لمصلحة عائلته في النهاية..

كان ثابت وكما سمع الجميع قد وعد أخاه المتصل أن يحاول فعل شيءٍ لأجل أبيه وأخيه.. أبلغه اعتذاره الشديد عن عدم قدرته على السفر فوراً، بسبب عدم إمكانية ترك العجوز وعائلته في هذا الوقت، وأكّد له أنه سيفعل ما بوسعه لحلّ الأمر، ثم الالتحاق بهم في أقرب فرصة.

لم يكن هناك داعٍ للحاضرين بعد أن انتهت مكالمته لتخمين ما حدث كثيراً، ولا للسؤال عن سرّ توتّره المرافق، توضّح تقريباً كل شيءٍ من خلال وجهه وانطباعاته أثناء حديثه.. وردوده، وبدأ ثابت مع هذا يشرح الموقف، بدا على هادية الحزن، وبدأت بالبكاء.. إلى أن طلب منها ثابت أن تستجمع شتاتها وتثبت، وطمأنها بخبر نجاة أخيه.. وتحسّن حالته الصحية..

بينما بدت على العجوز الدهشة وعلائم الاهتمام، وهي تصغي للقصة وحديثاتها، وأبدت ثابته الكثير من التعاطف، وتمنّت الشفاء لأخيه والفرج له ولأبيه.. أخذت تسأل عن كل ما يتعلّق بالموضوع.. تفاصيله وخلفياته وأسبابه، وأسماء العائلات والمسبّبين، فأشبع فضولها ردّاً ثابت الذي شرح لها أوضاع القرية كاملةً وبالتفصيل، مع وضع والده في القرية ووضع العائلة الأخرى.. ومجريات الأحداث..

سرعان ما تناولت العجوز هاتفها الجوّال بعد سماعها الرواية حتى النهاية، طلبت من ثابت أن يكتب كل المعلومات أمامها.. اتصلت بإحداهنّ، وراحت تحدّثها حول الأمر.. وبكل ثقةٍ وحميميةٍ تنقل لها المعلومات، واهتمامها بحله بالسرعة القصوى.. كان ثابت ينظر بعين اللامبالاة لما تفعل العجوز، لا لعدم ثقته بصدق تعاطفها ورغبتها بالمساعدة، بل لأنه يعلم مقدار الدعم والتأييد الذي تلقاه عائلة الخليل من قبل الدولة، وأنه لا قبل لأحد بمواجهتهم عبر الوسائل التي اعتاد عليها الجميع في وطنٍ قسّم مواطنيه إلى فئاتٍ متصارعةٍ على النفوذ، وحسب درجات القرب من منابعه، ممن لهم صلاتٌ بالجهات الحكومية والأمنية، وكاد أن يطلب منها ألا تورط نفسها وغيرها بهذه الأمور.. لكي لا تسبّب لنفسها ولمعارفها الحرج..

لكن حديث العجوز الواق، وابتسامتها الهادئة بعيد المكالمات، وتطمينها لثابت، كان له بعض الوقع المسكّن في نفسه... على استحياء... ظل ثابت يتقلّب على نار القلق والانتظار، منتظراً بريق أمل يخلص أهله من محتهم.. ورغم أن العجوز قد طلبت منه أن يلتحق بأهله ليطمئن على وضع أخيه وأبيه، إلا أنه أثر أن ينتظر ما قد يسفر عنه اليوم التالي من تطوّرات، ويكون حينها قد أمّن حوائج من أوّمن عليهم هنا، وترك القصر بدون نواقص.. قبل أن يغادر باتجاه القرية..

في صباح اليوم التالي.. اتصل ثابت مبكراً للاطمئنان على وضع أخيه ووالده، وحيث علم أنه لا جديد قد حدث خلال هذه الليلة الفائتة.. خرج من المنزل الكبير يسعى لأموال المنزل، ينتابه المزيد من القلق والحزن.. كلما مرّ الوقت بطيئاً متثاقلاً.. حين عاد من الخارج محمّلاً باحتياجات الجميع والبيت، وفي حدود الساعة الحادية عشرة قبل الظهر... حصلت المفاجأة التي لم يكن في أشدّ لحظات تأمّله ينتظرها؟

كانت مكالمة أخيه من القرية تحمل بشائر مذهلة.. لم يكن يتوقّعها أحد المتفائلين هناك، في ظل ما يعلمونه من ظروف.. ولا كان ثابت مستعداً ليصدق حدوث ما سمعه؟

- نعم يا ثابت.. أبشرك.. لقد أخلي سبيل الوالد وخالد.. والحمد لله.. والآن تتم ملاحقة المتسببين من آل الخليل بإصابته فوراً.. هذا تعميم صدر من دمشق لكل أجهزة الأمن والشرطة، ووصل منذ الصباح الباكر كتابان من جهتين مختلفتين، إحدهما وزارة الداخلية والثانية إدارة المخابرات العامة.. هل تصدق؟ يا إلهي.. هل هذا بفعلك؟ مع من تكلمت؟ الأمر فعلاً مذهل لا يصدق..

كيف فعلت كل هذا يا أخي؟ الجميع هنا مستغرب ومتفاجئ مما حصل؟ قال ذلك أخوه مندهشاً ومزهوّاً بما حدث، ثم بلغه تحيات الجميع.. وطلباً منهم ألا يسافر الآن إلى القرية تاركاً زوجه وعمله، وأن لا داعي لذلك بعد أن تحسّنت حالة أخيه، وزالت الخطورة تماماً.. ربما كان طلب العائلة أيضاً بدافع الخوف من زيادة التوتّر الحاصل، ومحاولة لمنع الصّدام مع العائلة المتهوّرة.

- يا إلهي أيّ قدرة ونفوذ لهذه العجوز؟ ومن تلك التي حدثتها وطلبت منها التدخل فيما حدث؟ وأي وصول لتلك السيدة حتى تقلب الأمور هكذا

رأساً على عقب؟ إلى أين وصلت بهذه المكالمات القصيرة.. حتى تجاهلت القوى الأمنية كلها هناك نفوذ آل الخليل المعروف بقوته في كل المنطقة؟ ظلّ يتساءل وهو يتقدّم باتجاه العجوز.. كانت تجلس في ركنٍ جميلٍ خاصٍّ بها تطلّ عليه شرفةٌ في غرفتها الكبيرة، وهي ترتشف العصير مع بعض الدواء: -لا أدري كيف أشكرك؟

قالها بصوتٍ عالٍ مشبعٍ بكل مشاعر الامتنان والفرح.. وهو يلهث كطفلٍ سعيدٍ في صباح عيد... ويهتز منتشياً طرباً بما تحقّق بفضلها: -لا شكر على واجب.. ولا تنس أنك أصبحت فرداً مهماً من عائلتي، لا يمكنني أن أدعك وأهلك في هذا الموقف، وأقف مكتوفة الأيدي... أنا أصلاً لم أفعل شيئاً مهماً.. وبعد برهة صمّت أضافت بابتسامةٍ غلّفت حروفها: -عليك تقديم الشكر للفاعل الحقيقي.. للدمام ميرفت فهي التي تولّت الأمر.

-ومن هي السيدة ميرفت؟

-ستزورني الليلة مع ابنتها، وستعرّفان عليها، وبإمكانك حينها أن تشكرها شخصياً.. هي صديقةٌ قديمةٌ من المقرّبات اللواتي لم ينقطعن عن التواصل معي، وزيارتي والسؤال عني يوماً.. وبالمناسبة.. زوجها المرحوم كان من كبار رجال الدولة، وما زال لها نفوذٌ ومعارف على أعلى مستوى، وابنتها فاتنة أيضاً كانت متزوجةً من واحدٍ من أهم الضباط المقرّبين في القصر الرئاسي، هي وحيدتها، ولكنها الآن مطلقة.. ستأتي معها الليلة.. بالمناسبة هما تقيمان على مقربةٍ من بيتنا هذا.. يعني نعتبر وإياهن تقريباً كجيران..

لم يكن لدى ثابت ما يقوله بعد حديث السيدة.. سوى أن يقابل الحديث بابتسامة قبولٍ وترحيبٍ مقتضيةٍ بالزائرتين المرتقب حضورهما الليلة،

وإخبارها بامتنانه لها ولهما، وبأن عليه أن يقدم للسيدة وابنتها ما يليق بهما استقبالا وحفاوة، وبأنه سيقدم وعائلته الشكر شخصيا لما فعلت.

انضمَّ ثابت إلى عائلته وراح يحدث هادية بما جرى، وما ذكرته العجوز عن السيدة ميرفت وابنتها، وعن قدومهما الليلة، طلب منها التأنق والاستعداد لاستقبالهما بما يليق، ومساعدة الخادمة في اختيار وتحضير الضيافة المناسبة، رأى أن يخرج لي جلب شيئا خاصا بهذه المناسبة..

لم ينسَ في خضمِّ دهشته وشعوره بالزهوِّ لما حصل، أن يحدث هادية عما يشعر به من قوة غريبة تسري في دمه ومفاصله.. لم يشعر بها قط، وهو يفكر اللحظة بردود الفعل المتوقعة هناك في القرية بين الأهل والأقارب، وبالذات في بيت الخليل الذين تغطرسوا كثيرا فيما مضى.. وحتى اليوم..

صارحها بأنه بعد هذه الحادثة وما رافقها وتبعها اقترب من التوصل إلى قناعة مفادها... أن الضعيف في هذه الأيام مسحوقٌ مهما حمل من قيم وإخلاص، ولا بد للمرء من الحصول على الدعم والقوة ليحفظ هيئته، وحضوره البارز.. مما أثار حفيظة هادية، وحرَّض استغرابها كثيرا، لما رأت في صوته وعينه من علامات تبدُّلٍ لم تكن تنتظرها من ثابت، على ما عهدته طوال معاشرتها له، في فكره وقيمه

في ساعة مبكرة من المساء كان الجميع على أهبة الاستعداد.. وعلى موعدٍ لاستقبال السيدتين ميرفت وابنتها فاتنة..

- يا الله.. ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. ما أجملهن.. كأنهما من سيدات الشاشة اللواتي يظهرن في الأفلام.. أدعو الله لهن بالسترة والهداية..

همست هادية بأذن زوجها حينما دخلت السيدتان كأمرتين مبهرتين شكلا ولباسا ورائحةً إلى الصالون، واختارتا موقعهما من الجلسة بكل

أناقة.. وبهاء.. وثابت يشير إليها بوجهه لكي تخفض صوتها.. خشية أن تسمعا ما تقول.. وقف ثابت مذهولاً بجمالهن الملفت، وخصوصاً السيدة الابنة فاتنة التي لها من اسمها نصيبٌ وافر، بشعرها الأشقر المسترسل على كتفيها، والمنسَّق بيد خبير، وبشرتها التي ظهرت من خلال ساقبيها السافرين والموغلة في البياض، وعينيها الملونتين الواسعتين، وطولها الفارع، وجسدها المتناسق الجميل.. ولباسها الفاتن الباذخ.. كمن لم يسبق له أن رأى أنثى، وبغير وعيٍ منه وإرادةٍ، استطاعت هذه الفاتنة أن تستأثر بكل انتباهه..

راح يطيل النظر إلى السيدة الصغيرة، وهو يرحَّب بهما، ويقدمُ شكره وتقديره لهما على ما تفضَّلتا به اليوم من خدمةٍ هي في غاية الأهمية بالنسبة له ولأهله، شرح لهما ما حصل، وبشَّرها بان الموضوع انتهى بمعجزةٍ لم تكن لتحصل لولا تدخلهما المشكور.. ذو الأثر العظيم.

في الجانب الآخر.. كانت الحسناء فاتنة أيضاً قد شدَّها هذا الشاب الوسيم الممتشق طوَّلاً، حين قدم نفسه وزوجه.. بقسمات وجهه الرجولية الجميلة، وأسلوبه الجذَّاب اللبق في الحديث فلم توفِّر نظراتها المتواصلة باتجاهه، ربما بحكم العادة وطبيعة الحياة التي تعيشها.. تسترقها باتجاهه كلما سنحت الفرصة.. ترافقها ابتسامةٌ ساحرة.. ولم تعبأ كثيراً بكون الرجل يجلس بجوار زوجته.

- يا إلهي ما هذه الفتنة.. أملاكٌ هي أم بشر؟ لم أكنْ قطُّ أنظر لفتاةٍ هكذا، واليوم أراني وأبصاري تشخص باتجاهها من غير رادع، ما سرُّ فتنة هذه المرأة؟

كان يحدث نفسه شاردًا، وقلبه ينبض بقوة، حتى أعاده صوت العجوز إلى رشده.. وهي تُقبل مرَّحبةً بالضيفتين وتسلم عليهما بحرارة.... جلست مقابلهما،

وتحدثت السيدات عن أشواقهن بعد طول غياب، ثم شكرت العجوز السيدة ميرفت على تفاعلها واستجابتها الفورية.. وتدخلها النافع في وقته..

لم تكن الوالدة أقل فتنةً ونضارةً من ابنتها بكثيرٍ رغم فارق السن، تشعُّ حضورًا وجاذبيةً وأناقة، وقد بدا أنها أختٌ أكبر لفاتنة.. تداركت العجوز الموقف بعد تأخر، فقدّمتهما لثابت وعائلته، ثم قدّمت لهما ثابت وهادية وصغيرهما تقديماً لطيفاً مشفوعاً بالكثير من المديح والثناء.. مما زاد من اهتمام فاتنة وأمها بمعرفتهما أكثر..

أشار ثابت بعد دقائق لزوجته بالاستعداد للمغادرة، وطلب الانسحاب معتذراً.. وعلامات الحرج والخجل باديةً عليه، وشاكراً السيدتين الضيفتين للمرة الثانية.. غير أن السيدتين والعجوز طلبا منهما متابعة الجلسة، لتكون فرصةً للمزيد من التعارف، فلم يحاول مطلقاً.. وعلى غير عادته التنصّل والاعتذار، فرغبته الليلة باستمرار هذا المشهد أمام عينيه كان خارج إدارة عقله.. ومخزون تراثه.. أثاره سحر السيدة الصغيرة الجذابة بقوة.. شدّته للجلوس والمتابعة، بلا تمنّع وإصرارٍ، وبلا محاكمةٍ عقليةٍ تستند إلى خلفيته الخلقية والتربوية التي نشأ عليها.. تلك كانت إحدى سماته في كل موقفٍ يوضع فيه فيما مضى من حياته.. ولكن ذلك كان فيما يبدو.. قد أصبح بعد هذه الليلة من التراث.. قبل ظهور الفاتنة؟

استمرَّ الحديث المتبادل، وتناول الضيافة، ولم تتوقّف نظرات ثابت وفاتنة كلٍّ للآخر، غير أن ثابت ظلّ يسترقها، والخجل يأخذ منه كل مأخذٍ، بينما صارت الفاتنة أكثر جرأةً ربما بحكم وجودها ضمن مجتمعٍ أكثر انفتاحاً.. وراحت نظراتهما تشي بالكثير من الإعجاب.. زاده وضخمه في العيون والنفوس.. ما سمعته فاتنة ووالدتها من حديث ثابت، ومن العجوز عن ثابت من تقديم.. يزخر بالكثير من الثناء والتقدير؟

هادية كانت خارج المعادلة حضوراً أو انتباهاً، فالمسكينة الخجولة كانت تستمع وتتابع مبهورَةً، بما لم تعتد قط من سيدتين.. وكأنهما من عالمٍ آخر.. وقد حجبتهما طبيعتها اللا متناهية عن ملاحظة أي شيءٍ مريب.. ثابت الذي لم يصفاح امرأةً غريبةً قط.. ولم يفكر في التقرب من إحداهنّ، ولم تلفت نظره فيما سبق حسناء، وجد نفسه هذه المرّة يمدُّ يده مبتسماً كسيدٍ مهذبٍ راقٍ بمفهوم البيئة الجديدة، ليودّع الضيفتين اللتين كان لحضورهما كما بدا إضافةً بالغة الأهمية في رحلة التحوّلات التي يشهدها مؤخرًا، والتي بدأت تنذر به بقدامٍ مجهولٍ خطير..

بقيت نظراتهما المتبادلة مستمرةً، حتى مرحلة ابتعادهما تمامًا عن مرمى النظر.. السيدة العجوز لم يلفت انتباهاها أيضًا ما جرى في السهرة، ربما لأنها كانت أغلب الوقت مشغولةً بالحديث مع السيدة ميرفت.. صديقتهما القديمة.. مقتطفتين من بساتين الذكريات قطوفًا متنوعةً، وقد بدتا في غاية المتعة والسعادة بذلك.

خرج ثابت وزوجه بعد أن اطمأنّا على وضع السيدة صاحبة القصر، وودّعاها وتأكدا من أنها خلّدت لفراشها بعد أن تناولت أدويةها.. استعدّا في منزلهما للنوم أيضًا، بعد أن تبادلوا بعض الأحاديث تعقيبًا على السهرة والضيفتين، وكان قد سبقهما عثمان لذلك منذ ساعتين... لم يكن لثابت بعد كثير تقلّبٍ وتفكيرٍ فيما جرى، وإحساسه الغريب بأنه اقترف إثماً كبيرًا... أن يغفو سريعًا.. على أثر حالة أصابته بسحر السيدة الصغيرة الفاتنة، وراجع نفسه وراح ينظر إلى هادية، وقد غلبها النعاس فنامت، وكأنه يريد أن يعترف لها بأن عينيه الليلة قد خانتها.. وبعد كثير مقارعةٍ لشعورٍ مؤلمٍ بالذنب... غطّ بفعل الإرهاق والسهر في نومٍ عميق...

لم يكذب يغفو لدقائق حتى رنَّ جرس السيدة الذي خصَّصه منذ قدم إلى البيت لتنبئها في حالات الطوارئ، والذي يربط غرفة السيدة بهما.. استيقظ فزعاً ومعه هادية، وارتديا سريعاً ثيابهما، وهرعا باتجاه غرفة العجوز ليجداها في حالة مزرية.. تصيح من الألم، يكاد نبضها يتوقف لشدة الأوجاع؟ قامت هادية بمساعدة الخادمة بالباسها سريعاً، وحملها ثابت واتَّجه بها إلى السيارة، غير منتظرٍ لقدوم سيارة إسعافٍ، فقد رأى في ذلك مضيعةً للوقت.. خلال لحظاتٍ كان ثابت يقود سيارته منطلقاً بالمريضة باتجاه المشفى.. أدخل الكادر الطبي المرأة إلى غرفة العناية المشددة، ومُنِع ثابت وهادية من الدخول إليها..

مرَّت الدقائق ثقيلاً، وهما يقفان خارج الغرفة بانتظار خبر.. ظلاً يراقبان دخول الأطباء المسعفين وخروجهم بقلقٍ بالغ، حتى وصل فيما بعد طبيها المشرف على حالتها، والذي تمَّ استدعاؤه بشكلٍ طارئٍ للإشراف على وضعها.. بعد انتظارٍ طويل.... كان خلاله قد تمَّ إجراء بعض الفحوصات للمريضة.. خرج الطبيب سائلاً عن مرافقيها، فتقدَّم منه ثابت يسأله بلهفة:

- ما هي حالتها يا دكتور؟

- أخي الكريم مريضتكم للأسف، من خلال الأعراض الأولية في وضع حرجٍ بالنسبة لمرضى السرطان، سيتأكَّد لنا الوضع أكثر بعد أن نجري لها بعض التحاليل والصور.. وهذه تحتاج إلى المكوث في المشفى قليلاً..

- لا بأس دكتور.. المهم صحتها.. ولكن ما هو المخرج في حالتها؟

- كما تعلم فإننا استطعنا فيما مضى وبتوفيقٍ من الله، وبالاتماد على العلاجات الكيميائية والأشعة السيطرة على انتشار الأورام، هذا ظهر جلياً من خلال مراقبتنا لتطور الحالة، وبقيت حالتها مستقرّةً لبعض الوقت..

لكنَّ أعراض اليوم الأولى تدلُّ على زيادة الانتقالات الورمية، هذا أمرٌ غير مشجِّع أبداً للأسف، أمل أن أكون مخطئاً... الاختبارات والصور ستكون هي الفيصل في هذا الأمر..

-حسبنا الله ونعم الوكيل

قالها ثابت والأسى يعتصر قلبه أثناء مغادرة الطبيب، استدار باتجاه زوجته وطلب منها الاطمئنان على وضع عثمان في المنزل من خلال الهاتف، والاستعداد لإيصالها بعد ساعةٍ إلى القصر. في المنزل حضراً للمريضة بعض الحاجيات الخاصة، حملها وغادر بها ثابت مرةً أخرى إلى المشفى.. تقاطع وصوله مع أوان الفجر الذي اشتاق للحظات استيقاظه فيه، واللجوء إلى المسجد.. قبل أن يصل إلى بابها معلناً عن افتتاح يومٍ جديد... التفت فوجد مسجداً قريباً، دخله وتوضأ، ثم صلى مع المصلين، دعا الله للمريضة ولزوجته ولأخيه وللجميع.. في لحظات خلوةٍ ومراجعةٍ للذات.. وجد نفسه تستعرض ما يجري معه، وكيف أودت ظواهر الحياة الجديدة وآخرها فتنة الشابة الحسناء.. بحصون مناعته، وتأثير ذلك على نفسيته وسلوكه:

- لم أشعر أنني أغادر ثابت، وأخلع كسوتي التي تربيتُ عليها؟ لم أفقدني بهذه السرعة؟ أليس هذا غريباً على مثلي؟ والأخطر من هذا.. لم أستسيغ هذا التحول بكل هذه السهولة، وبدون مقاومة؟

سائل نفسه ودعا، ثم مضى.. ووجه فاتنة الأمس رغم ذلك يكاد لا يفارق مخيلته، بل ويدقُّ أبواب قلبه دقاً عنيفاً.. تستلب أحاسيسه نشوةً لم يشعر بها من قبل؟

- يا ربَّ غفرانك ودعمك فأنا عبدٌ ضعيفٌ.. أمدني بالحصانة مما لا ترضاه وارزقني الثبات..

ظَلَّ هذا الدعاء رفيقه في الطريق.. دخل المشفى على عُجالةٍ، حاول أن يتوصَّل إلى خبرٍ عن العجوز من داخل غرفة العناية المركَّزة، والتي يمنع على المرافقين دخولها، بينما كانت هادية تتصل به كل حينٍ لتسأل عن السيدة.. طمأنته إحدى الممرضات عن حالة العجوز، ونقلت منها سلامها..

بقي حتى الظهر منتظرًا خارج العناية ليحصل على نتائج أكثر وثوقًا من الطبيب ما يتعلَّق بوضع السيدة، كان حينها قد وصل إلى درجة كبيرة من النعاس والإرهاق.. عند الظهيرة أمر الطبيب بنقلها إلى غرفةٍ خاصةٍ، انفرجت أسارير ثابت قليلًا، وهو يراها بخيرٍ لا تعاني من الألم، وأشعرها بالمقابل بالراحة بوجوده، وبعبارات التهئة والتشجيع، حاول قدر الإمكان أن يرفع عنها غمّة المرض..

ما إن اطمئنَّ ثابت لاستقرار حالتها، أوصى الممرضات بها، ودسَّ في أيديهن بعض الليرات مقابل جهودهنَّ حرصهنَّ عليها.. استأذن منها في الذهاب ليطمئنَّ على وضع البيت ومن فيه وحاجياته، وليحضر هادية للبقاء معها. في فترة ما بعد العصر كانت المرأة قد خضعت لكل ما طلبه الطبيب من فحوص وصورٍ، عاد ثابت ومعه هادية حيث تركها هناك وغادر باتجاه البيت بعد أن شعر بالراحة والاطمئنان لبقائها مع المريضة، علم قبل ذلك أن النتائج لا يمكن أن تكون جاهزةً قبل اليوم التالي، أمَّن لهما ما قد يحتاجاه من طعامٍ وشرابٍ ودواء...

في اليوم التالي كان ثابت قد استيقظ مبكرًا، واستودع عثمان في رعاية الخادمتين مضطَّرًا، غادر القصر إلى المشفى حاملاً قلقه، مؤمِّلًا نفسه بسماع نتائج إيجابية لحالة العجوز المرضية، رغم كل ما أوحى به الطبيب في اليوم السابق.. وجد الطبيب المشرف في الغرفة يكشف على المريضة، كانت نتائج الفحوصات بين يديه، لم يتحدَّث بشيءٍ سوى بعض التطمينات للمريضة،

ورفع المعنويات التي لم تشبْ لهفة ثابت، شعر أن خلفها شيءٌ لا يسرُّ عن حالتها يخفيه الطبيب في معسول دبلوماسية حديثه..

تبع الطبيب إلى الخارج واستعلم منه، جاء الرد كما توقَّع، حيث لم يخفِ عن ثابت خطورة الحالة، بناءً على توقُّعاتٍ تشخيصيةٍ أولية، بل وزاد على ذلك بأن أخبره بكل وضوحٍ وصراحة:

- اعتذر عن قول هذا، وهو بالنسبة لي صعبٌ ومحرجٌ.. لكني لن أخدعك.. العمر الافتراضي لمريضة بهذا المرض، من خلال ما توضَّح سيرة الحالة، ونتائج التحاليل والصور.. قد أوشك على الانتهاء.. أمامها للأسف الشديد كحدٍّ أقصى بضعة شهور تعيشها، حسب المعطيات الطبية التي بين يدي.. ما لم يكن للخالق عزَّ وجلَّ أمرٌ آخر؟

وجد ثابت نفسه محبباً حزيناً على العجوز التي بدأ وعائلته يألّفونها، ويحبونها بصدق.. في مقابل حبها واحترامها لهم وتكريمها اللا محدود، ذلك عدا عن تصوّر ثابت وتخيلُه لمرحلة ما بعد العجوز، ممّا يخلف في النفس الكثير من التوتر والتوجُّس.. وجد نفسه متّصلاً بحكم الواجب بالسيدة ماري ابنتها المهاجرة، ليلبّغها بالوضع.. رغم حرجه من ذلك في بادئ الأمر..

في المساء كان الجميع في المنزل، والعجوز المسكينة ربما.. لا تدرك بأن عدّاد أيامها قد بدأ بالعدِّ العكسي التنازلي؟



(٣)

أعراضُ وحامٍ

القتلُ والتعسفُ لا تبرّرهُما الحيطةُ وحاجة الأمن.. ولا يبرّئُهُ
الخوف من المجهول..

والاستبدادُ يدينُ صاحبه تحتَ كلِّ الظروف
الوطن ليس ملكاً لأحدٍ حتى يسوّره بالدماء..
وليس مشاعاً كي يقدّمه نافذ اليد للأعداء.. حين يشاء!

(قبل أربعة أعوام).. في صيف عام ٢٠٠٦

على جبلٍ قريبٍ من محافظة اللاذقية الساحلية استلقت تلك القرية
الوادعة الجميلة المترعة خضرةً، تزيّن الطريق إليها وسفوحها أشجارٌ حراجيةٌ
ضخمةٌ ضاربةٌ في القدم من مختلف الأنواع، تزفُّ القادم إليها من الجانبين،
وعلى امتداد النظر هبوطاً وصعوداً.. لولا حال معظم بيوتها وساكنيها من
الفقر والبساطة لحسبها المرء بقعةً من بقاع أوروبا جمالاً واخضراراً، تشدُّ عن
عموم بيوتها الفقيرة المسطّحة بعض الفيلات والقصور الفاخرة البارزة على
الهضاب والتلال، أو في أجمل بقاع المنطقة، هي لأصحاب السعادة والسيادة
من ضباط متنفّذين ومسؤولين في الدولة، أكثرهم يخدمون في أعلى المناصب
بقطاعي الجيش والاستخبارات، والقليل في سلك الداخلية والشرطة؟

كأنها لم تشهد من مدنيّة العالم سوى هذه القصور، وما يصل منازلها
الفقيرة من أخبارٍ عبر التلفاز.. هي من ضمن منطقةٍ واسعةٍ ممتدّةٍ على

الشريط الساحلي، معظم قراها وبلداتها يقطنها موالون للنظام في غالبيتهم.. أهم إنجازاتها في السنوات الخمسين الأخيرة أنها انتقلت من حالة الإقطاع والملكيات الكبيرة، والتي كانوا مضطرين للعمل ضمن منظومتها، وبقوانينها الجائرة المتسلطة حد الاستعباد.. إلى حالةٍ مختلفةٍ مترددةٍ لا تشبه سواها، فلا هم تحوّلوا إلى وضع اكتفاء تامّ وارتقاءٍ على كافة الصُّعد، ولا ظلُّوا تحت نير عبودية الإقطاعي الذي كان يعتبر الأرض ومن عليها أملاكاً شخصيةً يجوز له التصرّف بها كيفما شاء.. لكن التبدُّل هذا زمنياً حصل فعلياً قبل حكم البعث، بإصدار قانون الإصلاح الزراعي في عهد الوحدة مع مصر في أواخر خمسينيات القرن الماضي، بينما حمل حزب البعث راية هذا التغيير وادّعى دائماً فضله؟

لم يميّز سكّانها حديثاً كثير ثراءٍ ورخاءٍ، بل شعوراً بالاستقلالية وبعض الإحساس بالسيادة، بحكم ولائهم المطلق لأصحاب الكلمة هناك في قصر الرئاسة في العاصمة.. هذا وحده كان بالنسبة للكثير من المخضرمين الذين عاصروا الحاليتين كافياً ومقنعاً، إلى درجة التباهي والتغني به.. وبمن حقّوه..

بساطة الناس الذين ظلوا يعيشون فيها كبساطة حياتهم وبيوتهم ما زالت هي الوشم الأوضح للحياة اليومية، بعاداتهم المتوارثة، وثقافة معظم سكانها المحدودة في مجتمعٍ منفتح اجتماعياً ضمن القريين على صعيد ضيق، حيث يمارسون أفراحهم وأتراحهم نساءً ورجالاً بكل أريحية فيما بينهم في الغالب، دون حضورٍ كبيرٍ للأغراب، سوى من ألزمته طبيعة الحياة منهم والعشيرة خلال إقامته خارج هذه المنظومة إلى الاختلاط أكثر مع الجميع.. يمكن ملاحظة إتقان الكبار منهم وبخبرةٍ ودرايةٍ لأصول التعامل مع الأرض والمزروعات.. دون كللٍ أو ملل.. بعض المنازل ما زالت تستسقي بطرقٍ بدائية، ودواخلها لا تنعم سوى بأقل وسائل العيش، لكن القلّة القليلة التي استفادت مادياً من

وجود أحد أفراد الأسرة في موقع عالٍ في مقام الدولة، انعكس ذلك عليها وعلى بيوتها وهيئات أصحابها خيرًا واضحًا.. الحسرة والشعور بالدونية في وجوه الآخرين لم تكن أقل وضوحًا، لكن دون أن تنطقها الألسن جهارًا، سوى في دائرة ضيقة لا تتعدى ربما محيط العائلة.. فعقوبة المتذمّر منهم تفوق سواهم بأضعافٍ.. أثبتت هذه الحقيقة تجارب سابقة عديدة؟

الجميع هنا إما يعمل في الأرض وزراعة الحمضيات والتفاح والعنب والزيتون، وهم في الغالب كبار السن والنساء، مما أدّى تدريجيًا إلى تقلّصها، بحكم ضعف اليد العاملة وقلة عددها، وضعف إدارة هذه المنتجات على مستوى الوطن كله، ومشاكل التسويق.. أو متطوّعون في سلك الجيش والمخابرات والشرطة، وهم الرجال والشباب.. إلا القليل ممن انتحى طريقًا آخر كدراسة جامعية مدنية، أو عملًا في مختلف..

قسمٌ كبيرٌ منهم استقرّوا وعائلاتهم في المدن الكبيرة، قرب مواقع عملهم كدمشق وحمص وحلب وغيرها، وآخرون صارت إقامتهم في المناطق الحدودية الجنوبية، بحكم وجود أهم وأكبر القطع العسكرية العاملة على الجبهة المفترضة مع الكيان الصهيوني.. تؤمّن لهم الدولة إقامتهم في مساكن خاصّة، على شكل ضواحٍ مخصّصة بالعسكريين، أُشيدت على أطراف بعض القرى والبلدات في تلك المنطقة قريبًا من ألويتهم وثكناتهم..

قرب بيت أبي غانم الجميل والكبير، وفي أطراف القرية على تلة خضراء، اجتمعت العائلة مع بعض الأقرباء في صباح يومٍ من أيام نهاية أسبوعٍ صيفيٍ لطيفٍ.. على رابية خضراء مطلة على سهل أخضر خصيب، حولهم الكثير من الأشجار المتنوعة والورود المتفتحة بألوانها المختلفة وروائحها الطيبة، جلسوا تغمرهم السعادة باللقاء.. منظرٌ موغلٌ في الفتنة والجمال، وهواءٌ

نقيّ، وإطالةٌ مميزةٌ تأخذ بالألباب، الجالسون الذين يمارسون شرب (المثّة) بعد إفطارٍ ريفيّ شهيّ، يحتفون بانبهم الضابط في سلك المخابرات في العاصمة، والذي طالت غيبته الأخيرة عنهم، كان قد وصل في وقت متأخرٍ من الليلة الفائتة زائرًا وحده دون عائلته، والحديث يسوق آخر تلو الآخر.. أصغر الجالسين وأكثرهم سعادةً بلقاء الضيف الذي يحبه ويحترمه كثيرًا.. كان علي الأصغر والمدلل في العائلة..

علي يتذكر بيتهم المتواضع القديم في وسط القرية، والذي نشأ به صغيراً، قبل أن يمدّهم الضابط غانم بالمال اللازم لبناء هذا البيت الكبير، حين كان يخدم في لبنان ويتحصّل على موارد مالية وفيرة لا يدري مصدرها سوى هو ومن رافقه هناك من المستفيدين، بنى أبو غانم منزله الجميل على قطعة أرضٍ يملكها كبيرهم والده أبو صالح منذ عهد اقتسام الملكيات في نهاية خمسينيات القرن الماضي، وقد كانت معظم هذه الأراضي فيما مضى ملكاً لمجموعةٍ من إقطاعيي المدن الوسطى الكبيرة.. يراجع علي أيام الفقر والحياة التي كانت على قدر الحاجة، وربما أقل أحياناً، حسب إنتاج الشجر وأسعار الفاكهة.. كل ما كانوا يملكونه قطعة أرضٍ زراعيةٍ واحدةٍ ليست بالكبيرة، زرعها الجدُّ قديماً، أكثر ما فيها من الأشجار هي أنواع الرمان والجوز والتفاح، لكنها كانت وماتزال أحلى أيام حياته وأكثرها التصاقاً حميمياً بنفسه، نشأ خلالها نشأته الأولى.. مارس شقاوة الطفولة.. وأنتمّ الابتدائية والإعدادية، قبل أن ينتقلوا خلال المرحلة الثانوية إلى البيت الجديد.. تبدّلت من خلال هذا الانتقال الكثير من الأجواء بالنسبة له، تبقى ذاكرة القديم عنده مملأى بما يثير دوماً لديه شجون الحنين، مازال حتى اللحظة لا يكاد يمرُّ يومٌ دون أن يربط فيه حول بيتهم القديم، وفي مراتع

الصبي.. يقضي الوقت مستمتعاً مع رفاق تلك المرحلة، يستعيدون فيها الحوادث عند أمكنة حدوثها.. كان علي وقلةً من رفاق دربه ومنذ نشأته يتميزون بين أقرانهم بسجيّة الفضول وكثرة الأسئلة.. العديد منها كان بالنسبة له وما يزال حتى الساعة يستجدي لها الجواب المقنع المريح.. طموحه نما واستطال مع الأيام مع تنامي شكواه من واقع القرية وأهلها، وربما الفئة التي ينتمي إليها، فقد كان يتذمّر دائماً ومنذ سنوات الدراسة الأولى من عدم وجود الكثير من الدارسين باختصاصاتٍ متنوّعة، وانحسار المدّ التعليمي والثقافي على مستوى المنطقة بأسرها، لاحظ جنوح أكثر من حوله من أصدقاء وأقرباء وجيران نحو الحياة العسكرية بمجرد أن يصل أحدهم إلى سنّ تؤهله لذلك.. كان يتساءل دائماً عن تاريخ المنطقة وسكّانها، يستهجن كثيراً شعور الكبار من رجالها بأنهم أصحاب السيادة والمكانة في هذا الوطن كله، بحكم قيادة الرئيس الذي ينتمي أصلاً لها، واعتماده في سلك الجيش والأمن وأهم المراكز الحسّاسة في القيادة على أهل المنطقة بشكلٍ رئيسي.. وعن شعور الكبار بمظلومية سابقة لهذا العهد، مازالوا رغم انقلاب الحال يجترّون أعراضها.. جعله هذا يتساءل ويفكّر.. هل كان هذا الأمر جديراً بالاحتفاء به وشدة الولاء له فعلاً؟ كان دائماً يقارنه بالواقع المتجلّي على الأرض من حيث المستوى المادي والحياتي الذي يعيشه السواد الأعظم من أهل هذا الريف الممتد، عرّضه فضوله هذا إلى الكثير من التأييب والزجر، خصوصاً من قبل كبير العائلة أبي صالح.. الجد المتعصّب حدّ الهوس، ربما لكونه المخضرم الذي يستطيع وحده من ضمن العائلة أن يدرك ميّزات المرحلة، والفرق الكبير بين عهد ما قبل.. وما بعد وصول رجال المنطقة إلى سُدّة الحكم ذات انقلابٍ.. دُعِيَ حينذاك بالحركة التصحيحية عام ١٩٧٠

الجد أبو صالح أبيض البشرة ملوّن العينين، زرقتهما فاتحةٌ تعطي انطباعاً بالكثير من الدهاء والمكر.. نحيلٌ وطويل، لكنّه يتميزٌ رغم نحالته بهيكلٍ عظيمٍ عريضٍ وقوي.. حليق الشاربين واللحية دائماً رغم تقدّمه بالسن، منحتّه الأرض الكثير من القوّة والمراس، وأبعدت عنه طويلاً شبح الهرم والشيخوخة، ظلّ صامداً مثل أشجار بستانه، يباهي في حضرتها.. وهو يعالجها ويقدم لها كل ما تحتاج من الرعاية والمتابعة.. بانتصاب قامته واستمرار ربيعته الدائم.. لأبي صالح الصّولة الأولى والأخيرة في العائلة، يقيم في بيت أكبر أولاده أبي غانم ومع عائلته، مع وجود أبناء آخرين له، لكنه منذ أن ماتت زوجته شابةً فضّل العيش مع أبي غانم أقرب أبناءه وأحبّهم إلى قلبه، زوّجه في بيت العائلة القديم، وقدم له الأرض دوناً عن الآخرين ليني عليها هذا البيت، وبقي معه مقيماً.. حتى في ترحاله إلى البيت الجديد..

أبو غانم رجلٌ يشبه أباه كثيراً في الشكل، ويتأخّر عنه في الطول والهيبة والحزم، لطالما انهزم أمام إصرار أبيه العجوز الصارم، واستكانت قامته في مهبطٍ قراراته، حتى بما يخصّ مستقبل عائلته وأولاده، حتى اليوم.. كان أبو غانم مع والده أكبر مشجّعين لغانم المحبوب الضابط في الاستخبارات، منذ اختياره للكلية الحربية طالباً كبوّابةٍ لتحقيق أحلامه، فخوّر بما أنجزه الابن البارّ حتى الساعة في مسيرة حياته العسكرية.. وصولاً إلى منصبٍ معقولٍ في المخابرات؟ لكن في حقيقة الأمر.. الجدّ كان دائماً وما زال هو الداعم الحقيقي والفاعل له في مختلف المجالس، ولدى الواصلين من قدامى السلك الذين يُعتبر الكثيرون منهم أصدقاء العجوز وأقرانه أو أبناء أقرانه، والكثير منهم ما زالوا أحياء، ولهم كلمةٌ قويّةٌ تقال، ويصغى إليها في دهاлиз الدولة، حتى بعد تقاعدهم.. وابتعادهم عن الحياة العسكرية..

الجد أبو صالح يمتلك علاقاتٍ طيبة مع أهم مشايخ المنطقة، وهم لهم ما لهم منذ تأسيس نظام الحكم الجديد من تأثير مبطنٍ على رأس الهرم هناك في دمشق.. ترمّل أبو صالح منذ ثلاثين عاماً، وما زال يقاتل وحدته بإرادته الصلبة، ومحافظته على شعوره بحميمية العائلة من الأولاد والأحفاد وزوجاتهم.. وحتمية دوام العمل في الأرض..

أما أم غانم فكانت حلقة الربط العاطفية في الأسرة، والمحظية لدى الجميع، أحبها أبو صالح أكثر من بناته الخمس المتزوجات، وربما من باقي أبنائه الذكور، هي امرأةٌ حنونٌ صبور، تتدفّق مشاعرها باللهفة والعطف على الجميع، وعلى حدود علي ابنها الأصغر المدلل رسمت خطأً أحمر، لا تتوانى عن الدفاع عنه بقوة.. بكل ما أوتيت من عاطفةٍ ودموع...

حدّثوا غانم عن معاناتهم في الأرض والأشجار، ومشاكل الإخوة والأخوات، ومرض الجد الأخير الذي ألزمه الفراش لأسبوعين، وعن رفضه الذهاب إلى دمشق للعلاج، وحتى عن منعه الجميع من إخبار غانم بمرضه لكي لا يضغط عليه في مسألة العلاج والبقاء في المشافي، ذلك ما لا يطقه العجوز المكابر.. الأمر الذي أثار غانم وعاتب به الجميع، وبالأخص.. جدّه الغالي.. حدثهم غانم بالمقابل عن عائلته وصعوبة عمله وضيق وقته الدائم، ولهائه ليلاً ونهاراً حتى يثبت وجوده كمستحقٍّ لمنصبه الذي يكبر يوماً بعد يوم، ونظام بيته في دمشق، الذي يقع في ضاحيةٍ من ضواحيها، والذي تأثرت الحياة الاجتماعية فيه كثيراً بطبيعة عمله التي تفرض عليه التواجد معظم الوقت خارج البيت... حتى انتهى الحديث بموضوع مزمنٍ لدى العائلة كلها ذي شجن.. علي الأخ الأصغر الذي حصل على الثانوية العامة بعد محاولتين، ومازال حائراً في موضوع اختيار الجامعة والاتجاه الذي يرغب

بسلوكه في قادمات الأيام، ذلك الموضوع المؤرّق الشائك.. له حساسيته بالنسبة للجميع.. ذاك الفتى الأشقر ذو العينين الزرقاوين بلون البحر الذي لا تبعد قريته كثيرًا عنه.. متوسط الطول الهادئ، وصاحب البنية القوية كشخصيته المتفردة بين أقرانه، والسلوك المتحفّظ الرّصين، والذي يرفض رغم عديد محاولات أخيه ووالديه أن يلتحق بإحدى الكليّات العسكرية، يصرُّ على الدراسة الجامعية ضاربًا بعرض الحائط كل محاولات إقناعه بالعدول عن حلمه.. يخفي دائمًا خلف جدران صمته وهدوئه ثورةً متربّصةً، لم يجرؤ حتى اللحظة على إظهارها أو التفريط بكامل نواياها، وأصوات تمرّد صارخ على واقع لا يعجبه كثيرًا.. ما يزال يكتم أفواه معظمها.. تحت ضغط العائلة والدولة والظروف؟

- يا عزيزي لو أنك تصغي إليّ لمرةٍ واحدةٍ فقط.. وتحكّم عقلك..

قال ذلك له أخاه العقيد غانم الأربعيني الأبيض الطويل، مليء الجثة، ذو العيون الملونة التي تكاد تكون منسوخةً بالناسخة عن جده أبي صالح، والذي غزت سالفه بعض خيوط الشيب إيدانًا بقرب دخوله إلى مرحلة الكهولة، هو يأمل أن يستطيع إقناع أخيه الأصغر بوجهة نظر العائلة، بما يعتقدونه الأصوب لمستقبله.. غانم خريج الكلية العسكرية منذ عشرين عامًا أيام الحاكم الأب، لا ينسى أبدًا سنواته الأولى في الخدمة متنقلًا ما بين الجبهة ولبنان وريف دمشق في عدة أولويةٍ وثكنات، حتى توفّرت له الوساطة القوية من اللواء علي ابن منطقته، والذي يشرف قصره المنيف على موقع جلوسهم، ولكن من الجهة المقابلة.. بتدخلٍ من جده.. انتقل بموجب هذه الوساطة إلى فرعهم للمخابرات العسكرية، ومن ثم إلى أحد أقوى فروع سورية للمخابرات، وبدأ منذ ذاك يتدرّج مقامًا في الفرع حتى أصبح الآن أحد أهم ضباطه المهمّين؟

- تابع العقيد محاولته بتزيين صورة العسكرية لشقيقه المتمنّع علي:
- صدّقني إن سنوات الكلية الحربية الثلاث ستكون فاتحة خير عظيم ومقيم لك، ألا تدرك أنك إن درست في الجامعة لن تتغيّر أحوالك؟ خريجو الجامعات كثر، والقليل منهم يجدون عملاً، وإن فعلوا فإن مستقبلهم محدود، لا يتعدّى وظيفة حكومية معيّنة، مع الأخذ بعين الاعتبار مدة الدراسة الطويلة وتكاليفها، ثم الخدمة العسكرية الإلزامية.. وأخيراً انتظر دورك في السلم الوظيفي حتى يتسنى لك أن تبدأ حياتك، وتؤسّس بيتك وعائلتك.. بينما الفرصة أمامك متاحة إن كنت ضابطاً لتصل إلى أعلى المستويات.. قيمة وسلطة ومالاً... مَنْ يا أخي من الشباب يرفض هذا ولا يتمناه؟
- أنا لا أريد.. لا أريد أخي.. لا أطيق.. ثلاث سنوات في سجنٍ مؤقّت اسمه الكلية التدريبية، ثم في سجنٍ مؤبّد اسمه الحياة العسكرية.. مجرد التفكير في هذا يقتلني.
- أي سجنٍ يا هذا؟ لعلك جنت أيها ال....
- بنزق واضح استدركه غانم بإشارة مناشدة من والده ووالدته، ونظرة صارمة من جدهما.. حرصاً على شعور علي، مما جعله يتحكّم به ويروّضه قبل أن يتابع:
- يا أخي الحبيب.. يا مدلل والديك وجدك.. تأكل وتشرب وتندرب وتنام، وتعرّف على الكثيرين، لك إجازات أسبوعية تزور فيها أهلك، ستمضي هذه السنوات القليلة كلمح البصر، وسأكون قد أمّنت لك الفرز الجيد إلى أفضل وأربح المواقع.. سأؤمّن لك الوصول إلى المخبرات فوراً، ولا أظن أنك تعتبرني في موقعي الآن سجيناً؟

لم يكن بمقدور علي أن يجيب على سؤال أخيه الأخير هذا.. فهو يعتبره وأمثاله فعلاً من السجناء.. حاول أن يجيب بطريقة مستمراً بالهروب دون صدام:

- أرجوكم تفهّموا وضعي ورغبتني.. لا أستطيع.. ربما أفعل أفضل مستقبلاً، سأدرس الآن في كلية الحقوق، وأصبح بعدها قاضياً، ولم لا؟ ربما مدرّساً جامعياً أيضاً.. هذا بالنسبة لي هو حلمي وطموحي منذ أن كنت صغيراً، فلا تصادروه لي.. أرجوكم.. أليس لي الحق في اختيار مستقبلي، وأسلوب حياتي؟ ثم لماذا نكون كلنا في الجيش والأمن والشرطة؟ أنا لا أفهم.. ألا ترون أن القرية وربما معظم قرانا كادت تخلو من الدارسين وأصحاب المهن المدنية الراقية؟ هل يُعقل ألا يوجد في قريتنا طبيبٌ واحد؟ وربما يوجد مهندسٌ أو اثنان على أبعد تقدير، وقد أكون أنا.. إن نجحتُ في تحقيق حلمي المحامي الثاني.. إلى متى سيبقى تفكيرنا محدوداً ومقتصرًا على هذا الاتجاه؟ هاجسنا الأهم فقط.. السلطة والجاه والمركز؟

أنهى الأخ اليأس والغضب محاولاته بإقناع أخيه واستسلم لتعنته، بعد إشاراتٍ من الوالدين والجد بحكم علاقتهم العاطفية الخاصة بأصغر أولادهم علي، وشعورهم بالشفقة من الضغط عليه أكثر، ربما أيضاً بدافع استيعابه، ولثقتهم بأنه سيغيّر رأيه يوماً، ويدرك أهمية ما يريدونه له والفرصة الذهبية المتاحة له.. حتى ولو بعد الجامعة..

كانت هناك إشاراتٌ خفيةٌ من الجدّ لحفيده الضابط، التقطها وأدرك فيها ما يريد أن يقول، هدأ وراق طبعه، ثم تبدّلت لهجة العقيد المعاتبة، ووعد بمساعدته في دمشق، وتأمين الإقامة له في السكن الجامعي، وزين له ذلك بمعرفته لقسم كبيرٍ من أساتذة الكلية وموظفيها.. الذين يتمنّون أن يقدموا له خدمةً.. ويكسبون رضاه؟

استمرَّت الحوارات الودّية الجماعية بعدها متتاليةً، والحديث يستجُرُّ غيره حتى وصلوا إلى الموضوع الذي لا بد منه.. الحديث حول الوضع السياسي والأمني والاقتصادي في البلد، هذا حديث الساعة الذي يجد الجميع فيه همّهم.. وجلّ اهتمامهم؟

كان واضحاً من لهجة العقيد الوثيقة.. المتفائلة أنه ما يزال يرى في الوضع أنموذجاً حسناً للتطوُّر والحضارة والقوة، بقيادة المعلّم المثقّف رائد التطوير والتحديث، الذي يقود البلاد نحو مستقبلٍ عصريٍّ مشرقٍ كما يقول.. وهو كما كل مرّة.. يكون فيها هذا الموضوع هو المطروح على الطاولة يعدّد ويحصي منجزات القائد على كافة المستويات، والتطورات التي بات يلاحظها بحكم وجوده في مكاتب الاستخبارات من خلال مشاهداته وآراء القادة.. وحتى الناس العاديين.

- الجميع لم يخرجوا خارج هذا الإطار المعلّب في امتداح الواقع وتلميحه على غير حقيقته. فمشاهدة أعراض الفقر والتخلّف في كل المجالات التي تظهر جليّة في البلاد.. ابتداءً من قريتنا هذه، عدا عن غياب أبسط علائم الحضارة والديمقراطية وحقوق الإنسان ليست أموراً ذات بال.. ما تراه أعينهم فقط هو المعلّم الممسك بزمام الأمور، ليستمرّ معهم برحلة السيطرة والسيادة، حتى وإن لم تنعكس إيجاباً إلا على النخبة منهم، وما قد تسببه لاحقاً من انفجارٍ يمكن أن ينسف الوطن وسكانه جميعاً بسبب بعض السياسات الخاطئة.. المصيبة حقاً في أنهم يصدّقون أنفسهم فيما يدّعون.. وأني لا أستطيع أن أعترض على هذا الموضوع بالذات، أو أشاكس.. فقد أستمزّ إعصار ثورة هوجاء هنا إن نطقْتُ بما أفكر.. أنا لا أكره المعلّم الرئيس، وأتوخّى به الخير، ولكنني أرى ما لا يرون، وأخشى أن يفوت الأوان قبل أن يفعلوا...

كان علي يحدث نفسه... بما لا يقدر على التفوّه به علناً..

باستثناء بعض تعقيباتٍ خارج السّرب من الجد.. الذي كان يرمي على طاولة النقاش بعض تخوّفاته، ويبيدي قلقه مما قد يحدث فقط، ويكون سبباً في تأثر الوضع القائم.. لم يظهر أحدٌ رأياً مخالفاً.. واكتفى علي الذي صار مثقفاً سياسياً بشكلٍ يفوق سنّه، بحكم فضوله الممتد منذ الطفولة واهتمامه بهذه التفاصيل كثيراً.. بهواجسه وتناقضاته الداخلية التي يخفيها أحياناً حتى عن ذاته، والتي كثيراً ما تسبّب له الارتباك والتردّد.. كان قد عبّر عن نفسه لأحد أصدقائه المقربين، وهومن القلائل من أبناء منطقته الذين يؤيدون فكره.. أو يتفهّمونه قائلاً ذات مسامرة:

- صدقني لم أعد أفهمُني.. فأنا عاشقٌ للحرية والاشتراكية الحقيقية وأنشد الإنسانية في العلاقات بين المجتمعات، وكارهٌ لما آلت إليه الأوضاع في البلاد، وما أراه من بقائنا نحن أدوات قمعٍ وحمايةٍ للسلطة فقط، مما يجعلنا إن شئنا وإن أبينا عرضةً مع الأيام لمزيدٍ من العزلة، وأن نصبوجه المقبحة، أخشى يوماً بعد يوم أن نكون المشجب لتعليق حقد الآخرين وغضبهم، قد نكون حينها مستحقّين للكره فعلاً.. ولا نلومنّ إلا أنفسنا.. لست مقتنعاً بأننا سائرون نحو التقدّم والخير للبلاد، كل ما ألاحظه أننا نغرق أكثر فأكثر.. أما رأينا ما حصل بعد إعلان دمشق للمعارضة التي قدّمت مقترحاتها للتغيير؟ كان ذلك بناءً على افتتاح مفترضي من السلطة وتحت إشرافها وعلى مرأى من عيونها.. كان الردُّ بأنّ عاد الوضع الأمّني إلى الوراء، بعد بعض ملامح التغيّر التي أبداهها العهد الجديد.. كل شيء عاد للأسف على ما كان عليهم قمع واضطهادٍ وخنقٍ للرأي.. وربما بشكلٍ أشدّ وأكثر سوءاً.. الخطورة يا صديقي في الموضوع وهذا الذي لا أستطيع تفسيره أن بعضاً مني يريد لهذا

الحال أن يستمر.. لا أدري لماذا، ربما لأنني رضعْتُ هذا الخوف المتجذّر في نفسي من خشية زوال هذه النعمة.. مع حليب أُمِّي.. ولم أفطم منه بعد؟ تدخّل الجدُّ كالعادة.. فيما لم يستطع منع نفسه منه قطعاً، وهو إبداء مخاوفه دوماً.. وإظهار حرصه على بقاء الدولة الحاكمة ضمن الوضع القائم:

- أرى الأمور بدأت تتفكّلت من يد الدكتور قليلاً، بما استحدثته في الأيام الأخيرة من تغييراتٍ في الأشخاص والأساليب، وما اجتهد بهليدو أكثر انفتاحاً وتطوّراً في القيادة.. سقى الله أيام القائد الوالد.. فقد كانت الأمور أكثر ثقةً واطمئناناً..

قال الجدُّ العجوز الثماني الذي لفحته شمس العمر المديد، بما يكفي لتجعل بشرة وجهه تقاطع فيها خطوط السنِّ والتعب والخبرة.. جاءه ردُّ الحفيد الدفاعي فوراً:

- لا يا جدِّي هذا ليس صحيحاً.. نحن اليوم أقوى من ذي قبل، وأنا أعلم ذلك تماماً، بل وأعاشه في كل ساعةٍ وبكل تفاصيله بحكم قربي من منابع الحدث ودائرة القرار، أعلم أنك تقول هذا لفرط حرصك على البلد وعلى المعلم القائد ومحبةً له.. ولمستقبلنا جميعاً.. لكن صدّقني يا جدي الغالي.. الأمر ليس كما تظن؟

قال هذا العقيد وهو يرتعش.. فهذا النوع من الحديث حتى وإن كانت التّلال والشُّهول ليس لها القدرة على تسريبه، فقد يؤدّي لو وصل إلى الجهات العليا.. إلى تدمير مستقبله؟

- لكنني لم أخرّف بعد يا ولدي، ما زلت أستطيع أن أرى ما يحصل أمامي، وأميّز الصحيح من الخاطئ..

هنا تدخّل أبو غانم الرجل السّنيّ.. حبيب أبيه.. موجّهاً الحديث له:

- لا سمح الله منك يا أبي.. إنك منذ الأزل متشائمٌ، وليس هذا بجديد..
ماذا ترى من تغييرٍ حقيقيٍّ على أرض الواقع، بينما نحن لم نره؟

- أهكذا كانت قبضة الأمن على البلاد أيام المرحوم؟

أجاب الجد متجهماً جاداً.. لكن ابنه عاجله برّد يريد له أن يكون حاسماً:
- لا يغرنك بعض الحُلم يا والدي العزيز.. فهذه سياسةٌ شكليةٌ تتناسب
مع تغييرات العالم اليوم، بينما الحقيقة في جوهرها أن الأمور على ما كانت
عليه وأفضل، ونحن أيضًا مع تقديري الكبير لرؤيتك وخبرتك.. نعلم خفايا
الأمور أيضًا، لأننا نتابع كل شيءٍ عن قرب..

كانت هذه جرأةٌ غير اعتيادية من أبي غانم في وجه أبيه.. لكنه شعر
بوجوبها ربما محاولةً منه لنجدة ولده الضابط وتخفيف عبء الحرج عنه،
لكن الجدّ الذي نظر إلى ولده نظرةً ملؤها الاستصغار لما سمع، وأبدى
استنكارًا ظاهرًا لما وصله، والذي يريد أن يستمرّ في أداء دوره كخبيرٍ
وحكيم.. وجد فرصةً لينفّس عما يجول في صدره بعد صمتٍ طويلٍ.. لم
يتوان عن الإسهاب وسرد تفاصيل التفاصيل.. كدأب كبار السن.. بأحاديث
تسترجع الماضي، حتى وإن تكرّر ذكرها كثيرًا:

- أريد أن أذكركم بأن الثقة مقتل كل واثق، لأنها تورث الغفلة، وتعمي
البصيرة.. علينا أن نذكر أنفسنا دائمًا بما قد ننساه في ظلّ نشوة السيادة والقوة
والوصول، ونضع الأمور في نصابها الطبيعي، ونردّها إلى حقيقتها.. لا أدري
إن كنت رويت لكم هذه الحكاية القديمة التي أحبها وأوقن بأهمية مغزاها
من قبل أم لا.. ولكنني سأحكيها رغم ذلك، وعليكم أن تعوها، وتصغوا جيدًا
بقلوبكم قبل عقولكم:

يُحكى أن ملكًا شديدًا قويا.. كان يحكم رعيته بالحديد والنار، حتى يضمن ولاءهم المطلق الدائم، ويضمن استقرار الوضع والسلطة وأمن البلاد.. لدرجة أن الناس صاروا يخافونه، ويخشون بطشه.. حتى في المنام.. كان يجند عددًا كبيرًا من العسس، يراقبون الناس عن قرب في كل حركة وسكونٍ لهم، وكل همسة والتفاتة، يتابعون كبيرهم وصغيرهم، رجلهم وامراتهم.. داخل وخارج البيت والمؤسسة وكل مكان، ويسجلون عليهم جميع سكناتهم.. وينقلون.. حتى الوزراء والقادة في الجيش والشرطة أيضًا، وأصحاب المراكز الحساسة في الدولة.. كان كلُّ منهم يراقب الآخر، ظنًا منه أنه المحظيُّ الأوحد بتكليفه لدى الملك، والمقرَّب من البلاط.. بقيت البلاد تسير طويلاً على هذا المنوال.. في كل أسبوعٍ كانت هناك محاكمةٌ صوريةٌ جماعيةٌ في السّاحات، وعلى مرأى ومسمع الجميع، الغاية منها إرهاب الآخرين، والقضاء على أية نيةٍ في التمرد في مهدها، وبالطبع تنتهي هذه المحاكمات غالبًا بإعدام البعض، وسجن البعض الآخر وتعذيبه، حتى أن السجين في هذه المملكة كان يحلم أن يُحكم بالإعدام.. لينتهي عذابه المزمّن الطويل..

في يومٍ من الأيام أتته دعوةٌ من ملكٍ مملكةٍ أخرى بعيدةٍ للزيارة.. برفقة مليكته، فائتمن الأكثر ولاءً له على العرش، كان ولده وولي عهده الشديد أيضًا، حتى أمّن أن غيابه لن يؤثر على سير الأمور في المملكة.. وخرج مع الملكة في رحلتها الطويلة بعيدًا عن الديار.. خلال الزيارة العامة بالحفاوة والتكريم في المملكة المضيفة، لاحظت الملكة وجود ظاهرة غريبة لم تألفها من قبل، رأت محبة الناس لمليكيهم، وتقديرهم المبالغ فيه بالنسبة لما تعهده، حتى أنه كان يخرج بين الناس بلا حماية، ويصافح ويقابل الجميع، يخطب فيهم بمودةٍ وانفتاحٍ.. ويستقبل طلباتهم في الشوارع.. دونما رقيب؟

سألت الملكة التي أعجبها ما رأيته وانبهرت به زوجها الملك: كيف يستطيع أن يفعل هذا؟ من أين له هذه كل هذه الثقة بالناس؟ وهل يحبه الرعية فعلاً كل هذا الحب؟ فأجابها الملك بفطنة ذكي عارف: هو منهم وإليهم يا مليكتي، ملكٌ سليل ملوكٍ، ورث الملك أباً عن جدٍ، وورث معه العلاقة الطيبة مع الرعية.. فمنحوه محبتهم وثقتهم.. ونحن جننا من البعيد، من طبقةٍ مقهورةٍ ليس لها رصيدٌ سابقٌ بالمجد والعراقة، لا ننتمي إلى طبقة الملوك، بل كنا خدَمَهم ومن أدنى تابعيهم، فانتزعنا الملك غضباً، ووجب أن نخشى غضبتهم وحقدهم.. لقلّة عددنا وضعف قاعدتنا الشعبية، ورحنا نثبّت عرشنا بالنّار والحديد.. هل فهمت يا مليكتي؟ لا تنسي أننا حين تولّينا زمام الأمور بهذه الطريقة، وجب علينا أن نكون بخلاف ما رأيت.. خطّطنا طويلاً لنقتنص المُلك.. ونجحنا، ليس أماننا سوى أن نصارع للمحافظة عليه بشتّى السُّبل.. وإلاّ صرنا غنيمةً للحاقدين المتربّصين؟

لم يُثنها ما قال زوجها الملك عن تحقيق خاطرٍ دار في بالها، فحاولت الملكة التي تأثرت بمشاهد المحبة تلك أن تؤثر بزوجها، ليغيّر أسلوبه مع الرعية، حتى تُبنى العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس المحبة والمصلحة العامة والثقة، وليس الخوف والترهيب.. لعله يجذبهم إليه، فيأمن جانبهم، وقد ألحّت في هذا الطلب، وهي الموقنة بقدر محبته لها ولأولادها وقدرتها على التأثير به، وأطالت معه الحوار فيما ذهبت إليه.. الملك الذكي الواقعي يعرف ما لا تعرف المرأة الحالمة، وله نظرةٌ ثاقبةٌ تريه ما لا تراه امرأته.. هزّ برأسه موافقاً وبيّت في نفسه أمراً.. ما إن عادا إلى مملكتهما حتى أصدر الملك بعض المراسيم الملكية القاضية بتغيير

بعض الأساليب في إدارة الحكم، وأمر بالإفراج عن المساجين، وتخفيف الضغط على الناس، وزيادة مرتبات العاملين في مختلف القطاعات، كما أمر بتخصيص صندوق لمساعدة المحتاجين يموله القصر، حدّد يوماً يطلّ فيه الملك على الناس مواجهةً بشكلٍ مباشرٍ في مكانٍ عام.. ويوماً يستقبل فيه المحتاجين من الرعية في القصر.. لكنه فعل هذا بحذرٍ شديدٍ، وسيطرةٍ واضحةٍ، وتحكُّمٍ ببعض المفاتيح، بمساعدة المخلصين من قاداته الذين كانوا قد خضعوا سابقاً للكثير من اختبارات الولاء.. هؤلاء وقفوا يراقبون في الظلّ بعيداً عن أعين الجميع.. الأمر الذي أبهج الملكة كثيراً، واعتبرته هدية الملك.. لها ولشعبه..

خلال شهورٍ قليلةٍ فقط... كانت التقارير الاستخباراتية التي وصلت إلى الملك، تشير إلى وجود ثلاث شبكاتٍ على الأقل، تعمل في الخفاء على اغتيال الملك، والانتقال على الحكم.. واحدة من المدنيين، وأخرى في سلك الجيش، وثالثة في سلك الشرطة.. هل يمكنكم أن تخمّنوا من كان على رأس هذه المجموعات مخطّطاً ومدبّراً؟ أحدهم أخو الملكة، والثاني ابن أخته، والثالث أحد أهم الرجال الذين يوليهم الملك ثقةً، وقد كان يبدي الولاء المطلق فيما سبق، تحت إمرة هم الكثيرون ممن كانوا في الحراسة الخاصة وأجهزة الأمن والجيش، وبعض أهالي المحكومين سابقاً وأقاربهم، وكل من لهم تأرُّ مع الدولة والملك.. ولأنه كان يعي ما يدور حوله، ويراقب كل شيء بحرصٍ ومتابعة.. اكتفى بجعل الملكة ترى ما يريد، بعد أن أطلعها على كل ما حصل ويحصل، وانقض فجأةً على الجميع بقوة، أقام المحاكم الصُّورية من جديد في الساحات، قطع العديد من الرؤوس، واستتبَّ له الأمر من جديد.. وعاد كل شيء كما كان وأقوى..

هكذا لقن الملك الحاذق الملكة أولاً.. والمقرَّبين والمتفَّذين من حوله
ثانيًا، وكل من تسوَّل له نفسه التفكير في خلاف ما يعلم ويريد.. درسًا لم
ينسوه أبدًا...؟؟؟

إياكم أن تنسوا أيها الغافلون.. تحت أي ظرفٍ من الظروف.. أنكم
لو واربتم الباب قليلًا، وشردتم عن هدفكم بدافع الثقة، أو إن فرطتم بهيية
الدولة التي قدَّمنا للهيمنة على مفاتيحها الغالي والنفيس، لابتلعتكم رياحهم
العاتية.. ولداستكم الأقدام.. لا مكان للرحمة والتساهل مع هذا الشعب
الذي يتربَّص معظمه بكم، والذي لا يفهم سوى بلغة الحذاء العسكري
والدبابة، ونحن بذلك ندافع عن وجودنا أولاً وأخيرًا..

لم يبقَ لأبي غانم وولده والحاضرين ومنهم علي سوى الصَّمت
والموافقة على الرسالة التي أراد الجدُّ إيصالها، مع احتفاظ علي بتحفُّظاته..
والمزيد من الحيرة والتساؤلات.

كان اليوم بالنسبة لغانم بعد هذه الجلسة الصباحية عامرًا بالجولات نحو
الأقارب والأصدقاء، وزيارة الأرض والاطِّلاع على أوضاعها، ثم كانت ليلةً
طويلةً ساهرةً تلك التي جمعت العائلة كلها في بيت أبي غانم.. مع مأكولات
وحلويات أم غانم المشهورة في القرية، والتي تخبزها بالتُّنور كعادة أهل
المنطقة، واستمتع الجميع واستأنسوا بوجود العقيد الزائر بعد طول غياب..
في الصباح ودع العقيد غانم أهله وغادر بسيارته ومعه أخوه علي.. الذي
سيرافقه إلى دمشق.. ليباشر إجراءات التسجيل في الجامعة، بعد أن وعده
باستضافته بضعة أيامٍ، يرقِّه بها عن نفسه.. ويغيِّر قليلًا من أجواء القرية..

هناك راح علي العشريني الذي يسبق سنه وأقرانه وأهله وطائفته تفكيرًا وطموحًا
يؤسِّس لنفسه في العاصمة الكبيرة مشروع مستقبلٍ مختلفٍ عما يريد المقرَّبون؟

خلال أيام كان قد أتمّ تسجيله في كلية الحقوق بجامعة دمشق، وقضى أياماً جميلةً في المدينة الكبيرة برفقة مضيفيه.. أخيه وعائلته.. ثم عاد إلى القرية ليستعدّ خلال الأيام التالية للاستقرار في دمشق كطالب جامعيٍ يشرع في فتح كتاب يقينه، بعد أن كانت قبل مدّةٍ قريبةٍ.. مازالت أمنياته معلقةً في طور الحلم؟

في حمص وفي بيتٍ هاديٍّ متطرّفٍ وواسع يشبه إلى حدٍّ ما الفيلا، وفي وسط الحديقة المنسّقة بعناية، جلس كمال العائد حديثاً من حلب بعد إنهائه سنوات الدراسة الجامعية وحيداً على كرسيه الذي اعتاد على حضنه الواسع، وحركته الاهتزازية.. مع قرقعة الخشب القديم الذي صُنِع منه ذات حقبةٍ تاريخيةٍ.. يستمتع تحت عريشةٍ من أغصان داليةٍ قديمةٍ كبيرة، وشُجيرةٍ ياسمينٍ أبيض، وحوله أحواض الزهور والورود تحيطه من كل جانب، وأمامه بحيرةٌ صناعيةٌ تزينيّةٌ، يطيب له أن يسند قدميه على حافّتها، ويسترخي طرَباً بصوت خرير مائها المنهمر من صنوبرٍ يعمل وفق منظومةٍ تستعمل ذات الكمية من الماء صبّاً وسحباً، يفتحه كلما أوى إلى هذا المكان، ورذاذ الماء المتطاير يشعره براحةٍ كبيرة.. كان هذا دأبه وفي كثيرٍ من أوقات يومه، كلما كان زائراً خلال إجازةٍ... في بيت أهله.. يتكرّر هذا أكثر ويصبح أكثر حميميةً.. عندما كان يعود في الإجازة الصيفية الطويلة من جامعته في حلب.. فلا أحد ينافسه عليه هنا، لأنه وحيدٌ بلا أخ... بينما تتنازل الأختان لأخيهما الحبيب راضيتين عن هذا المقام وسعيدتين.. وقد رافقه هذا الكرسي وهذه الجلسة التي تأخذه من العالم المحيط.. بعيداً.. في رحلات خياله دائماً.. تارةً يقرأ الكتب الأدبية والتاريخية التي يحب مطالعتها، أو كتب الدراسة حين كان بعد ما زال طالباً.. وأخرى يسترق إغفاءة الحالم، ولطالما قدّرت العائلة حبه لهذا الطقس الخاص وارتباطه الوثيق به، فأثّرت به بالحصول على المكان عن الجميع حتى الوالد..

كان يفكر كثيرًا بصاحبه ثابت، وظروفه القاهرة التي مرَّ بها مؤخرًا بكل حزنٍ وقهر.. في انتظار دعوته إلى طاولة الغداء التي كانت تعدُّها والدته بمساعدة أخته، مختارةً له كالعادة ما يحب ويشتهي.. بعد طول فترة غياب.. غير أن هذا لن يحدث قبل عودة والده المتقاعد حديثًا من (الكافيتيريا) التي يجالس بها أصحابه المتقاعدين مثله في الحي القريب، هذا هو الأوان المفترض لعودته.. بقي كمال شاردًا في حالة تذكُّرٍ لأخيه ثابت، مستعرضًا كل ما حدث له ولعائلته، وما جرى بينهما منذ أن تعرَّف إليه.. وحتى ساعة توقُّفه عن دعمه مرغماً تحت وطأة الظروف المستجدة على العائلة، مازال في نفسه شيءٌ من الخجل والشعور بالذنب تجاه صاحبه الأقرب، والذي عانى الأمرين من خلال مرض زوجه... يتحسَّر حين يفكر كيف اضطرَّه تردِّي الوضع المالي الطارئ في البيت لإيقاف مساعداته المادية لأخيه، بعد أن امتدَّت يده الحانية الوفية له طوال شهور، معتمدًا على قدرة مالية لا بأس بها كانت تملكها العائلة فيما مضى، كان ذلك يشعره بكامل الرضى قبل أن يتوقَّف مرغماً عن ممارسته هذا النُّبل مع صاحبه.. كانت بعض أملاك الوالد، ومرتبَّات والديه التقاعدية، ومنتجر الألبسة في وسط حمص، حيث كان يعمل به ابن عم كمال، يعود عليهم بمردودٍ جيد.. بالإضافة إلى الشقَّة فوق المتجر، والتي كانت تؤجَّر بمبلغ كبير، بحكم موقعها المتوسط للمدينة بين أهم الأسواق.. وتشكَّل مصدر رزقٍ يخوِّله بموافقة أهله.. أن يقدِّم لصديقه بعض العون في خضمِّ معاناته وحاجته الماسة لمثل هذه اليد.. والداه كانا أيضًا ضمن تلك الظروف المادية المريحة وبدافع إنساني وعاطفي تضامناً مع مشاعر ولدهم يتعاطفان مع حالة صديق ولدهما الوحيد، ويشجعان كمال على مساعدته، ودعمه مادياً ومعنوياً، فلم يجد حينها في ذلك أدنى حرج...

لكن قيام ما يسمى بمشروع حمص الجديدة أو حلم حمص، والذي أطلقته الدولة منذ وقتٍ قريبٍ، ممثلةً بمحافظ المدينة، والذي يعتقد الجميع أنه صاحب الفكرة.. وبشكلٍ فاجأً بل صعق الجميع.. هذا المشروع الذي لم يكن في الحسبان حرمهم من الاثنين معاً في لحظةٍ واحدة.. تمَّ استملاك المبنى الأهم في وسط المدينة والذي كان يُقدَّر بملايين الليرات كغيره من قبل الدولة، ومازالوا يوعدون بتعويضٍ رمزيٍّ.. لم يصلهم منه حتى الساعة شيئاً.. لم يعد بمقدور كمال أن يستمرَّ بدعم ثابت كما كان، حيث أن مرتبّي الوالدين بالكاد أصبح يكفي فقط لمعيشة العائلة ومصروفات كمال أثناء وبعد انتهاء دراسته، ودراسة أخته الجامعية، وأيضاً الأخرى طالبة الثانوية، ها هو يتخرَّج الآن من جامعته، ويجلس منتظراً ما اعتاده خريجو الجامعات في سوريا ويهدرون جُلَّ أوقاتهم منتظرين تحقيقه.. حلم الشباب الأهم... وهي الوظيفة.. من خلال دعم واسطةٍ إن وجدت، أو مبلغٍ ماليٍّ يُدفع لأحدهم كرشوةٍ لكي يدبّر لهم أمرها، لكنَّ الجميل في حالته.. والذي يخفّف العبء عنها أنه ليس مضطراً لقضاء بضع سنين أخرى في أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، والتي هي بحدِّ ذاتها تقع ثقيلاً على كاهل الشباب وتسبّب الكثير من الحرج، وتؤخّر تحقيقهم لمستقبلهم.. فكمال وحيدٌ لوالديه، وهو معفيٌّ منها وفق القوانين.

لم يتصل بصديقه المقرب ثابت منذ مدة، حيث علم منه في آخر اتصالٍ بمكانه الجديد، وتغيّر وضعه، وما حصل له ومعه، لم يصله بالمقابل من ثابت خلال هذه المدة سوى اتصالٍ وحيد.. كمال الصديق الطيب، يقدر انشغال صديقه بالمريضة والبيت، وأمور الحياة المعقّدة الأخرى التي طرأت عليه، وطبيعة عمله الجديد.. في عالمٍ لم يعتدّ عليه.. علم حينها من حديث ثابت المطوّل معه بما جرى لأخيه في القرية، وكيف أن ثابت

توسّط لدى جهاتٍ أمنيةٍ كبيرةٍ في الدولة لحلّ المشكلة.. وقد أنهاها بتدخلٍ كانت السيدة العجوز مفتاحه، هو يعلم ما تعنيه كلمة (واسطة ثقيلة) في ثقافة الشعب السوري المعاصرة، ومدى قدرتها على التغيير.. إنّ هذا مما يؤرّقه ويقصّ مضجعه، فقد تقدّم للكثير من مؤسّسات الدولة، وللقطاع الخاص بطلبات توظيفٍ منذ أن أنهى امتحاناته الأخيرة، ولم يوفّق بالحصول على أية فرصة.. عاد من حلب حاملاً وثيقة تحرّجه وما زال ينتظر.. راح يتذكّر كيف يُقابَل المتقدّم المدعوم بواسطته، وكيف يُقابَل أمثالهم من لا واسطة لهم، أو من يتمنّعون عن دفع الرشاوي والهدايا لأصحاب الشأن المرتزقة، الأسوأ من هذا أن الفرصة متاحةٌ في الدرجة الثانية بعد المدعومين.. للبعثيين، فقد كانت هذه الورقة الوحيدة التي يلعبون فيها على الحزبية كما يقول أبوه، يميّزون الحزبيين فيها، ولكن تبقى الواسطة من متنفّذٍ أصلي، وخصوصاً إن كان من سلك المخابرات.. أهمّ من كل تصنيفٍ.. يمكن من خلالها أن يصل المرء إلى حيث يشاء.. دون رادعٍ أو مانع...

وما بين تفكيره بصديقه، وما طرأ على وضعه، وخيبة أمله بالتوظيف المنتظر.. لمعت بذهنه فجأةً فكرةٌ راقّت له، ومنحته بصيص أملٍ ورجاء؟ لم لا يطلب من حبيبه المقرب ثابت أن يتوسّط له عند أصدقائه الأقوياء هناك في العاصمة؟ ما المانع؟.. أليس هو صاحبه الأقرب والأولى بخدمةٍ منه؟ أشرقت وجتاه سعادةً، وبرقت عيناه أملاً حينها، لمجرّد التفكير بالموضوع، متخيّراً أفضل الاحتمالات السيئة رغم عدم رضاه عن أيٍّ منها.. وهو الحصول على الوظيفة عن طريق الدّعم من جهةٍ في السلطة؟

في هذه الأثناء أتاها صوت شقيقته الصغرى قوياً.. كأنّه صراخٌ.. ليخبره بحضور الوالد، يبدو أنها اضطرتّ لذلك بعد أن حاولت قبلها لفت انتباهه

أكثر من مرّة، وهو غارق في شروده وتفكيره.. تمت دعوته إلى تناول الغداء مع العائلة.. حين دخل وجد الوالد قد سبقه إلى الطاولة، وأخذ مكانه المعتاد في صدرها.. جلس كمال وأخته، وتبعتهما الوالدة وهي فرحة بما أنجزته من مأكولاتٍ تكمي لعيني الولد الوحيد الحبيب.. حيّ كمال والده وجلس مقابله، سأله عن حاله، وحال أصدقائه وجلاس، الوالد بادره بعد أن ردّ عليه وأبلغه تحيات الجميع له.. بالسؤال اليومي المعتاد:

- ماذا جرى معك في أمر الوظيفة.. ألا يوجد خبرٌ أو ردّ؟

- لا يا والدي.. لا شيء

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. طبعاً الوظائف ليست لك يا بني، بل هي لأولاد أصحاب النفوذ.. أو لمن يستحقونها من ال... تدخلت أم كمال وهي تحمل إلى الطاولة بعض الصحون، فاقتحمت الحوار.. وكأنها تريد أن تغبّر مجرى الحديث شفقةً وخوفاً:

- لا بأس.. يا أبا كمال.. سيجد نصيبه عندما يريد الله وبتوفيقه ودعائنا..

لا تحزن يا ولدي

لم يعجب ردّها الأب المتدّمّر.. ردّ عليها دون تأخير، كأنّ رغبةً عارمةً تجتاحه بالتنفيس عما يعتمل في داخله:

- الله يريد الخير بكل عبادها امرأة، لكنّ من لا يريد هم الذين يعتقدون بأنهم هم أرباب الناس والبلاد.. يملكون الوطن بأهله ومقدّراته، ويقرّرون مصائر الخلق، يتحكّمون بسير كل كبيرة وصغيرة بما يناسب مصالحهم... إيّاك أن تعتقدي أنني لا أؤمن إيماناً كلياً غير مشروطٍ بالقدر خيره وشرّه من الله.. لكنّ الأمر في حقيقته ليس كذلك يا زوجي العزيزة.. ليس هذا من قضاء الله.. بل هو قضاؤهم الظالم المتعسف.. من بيده القلم والورقة لا يمكن أن يكتب نفسه من الأشقياء.. أليس كذلك؟

-صَلِّ على النبي يا رجل.. واستعذ بالله.. فالحيطان لها آذان.

-فلتسمع الحيطان إذا فقد كرهنا مُداراتها والخوف من آذانها.. صارت تزعجنا نغمة الصمت، وكدنا أن ننفجر يا امرأة...

قالها أبو كمال منفجرًا بنبرة غضبٍ حَمَلَهَا كل ما تراكم من قهر؟

- أرجوك يا أبا كمال.. إن لم يكن لأجلك، فخفُ وكن حذرًا فيما تقول لأجل وحيدنا، وأنت تعلم ماذا ينتظر المعارض والهامس بحرفٍ مخالفٍ في هذا البلد.. إن كان الموالون يلقون نصيبهم أحيانًا وبقسوةٍ، فما ظنُّك بمن يجهر بعداء؟ لا تنس ابن صديقك أبي حسان، ما زال في عالم الغيب منذ سنين.. لمجرد كلمةٍ همسها في أذن صديق.. وا حسرة قلب أمه عليه؟ هنا تدخل كمال متوجِّهًا إلى أمه:

- أمّاه أرجوك أنت.. فلا صديق هنا ولا جار ولا رفيق، وحيطاننا سميكةٌ صمّاء، لا أحد يستطيع سماعنا، فدعيه أرجوك يقلّ ما يشاء ويفرغ ما بداخله، نكاد جميعًا أن نخنق بما تمتلئ به نفوسنا، وتحتقن به أكبادنا من قهرٍ وغيظ.. لا تحرميه من فرصة التنفيس عن ذاته.. أليس له الحقُّ في أن يعبرَ عن مكنون نفسه حتى في بيته وبين أهله؟

جاءت كلمات كمال وكأنها بلسمٌ لصدر الوالد، وصكّ إفراج عما يحتبس في نفسه منذ عصور.. راح يكمل ويسترسل منقثًا عن صدره المحترق، حتى بدا أن الجميع على لهيب احتراقه نسوا الطعام وهو بين أيديهم:

-منذ أربعين عامًا ونحن نسلّط على رقابنا سيف من لا يخاف الله فينا، بصمتنا وتخاذلنا.. نرى الخطأ ونسكت عنه، ولا نواجه الباطل، ولا نرفع الصوت في وجهه... بل نحن من شجعناه وآزرناه بتخاذلنا، وجعلناه يتماهى

ويستطيل.. هل صحيحٌ أن الخوف من طغيانهم وبطشهم كان مبرراً كافياً لكل هذا الخنوع؟ استملكوا رقاب العباد، وعاثوا في الأرض فساداً، واستأثروا بالسلطة قهراً فقلنا: يستحقُّون.. لأنهم كانوا أصحاب إرادةٍ بها، وعملوا لها فهنيئاً لهم، واستمر أنا الباطل والظلم والقهر، وهُنَّا وهانت كراماتنا فقلنا: نستحق.. لأننا بنعنا كل قيمنا بزهد الثمن، ورضخنا لهذه الحقيقة واستكنا، دون أن نحاول تغيير الواقع المرير، ولو ببعض محاولة.. القضية ليست وظيفة ابنا، ولا تنتهي بها.. فأنتِ أدرى يا أم كمال، فقد خبرت أكثر من غيرك ما كنَّا ومازلنا نعاني.. ألا تذكرين؟ لم أسرقُ فكنْتُ أفقر الموظفين، وأقلَّهم وصولاً وشأنًا، ولم أُرْتَشِ فخرجْتُ مذموماً مدحوراً.. وقد تحصَّلتُ من كل سنين الوظيفة التي قضيتها مخلصاً أميناً على راتبٍ تقاعدي لا يكفي لغيرنا ممن لا سند له ولا مال ولا أملك لصدِّ الرmq.. وكنْتُ أنْتِ من أكثر المعلمات إخلاصاً.. فخرجت بسبب لباسك المحتشم من التعليم بتوصيةٍ مخبراتية، بتهمة التدبُّن والانتساب إلى الفكر المتطرّف، ولولا رحمة الله لما حصلنا على مرتبّاتنا الآن.. ولحرمونا حتى من أدنى حقوقنا بعد كل ما قدّمناه، والجميع يعلم.. لولا بعض إرثٍ.. ولله الحمد.. لما عشنا بالمستوى الأدنى للمعيشة كما نحن الآن، ولما استطعنا أن نمتلك حتى بيتنا هذا.. فكيف بتكاليف الحياة الثقيلة؟

-أعلم يا أبا كمال ولكن... ماذا يفيد الحديث عن هذا برّبك.. وماذا يغيّر؟
-حتى مدننا بدأوا بتغيير مكوّناتها وتركيباتها.. فاستحضروا السكّان الجدد من الساحل، وأسكنوهم بما يشبه المستوطنات، حتى بدت حمص وقد تلوّنت بألوانهم، وفقدت شيئاً فشيئاً لونها الأصلي، وبشكل بات القاصي والداني يفهم أنه متعمّد.. ومدروس؟ أنا لست ضدّهم شخصياً.. فمنهم

إخوة لي وأصدقاء وجيران، وإن من المتنفعين ممن هم محسوبون علينا من هم أسوأ وأشد فتكاً بنا، لا يتورعون عن ذبحنا قرباناً لمصالحهم الشخصية الضيقة.. أعلم هذا جيداً، ولكنني أعلم أيضاً أن أولي النظام، بتجبرهم لهؤلاء، واستخدامهم الخاطيء وبحكمهم المتعطرس القمعي، وسياساتهم التي تستهدف الإنسان بكل قيمه.. أوصلونا إلى هذا المستنقع الذي نحن فيه اليوم.. ولكن لم يفعلون هذا؟ وبأي حق يفعلون؟؟ من خولهم بهذا وأعطاهم التشريع ليعتبرونا عبيداً لهم ويمتلكون ما هو حق لنا، بدل أن يعطونا ويحققون لنا العدالة... من ؟ ضاع المحل والبيت وهما الزاد والزودة.. هكذا قهراً أمام أعيننا، وبكل وقاحة واستهتار تحت مسميات التطوير والتحديث، وفي الحقيقة كان التطوير الوحيد الذي تم هو تطوير الوسائل والأدوات لإدارة وضعهم ونفوذهم ومدّ جذورهم التي بدأوا منذ وقتٍ طويلٍ بترسيخها هنا، ونحن مستسلمون ولا طاقة لنا بتغيير الواقع المفروض، ضاع كل شيء، ولم يصلنا حتى التعويض الرمزي الذي لا يساوي جزءاً يسيراً مما استلبوا.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. اللهم انتقم من الظالمين.

لم يكن بمقدور أحد أن يقطع استرسال أبي كمال وهو في هذه الحالة المزرية من العصبية والمعاناة.. تابع متأثراً:

- حتى إنني والله لا أفكر بنفسي قدر تفكيري بالكثيرين من الفقراء والمساكين الذين تضرّروا وما لهم مصدر رزقٍ بديل.. هؤلاء بدل أن تدعمهم الدولة، وتوفر لهم سبل العيش الكريم، تسلبهم ما تبقى لهم، وقد زادت حالتهم بؤساً وشقاءً.. منذ وُعدنا بالتطوير والتحديث والشفافية.. أي تطوير هذا؟ أعانهم الله على ما ابتلاهم.. بالله عليكم.. كيف يعيشون؟ انظروا وتمعنوا في وجوه الناس وفي حالتهم.. ماذا ترون؟

تدخل كمال مشفقاً على والده من الإسهاب وهو يحترق بنزقه أثناء حديثه.. حاول تغيير دفة سير الحديث.. وتلطيف المشهد ما أمكن:

- أردت أن أستشيرك بأمرٍ يا أبي

استغرق ردُّ أبي كمال مدةً طويلة.. حيث مازال بعيداً غارقاً في حالة تفكير في الوضع، وما آل إليه.. وتحت تأثير الغضب:

-تفضل يا ولدي

-أعلم أنك تكره ما سأقوله وأقترحه.. ولكن...

- ما بك يا ولدي.. قل ما تريد

-ما رأيك أن أحدث صديقي ثابت بأمر وظيفتي، مادام الموضوع يحتاج إن شئنا وإن أبينا للدعم والواسطة، وأنت تعلم أنه أصبح الآن لديه معارف في دمشق ذوي نفوذ.. لأتني بصراحة.. أراني.. كأني غريقٌ يقاوم الأمواج بعبثٍ وبلا نتيجة.. ولا شيء يبدو واضحاً في الأفق؟

- لا أدري يا بني.. افعل ما تراه مناسباً.. إن كان هذا يرضيك ويحقق مرادك.. وهل كل ما نرغب به يحصل؟.. أو كل ما نكرهه نستطيع تجنبه؟.. هذا هو وضع البلد.. حسبنا الله ونعم الوكيل..

لم يتناول أبو كمال سوى لقيماً تبعد كل هذا التفرغ، حمل كأساً من الشاي أعدته زوجته لما بعد الغداء، وقام مبتعداً نحو الصالون كعادته، يريد متابعة ما توفّر من الأخبار في التلفاز.. بينما أبدت الأم المتلهفة على مستقبل ولدها كمال موافقتها المطلقة على فكرته، وشجّعته على تنفيذ اقتراحه فوراً وبدون ترددٍ.. واكتفت الفتاتان كالعادة بمتابعة كل ما جرى صامتتين، ثم التحقتا بُعيد الغداء بأمهما في المطبخ، لمساعدتها في التنظيف وترتيب ما بعد الطعام.. وتحضير بعض الحلوى لسهرة المساء..

راح كمال يدرس الأمر من جديد بكل أبعاده، ويخطّط لكيفية فتح باب الحديث مع ثابت.. في الأمر بعض الحرج له، وهو الذي لم يعتد سابقاً كأبيه أن يطلب واسطةً من أحد، خصوصاً عندما أَرَقَّتْ خاطره فكرةً مؤلمة.

- ماذا لو ظنَّ ثابت أنني بطلبياًستغلُّ الفرصة، وأستردُّ شيئاً مقابل ما قدَّمْتُ له بسيف الإحراج؟ ألن يكون هذا عيباً كبيراً ومخجلاً؟ ماذا سيقول في قرارة نفسه عني؟ ماذا لو كان ثابت غير مستعدٍّ لطلب هذا من أجلي؟ وأنا أدرى الناس بعزّة نفسه.. بالتأكيد سوف أعرضه للإحراج الشديد أمامي، وهذا ما لا ينقصه الآن.. بعد كل ما مرَّ به وعاناه.

عقد النية بقرارة نفسه أن يترىث، ويرجى فتح الموضوع حتى يجسَّ نبض صاحبه ويستقرئ أحواله ببعض المكالمات، قبل أن يبادر إلى الطلب منه ما لا يطيق... فعدم إحراج صاحبه أولى عنده من كل مصلحة ذاتية.. في ذات اليوم مساءً طلب كمال صديقه ثابت على الهاتف عدّة مرات، لكنّه لم يرد.. هذه لم تكن المرّة الأولى التي لا يردُّ بها ثابت على مكالمته، أخذ ذهن كمال ونفسه الحساسة يصوّران له أفكاراً عديدةً ليس أقلّها ظنّه بأن ثابت قد يكون تغيّر بحكم الوضع الجديد، وبدأ ينسى صديقه.. لكن حبه ووفاءه له عجلاً في إيجاد المبررات، وأسكتا هذا الوسواس في صدره القلق..

في اليوم التالي قبيل غروب الشمس.. كان كمال يخرج من بيته باتجاه مقهى شعبيّ في مركز المدينة.. ليلتقي بمجموعة من أصدقاء بدايات الشباب، من أهل المدينة الذين رافقوه مراحل الدراسة الإعدادية حتى المرحلة الثانوية، والذين اعتادوا سوياً أن تجمعهم مثل هذه الجلسات كلما سنحت الفرصة في ذات المقهى والزاوية، على طاولة سمر، وأحاديث ذات طرافة حيناً.. وأخرى ذات شجون؟

كعاداته وقف كمال قبل انطلاقه إلى مواعده أمام بيتٍ من بيوت حارته ينظر ملياً، أطال الوقوف مقابله، وتنقّل بنظره وإحساسه.. ما بين بابه، والشرفة العلوية.. انتظر شيئاً لم يحصل.. ثم مضى؟

كان لقاء طاوله الشباب مكتملاً بوجوده هذه المرّة، بعد غياب كمال وبعض الرفاق الآخرين الذي كان سببه الامتحانات الجامعية وانشغال البعض بإجراءات التخرّج، كلّ في المكان الذي درس فيه، كمال طال غيابه في حلب استعداداً للامتحانات النهائية، وقد بقي هناك حتى صدور النتائج والحصول على المصدّقة وانشغاله فيما سبق بالبحث عن الوظيفة.

من الأحاديث التي جرت على الطاولة ما هو قديمٌ ممتدٌ من قلب الذكريات بكل ما فيها من مواقف وطرائف، ومنه الجديد الراهن وما يحصل اليوم لكلّ منهم، كان بمجمله هذه المرّة أكثر سخونةً وجرأةً حين أصبح جدياً، تطرّق إلى الأوضاع الحالية في البلد، وما وصل إليه الناس من جمودٍ في الحالة الاقتصادية وفقير..

ناهيك عن الحديث المزمّن حول مشاكل العمل، والمشروع الحمصي الجديد الذي يهدّد مستقبل الكثيرين، ربما شجّع هذا الانفتاح في الحديث أكثر أن معظم الحاضرين هم اليوم بمواجهةٍ حقيقيةٍ مع واقعٍ جديدٍ بعد تخرّج معظمهم، عليهم أن يروه بجديّة واهتمامٍ، فمن خلاله سيرسمون طريقهم في الحياة، رؤية الشباب اليوم أكثر وضوحاً للحالة، ونفوسهم التوّاقة لقادم الأيام أجلى.. تعدّدت الشكاوى والاعترافات، فالعديد منهم تخرّج من جامعةٍ أو معهدٍ، وما زال معظمهم يبحث عن عمل، القليل منهم من توظّف فعلاً، أو وُعد بوظيفةٍ، أو اعتمد على أهله في افتتاح عملٍ خاصٍّ، أو بقي حائراً منتظراً ما تخبّئه الظروف..

لكنَّ واحدًا منهم فقط من أفلح فعلاً في إيجاد وظيفةٍ جيدةٍ في إحدى الدوائر الرسمية، لم يجتهد الجمع كثيرًا في أن يخمّن كيف استطاع أن يفعل؟ صقر من سكان حي الزهراء ذو الغالبية الموالية للنظام، المُستحدث في عهد الانقلاب، والذي أصبح مركزًا ومنطلقًا لتوسّعهم وانتشارهم في حمص، صقر معروفٌ بين المجموعة منذ نعومة أظفاره بالقدرة على التلوّن، يعيش المصلحة الفردية على مبدأ (مكيا فيلي) لينال ما يريد، يتلقّى العون على تحقيقها من موقع والده الوظيفي المعروف وأعمامه والكثير من أقاربه الضباط في الجيش والاستخبارات، وحده صقر هذا زميلهم من بين المواظبين على اللقاء من كان مختلفًا بطباعه عن الجميع، رغم مرجه ولين معشره وقدرته على الإقناع، بما حظي من لسانٍ طليقٍ وذهنية متفرّدة وروح رياضية تتقبّل المزاح، حتى بما يخصُّ أهله وخاصّته أحيانًا والطبقة التي ينتمي لها من الواصلين في الدولة..

كم وجّه البعض من انتقاداتٍ لاذعةٍ ونكاتٍ تسخر من كبار رجال الدولة فيما سبق.. لكن الجميع كانوا وما يزالون على ثقةٍ بأن صقر بغضّ النظر عن ولائه أو فكره أو أسلوب حياته.. والذي ربما يكون موروثًا بحكم الانتماء، لا يوصل من هذه الأحاديث شيئًا، ولا يعرّض أحدًا من أصحابه لخطر، فقد ظلّ مركز ثقةٍ وودٍّ للجميع.. والشباب لا يكرهونه رغم اختلافه وطريقة تفكيره الأقرب للوصولية وعدم تجانسه مع المناخ العام للجالسين، بل يرتاحون للعلاقة معه بما يملك من خصائص إيجابية موازية، ويصرون كلما التقوا.. كيومهم هذا.. على وجوده ليجعل الأجواء أكثر حيويةً وطفافةً، علاوةً على تقديرهم لتاريخهم المشترك الطويل معه..

والد صقر لا يملك من الشهادات سوى الإعدادية، وهو موظفٌ قديمٌ في فرع حزب البعث في المدينة، منذ أن قدم من الساحل ليقطن في حمص مع

عائلته، كان ولده صقر حينها طفلاً رضيعاً، خدم فترةً في بدايات شبابه في سلك الشرطة، لم يرق له الاستمرار به، فاستقال.. وتم تأمين هذه الوظيفة له عبر أقربائه المتنفذين في الحزب والدولة.. مرَّ عليه من خلال وظيفته الكثيرون من أمناء وأعضاء الفرع، ولم يأل جهداً قطُّ في الانتفاع من موقعه وعلاقاته معهم ومع غيرهم طوال تلك الفترة.. مع العلم أن أبا صقر زُرِعَ زرعاً في هذه الوظيفة، بلا أي مؤهلاتٍ خاصّة.. لطالما كان ولده صقر يسخر في هذا الصّدّ بحضور أصحابه قائلاً:

- هو في الأصل ليس بعثياً.. لكنّه استخدم حزب البعث كمطيّة وعصى يتوكأ عليها.. وأصبح الآن منظرًا فيه؟

اللافت دومًا لهذه المجموعة المتجانسة منذ مدّة طويلةٍ هو توضع هذه الفسيفساء المتنوعة من الأديان والمذاهب والقوميات على ذات الطاولة.. وقد كان هذا أيضًا مثار حديثهم دائمًا بطرافةٍ، وبكثيرٍ من الفخر..

فقد ضمّت الجلسة المكون السّني العربي والمسيحي والعلوي والاسماعيلي والتركمانى والكردى والشركسى.. جوزيف صديق كمال المقرّب علّق شهادة اختصاصه الهندسي يومًا على أحد جدران البيت ضمن إطارٍ، واكتفى بالنظر إليها كلما حنَّ إلى أيام الدراسة، أو أراد لأهله أن يتباهوا بها أمام المعارف والضيوف، التحق بمحل والده الصائغ المعروف في المدينة، بعيدًا عن هموم البحث عن العمل وعن عبء الوظيفة بحدّ ذاتها إنّ وُجدت.. كان دائمًا أثناء سنوات الجامعة يجهر بقوله:

- أدرس فقط لكي يرضى والداي ويحتفلا بتخرّجي يومًا.. أما النهاية والمستقرّ.. فستكون حتمًا في الصنعة التي تعلّمتها على يد والدي.. وفي محلّه؟

رغم معاناة معظم الجالسين، وما يحمله كلٌ منهم من همٍّ شخصيٍّ أو عائليٍّ.. إلا أن المرح كان سيّد الجلسة أولاً وأخيراً، والسائد فيها بلا منازع، اقتصر نقد الواقع في بدايتها على تلميحاتٍ عائمةٍ كحالهم ليس إلا..

الجميع بما فيهم المحسوبون على نظام الحكم كانوا فيما مضى يدركون جيداً ضريبة التوغّل في أحاديث قد تمسُّ أرباب السياسة ولو من بعيدٍ، رغم ثقة كلٍّ منهم بأصحابه جميعاً، وبعدم إمكانية أن يكون أحدهم سبباً يوماً في أذية الآخرين.. لكنّ الموروث الذي زرعه الآباء في دمائهم، وما يسمعونهُ أو يرونهُ من عواقب وخيمةٍ للمخالفين، جعلهم أكثر حرصاً على توخّي الحذر من الحيطان والأرض والطاولة.. والأشخاص.. وحتى من الهواء؟

غير أن هذه الجلسة حملت شكلاً آخر في ختامها، وانتحت طريقاً مختلفاً بعد مرحلة السمر، فبعد تلوّن الأحاديث والتعليقات وتنوّعها، وبعد أن ملأت الضحكات الأجواء في بداية اللقاء، وشرب الجميع ما توفّر من مشروباتٍ ساخنةٍ وباردةٍ أكثر من مرّةٍ دون أن يشعروا بمرور الوقت متعةً وسروراً..

قطع كمال سلسلة الحديث الشيق هذه فجأةً بالتعبير عن سخطه على الوضع المعقّد في البلاد، وما يعانیه وأهله مثل معظم الناس، مفجّراً ما كانوا مرّوا عليه في البداية مرور الكرام، ومركّزاً على مشاكل حسّاسيةٍ يعتقد واثقاً أن الدولة هي مسؤولةٌ عنها:

- الوضع هكذا لم يعد يُطاق.. الدولة أصبحت تضغط جهراً نهائياً على الناس في رزقهم ومستقبلهم.. بدل أن تفكّر في تغيير واقعهم المتردّي؟

الجميع من الحاضرين والذين يسمعون على الطاولة لأول مرة لهجّةً جادّةً مباشرةً بهذا الشكل.. غيّرُوا من جلستهم واستقاموا مشدوهين وشاخصي الأبصار باتجاه المتحدث الانتحاري كمال غير مصدّقين، فما

كان مجرد مزاح من سابق أحاديثهم.. كانوا يعتبرونه تجاوزاً خطيراً، وما كان ليمرّ بسلا مِلولاً أنهم يُعتبرون من ذوي الحظّ السعيد، فكيف وقد أصبح الآن يخوض بالتفاصيل بكل صراحةٍ وجدّية.. وعن سابق عمدٍ ورصدٍ؟

- ما بك اليوم كمال؟ هل شربت شيئاً قبل قدومك إلى هنا؟

قال صقر بلهجةٍ تنبئ عن عدم الرضى.. والاستنكار.

- وهل الحقيقة يلزمها خمراً يا صديقي حتى تُقال؟ قول الحقيقة يلزمه الجراءة على وضع اليد فوق الجرح.. دون أن إيلاّم صاحبه.. أما ترى أن الجميع يعاني منذ مدّةٍ طويلةٍ حتى وإن صمتت الأفواه أو كُمت؟ تدخل جوزيف عاجلاً بدبلوماسيته المعهودة.. حاول أن يلطّف الجوّ قبل أن يتأزّم، وقبل أن يتوغّل صاحبه بالحديث فيما هو أخطر:

- بالتأكيد كمال يمزح حتى ولو بدا جاداً يا صقر.. لعلّه يختبرنا.. هو لم يقصد ما فهمت.. أليس كذلك يا عزيزي كمال؟

لكنّ كمال ردّ على جوزيف بثقةٍ وحزم:

-على العكس تماماً.. فأنا لم أكن جاداً في حياتي كما أنا اليوم.. لمْ نهرب من الحقيقة ولا نواجهها بجرأةٍ ومكاشفةٍ صريحةٍ؟ ألسنا الفئة المثقّفة في المجتمع؟ ألسنا شريحة الشباب المعنية أكثر بمستقبلٍ فرديٍّ وجماعيٍّ لهذه الأمّة؟ هل يمكن لوطنٍ في العالم أن يتطوّر ويصبح أفضل من غير نقدٍ ومكاشفة؟ هل أصبح مذبذباً إن كنت أحبّ وطني وأغار عليه، وأريد له أن يكون خير البلاد؟ هل أسيء لشخص أحدٍ إن قلتُ أنه أخطأ؟؟ صدّقوني يا جماعة أنا أحبّ بلدي وأحبّ لها الخير.. ولا أعتقد أن الجميع هنا يملك رغبةً أقل من رغبتني في ذلك، ولا إخلاصاً في محبتها أقل من إخلاصي..

نحن بحاجة ماسةً يا أصدقائي اليوم لأن نضع يدنا على الجرح، لا أن نضحك له، ونكتفي بالسخرية منه.

-حسنًا أنا أقدر محبتك وغيورتك.. ولكن يا صديقي أنت تُرينا صورةً مشؤومةً مُبالغًا بها عن الوضع.. نحن اليوم في حالٍ أفضل مما تصوّر، والخطُّ البياني للأوضاع في تصاعدٍ كما أراه ويراه الكثيرون.. بل معظم الناس.. فلم أنت متشائمٌ هكذا؟؟

قال هذا صقر وقد عدّل من قسوة لهجته، يحاول أن يعطي انطباعًا للجميع عن استيعابه للأمر، ومرونته في الحوار، رغم أن الآخرين لمحووا في ردّة فعله الأولى، والتي لم يعهدوها من قبل.. كيف أن حديث كمال قد فعل فعلته في نفسه، وكاد أن يخرج عن طوره.. ربما لأن الأمر هنا لا يعني شخصًا أو قيادةً فقط، ولكنه قد يعني الاقتراب من خطوط فئةٍ ينتمي لها صقر.. اعتبرت يومًا أنه لا يمكن لأحد المساس بقدسية وجودها ورسوخه، وربما أيضًا قد دق ناقوس الخطر الذي لا يمكن لهم أن يتحمّلوا سماع صوته.. أو حتى أن يتخيّلوا حدوث ما بعده؟

- كيف رأيت أن الأمر أفضل يا صديقي؟ بزيادة نسبة الفقر؟ أم بزيادة مستوى الفساد في مختلف القطاعات؟ أم بالقمع الذي يزداد ضراوة.. أم بالتغيير الذي تحدّثه الدولة في كل مكانٍ باتجاه فرض واقعٍ جديد؟

اعذرني.. فانا لست أوجّه الكلام قاصدًا شخصًا، أو فئةً بعينها.. أنا أتحدّث على العموم، وقد أكون متحاملاً قليلاً بحكم الظرف الذي نمُر به على المستوى الشخصي، فالجميع يعلم مقدار الضرر الذي تحمّلناه من جرّاء سياساتٍ غير مسؤولة، وما أعاني ومعني الكثير من الشباب في استجداء الآخرين للحصول على رمتٍ من أملٍ للعيش وإيجاد فرصة عملٍ.. وبدء مستقبلٍ معقول؟

رغم ردود الفعل الداخلية الإيجابية لدى الكثير من الجالسين، والشعور الطيب الذي أحدثته جرأة كمال في الطرح.. حيث لامس ذات الجروح التي يخفونها في نفوسهم ويدارون نرفها بالصمت والصبر.. فقد كان هذا التحول المرن نوعاً ما، والذي ارتدى ثوب الحوارية العقلانية، خير وسيلة لتدارك الموقف من قبل كمال، وإنهاء الجلسة على صفاء وسلام..

وجد هذا صدى جيداً لدى صقر والجميع، وهذا من وتيرة الحديث.. ودّعهم كمال في نهاية اللقاء وغادر، والبال يشغله رغم ما توفر في الجلسة من حرارة الحوار ومتعة اللقاء والسمر.. صراعٌ مشتعلٌ بين الأفكار والآمال من جهة، والإحباط والقلق في الطرف المقابل..

في الطريق وقبل أن يصل إلى البيت تلقى كمال مكالمته من صديقه ثابت، أسرع وتناول الجوّال، طلب من ثابت أن ينتظره لدقائق حتى يصل إلى البيت.. ليتسنى له الحديث براحة أكبر، لكن كان على كمال قبل ذلك أن يمارس طقوسه المعتادة بالنظر إلى ذات المنزل الذي عاينه قبيل خروجه إلى اللقاء، حيث وجد ضالته هذه المرة..

حسناً تقف على الشرفة، يتجلى وجهها الأبيض الناعم الجميل من خلال إضاءة خفيفة تمر من نافذة الغرفة المطلة على الشرفة.. أطال النظر إليها بعد أن أبطأ سيره، جرت الدماء في شرايينه بسرعة وتورّد وجهه بالرضى والسعادة، ها هو يفعل كما جرت العادة منذ سنين.. لم يؤدّ سوى الانتظار وإطالة النظر، ورسم ابتسامة موجهة على شفثيه.. بالمقابل أطالت الحسنة البقاء متسمرة، تراقب هذا الشاب الوسيم بصمت، وترصد ممشاه.. حتى وصوله إلى باب بيته؟

هو بيت صديق طفولته، وابن صديق والده وصديقة والدته.. جيران الحارة الطيبين، مضى على عشرة العائلتين سنين طوال.. كان حامدهو صديقه الأول والأقدم في الابتدائية، بينما كانت سميرة شقيقته الصغرى آنذاك ما تزال طفلةً صغيرةً.. لمَّا تزر المدرسة بعد.

هناك في البيت دخل كمال إلى غرفته مستبقاً ثابت بالاتصال والسلام:

- السلام عليكم.. كيف الحال؟

ردّ ثابت بسرعة، وعاجل كمال بالدخول في صلب الموضوع الذي يود طرحه على صاحبه قائلاً:

- قبل كل شيءٍ أعذّر عن التقصير في التواصل معك صديقي، لكنني أشعر بك أخي الغالي، وأحسّ بمعاناتك رغم البعد، وأعلم أنك تشعر الآن بالقلق على المستقبل، وتعاني في البحث عن عمل.. لقد سمحت لنفسني أن أطلب بالنيابة عنك من معارف لي هنا التدخل لإيجاد عملٍ مناسبٍ لك.. فهل أفعل خيرًا؟

علت ابتسامةً محيّا كمال، أشرق وجهه.. تنفّس الصعداء:

- أتعلم يا صديقي؟ أفرحتني من القلب.. ليس لأنك فعلت، ولكن لأنك أرحتني من حرج أن أطلب هذا منك.. سبحان الله.. كأنك كنت تقرؤني قبل أن أحاول التحدّث إليك حول هذا الأمر.. وعن بُعد؟

- سامحك الله يا أقرب الناس إلى قلبي، وهل بيننا من حرج بعد كل الذي صار بيننا؟ أه.. كم لك في رقبتي من الديون.. لو قضيت العمر أسدّدها لما استطعت..

- أرجوك للمرة الألف ربما.. لا تكرّر أمامي هذا القول.. أرجوك فهذا

يحرجنني؟

- لا عليك صديقي.. فقط انتظر مني قريباً جداً أخباراً طيبةً بعون الله؟
 لم يكذب ينهي المكالمة حتى كان يخرج صرخة فرح حبسها متمنّعاً أثناء
 الحديث مع ثابت، نظر فوجد والدته وأختيه اللواتي كنّ يراقبنه أثناء حديثه،
 ويترقبن ردّة فعله إذ كنّ يعلمن نيّة كمال بالطلب من أخيه.. وقد عرفن أن
 المتصل هو ثابت، كنّ ينتظرن أن يسرّ صديقه خاطره برّدٍ إيجابيٍّ مفرح، رفع
 لهنّسبّابته ووسطاه مبدئياً إشارة انتصار.. وقد كست وجهه ابتسامة ارتياحٍ
 وسعادةٍ.. مما أوحى لهنّ بنجاح مسعاه وردّ صاحبه الإيجابي المشجّع.. راح
 يحكي لوالدته وأخواته بإقبالٍ وحماسٍ، ويبشّرهم بما جرى، فعمّ في أركان
 البيت مناخ أملٍ وتفاؤلٍ... كان قد غاب عنهم منذ زمنٍ ليس بقليل...



(٤)

علقة

من يوقف مدَّ ألسنة اللهبِ في نفسِ رجلٍ طامحٍ..
حين توقدُها قوةُ السُّلطةِ، وتوجَّجها
فتنةُ المرأةِ الحسناء...؟؟

أغوثني النَّارُ حتى احترقتُ.. تقولُ الفراشةُ.. ردتِ النَّارُ: لم
أُعمدُ ممارسةً الغواية.. على الفراشة أن تلمَّ بالنَّواميس!

بينما كان آل ثابت في القرية يستكملون فرحتهم بانتهاء المشكلة، وجلاء الغُمة، وبشفاء خالد وما رافق هذا من بعض الاحتفالات على مستوى الأهل والمقربين، والتي لم تخلُ طبعاً من بعض اللوائيم وتوزيع الحلوى، انتشر في القرية كانتشار النار في الهشيم أن ثابت ابن أبي خالد قد صار ذا شأنٍ كبيرٍ في دمشق العاصمة.. أخذت هذه الشائعات تكبر ككرة ثلج متدحرجة، كلما مرَّت بقوم زاد حجمها وتضخَّمت أكثر فأكثر... كلُّ يضيف لها من نسج خيال رغباته، ويزينها بقصص خيالية لا أصل لها ولا أساس، صارت تصل هذه الشائعات إلى العائلة وكأنهم أبعد المعنيين بها، فيستهجنونها.. ويندهشون مما يسمعون.. ورغم أنها أعطت لأبي خالد الكثير فوق ما لديه من الهيبة والمكانة بين من يتأثرون بالنفوذ وأصحابه وحكاياته، إلا أنها بدأت تثير حفيظته جداً وتستفزُّه، حتى أنه قال لعائلته ذائعاً ما يسرُّه لنفسه منذ أن حدثت مشكلة خالد وتدخل ثابت في حلِّها:

- ليته لم يفعل، ليتنا قضينا العمر معتقلين.. ولم نتلطَّخْ بهذه السُّمعة.. بل ليتنا متنا قبل هذا، لعن الله النظام وواسطته.. ألم نصبَحْ مثلهم حتى ولو بالشائعات؟ ما شأننا وشأن هذه المداخل التي حاولت عمري كله أن أتحاشاها.. بل وأنتقد وأشتُم أصحابها؟

رَدَّتْ أم خالد بصوتٍ متهدِّجٍ يحمل رعشة الغيرة عليه، والإنكار لما تحدَّثَ به زوجها، رغم أن هذا الصوت غالبًا ما يبقى موافقًا لأبي خالد وفكره وقيمه.. دأبه منذ سنين طويلة.. وبنبرةٍ معارضةٍ لطيفةٍ لم يعتنَّدها أبو خالد قالت:

- يا رجل لا تجعل من الحَبَّة قُبَّة.. كل ما في الأمر أن الله وَفَّقَ ولدنا في التدخُّل بأحلك المواقف التي مررنا بها، وقد أفلح مسعاه، سَخَّرَ الله له أناسًا طيبين يخدمونه، ونحن والحمد لله بخير.. أهذا جزاء الشاب يا أبا خالد بعد أن دعتَه محبته وخوفه علينا أن يلهث ساعيًا ليجد لنا حلًّا ومفرجًا مما ابتُلينا فيه؟ ثم إن سمعتك محفوظةٌ رغم أنف من لا يرغب، وخسعى من أراد بها مساسًا، أنت يا عزيزي وربُّنا يعلم والناس أجمعين يعرفون حقَّ المعرفة ذو معدنٍ أصيل، وتاريخك المشرف لا يخفى على أحدٍ، وتربيتك لأولادك ليست موضع شبهةٍ أو تشكيكٍ من أحد.. فقط أرجوك دَعهم وما يقولون، وطبَّ نفسًا يا سيِّد الرجال.

صمت أبو خالد ولم يتابع الحديث عندئذٍ، غير مبِدِّ لما أصاب نفسه من فرح وزهوٍ بحديث أم خالدٍ رغم معارضتها.. ذلك الحديث المريح المهدئ الذي بكلِّ يسرٍ أحمد الكثير من نيران سخطة المتأجَّجة داخله ومشاعر الحرج؟ بينما وافق هذا الحديث هوىً ورضىً أيضًا لدى خالد وإخوته وجميع من حضر.. ما رآه أبو خالد وأسرته مزعجًا أكثر في الأمر، هو عدم خلوّ المضافة في الأيام التالية من الزوّار.. من الأهل والأقارب والجيران

والمستضعفين والفقراء من أهل القرية، حيث كان كلُّ منهم يحمل في جعبته الكثير من الطلبات، أملاً بتوسُّط أبو خالد لدى ولده ثابت في دمشق لتلبية طلباتهم، من خلال نفوذه الذي جعل من ثابت مخلصهم المنتظر، ومن والده الذي يعتبرونه مفتاح الوصول إليه والتأثير فيه.. كان هذا كافياً ليُجعل أبا خالد في مزاج سيِّء للغاية، وفي حالةٍ لا يُحسد عليها من الغضب والحرج، احتار في كيفية إقناع الجميع بأن ما جرى كله لم يكن بإرادته، وأنه لم يطلب ذلك ولن يفعل.. كاد أن يفقد لباقة مع الناس وهو الحريص دائماً على التحلّي بها، خصوصاً أمام أهل قريته الطيبين البسطاء، لكنه كان وبصعوبةٍ يضغط على نفسه ويقمع ثورتها.. راح يعتذر من الجميع، ويبرّر ما استطاع لثابت انشغاله بمرض زوجته، حتى يهدّئ على حدّ تقديره من أمواج الطلبات وردّة فعل أصحابها.. في هذه الأثناء وصل مختار القرية زائراً إلى مضافة أبي خالد، ومعه بعض وجوه القرية ممّن لهم معزةٌ في قلب أبي خالد وتقديرٌ حسن، كان واضحاً لأبي خالد أنها لم تكن زيارةً عاديةً.. بادره بموضوع لم يكن يخطر بباله، ولا حتى ببال أحدٍ من أهل القرية.. قبل أن يسمعه وتضعفه وعائلته المفاجأة؟ طلب آل الخليل منهم التوسُّط لدى أبي خالد وعائلته بجاهةٍ لقبول الاعتذار والصلح، مع استعدادهم لدفع التعويض الذي يراه مناسباً لما حدث من شجارٍ وإصابة خالد، ومن ثمّ تقديم الرّجاء له لإسقاط الدعوة، وبناء علاقاتٍ طيبةٍ بين العائلتين.. وطّي هذه الصفحة نهائياً؟

- هي سابقةٌ مذهلةٌ فعلاً.. أبيت الخليل يطلبون صلحاً؟ منذ متى تسعى

الذئاب إلى مصالحة الخراف؟

قالها أبو خالد متهمكماً، ثم تابع:

- أليسوا هم أنفسهم من اعتدى على معظم عائلات القرية، وانتهكوا

كل محظورٍ تحت راية النفوذ والدولة.. ومازالوا يفعلون دون أدنى رادعٍ

أو اعتبار؟ أليسوا هم من يعتبرون أنفسهم أسياد المنطقة.. وأنهم فوق قيم الناس والعادات والعشائر؟ فلم هذه المرة لانوا وأصبحوا أصحاب خلقٍ وغيرُوا منهمجهم؟

ردّ المختار مبتسمًا، متقمصًا دور الوسيط الحكيم:

- سامحك الله يا رجل.. لم لا تُحسن الظنَّ أخي أبا خالد؟ لم لا تقول بأنهم أدركوا ولو متأخرًا حجم أخطائهم ومقدار تجرُّتهم على الناس.. ويريدون إصلاح الوضع؟ وها هم قرَّروا أن يُبدوا حسن النية فعلاً، ثم إن الصلح خيرٌ دائماً لكم ولهم وللقرية عموماً.. أليس كذلك يا صديقي؟

لم يستطع أبو خالد أن يردَّ وجوه القوم وفق العادات والتقاليد، ولا أن يكون سبباً في استمرار نزاعاتٍ قد تؤدِّي إلى حربٍ طويلة الأمد.. فوافق وعائلته وأقاربه بعد تفكيرٍ على الصلح.. على مضض..

فوجئ الجميع بوصول سيارةٍ مرسلَةٍ من آل الخليل، فيها عددٌ من الخراف وأكياس الرزِّ، وغيرها من المواد، تعبيراً عن التضامن والمشاركة... وحسن النوايا؟ في مساء هذا اليوم تمَّ إعلان الاستعداد الكامل أمام أبي خالد، تفقّد هو شخصياً كافة الإجراءات، وشاهد كل التحضيرات وأبدى موافقته واستحسانه.. في الموعد المحدّد لقدوم الوفود.. حضر معظم كبار رجالات القرية من جميع العائلات مع الضيوف.. وتمَّ استقبالهم من خارج المنزل.. كما جرت عادة أهل الريف في تكريم الضيوف ذوي المنزل الخاصة.

أبو خالد الذي فرضت عليه المناسبة ما لم يكن يرضى أن يفعله، لم يفكّر في الردّ السلبي أو التمرد بإظهار عدم رضاه كعادته حين تكون المسألة متعلّقةً بأصحاب النُفوذ.. لأنه رضي أصلاً باستقبال الجميع وهو يعلم المال، وربما خشية العواقب أيضاً وما أكثرها وأخطرها، لكن أبا خالد مع

ذلك لم يتمالك نفسه تمامًا أمام الطقوس الممجوجة وكلمات الحفل الذي ما فكر يوماً أن يُقام مثله ضمن حدوده ويضمُّ كل هذا الحشد من رجال الدولة وضمن مناخ نفاقٍ يمقته، أبدى ابتسامةً ساخرةً مختنقةً مع هزة رأسٍ استنكاريةٍ، يعرفها المقربون ويحفظونها، يفكر وتأخذه الأفكار إلى البعيد، وتمرُّ به سراعاً إلى اليوم واللحظة، محدثاً نفسه التي لم يستطع منعها من الشعور بالاستنكار الشديد حين صرَّح أحد المتحدثين عن منجزات الدولة وحزب البعث في الوطن:

- نعم هي إنجازاتهم، وأنعم بها من إنجازات.. يكفي ما فعلوه من تغيير شكل التقسيم الطبقي، حيث كان على أساس الملكية للأراضي والعقارات، والتي خلقت حالة الإقطاع فيما مضى خلال ثلاثينيات وأربعينيات وخمسينيات القرن الماضي.. جاء البعث فتغيَّر الشكل، وظلَّ المضمون.. تبلور وجود الطبقة أكثر، ولكن.. بفارق الوسيلة والاعتبارات، صار التصنيف حسب النفوذ والمال، والقرب من السلطة، وأهم إنجازاتنا خلال هذا التاريخ المشرف، كانت الفساد والسرقات والتخلف والمحسوبيات والفقر.. والكثير من القهر والذل؟ يا إلهي.. إن في عيون الشباب ازدواجيةً رهيبَةً تكاد تكون ناطقةً، فما أوضح ما تبديه من رضى زائفٍ ومتابعةٍ مرسومةٍ محنطة، بينما في ذات الوقت تعبر عن حقيقة ما في دواخلهم من القنوط والملل والقهر الذي خلفَ فيهم التخبط في المشاعر والازدواجية والغضب المكبوت وفقدان البوصلة وضياح الهدف.. نحمد الله أن المخابرات في هذا الوطن التي تستطيع أن تتابع كل شيءٍ صغر أم كبر - حتى أنها وصلت في قريةٍ مجاورةٍ يوماً ما.. إلى رجلٍ أم المصلين بدلاً عن الإمام المعين بموافقةٍ أمنيةٍ في صلاة الفجر في مسجدٍ ناءٍ، فربَّت به كل من تسوَّل له نفسه أن يقوم بما لا يمرُّ من أقيمتهم وبموافقتهم - لم

تبلغ هذه المخبرات - ولله الحمد - بعدُ من الذكاء والوسائل حدًا يجعلها تقرأ ما قرأتُ في عيون هؤلاء المساكين المغلوب على أمرهم.. وإلا فلن تتورّع عن محاسبتهم أشدَّ الحساب على مكنون أنفسهم ونواياهم..

ثم أضاف في قرارة نفسه متهمًا حين كان الحديث ينتقل إلى أحد رجالات المخبرات:

- أليس هذا النظام الاستخباراتي الصارم عديم الضمير وفاقد الرحمة والقيم.. والمطبق على رقاب العباد.. أهم منجزٍ عظيمٍ من منجزات الدولة والتصحيح؟

انتهى حفل الصلح على خيرٍ لكنه شهد تحوُّلاً لم يكتفِ بثابت مادَّةً له بل انعكس على عائلته وأقاربه.. وهذا ما أثار الوالد المشاكس أبا خالد أكثر. في اليوم التالي كان أبو خالد وابنه في النيابة العامة بمركز المدينة، حيث تنازلا عن حقَّهما في الشجار، ووقَّعا على الوثائق اللازمة لذلك على مضضٍ.. أخذ محامي الجناة المنتظر لتنازلهما فوراً إجراءاتها المحفوظة مسبقاً.. لإخراج موكله من الحجز، ومضى كلُّ منهم إلى شأنه.. وكأنَّ أمرًا لم يحدث.

في طريق العودة بالحافلة التي أقلَّتْهما، كان القلَّة من رفاق الطريق من تواصل مباشرةً مع أبي خالد وولده.. بينما كانت عيون الناس من أهل القرية، والقرى المجاورة، تتحدث وتحكي دون صوت، وهي ترمقهما بتركيزٍ ملفتٍ واضح، وتميِّزهما عن الجميع.. ذلك ما دعا أبا خالد وولده للشعور بالمزيد من الحرج.. من الناس من كان يرسل نظرة القبول والودِّ والإعجاب، بينما أبدت عيونٌ أخرى الانبهار والاستغراب بما استطاع أبو خالد أن يفعله بآل الخليل، وكيف قلب المعادلة وأرغمهم على القدوم إليه صاغرين معتردين، هذا أمرٌ لم يحدث من قبل..

- لا يمكن لهذا الذي يجري في البلد أن يكون منزهاً عن تدخل وبرمجة أيادٍ خارجية، لها مصلحةٌ عليا في أن يبقى الوطن هكذا.. مشوهاً.. قبيحاً.. أتابع الوقائع كل يوم وأزداد جزءاً وبقيةً بأن تردّي الحال بفعل فاعل، يملي على مجموعةٍ أو فئاتٍ من الأوغاد لا تهمها سوى السلطة.. كرّاسةً جاهزةً، دُون فيها كيف تُدار الأمور، ومن أي كتفٍ تؤتي الغنيمة ولمن، والجازرة كرسىٍّ ومكاسب شخصيةٍ، بغضّ النظر عن الثمن المدفوع من قيم أو كرامةٍ.. لكن.. أيعقل أن الأمر سيبقى كذلك إلى الأبد؟... هل هو خالدٌ كشعارات من ترَبَّع على الأنفس، وتولّى الرّقاب ذات انقلابٍ أسموه تصحيحاً؟ هل ذلك قدرِيّ لا يمكن تغييره؟

لم تكد الحافلة تصل إلى محطتها الأخيرة لتتوقّف في ساحة القربة، حتى قفز أحد الموفدين من صغار عائلة أبي خالد إلى داخلها، ليوصل لهم رسالةً عاجلةً مزعجةً.. خالدة الحبيبة الحنون.. تعرضت لما هو غير منتظرٍ.. وقعت في بيت والدها مُغمى عليها، وقد نقلوها إلى المشفى الوطني في البلدة المجاورة، وهي ما تزال في حالة غيبوبة.. وقع الخبر في أذني أبي خالد موقعاً شديداً للإيلام وعميقة، فخالدة الكبرى بين بناته، والأحنُّ والأقرب إلى قلوب الجميع، لما تتمتع به من مزايا أمومةٍ فائضةٍ.. لا تتوانى عن توزيعها وإراققتها على الجميع.. شعر بالهلع والحزن، ومعه خالد.. تحوّل فوراً باتجاه المشفى، حيث توجه أيضاً معظم أفراد العائلة..

لثابت لدى خالد معزةٌ استثنائيةٌ، وكان هو يبادلها المشاعر حباً بحبٍّ ورفقاً برفق.. حتى ولو عن بعد، يبدو أن أحداً من العائلة اتصل وأخبره بأزمة خالدة ونقلها إلى المشفى، لم يطفّ على سماع الخبر صبراً، أخذ يتلوّى قلقاً وشفقةً على الحبيبة الغالية.. جهّز نفسه رغم حرج موقعه، وحساسية الحالة

التي تعاني منها العجوز، وحصل على الإذن من السيدة، وأبلغ المسكينة هادية بالخبر.. كانت هي أيضًا ممن يحبون خالدة، لكنها لا تستطيع أن تغادر معه لوجوب بقاء أحدهما.. أعدّ لهم ما يحتاجونه في القصر هناك، وانطلق بسيارته الفارهة باتجاه القرية... بأسرع ما يمكنه.

لما وصل أبو خالد ومعه ولده إلى المشفى، وجد جمهرةً من آله منتشرين من باب المشفى الرئيسي.. وحتى غرفة العناية المشددة التي ضمت خالدة في هذه اللحظات العصيبة، مما زاد من قلقه وتوتره.. لم يستطع أحدٌ ممن مرَّ بهم أن يروي ظمأً سؤاله عن الغالية، حتى التقى بزوجها ابن أخيه.. والذي التحق بالجميع، كان في وظيفته حين وصله الخبر، سأله عن وضعها، وأجابه بحزنٍ بادٍ كبير:

- والله يا عمّاه يقول الطبيب أن ارتفاعاً قوياً بالضغط أصابها فجأةً، وأنهم يخشون أن تكون قد أصيبت بجلطةٍ دماغية، وهم يجرون الفحوصات والصور والتحليل اللازمة للتأكد من حالتها؟

ما فعل ردُّ ابن أخيه شيئاً أفضل من سابقه، سوى أنه ألهمه بالمزيد من القلق والخوف.. راح والأم المفجوعة أم خالد يذرعان الممرّات جيئةً وذهاباً متلهّفين لخبرٍ من داخل غرفة العناية التي مُنِع الجميع من دخولها في تلك الأثناء.. يمرُّ الأطباء والممرّضات من أمامهم، لكنهم يتأبّون على الرد عن تساؤلات الأهل القلقين.. استمرّت هذه الحال ساعاتٍ مليئةٍ بالهواجس والظنون، والتناقضات في التشخيص بين طبيبٍ وآخر، التباطؤ وعدم الاكتراث كالعادة سمة العمل في قطاعات الدولة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. قَبَّحهم الله.. هذا دأب مشافيههم، التي أصابها كغيرها من مؤسسات الوطن التسوُّس والعطب، وانتشر فيها الفساد وقلة الاهتمام ورداءة الخدمة.. انتشار الوباء...

يردّد أبو خالد قلقاً ومنتظراً.. وأم خالد تتهرّب من الردّ لعلّه بذلك لا يتمادى أكثر؟

في هذه الأثناء وصل ثابت، دخل إلى ساحة المشفى دخولاً مهيباً بسيارته الفاخرة ولباسه المستورد الأنيق، لفت انتباه الجميع ممن لاحظوا حضوره، حتى بدا وكأنه نجمٌ من نجوم الفنّ والسينما.. دعم ذلك الاهتمام به ويأيدهما انتشارُ قُبيل حضورهم من أحاديث كثيرةٍ عنه، وعما وصل إليه حاله؟ تلقّاه الجميع بالترحاب والعناق، ابتداءً من ساحة المشفى.. وحتى وصوله قريباً من غرفة خالدة، كان القلق يظهر في نظرات عينيه اللاهفتين على الغالية، يريد خبراً شافياً يرفع عن كاهله ثقل الحزن والخوف.. سلّم على خالد وعانقه بقوة، إذ أنها المرّة الأولى التي يرى فيها أخاه بعد إصابته، وعلى ابن عمه زوج خالدة الواقفين قرب مدخل الطابق، ثم اقترب من أبيه وأمه الجالسين في الممرّ ليلتقيهما بعد غيابٍ طويل، انكبّ على يديهما مقبلاً، وأبو خالد ينظر ملياً نظرةً تكاد تنطق بالاستهجان والتساؤل.. إنه لا يجد في ولده جزءاً مفقوداً، هو يراه على غير ما يرى الآخرون..

وما إن تمّ إخباره بالحالة، وضبابية المعلومات التي يصرّح بها الأطباء والمشفون.. حتى استأذن والده بأن ينقل خالدة فوراً إلى مشفى خاص في حلب بسيارة إسعافٍ مستأجرة، وهو يدي الكثير من التذمّر وعدم الرضى.. أمره أبو خالد بالتريّث قليلاً لعلّ أمراً يتبدّل.. ثم تلفت إليه وقال:

- ومن قال لك أن المشافي الخاصة في بلدنا تختلف كثيراً؟ هم ذات الأطباء والكوادر غالباً، الفارق الوحيد أنك هناك تدفع مالاً كثيراً.. يجعلك تحصل على زيادةٍ في الرعاية الشكليه ليس إلا..

- لكنني أراهنك الآن يا أبا خالد.. أنك إذا نثرت بعض الأوراق النقدية في أيدي البعض هنا، لوجدتها تتحوّل إلى ما هو أفضل من أي مشفى خاص..

قال هذا أحد الحاضرين من الأقارب، وقع الكلام في مسامع ثابت وصدره موقعاً حسناً، أنصت له مهتماً، وبدا بأنه اقتنع بفحواه.. كأنه ذكره بما ينبغي فعله؟

لم يكذب ثابت خبيراً، بل راح لشدة اهتمامه ولهفته على أخته الحبيبة ينقذ فوراً، مستخدماً حزمة من النقود الورقية، وزَّعها في مكاتب أصحاب القرار الإداري، ومستثمراً سمعةً سبقته من خلال قضية خالد التي انتشرت في أرجاء المنطقة، وما كان لثابت من دورٍ مهمٍّ فيها.. سرعان ما بدأت النتائج بالظهور والتجلي من خلال تبدُّل المعاملة الفوري، ما هي إلا دقائق حتى كانت كل عناصر المشهد تتغيَّر، حضر الاستشاريون واستنفر طاقمٌ خاصٌّ، وراحوا يقومون بما يلزم وبسرعةٍ واهتمام واضحين.. تحوَّل المكان إلى خلية نحلٍ ناشطة، خرج كبير الاستشاريين لِيُشَرِّهَم بأن الأمر بسيطٌ، وأنه لا يستدعي القلق الزائد.. أخبرهم أن الحالة سببها وعاءٌ دمويٌّ صغيرٌ في الرأس فقط قد نزف قليلاً على أثر ارتفاع الضغط المفاجئ، وأن هذا النزف توقف الآن، ولا يعتقد أنه سيؤثر على المريضة مستقبلاً ما حافظت على نفسها وابتعدت عن الضغوطات، واستمرَّت في تناول الأدوية التي سيشير إليها في وصفته الطبية..

في صباح اليوم التالي كان الجميع من الأهل بما فيهم ثابت متحلِّقين حول خالدة في غرفتها الخاصة التي كادت تخنق بهم، وهي تشعر رغم مرضها بالفرح لحضورهم ورعايتهم، وبالأخصَّ لرؤية الغالي ثابت بعد غيابٍ طويل، كان واضحاً أن حالتها أصبحت أفضل بكثيرٍ، مما أشار إلى أنها لن تقضي وقتاً طويلاً في المشفى.. سمح الأطباء بإخراجها في فترة ما بعد الظهر إلى بيتها، حيث قام ثابت بنقلها بسيارته إلى بيت العائلة، تواجد الجميع حول خالدة وثابت.. كانت جلسةً من جلسات العمر عامرةً بالمودة

والسَّمر والمزاح والضحك.. وحده أبو خالد كان متحفِّظاً في تواصله مع ثابت، بخيلاً في إظهار الحفاوة لولده، وقد همس في زاوية من زوايا المضافة ضمَّتهما.. في أذن أم خالد:

-أدعو الله أن يخيب ظني ويبدد مخاوفي، وأن لا يكون ثابت ولدنا هذا قد بدأ رحلة السقوط في أتون النار هناك في الشام..

-لا سمح الله يا رجل.. لا تقلقْ يا أبا خالد فهو ابنك ونتاج تربيتك، ولا يسقط الأصيل ابن الأصيل.. وإن تعثر..

قالتها أم خالد وهي تنظر إلى ولدها بعين الأمومة المتسامحة الحنون، والتي تأبى أن ترى ابن قلبها في غير هيئة ما تشتهي وتريد..

أقبل الناس إلى بيت أبي خالد مهتئين بالسلامة بكثافة ذلك اليوم، لم يكن أحدٌ بحاجة لكثير نباهةٍ ليدرك أن أغلبهم أتى ليقابل ثابت ويتقرَّب منه طمعاً بالرَّضى والحظوة، وأملاً بتلبية مطالب شخصية احتفظوا بها دون التصريح بها هذه المرة طيَّ الكتمان، تقديرًا لحالة مرض أخته وتمهيداً لمراتٍ أخرى.. إلا أن خلَّانه وأصحابه القديمين أتوا إليه شوقاً ورغبةً بالتواصل بعد غياب، منهم من الأقرباء المقربين.. من أصحاب جيله.. وغيرهم من أصدقاء المقعد الدراسي.. قضى ثابت ليلةً حافلةً بالسَّهر والذكريات، والكثير من الابتسامات.. والحكايات التي قصَّها عن وضعه الجديد، وما آلت إليه أموره، وأخرى تلك التي استمع إليها من أحبابه، حتى اقترب ضوء الفجر من البروغ.. ورغم أنه كان قد بيَّت النية على العودة في الصباح الباكر إلى دمشق، لم يستطع المغادرة قبل فترة ما بعد العصر، لاضطراره إلى النوم تعويضاً، والاستجابة لطلب من أهله.. خشيةً عليه.. وحرصاً على سلامته أثناء القيادة الطويلة دون قدرٍ كافٍ من النوم، وعلى تناوله طعام الغداء الخاص الذي

أشرفت عليه الوالدة المشتاقة لولدها.. وأيضًا... وهذا الأهم.. لإصغائه لجملة من توصيات الوالدين على انفراد، كان أبو خالد يعتقد بضرورة إلقائها في مسامع ثابت وعقله وقلبه.. لكن أبا خالد وجد نفسه عندما حان الوقت يختزل كل ما يريد قوله في صيغة إنذارٍ جليٍّ مباشر.. لم يستغرق بثّه في مسامع ولده سوى لحظات:

-كلمتان خفيفتان ضعهما كحلقنتين في أذنك.. أنت ولدي وحبيبي، لك روحي ما دمت على الصراط المستقيم، أُوَيِّدُكَ وأفخر بك.. ولا أعرفك مطلقًا بخلاف هذا.. فلا تنس ذلك أبدًا؟

-آه لو تدري يا والدي كم هما ثقيلتان.. ثقل الجبال الراسيات؟ قال هذا ثابت في سرّه، دون أن يحرك شفّتيه.. مكتفيًا بهزّ الرأس، وموافقة الوالد..

ودّع ثابت الجميع.. وقد اجتمع الكثيرون في ساحة منزل أبي خالد في وداعه، وانطلق باتجاه دمشق تلاحقه الأعين والدعوات.. بدا ثابت مزهّواً بكمّ المودّعين والمراقبين، وبحجم الاهتمام به، حتى من الجيران البعيدين من أهل القرية كبارًا وصغارًا، وهو يراهم يصطفّون محيّن ومواكبين له بأنظارهم.. وابتساماتهم...

في ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم وصل ثابت إلى قصر السيدة العجوز ملتحمًا بعائلته، بعد سفرٍ طويلٍ مرهق، رافقه الكثير من التوقّفات.. أهمها وأجملها في حمص عند صديقه الحبيب كمال لساعتين فقط..

بدا أنّ الجميع في قصر العجوز نيامٌ حين وصل.. تسحّب بهدوءٍ رغبةً منه بعدم إيقاظهم، واستعدادًا لارتداء ثياب النوم ليندسّ في فراشه.. لكن

هيهات.. فهادية تنتظره على أحرَّ من الجمر بقلقٍ وشوق.. حيث تبين أنها صاحبةٌ في فراشها تحصي الدقائق والثواني حتى لحظة حضوره.. قامت من فراشها واستقبلته، وسألت عن خالدة وتطوّر حالتها وعن الجميع في القرية، عرضت عليه أن تحضّر له لقيماتٍ ليأكلها، فأبى.. لكنه لم يمانع شرب فنجان قهوةٍ مع هادية في الحديقة، يبادلها خلال تناوله الحديث.. حدّثها بكل ما جرى منذ انطلاقه وحتى عودته، طمأنها عن خالدة والجميع، وأوصل لها تحيات أهلها، وتحيات كمال وأهله، واطمأنَّ في المقابل منها عن حالة العجوز والمنزل بغيابه.. لم يخفِ ثابت قلقه وخشيته من زوال هذه النعم قريباً، وهذا الحضور الذي حقّقه بين أهله وأقربائه وأهل قريته، علاوةً على ما أصبح هو عليه وعائلته من الراحة المادية والنفسية والصحية.. أوى إلى الفراش، بعد أن مال على خدّ عثمان الملاك البشري النائم وقبّله، وناما على نيّة القيام ليومٍ جديدٍ.. كلُّ منهما يحمل همومه وأحلامه.. وخطط اليوم المقبل..

في اليوم التالي كان ثابت قد خرج كالمعتاد ساعياً، مازال في أحد الأسواق يشتري بعض الحاجيات للمنزل، تلقّى مكالمَةً خارجيّةً، كان واضحاً من خلال الرقم الطويل الذي بدا على الشاشة.. أنها من السيدة ماري.. بعد أن اطمأنّت فيها عليه، وعلى حال والدتها وهادية، واستفسرت عن حاجتهم لأي شيءٍ، وعن بعض أمور المنزل.. أبلغته بأمرٍ لم يكن في الحسبان:

-على هادية يا أبا عثمان أن تأتي إلى فرنسا بالسرعة القصوى، لمقابلة أطباء مختصّين ومدرّكين لحالتها ولطرق علاجها، بعد أن أخبرتهم عنها، وعرضت عليهم كل أوراقها ومستنداتها الطبية؟

-كيف ؟ .. لا يمكن هذا.. وعثمان ماذا أفعل به؟

قال هذا بعد انتظارٍ.. والصدمة ترسم على محياه نظرات حيرةٍ، وعلامات استفهامٍ لم تكن في هذه الفُجاءة لتجد لها جواباً بعد؟

- لا عليك سندبّر أمر سفر عثمان معها، ولا تقلق عليهما هنا من أي شيء.. سنكون معهما ولهما، ولن يحتاجا إلى شيء، وبإذن الله يكون سفرها هذا فآل خيرٍ لها وشفاءً وعافية.. لعل الأطباء هنا فعلاً يستطيعون أن يريحوا المسكينة من معاناتها الدائمة، ويخففوا من آلامها المستمرة..

ثم أوضحت لثابت الآلية التي سيتمُّ بها الأمر ومتى.. وما هي الإجراءات الواجب اتخاذها.

عاد إلى البيت مسرعاً ومرتبكاً، والأفكار تتضارب في دماغه.. ماذا يفعل؟ هل يوافق على ذلك ويمشي في هذه الإجراءات؟ كيف يخبر أهله وأهلها ويقنعهم؟ وعلى أي أساسٍ وذريعةٍ سيرسلهما دون أن يكون معهما؟ حتى ولو أراد هذا.. فإنه ليس أمراً اعتيادياً وفق العادات والتقاليد.. ماذا عن أثر بعدهما على المستوى الشخصي، وعلى مستوى عمله في الفيلا؟ هادية المسكينة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من يومياته، ويوميات السيدة الكبيرة.. فكيف بفلذة كبده ووحيد الصغير عثمان معها؟؟ أخبر ثابت هادية بما حصل فور وصوله إلى المنزل، وكانت مفاجأتها تزيد قوة عما انتابه لحظة سماع الفكرة من السيدة ماري، فالأمر كما تبدى من مكالمتها أنه جديٌّ وعاجل، لا يحتمل التأويل ولا التردد، أو التفكير كثيراً.. لا شك أنها فرصة استثنائية لم يكونوا ليحلّموا بتحقيقها قبل شهرٍ أو اثنين، وكالعادة.. وقفت هادية تنتظر ردة فعله وقراره، وتحاول أن تمتصّها، بما أوتيت من هدوءٍ وسلام، لكنها المحتاجة لمثل هذا الأمل الذي بدا وكأنه هبةً ربانيةً مفاجئة، أعاد لها إشرافه وجهها، وتدفق دماؤها في عروقها المحتاجة له منذ سنين.. أخذت توجه الحديث دون أن تشعر باتجاه الموافقة وتحقيق الأمر، وهو يصغي باهتمامٍ وقبول.. لكنه مع كل ما يحمل من عبء التفكير بجدوى

الموضوع، وإمكانية تحقيقه، أخذ يحاكم الأمر أمامها.. وكأنه يحدث نفسه بصوتٍ مسموع، وظلَّ يعالج الفكرة متنقلاً من زاويةٍ إلى زاويةٍ في بيتها الجديد، ويفكرُ بها من جميع أبعادها، وهي توافق على سير معالجته مبديةً رضاها، ومستكينةً لدراسته على ما فيها من محاذير.. إنها ترغب بالموافقة رغم مصاعب الأمر، طمعاً بشفاؤها التام من حالتها، لكنها تدرك جيداً وتقدر صعوبة تنفيذه في هذه الظروف.. بينما انشغل وحيدهما عثمان بعيداً بين ألعابه، كأنه غير معنيٍّ بكل ما يجري.. غير مدركٍ لما يتمُّ تدبيره هناك؟

في السهرة حيث كانت السيدة العجوز قد أعدت نفسها جيداً لإقناع ثابت بالموضوع، وقد وضح أنها على علم مسبقٍ بتفاصيله من ابتها.. بدأت بهادية وسهلت عليها تقبلُ الفكرة، ولم تجدْ صعوبةً تُذكر في هذا، لما لهادية من دافعٍ حقيقيٍّ لتقبُّلها وإقبالٍ عليها، لمجرد أنها قد تكون بوابتها إلى الشفاء... لكنها أخبرت السيدة بهواجس ثابت، وإمكانية عدم موافقته.. ورغم رفض السيدة ذاتها مغادرة البلد والالتحاق بأفضل مشافي أوروبا سابقاً، إلا أنها بدت متحمسةً لسفر هادية وعثمان، وراحت توجّه الكلام لثابت حين حضر.. والذي كالعادة عاجلها برَدٍّ قويٍّ مقلع:

- لم لا تذهبين أنتِ إذا.. وتعالجين هناك؟ لم ترفضين ما ننصحيننا به؟

- اسمع أيها الأرعن المتذكي.. أنا وضعي يختلف عن وضعها.

قالت العجوز المستعدة لكل الاحتمالات.. وهي تنهره بأطراف أصابعها.. ثم تابعت:

- أولاً.. حالتي ليست استثنائية وغريبة، وما يتمُّ علاجها به واحدٌ في جميع الدول، بينما حالتها ليست كذلك، وهي بحاجةٍ إلى مجرّبين خبيرين في حالةٍ تُعتبر نادرةً جداً، والحريّ بك أن توافق على هذا.. وفوراً..

ثم أكملت بطريقتها الهجومية التي لا تغضب ثابت، بعد أن أدرك من خلال عشرتها القصيرة التي سبقت.. أن خلفها الكثير من الودِّ والطرافة والتعاطف:

- ثم ما شأنك بي أنا هه؟ ولم تربط حالها بوضعي؟ أنت فقط تعاند أيها الفظُّ المتحجّر.. لا أريد الخروج من هنا بعد أن أمضيت جلَّ عمري في هذا البلد، وأنت تعلم أنهم سيرغموني.. لو وافقتهم.. على تمضية ما تبقى منه هناك، بينما لدى زوجتك الصبية فرصة حقيقية بالشفاء هناك، وبدء حياةٍ صحيّةٍ طويلةٍ بإذن الله هنا بين أهلها، لن يطول بقاؤها طويلاً كما فهمت، وسيتكفون بكامل نفقاتها.. ثم إنني هنا لست بحاجتها في هذه المدة، وأنت ما شاء الله كالجدار طويلاً وعرضاً، تؤدي كل ما يمكن أن تؤديه هي، فلا تقفْ بوجه أملها هذا.. أما إن كنت تشعر بالقلق عليهما، فلا أظنك تجهل أن ماري وعائلتها سيكونون لهما كالأهل.. إن لم يكن أكثر...

علاقة ثابت بالعجوز والتي أخذت منحى متفرداً في ظاهرها الهجومية من الطرفين ما بين مزاح وجدّ، وباطنها الودود الذي ينطوي على الكثير من الالتقاء والتشابه.. أخذت تتبلور كل يومٍ أكثر، متخطّين فيها الكثير من الخطوط الحمر...

لم يعد أيُّ منهما يجد حرباً في هذا، تجادلا قليلاً، ثم أنهى النقاش ممازحاً إياها:

- أعلم أنك لا تريد أن تدفني هناك في مقابرهم أيتها العجوز، فمقابرنا أكثر أنساً واجتماعية.. لذلك تتمسّكين بالبقاء هنا..

ردّت العجوز بدون تردّد.. وبدهاء:

- لا يهم.. أيّاً كانت.. المهم أن أضمن أنك لن تلحق بي إلى ذات المقبرة أيها القروي الجلف..

ضحك الجميع.. وتناولوا ما تيسر من المشروبات والأطعمة، اطمئنوا لتناول السيدة أدويتها، وأكملوا سهرتهم إلى موعد نومها المعتاد.. انفصَّ المجلس على قرار المباشرة بإجراءات سفر هادية وعثمان، والتي تبدأ باستخراج جوازات السفر، وتحتاج إلى بعض المستندات من هناك في الشمال البعيد من القرية، والتي سيكلف إخوته بالحصول عليها.. لكنه قبل ذلك كان عليه أن يخوض مرحلةً متوقَّعةً جديدةً هناك.. يحسب لها الحساب الكبير.. لإقناع أهله وأهلها بالفكرة؟

قام الجميع إلى النوم، ولم يطل بهادية الوقت حتى غفَّت وهي تضمُّ أمَلها الجديد الجميل، وبقي ثابت يتقلَّب على جمر الحسابات، يعاقر التفكير بكل تفاصيل الأمور.. ينتقل بين موضوع وآخر ابتداءً من القرية، وهمَّ إقناع الأهل بمشروع سفر هادية وعثمان، إلى همَّ بعدهما عنه وربما لوقتٍ يطول، مرورًا بخالدة وما جرى لها، وقلقه على صحتها، وما يمكن أن يحصل بعد ذلك... لكن شيئاً واحداً في النهاية هيمن على كل اتجاهٍ من تفكيره، ورافقه في خواتمه بلا توقُّفٍ.. شأنه ذلك منذ أيام، هو طيف هذه الفاتنة الجميلة التي اقتحمت بجمالها كل أبواب حصونه، ولم يسعفه حتى الآن أيُّ عيبٍ فيها على درء هذا الاجتياح الرهيب عن قلبه.

- عيناها بارعتا الجمال كانا ينطقان بكل لغات الفتنة.. ضمن وجه مرسومٍ بتناسقٍ كأنَّ تصوري للمرأة المثالية هو من أعطى ملامحه، أنوثتها الفاتنة الفيَّاضة تغزل لي شباكاً من هيام، ثقتها واعتدادها بنفسها أسرُّ.. يا لها من ساحرة.. ما الذي يجري؟ لم يستنكر ضميري هذا الانجذاب في ذات الوقت الذي لا يغادرها فيه تفكيري ولا تغادره؟ ما الذي عليَّ أن أفعله حتى أتجنَّب تأثير هذه الفاتنة، وأضع حداً له قبل أن يستفحل.. ويحدث ما لا يقبله المنطق، وتنكره أخلاقي؟

وبغير موعدٍ.. قاطع شروده في طيف الفاتنة خاطراً مهم.. تذكر صديقه الحبيب كمال، وكيف أخبره بأنه تحدث من أجله مع بعض الأشخاص المهمين للعمل على تأمين وظيفة مناسبة، إسعاداً له ورغبةً في زرع الأمل في نفس صاحبه.. هو يدرك الآن أنه لم يفعل بعد، قادتة نفسه الأمارة بالفتنة أن يتواصل غداً مع الفاتنة وأنها عن طريق السيدة العجوز، على مبدأ اصطيد عصفورين بحجرٍ واحد.. مجرد ورود هذه الفكرة في ذهنه مهّدت له أن يجمع ضميره ومنطقه، ويلاحق رغبته الشديدة، وينام مبتسماً وبكل راحة.. قابضاً على توقيه لفكرة اللقاء.. على أمل تحقيقها في صباح الغد.

العجوز تنتظر الجميع على مائدة الإفطار صباحاً كدأبها، أقبل ثابت سابقاً زوجه وولده على غير العادة.. متأنقاً ومستبشراً.. كان يهيئ نفسه للطلب من السيدة بكل ما أوتي من رغبة، مسلحاً نفسه بهدوءٍ يضمن له ألا تقرأ العجوز ما خلف السطور، وما تخفيه الصدور.. اقترب منها مثل طفلٍ يسرّ في نفسه رغبةً له في حضرة والديه، سارع بفتح موضوع صاحبه للسيدة ممهّداً لما بعد ذلك، ومبرّراً لها أهمية هذا الشاب بالنسبة له، وما قدّمه له من مساعدة أثناء رحلة العذاب.. لما أدرك استجابتها الإيجابية المشجعة، وقبل أن ينتظر رد العجوز، أو سعيها للتنفيذ كما المرة السابقة من خلال الاتصال بصديقتها، كان ثابت يقترح عليها أن يكلمها شخصياً ليوضح لها وضع الشاب ومؤهلاته.. ويزودها بجميع المعلومات الشخصية عنه.. لم تتردد العجوز بإعطائه رقم السيدة أم فاتنة، بل وبشّرتة خيراً حين قالت:

- بالتأكيد ستسعى لك بذلك، فقد أعجبت بك وبعائلتك، وامتدحتكم

كثيراً حين اتصلت بي في اليوم التالي لزيارتهم لنا؟

وقع هذا الكلام موقعاً استثنائياً في قلب ثابت، هزّه من الداخل، لم يستطع أن يخفي كمّ الرضى والفرح به، خشي أن تلتقطه مستشعرات العجوز الذكية، قبل أن يتسنّى له إخفاءه.. أشرق وجهه واستنار، وابتسم مزهواً، تناول الرقم من السيدة، وراح يستعجل حضور هادية وعثمان مرتبّكاً خجولاً.. لم يكد الجميع أن يتتوها من تناول وجبة الإفطار، وأكواب الشاي بعدها، حتى تنحّي ثابت بعيداً، تاركاً السيدة وهادية يتبادلان الأحاديث.. اتصل طالباً السيدة أم فاتن.. التي ردّت ولكنه تئمّ عن انتماءٍ لطبقتها الأرستقراطية، حتى وإن كانت تبدو ربما حديثة عهدٍ بها:

-مرحباً.. نعم.

-صباح الخير سيدتي.

-صباح النور.. أهلاً.. من معي؟

-أنا ثابت.. أعمل في بيت السيدة...

وقبل أن يكمل محاولاً تذكير السيدة ميرفت بنفسه.. بأدريته بترحيبٍ وودّ ظاهرين:

- أهلاً أهلاً سيد ثابت.. يا مرحباً.. نعم عرفتك طبعاً.. تشرفنا باللقاء بك

ومعرفتك في بيت السيدة..

بعد التقديم ببعض المجاملات المتبادلة من الطرفين.. باشر بطرح المسألة، والطلب من السيدة ما أراه منها لصديقه.. فاجأته بإيجابية أكثر مما تأمل، وأسرع مما أوحى به قول العجوز عن إمكانية تليتها.. جعله هذا أكثر انفتاحاً وجرأة بالحديث، وإقبالاً على الاستفاضة فيه.. وعدته خيراً، وطمأنته إلى أن هذا الأمر يسيرٌ واعتيادي، فاجأته بما ترغب به نفسه دون أن يحتاج

إلى إيجاد مبررٍ لفعله.. طلبت منه أن يزورهم في البيت، حاملاً معه كل المعلومات اللازمة عن الصديق المعني، وأتفقا على استقباله مساءً في منزل السيدة.. شعر ثابت بشعورٍ لم يألفه من قبل، انحسر تأثير الصراع بين قيمه التي تجعل هذا الأمر إثمًا.. ورغبة النفس التي تجمل الوعد وتزفه في عينيه، فراح يمنيها بلقاء لا يشبهه فيما مضى شبيهه..

لم يتردد بالاتصال فوراً بكمال ليطلب منه كل المعلومات اللازمة مفصلةً، ودونها متلهاً لتحقيق خدمةٍ لصاحبه، وبالمعية.. فرصة لقاء بالفاتنة في بيتها، أخذ يتفقد المنزل والحديقة والمطبخ، ويسأل عن احتياجات المنزل.. لينطلق في يوم عملٍ جديد.. حاملاً معه خيالات أمسية مرتقبة.. جميلة..

في مساء ذلك اليوم وقف المتيم الهائم ثابت أمام (فيلا) فخمة كبيرة، تبدو كأنها قصرٌ منيف.. يفوق هيئةً ومساحةً بيت العجوز، موقع المكان لا يبعد كثيراً عن بيتها.. أعد نفسه للقاء تهفو له.. أتى متأثراً ومعطراً ومحملاً بالكثير من الأخيلة والأحلام.. وفي زحمة هذه اللهفة تختفي كل المحاذير.. لم يفكر بتبعات ما هو مقدمٌ عليه بشغفٍ ورغبةٍ لا تعادلها رغبة، فقد سدت صورتها القابضة على أدوات تركيزه كل نافذة للوعي والبصيرة.. صوت نبضه الذي كان يخرج من أعلى أضلاعه يسابقه ليقرع الباب قبله.. بادره شابٌ مسلحٌ ببندقية آلية بالسؤال عما يريد، نظر حوله فوجد نفسه أمام غرفة حرسٍ خاصة، فيها عددٌ من العناصر غير الشاب الذي يقف بمواجهته، وعلى محياه علاماتٍ جدية يختص بها رجال الاستخبارات، تعود ثابت ككل مواطنٍ في هذا الوطن على التعامل معها بجديّةٍ وريية.. هي تكفي لترعب وتربك أشجع الرجال؟ أخبره عن الموعد مع السيدة، فاتصل المسلح بها، وما إن انتهى من محادثتها حتى أشرق وجهه، وتغيرت ملامحه بابتسامة

ترحيب، أبدى اعتذاره لثابت مبرراً ما فعل بالحرص على أداء واجبه...
ثابت أبدى اقتناعه بكل سرور، وقبل الاعتذار والتبرير.. وضع الشاب إصبعه
على لوحة (الأنترفون)، وخلال ثوانٍ قليلة كان الباب يفتح آلياً وصوت الأم
السيدة ميرفت يطلب منه الدخول بلهجة رقيقة لطيفة..

عندما التقته الخادمة بعد أن تجاوز معبراً تفوق مساحته كل البيوت التي
عرفها خلال عمره.. أشارت له إلى مكان التوجه، كان يرى ما يبهر كما في
فيلا العجوز.. بل أكثر بكثير..

- يا ربّاه ما هذا؟

يجرّ قدميه متثاقلاً خجلاً من زخم الموقف، ومن رجاء اللقاء المنتظر
مع ساحرته الفاتنة.. ينظر بإعجاب وانبهار كبيرين في كل اتجاه.. توجهت به
الخادمة نحو صالون واسع كبير، أخذ الإدهاش منه وهو يعاين سعته وجماله
كل مأخذ.. تجاوزته دون توقّف إلى شرفة خارجية.. وهو يتبعها، يسبقه
نبض قلبه.. ويعيقه ارتجاف ساقيه.. هناك كادت الأضواء المدهشة بجميع
الألوان، والشرفة الواسعة المطلّة على حمام سباحة كبير وجميل، والكثير
من النباتات والورود المنسّقة بعناية.. أن تسلبه ما تبقى من تركيزه، وتنسيه
أن السيدة الأم الأربعينية صاحبة المكان أمامه على بعد خطوات، تقف بكل
شموخ متأنّقة، كأنها واحدة من سيدات البلاط الملكي.. تمدّ يدها لمصافحته
وترحّب به ترحيباً لطيفاً ومشجعاً.. صافحها ثابت وبادلها التحيات، جلس
حيث أشارت له على أريكة فخمة، كأنها عرش ملكيّ يكسوها جلد فاخر،
راحت تلاطفه بالحديث وتعطيه من عذب المجاملات لدقائق.. سائلة إياه
عن السيدة العجوز وعائلته، وهو يردُّ بكل تحفّظ وخجل، يبادلها السؤال
والإجابة بمثليهما، السيدة الشقراء الجميلة ميرفت التي لا يوحى شكلها ولا

طلَّتْها وأناقَتْها بعمرها الحقيقي ترتدي ثوباً قصيراً مختلِفاً بنوعيته وشكله، يبدي الكثير من مفاتها.. بدأ ثابت يتقبَّل في البيئة الجديدة أن المقاييس هنا مختلفة.. فما كان يعتبره فجوراً هناك، يبدو هنا من أول بديهيات المرحلة.. بدت أنظاره وحواسه كلها تبحث عن القمر الغائب عن الجلسة، وعيناه تتنقَّلان في محجريهما عبر أرجاء القصر لعلَّهما تلتقيان بالفاتنة.. مرَّت دقائق.. أفرغاً ما في جعبتيهما من مجاملات، عيناه مازالتا تدوران، ورأسه ثابتٌ كاسمه.. يترقَّب بلهفةٍ كادت أن تنطق، ومنتظر بفارغ الصبر.. ولم تظهر بعد.. بدأ هذا يسبِّب له الكدر والقلق، وكاد ضيقه هذا أن يصرخ فاضحاً إياه من خلال وجهه الذي يتفطَّر استنفهاً، لولا أن تمالك نفسه، وسيطر على انفعالاته، خشية أن تذللَّ لهفته العظيمة، وتكشف ما ظنَّ أنه مستورٌ.. هو لم يجرؤ على السؤال عنها خجلاً وإبعاداً لشبهةٍ يخشاها..

ما إن انتهى من إعطاء السيدة ورقةً لخص فيها كل ما يلزم من المعلومات عن صديقه، حتى اقتربت الخادمة تحمل ما تقدمه كضيافةٍ للضيف.. وقبل أن يكتمل شعوره بالياس وخيبة الأمل وانقطاع الرجاء.. خلفها فجأةً.. ظهرت له الفاتنة كالبدن المنير في ليلةٍ ظلماء، بكل الإبهار والبريق يزاحمانها إلى مكان اللقاء.. كأنها الأميرة في حكايا ألف ليلة وليلة.. مبدية كل ما غاب عن خياله يوماً من أسرار الأنوثة؟ ترتدي من اللباس ما بدا أنه عرائسيٌّ بديع، ويظهر أكثر مما أبداه لباس أمها من مفاتن، متجملةً بكل وسائل ومواد التجميل أتت.. تسبقها روائح عطرها، وشعرها الذهبي اصطفت بتنسيق ملفتٍ مهيب، تسمرت عينا ثابت باتجاهها، واختفى صوته، امتنع وجهه بالحمرة، وظل جالساً لبرهةٍ في مكانه يكسو وجهه الدهول.. قبل أن يستدرك أن عليه أن يقف ليبادلها السلام:

- يا إلهي ما هذا البهاء؟ أسحر الحكايات التي قرأتها يوماً ساقها مرسلّة من قلب التاريخ، أم حلمٌ خيالي التفاصيل هذا الذي أراه أمامي.. مبالغٌ فيه؟ ردّد هذا لسان حال ثابت، قبل أن يتنفّض واقفاً، ويمدّ يده لمصافحة الأميرة القادمة، وصلت درجة ارتبائه في هذه اللحظات إلى الذروة، وارتعدت فرائصه مرتجفاً، كاد أن يفقد إمكانية النطق حين بادرت به بكل غنج ودلالٍ بالسلام بلغة أجنبية.. ردّ مبتسماً ابتساماً بلهاء بدت كأنّها فقدت ذاكرتها، تلثم، أخذ يرطن بحروفٍ لم يعِ هو ما معناها، قبل أن يستجمع نفسه ويعود إلى طبيعته.. عاد مستدرّكاً الحديث مع والدتها، مكملاً ما بدأه من سرد التفاصيل عن صديقه، وكلُّه متعلّق بالابنة الحائزة بامتياز على جميع مراكز اهتمامه، يطلق بين الحين والآخر بعض نظرات المجاملة المكشوفة، ترافقها ابتساماتٌ موجّهةٌ، لم تقصّر هي بالردّ عليه.. ولكن.. بأشعة عينها الجارحتين الجميلتين وابتساماتها الساحرة، كانت ردودها تلك كافيةً في كل مرّة لكي تزلزل مجلسه وتهزّ كيانه كما لم يحدث له من قبل.. مضى من الوقت الكثير، وهو لا يدرك أن عليه أن يكتفي بما قضاه هنا، ويغادر حسب ما تعود عليه من الأصول، غيبه سحر السيدة الصغيرة عن إدراك الزمن وعن كل عُرفٍ وعادةٍ، كان لترحيب السيدتين ومشاركته الحديث.. أثره في تشجيعه على الاستمرار، وقد أصرّتا عليه للبقاء وإطالة الزيارة.. في الوقت الذي لا يحتاج به إلى الكثير من الإلحاح ليفعل؟

تسيّدت الجلسة بعد حالة الانبهار، والحديث عن تفاصيل كمال.. أحاديث عن ماضي العائلة وزوج السيدة ميرفت المتوفى منذ بضعة أعوام، وعن طليق فاتنة، والكثير من التفاصيل التي استغرب أن تحدّثها بها هكذا من الجلسة الأولى.. دون أي حرج. السيدة كما ورد في سردها التفصيلي الطويل،

والتي تمتد أصولها إلى لبنان.. من عائلةٍ بعلبكيةٍ عريقة.. تزوّجت من ضابطٍ صغيرٍ في الجيش السوري بعد قصة حبٍ منذ ما يزيد عن خمسةٍ وعشرين عامًا.. هو من الساحل السوري من قريةٍ صغيرةٍ بريف اللاذقية، ابن عائلةٍ فقيرةٍ، يعتمد سكانها كمعظم أهل القرى هناك على الفلاحة والزراعة وبعض الوظائف في قطاعات الدولة، وأكثرها الجيش والمخابرات، كان يخدم في لبنان أثناء الحرب الأهلية فيها، تقول أنه فُتن بها آنذاك وأحبها وأحبته.. خطفها حين رفض أهلها تزويجه، وقدم بها إلى دمشق في تلك الأثناء دون أن يستطيع أو يجزؤ أهلها على البحث والتفتيش عنها.. ثابت الذي كان يستمع صامتًا ومتابعًا بشغفٍ يعلم والجميع أيضًا أن الجيش السوري كان في لبنان يفعل ما يريد حينها، فقد عاش ذلك الرعيل من الضباط هناك كممثلين لسلطة احتلالٍ لها اليد الطولى التي لا يستطيع أحدٌ أن يمنعها عن فعل أي شيء، انتشرت أثناءها كثيرًا وقائع السرقة للبيوت، ونهب المحلات والمجوهرات، إضافةً إلى تهريب البضائع دون رادع، واختطاف النساء.... غير أن حديثها كان يصبُّ في خانة تنزيه الزوج الرَّاحل عن كل ذلك.. مستشهدةً بما تكبّدها من عناءٍ خلال السنين الأولى لزواجهما.. حدّثته كيف عانت الكثير في بدايات حياتها الزوجية من الفقر والحاجة والتعب، وكم كافحت صابرةً منتقلةً من منطقةٍ إلى أخرى، حسب موقع زوجها الوظيفي، كلما ارتفعت رتبته، كانت متاعبهما تقلُّ وتضمحل، وأمور معيشتهما تتحسن، حتى وصل إلى منصبٍ مهمٍ في وزارة الدفاع بدمشق برتبة عقيد.. كان يوم استلامه لشقّةٍ واسعةٍ في إحدى ضواحي دمشق يومًا في غاية الأهمية في مسيرة حياتها، لن تنساه السيدة كما ذكرت.. حيث نقلها نقلًا نوعيًّا باتجاه الاستقرار والراحة في العاصمة، مع أثاثٍ جميلٍ للبيت، وسيارةٍ وسائقٍ.. لم تلدُ أم فاتنة سوى

مرّة واحدة بعد عامين من زواجهما، كانت الشمرة هذه الفاتنة، وباعت جميع محاولاتهما بعد ذلك بتحقيق حلم الحمل التالي بالفشل، رغم أنهما حاولا بشتّى السُّبل.. بما فيها السفر إلى الخارج والبحث عن طريقة متقدّمة بالطب تسعفهما في تحقيق رجائهما، لكن أبا فاتنة الذي عشق زوجته كثيرًا، وتعلّق بوحيدته، كان لا يوفّر فرصة لا يعرب فيها عن رضاه الكامل عن نصيبه من الأولاد، بل كان يتباهى دائماً بفاتنة.. ويؤكد للجميع أنها تساوي عنده عشرة أولادٍ ذكور.. أما التحوّل الأكبر في حياة العائلة، فكان عندما فاجأهما الأب ذات ليلة، بأنه مرشّح من القيادة لمنصب رفيع في الاستخبارات.. آنذاك كان قد اقترب من الترقية التراتبية في حياته العسكرية، والحصول على رتبة عميد.. وفعلاً.. لم يمض على خبر ترشيحه هذا سوى أيام، حتى تبلغ رسمياً بترقيته، وتوليته رئاسة واحدٍ من أهم فروع الأمن في العاصمة..

الأمن كما يعرف ثابت.. هي الكلمة التي مازال أهل الدولة يطلقونها على الاستخبارات بأنواعها، دون أن تعني بالطبع مؤسسات الشرطة، فأمن البلاد منوطٌ حسب زعمهم بهذه الفروع الكثيرة، والمنتشرة على جميع أصقاع الوطن... فمن أمن الدولة إلى الأمن العسكري، إلى الأمن السياسي، والأمن الجوي.. وانتهاءً بالأمن القومي..

- لكن أيّ أمنٍ هذا كله ولمن؟ سؤالٌ يراودني منذ زمنٍ بعيدٍ.. وتعجزني الإجابة عليه.. وأعلم أنه ليس هذا أوانه..

كان هذا بعض ما خطر في ذهنه أثناء الإصغاء للسيرة العائلية الشيّقة، لكن جلسة كهذه بالنسبة لثابت جعلته يوقف التفكير كثيرًا بحديثات الأشياء وتفصيلها، أوقف دماغه ورهن قلبه وجوارحه حالياً.. فقط.. لهذه المتألّقة الجميلة التي تجلس مقابله بكل بهائها وبريقها؟

كانت هذه نقلةً كبيرةً في حياة الرجل وعائلته، أصبح من خلالها ذا نفوذ كبير، بل إنه صار يلتقي بكبار مسؤولي الدولة أكثر من عائلته، انتقلت العائلة إلى منطقةٍ محترمةٍ للإقامة بفيلا جميلة، مع وجود الحرس والسيارات بأنواعها، والكثير من السائقين والمرافقين.. كبرت فاتنة في أجواء رفاهيةٍ غير عادية، حب الأب والأم لوحيدتهما منحها ضمن هذه الظروف من الدلال والرخاء إمكانيةً أن تفعل ما تشاء، وتدرس حيث تشاء، وتسافر أنى شئت.. في الوقت الذي تريد.. التحقت الفتاة المدللة بجامعةٍ خاصةٍ في لبنان بناءً على رغبة والدتها، وكانت تأتي زائرة كل نهاية أسبوع، هناك أقامت عند أحوالها بعد أن تحسّنت العلاقات الأسرية بين العائلتين بعد سنين من القطيعة.. الأب الذي أصبح بحكم موقعه يتكفل بمصاريفها الباهظة وبايصالها وعودتها عن طريق أسطول سياراته وفريق مرافقيه لم يخلُ عليها بأي دعمٍ ممكن، لكنها لم تكمل سوى عامٍ واحدٍ في جامعتهَا، لفت جمالها انتباه الكثيرين، تقدم لخطبتها أحدهم، كان عريسًا مهمًا، وقد فاجأ ذلك العائلة التي كانت تعتقد أن ذلك مبكرٌ بالنسبة للفتاة.. كان ضابطًا في ذلك الوقت ذا شأنٍ من ضباط القصر الجمهوري، حيث كان أحد الذين يتولّون مهمة الحراسة الخاصة، ومرافقة أفراد الأسرة الحاكمة الأهم، هذا موقعٌ لا يتأتى سوى لأصحاب الثقة العالية جدًّا والمقربين.. حتى وإن كانت حقيقة قيمته تفوق رتبته العسكرية.. هو من بلدةٍ قريبةٍ من بلدة والدها في منطقة الساحل.. وكبار العائلتين على علاقة ودّ قديمة، كان وأهله أيضًا يحظيان بمكانةٍ ونفوذٍ كبيرين في المنطقة بأسرها حتى من قبل أن يكون في القصر.. تمّ الزواج بضغطٍ من الكبار والمتنفذين في الدولة والطائفة، وأهملت فاتنة جامعتهَا رويدًا رويدًا.. حتى انقطعت عنها تمامًا، ولكن بعد حينٍ.. بدأت

الشابة المدللة المرفهة تكتشف أنها وأهلها أخطؤوا باختيار العريس.. بدأت أمور هذا الشاب بالتقدم في موقعه، وارتقى وظيفياً، عرفت عنه فيما بعد تعلقه بالنساء والخمر والقمار.. صار مهماً لها، بل وأحياناً مزدرياً بها، ومذكراً إياها دائماً بأنه لا يخشى أباه، ولا يكثرث لمنصبه، بدأ يسيء معاملتها أكثر فأكثر.. وتعددت المرات التي كانت تأتي فيها فاتنة إلى أهلها غاضبة، وقد تعرضت للإهانة وأحياناً الضرب المبرح، ظهر ذلك من خلال حالتها النفسية التي تدهورت كثيراً.. كان هذا يغضب الأب كثيراً فيتوعد ويهدد، لكنه كان في النهاية مضطراً للمراعاة موقع الزوج من حيث المكانة الوظيفية في القصر، وقربه من القيادة العليا، وموقع أهله في المنطقة ونفوذه، فهو لن يدخل في مغامرة صراع النفوذ غير المحسوبة.. حتى لا يفقد شيئاً مما وصل إليه.. لم يستمر هذا الزواج أكثر من عام، لم يرزقا خلاله بمولود لأسباب لم يعرفها أحد، ومن حسن حظها أن الرجل أخيراً وبعد طول معاناة وصبرٍ هو من أراد الطلاق.. هذا الشاب الذي وصفته بالمزاجي الأخرق، ما إن رأى فاتنة أخرى، واستبدت به رغبة الحصول عليها وامتلاكها، حتى بادر إلى إطلاق سراح الأولى، وقد كان الأمر بينهما قد تجاوز حدَّ العودة، تمَّ طلاق فاتنة، وحصل الأمر بالتراضي ودون خلافات تذكر، نتيجة سياسة الاستيعاب التي تعامل بها والد فاتنة، إذ رأى في ابنته رغبة قويةً بالانفصال عنه دون مقابلٍ وبلا شروطٍ. لم تتوقف الأمور عند هذا بالنسبة لهم، فما مرَّ عامان وبعض العام حتى صدر قرارٌ جديدٌ من القيادة، ومن رئيس البلاد الشاب الوريث شخصياً، وفي مرحلة بدايات تسلمه الحكم، بترقية الأب إلى رتبة لواءٍ، واستلام منصبٍ لم يكن يتوقعه أحدٌ منهم في قيادة أهم مواقع الاستخبارات في البلاد؟ انتقلت العائلة بعد شهرٍ من تسلمه منصبه الجديد

إلى هذا القصر، بينما تعرّض الضابط طليق فاتنة لانتكاسةٍ أودت بموقعه ونفوذِه، خرج من القصر مطروداً لأسباب لا يعلمها إلا الله والمقرَّبون.. حتى هذا الرجل الواصل الكبير في تلك الأثناء والد فاتنة ذاته لم يستطع أن يحيط بها علماً.. اختفى الشاب نهائياً بعد ذلك، لم يعد أحدٌ يسمع عنه شيئاً، باستثناء بعض إشاعاتٍ لم يكن لهم أن يكثرثوا بها، فهي لا تعينهم آنذاك.. أصبح أبو فاتنة يغيب طويلاً عن المنزل لانشغاله الكبير بمنصبه الجديد، بينما انشغلت السيدتان بعلاقاتهما الاجتماعية المترتبة على كونهما عائلةً واحدٍ من الشخصيات الأقوى والأهم في سلك المخابرات، فاعتنيا بالحفلات الخاصة والسفر والسياحة، ودعوات عائلات المسؤولين، وغدًا محطَّ اهتمام جميع ربّات هذه الطبقة.. وسيداتِها المعروفات.. إلى يومٍ.. كانتا تحيا مساءه بإحدى الحفلات بمنزل مسؤولٍ كبير في الدولة، حيث جرى الاتصال بهما بشكلٍ مفاجئٍ وصاعقٍ لإخبارهما بأن اللواء أبا فاتنة قد تمَّ نقله إلى المشفى فوراً من مكتبه لإصابته بنوبةٍ قلبيةٍ حادةٍ مفاجئةٍ.. لم ينتظر القدر السيدتين ليصلا إلى المشفى ويلتقياه حيّاً، فقد توفّي الحوت الكبير إثر إصابته القوية.. وقبل أن يصل أحدٌ إلى المشفى من الأهل والمقربين..

- سبحان الله.. وتبيّن لكل من كان مأخوذاً بشخصه وصيته.. أن هذا العملاق كغيره أيضاً من بني البشر.. يموت؟

يحدّث ثابت نفسه.. وهو يتابع الحكاية باندماجٍ وشغفٍ.. وييدي أسفه للسيدتين...

كان هذا الخبر المفجع بانتظارهما في مدخل المشفى، وظلّتا تحت تأثير هذه الصدمة المهولة، حتى إلى ما بعد شهور.. كل شيءٍ في طور التغيير.. المكانة والموارد، ومن كانوا بالأمس أعدّون أصدقاء حقيقيين..

ضاع الكثيرون منهم في زحام النفاق، وحمّى البحث عن صديق جديد حيّ أكثر نفوذاً.. كان هذا يومها خبراً غير عاديّ، يستطيع الجميع في هذا الوطن أن يسمع به، وأن يصل إليه.. ومن بينهم ثابت.. فقد اشتهر مثل كل الشخصيات ذوات المناصب العالية في الجيش والاستخبارات والدولة، حتى وإن كان أمثاله لا يظهرون كثيراً في وسائل الإعلام، لكن ذكرهم وصيتهم المرعب في دولة تقوم على مثل هؤلاء الأساطير ليظلوا ناقوس خطرٍ يقرع في روع كل من تسوّل له نفسه المساس بأمن السلطة والسلطان أمرٌ بديهيّ؟ دُفن الرجل في مسقط رأسه القرية التي وجد بها يوماً بين أهله وأقاربه وخبّت نار توهّجه مع مرور الأيام حتى غدا مجرد ذكر يتناقلها بعض الألسن القريبة من العائلة فقط.. ومع هذا.. استمرّت اليد الرّاعية في الدولة ترعى السيدتين بعد وفاة أبي فاتنة مدةً طويلة، إلى أن بدأ الأمر يأخذ منحىً اعتيادياً.. وخفتت الأضواء عنهما نسيّاً، مع المحافظة على بعض العلاقات مع النخبة.. تسلّم فيما بعد ضابطٌ معروفٌ - واسمه الآن يهزُّ الأرض كما يقال بين العوام - وقد كان فيما مضى مرؤوساً لأبي فاتنة.. مركزاً مهماً وهو أيضاً من أهم مراكز الاستخبارات المعروفة.. إن لم تكن الأهم والأقوى بين جهات المخابرات المتعددة.. يقال أن الرئيس الراحل كان قد أنشأه ليراقب ويتحكم بباقي الفروع الأخرى..

- لا بد أنه أيضاً فكّر في من يراقب المراقب هذا أيضاً.. وإلا كيف يسيطر على كل هذه الشبكات المستفحلة في شرايين الوطن

أسرّ ثابت وهو يتابع سيرة العائلة.. وينتظر المزيد من تفاصيل السيرة. أصبح وقتها هذا الضابط المرموق مثل رئيسه السابق برتبة لواء، ظلّ هذا الرجل وفيّاً لعائلة أبي فاتن، يخصّهم بالرعاية والمتابعة، وصار واسطةً بينهم

وبين القصر الرئاسي، وبين جميع مسؤولي الدولة، ومفتاح عبورهم الجديد بما يضمن استمرار الاهتمام بهم.. من خلال ذلك عادت لهما الأضواء بقوة من جديد، وها هما تعيشان تحت حراسة واهتمام اللواء، ورعاية القصر... حيث وفرَّ لهما قراّر رئاسيَّ الدعم اللازم والحرس والسيارات والخدمة، أصبحت طلباتهما مجابةً من قبل كل الجهات، مع العلم أن الوضع المادي كما يظهر من خلال آثاره على المكان والسيدتين أكثر من ممتاز..

- يبدو أن المرحوم الذي علّق هذه اللوحة المذهّبة في البهو الكبير المؤدي لمكان الجلسة، المشغولة بخطّ عربيّ قديم.. والتي كتب فيها: "هذا من فضل ربي" قد أورثهما الكثير من الأموال والمنشآت والمشاريع.. مما أنعم عليه مركزه ووضعه الوظيفي، وبالتأكيد وظفّت بعض هذه الأموال الطائلة في تجاراتٍ متعددة... وإلا فمن أين تأتي أعراض كل هذا الثراء؟

يحدث نفسه، وهو يستمع إلى السيدة أم فاتنة في سياق الحديث.. قبل أن تجيبه دون أن تدرك سؤاله.. وتعدّد الكثير من المصالح والمؤسسات والشركات التي أسّسها، ومنها ما هو معروفٌ لدى ثابت والكثير من الناس بالاسم التجاري المشهور.. إما منفردتان أو بوجود شركاء من طبقة رأس المال المعروفة بدمشق وحلب واللاذقية، لم يكن هذا محرّجاً ذكره في وطنٍ لم يعد أحدٌ يجرؤ فيه أن يسأل القوي:

- من أين لك كل هذا؟

لكنه يعرف نتيجة خبرةٍ مكتسبةٍ مما علّمته الأيام، وما اطّلع عليه أو سمعه من أبيه ومن الكثيرين غيره.. كيف تمشي وتُدار الأمور بين حيتان هذه الطبقة، وتذكّر أباه ذات سهرةٍ عائليةٍ كيف تهكّم ذاكرًا ثروة أحدهم الطائلة من هؤلاء.. وكيف جمعها.

أضحكت طريقته الساخرة الجميع ليلتها.. لم ينسَ ثابت أبداً كيف حلَّ أباه ثروته قائلاً:

- الرجل الثري القوي هذا يا جماعة تعرَّض للاثهام والتشكيك من بعض الجاهلين، وهو بريء مما يدعون براءة الذئب من دم يوسف.. فقد كان يمتلك قطعة أرضٍ صغيرةٍ في قريته، أصبحت وقت التنظيم ورسم الطرقات.. على طريقٍ عامٍ دوليٍّ مهم.. ابتسم له الحظ.. حين أصبحت هذه الأرض ضمن التنظيم الإداري لمدينته الأم، وصارت مطمناً لكل راغبٍ بالأراضي ذات الإطلالة المميزة، فزاد ثمنها بشكلٍ كبير.. باعها وقبض الثمن، ثم إن مرتبته الوظيفي كان عالياً بحكم المسؤولية، وكان يقبض بدلاً عن ساعات عملٍ إضافية، ولما كانت زوجته سيدة منزلٍ جيدةٍ ومدبرةً من الطراز الرفيع، فإن الرجل وفَّر خلال سنِّي عمله مبلغاً معقولاً.. يناهز الخمسين مليار ليرة؟

ما زال ثابت يذكر كم قهقهه الجميع يومها، وحفرت هذه الطريقة الساخرة في ذاكرتهم لها مطرْحاً، وراحت تلازم هذه القصة المبتكرة كل حديثٍ يخص الثراء والمال، حتى أن ثابت يومها قال لوالدته ممازحاً:

- لو كنتِ مثلها مدبرّةً يا أمي، وعرفت كيف تديرين البيت كما ينبغي.. لما كنا اليوم هنا نعافر الفلاحة ونرافق التبن.

بعد أن اعتقد ثابت أن تفاصيل الحكاية انتهت هنا، فاجأته أم فاتنة بمتابعة مفاجئةٍ ومثيرةٍ لروايتها الطويلة.. حكته فيها عن طليق فاتنة الذي اختفى فترةً طويلةً وغابَ أخباره، قبل أن يظهر من جديد بعد وفاة الوالد بلبوسٍ حديثٍ مختلف، فاجأ الجميع حيث ظنُّوا أنه لن يجرؤ على الظهور أمامهم من جديد بعد كل ما جرى والتطورات التي حدثت له، وبعد أن تلقَّى ضغطاً كبيراً من أعلى المستويات في الدولة؟

سُرح من الخدمة، وسُجن لمدة ليست بالقصيرة، وبعد إطلاق سراحه اختفى، تبين فيما بعد أن اختفائه كان لترتيب أموره بعيداً عن الأعين والرقباء، لتهدأ الأمور بعد غضب أهل القصر منه، راح يرتب لثمط جديد من الحياة، يناسب أخلاقه واهتماماته، وشكل في محافظة اللاذقية بالتعاون مع أقرباء لرئيس الدولة من الدرجة الأولى، ممن هم معروفون جداً على مستوى المحافظة.. ومع أقرباء له، ومعارف آخرين كلهم من ذات الفئة.. من هنا وهناك.. عصابةً للتهريب على مستوى كبير.. بدأت هذه العصابة تكبر وتتقوى وتمدد، حتى غدت مشهورةً عند أهل المنطقة والساحل، وعند رجال الأمن والجمارك أيضاً.. كانت مرعبةً للجميع، بما تملك من قوة بالعدد والدعم والعتاد.. حتى صارت قوى الأمن والشرطة والجمارك تهابها.. وتتجنب الصدام معها، وقد سُجّلت حوادث كثيرة، أطلق أعضاؤها فيها النار على رجال الأمن والجمارك، حتى صارت هذه العصابة الكبيرة ظاهرياً خارجةً عن القانون، بينما أعجز القضاء عليها كل الجهات.. خصوصاً وأن فيها ومنها.. أولاد عم الرئيس الأب وأولادهم.. ثابت لديه فكرةً أيضاً من خلال ما كان يسمعه.. كما الجميع.. أنه كان من الصعب منذ عهد الرئيس الأب إنهاء مثل هذه العصابات التي تعددت وزادت نفوذاً وقوةً، لتشابك المصالح والقرابة، وربما لرغبةٍ دفينَةٍ عند الكبار في الدفاع عن وجودها لتحقيق أغراض وغاياتٍ يعلمها الواصلون فحسب، وقد أطلق الناس على هذه الفئات لقب (الشيّحة)، نسبةً إلى سيارات (المرسيدس) الأحدث حينها.. والتي كان هؤلاء يستخدمونها بكثرةٍ في أداء أعمالهم وتحركاتهم.. كان يطلق عليها الناس كدأبهم أسماء تماهي أشكالها.. فكان يقال لهذه (الشيّحة)...

يعود ثابت بكل تركيزه مع السيدة وهي تتابع سردها الشيق والمثير دون أن تغفل أي تفصيل، وكان هو يزداد كلما أسهبت بالحديث استغراباً ودهشةً

لوثوقهن به، لدرجة أن ترويا له تفاصيل سيرة العائلة.. بكل ما حملت من أسرار ومشاكل؟

الصّهر السابق بما عرفوه جيداً منحرفٌ، متسلّحاً بنفوذه وجنونه، ظهر لهم فجأةً على طريقة عصابات المافيا في الفيلا، يريد استعادة زوجه هكذا وبدون مقدّماتٍ أو إجراءات.. ظهر أمامهم، أراد أن ترافقه فاتنة، ويمضيا إلى قصره في أحد جبال الساحل، غير متقبّل للرفض أو الاعتذار، أتى معزّزاً بعددٍ من شبيّحتي المسلّحين، ينتظرونه ويراقبون حول الفيلا دون أن يتجرّأ عناصر الحراسة المتواجدين أن يعترضوا أو يتصدّوا لهم في معركةٍ يعلمون أنها غير متكافئة، اعتقد هذا المختلّ الذي طغى وتجبّر ولم يعد يهاب أحداً أنها الآن ووالدتها بعد وفاة السند القوي أبي فاتنة أضعف من مقاومة سلطانه، وبإمكانه أن يستردّها بالقوة لو أراد، لكن السيدتان رفضتا وبقوة، مما استفزّ (الشبيح) وهيّجه، فراح يهدّد ويعرّبد، أشهر سلاحه، وصار يطلق النار عشوائياً في الهواء.. وهو في حالة هيسيريا.. ولولا وجود بعض الحرس الشخصي للهواء في الجوار الذين كادوا أن يشتبكوا مع مرافقته بالسلاح، واتصالها بالهواء الذي سارع للاتصال برئاسة الجمهورية.. لحصل ما لا يحمد عقباه..

نهاية الحديث كان أهم ما أراد ثابت سماعه.. إذ أجاب على بعض تساؤلاته الحائرة، وفتح له نافذةً ينتظر من خلالها أن يقنع نفسه المنكرة المستغربة.. بأنه قد يكون المرشّح القويّ للقرب من الفاتنة.. حين قالت السيدة ميرفت:

- فاتنة منذ ذلك الحين وعلى إثر هذه المواقف لم تعدّ ترغب بالدوران في هذا الفلّك السلطوي، وتولّدت عندها ردّة فعلٍ سلبية تجاههم جميعاً..

نظر ثابت إلى الساعة مرةً أخرى، وإلى جواله الذي كان قد أخفى صوت رنينه، وجد أكثر من عشر مكالماتٍ فائتة.. كلها من هادية... التي أقلقها غيابها الطويل، اعتذر وقام مسرعاً يريد العودة إلى البيت، شاكرًا لهم حسن الضيافة،

وثقتهم به التي أصبح أكثر تفهّمًا لمقدماتها بعدما سمع نهايات الحديث، تناول أملهّم أنه رجلٌ عاديٌّ من عامّة الناس بل من أقلّهم بالمقارنة مع رَوّاد هذه الطبقة، وهيهات في الحالات الطبيعية أن يستطيع الاقتراب منهم كما يحصل الآن ولو في الخيال، حتى أن مجرّد الإصغاء لتفاصيل حياتهم تلك كان أمرًا مرعبًا له بحدّ ذاته وأكثر مما يفترض لمثله أن يكون.. نظرات فاتنة التي شيعته بمودّة ظاهرة، وابتسامتها الآسرة، وهمسها الرقيق، والتي أراد هو أن يفسرّها بما لديه من رغبة أشبه بالحلم، بأنها تحمل له كل أشكال الإعجاب واللهفة.. رفدته بثقة داعمة.. وردّت على تساؤلاته دون أن تشرح أو تعلّل، مضى مودّعًا بعد إعادة التذكير بصديقه كمال، وتأكيد السيدة الكبيرة له على أنها ستؤمّن لصاحبه الوظيفة المرادة.. غادر بكل ما قبض عليهم من نشوة واعتدادٍ بالنفس..

في طريق العودة حدث له موقفٌ غريبٌ ومخيفٌ.. إذ سدّت الطريق أمامه سيارةٌ كبيرةٌ من النوع الذي يسمّى (صالون) سوداء، وعلى طريقة عصابات الأفلام خرج منها مسلّحون وطلبوا منه أن يخرج من سيارته ويصعد إليها بعد أن تمّ تفتيشه، وجد فيها رجلًا مفتول العضلات ضخّم البدن تبدو عليه علامات الأبهة.. ملتحٍ يرتدي نظاراتٍ سوداء.. سأل ثابت بصوتٍ ينمّ عن لؤمٍ وجدّية:

- ما اسمك؟

- ومن تكون حضرتك؟

- أنا من يسأل هنا.. وأنت لست بموقفٍ يسمح لك إلا بالإجابة يا هذا..

- أنا ثابت

- ماذا تعمل؟

- أعمل لدى سيّدة كبيرة في بيتها.. أقوم على أمور البيت وصحتها ومتابعة أمورها

- ما علاقتك بالسيدة جيهان وابنتها فاتنة؟

هنا أدرك ثابت بعد أن ربط الخيوط ببعضها.. أنه بمواجهة الرجل الحديدي الذي كان بصدد سماع قصته قبل قليل.. طليق فاتنة.. أشعره ذلك بالخوف الشديد، فهو في حضرة رجل له تاريخٌ في دائرة القرار والفعل، ناهيك عن صفاته التي عرفها من الطيش والإجرام والقدرة على إيذاء من يريد، لم يعرف ماذا يمكنه أن يتصرّف لو أراد الرجل في لحظة التمكن هذه أن يفعل به ما يشاء.. وحسبما سمع.. فإن هذا أمرًا واريًا وممكنًا؟

- لا علاقة لي شخصيةً سابقةً معهما.. لكنهما صديقاتٌ للسيدة العجوز..
وقد كنت أنقل لهما طلبًا خاصًا منها

- وهل نقل الطلب الخاص هذا.. يستغرق ساعاتٍ؟ لقد أطلت البقاء في الفيلا.

- كان الأمر يحتاج إلى بعض الشرح والاتصالات

- اسمع أيها الشاب.. لن أكرّر هذا الحديث معك مرّةً أخرى.. لا أريد أن أراك بالقرب من هذا البيت أبدًا، وإن حدث ورأيتك مرّةً أخرى فسيكون الردُّ بالفعل لا بالقول.. هيا اخرج؟

لم يكن بمقدور ثابت أن يُبدي أيّة ردود أفعالٍ سوى الصمت والمغادرة.. ومن ثمّ الابتعاد ما أمكن ثم الاتصال بالسيدة ميرفت، وإخبارها بما جرى، هي بدورها حاولت أن تقلّل من حجم المسألة، وتعطيه جرعةً من الطمأنينة احتاجها ثابت كثيرًا بعد هذا الموقف، أخبرته بأنها ستعالج الموضوع بطريقتها، وأن عليه ألا يكثرث لأمر الرجل، فليس بمقدوره أن يفعل لثابت شيئًا حسبما تقول السيدة.. استردّ ثابت بعض هدوئه، وارتفعت معنوياته، واصل طريقه محاولاً نسيان الأمر أو تناسيه بفعل تأثيرات الفاتنة في نفسه وثقة أمها..

الأيام التي تلت هذا اللقاء حملت الكثير من التطوّرات في علاقة ثابت مع هذه الأسرة، فقد كثرت الولائم والسهرات التي أصبح هو فيها العامل

المشترك في قائمة المدعويين مع شخصياتٍ كان يخشى يومًا من مجرد الحديث عنها، شهدت الأيام التالية أيضًا لقاءهما الأول ذات موعدٍ خارج المنزل، حيث فوجئ باتصالٍ مفاجئٍ من فاتنة في صباح أحد الأيام تطلب منه مساعدته في أمرٍ عاجلٍ.. لا يمكن لثابت أن ينسى هذه اللحظات التي هبَّ لها قلبه، وارتعش لها جسده، واحتفت بها دماؤه في عروقه، حين سمع صوتها المطرب الجميل.. تناجيه وترجوه خدمةً بكل دلالٍ ورقة:

- السيد ثابت معي؟ .

-نعم أنا ثابت.

-أنا فاتنة.

-نعم عرفتك.. مرحبا بالسيدة فاتنة

-هل يمكنني أن أطلب منك طلبًا خاصًا؟ أنا بحاجة ماسّة للمساعدة

-طبعًا بدون تردّد.. أنا حاضرٌ على الفور لكل ما تطلبين.

-أنا في منطقة نائية على طريق (دمر)، تعرّضت سيارتي لحادث بسيط، في الحقيقة لا أريد أن أخبر أمي أو أي أحد في البيت حتى لا أشغلها.. أنت تعلم أن ذلك سيسبّب لها الهلع والقلق الشديد، لا أدري لم خطرت أنت بالذات في البال في هذه اللحظة.. هل يمكنك لو سمحت أن تنجديني بناقلة تنقل السيارة من هنا حتى المنطقة الصناعية، وربما استطعت أن تقلني إلى البيت.. أرجو ألا أثقل عليك..

-معاذ الله.. فورًا وبدون تأخير.. سأصل بك حينما أقرب لأحدّ الموقع بدقة وستكون معي رافعة إن شاء الله.. المهم أن تكوني بخير.. حمدًا لله على السلامة.

في غضون ثوانٍ قليلة كان ثابت وهو يرتدي ثيابه، قد اتّصل واتّفق مع سائق رافعة سياراتٍ لتقلّ سيارة فاتنة وحدًا مكانًا للالتقاء في مدخل

(دمر)، خرج مسرعاً تحرّكه بنشاطٍ غير مسبوقٍ مشاعره المتلهّفة للقاءٍ جديدٍ مختلِفٍ، وأحلام اللقاء تسابق ظلَّ سيارته، كأنه يريد أن يصل قبل أن يصحو من مشهدٍ جميلٍ كان حتى قبل ساعاتٍ مجرّد خيالٍ تختلقه رغباتٍ دفينّة، وبعد أن ظلَّ طويلاً يصارع نفسه التوّاقة لفاتنة وجموحها في البحث عن ذريعةٍ تجعلهما يتقابلان معاً دون رقيبٍ أو رفيقٍ.. عندما وصل ثابت إلى المكان وجد السّاحرة تنتظره بجوار سيارتها التي اصطدمت بشجرةٍ على حافة الطريق، تقف بكامل أنوثتها وأناقته المعتادة، أغرقته عينها بفيوض فنتتها، وأمطرتها عيناه بالهيام.. جرى بلهفةٍ باتجاهها ووجهه يقطر اهتماماً:

-هل أنت فعلاً بخير؟ .. أرجوك لو كنت تشكين من شيءٍ فدعينا نذهب فوراً إلى المشفى لتتمّ معائيتك والتأكد من سلامتك..

-صدّقني أنا بخير.. كل ما هنالك أن إطار السيارة انفجر فجأةً، فقدتُ السيطرة عليها للحظاتٍ.. وخرجتُ عن الطريق.

-نعم.. كان من الممكن -لا سمح الله- أن تكون النتيجة أسوأ.. الحمد لله على سلامتك، وهي الأهم.. لا عليك.. اهدئي وكوني بخير..

مدّ يده باتجاه يدها يريد مساعدتها بالمغادرة.. فاستسلمت له وناولته يدها التي شعر أنها قدّمت له بملمسها طاقةً هائلةً لا تتسع لها الأرض التي يقف عليها، وانقادت معه باتجاه سيارته، أحسّ لحظتها بأنه حاز على الدنيا بما فيها.. كان يقود بها متجهاً إلى المدينة بينما باشرت الرافعة بإجراءات نقل سيارتها:

- أنت إنسانٌ طيّبٌ وشهمٌ يا سيد ثابت.. أشكرك جداً

قالت كلمة الشكر الأخيرة بلغةٍ أجنبيةٍ مشتعلةٍ بالرقّة والغنج.. وهي تجلس إلى جواره، ورائحة عطرها تنفذ إلى جميع رئات كيانه.. احترقت مع رفقتها أنفاس ثابت.. حتى كاد أن يفقد توازنه، وينفصل عن المحيط..

-لم أفعل شيئاً مهماً.. أنا سعيدٌ بخدمتك، وسعيدٌ أكثر بسلامتك

-لكني أعتذر مرةً أخرى عما سببته لك من حرج

-لا.. لا أيُّ حرج هذا؟ إن كان هذا ما يسمونه الحرج.. فمرحى له وأنعم به من شعور.. أنا دوماً سأكون في خدمتك، وانسي أي شعورٍ بالفضل، كانت هذه بالنسبة لي فرصةً طيبةً لالتقيكِ.. وإن كان لا بدَّ من الشكر، فهو لك وللسيارة ولتلك الشجرة.. ومن واجبي أن أقدمه لكم سعيداً راضياً.. الشكر أصلاً على كل ما فعلتموه أنتِ والسيدة الوالدة لي.. وما زلتُم تفعلون.

-العفو.. أنت تستحقُّ كل خدمةٍ، أرجو أن أراك دائماً في بيتنا كما الأسبوع السابق، فقد كانت سهرةً ممتعةً.. مع شخصٍ نقدَّره ونحترمه.. قالت له ذلك ونبضها ينضح إعجاباً ومودةً.. عبَّرتَ عنهما نظرةً موهلةً في السحر.. شعر على إثرها أنه لم يعد يلامس الأرض، وأنَّ كل مفرزات (الأدرينالين) في جسده اجتمعتْ لنبضه؟

-أنا من يتشرَّف ويسعد بلقائكما يا سيدة فاتنة في كل وقتٍ ومكان..

-ما رأيك أن تقول لي فاتنة فقط بدون ألقاب؟

-طبعاً ليس هناك مانع.. على شرط أن تقولي لي ثابت أيضاً بدون ألقاب

-اتفقنا يا ثابت

-نعم يا فاتنة.. ولم لا؟

هكذا انتهى أول لقاءٍ حقيقيٍّ بعيداً عن الرقابة بينهما على مشارف بيتها، وقد حمل ختم علاقةٍ جديدةٍ لثابت.. خارج المألوف والمعروف بالنسبة له، ودشَّنهما كلاهما بتحايا وداعيةٍ حميميةٍ.. وكلماتٍ دافئةٍ.. ونظراتٍ شغوف..



(٥)

عظامٌ في طور الكساء

النفاقُ وجهٌ من وجوه النفس البشرية.. يظهرُه الخوفُ حيناً..
وفتنةُ المنافع أحياناً..

حتى أنه ليبدو الوجه الوحيد.. حين يدفنُ صاحبُها وجهه
الصالح والاستقامة.. ويُخرسُ صوتَ الشرفِ والكرامة

لم تكن فكرة سفر هادية وولدها تروق لأبي خالد الذي عارضها بشدة، وأظهر حينئذٍ عليه تلك الفكرة غضباً عارماً.. على الأقل في بداية حديثٍ جمعه بزوجه، حيث فاتحته أم خالد بالموضوع بعد حديث ثابت معها المطوّل على الهاتف، وتقديمه للأمر بما قد يوافق قبول الوالدين.. برّر لها ثابت الكثير حتى أقنعها مستخدماً حجّته المبنية على الفرصة الذهبية للشفاء والثقة بهؤلاء القوم، ورغبتهم الصادقة في المساعدة الجادة.. راحت أم خالد تحاول في بداية سهرة عائليّة - لم تكتمل عناصرها بعد - تمهيداً لأبي خالد حول الموضوع، عندما اغتنمت فرصة وجودهما وحيدين متجاورين كالعادة في المضافة، كان ذلك بناءً على وعدٍ قطعته لولدها.. بإقناع العائلة وعلى رأسهم أبو خالد بطريقتها الخاصة:

-هدّئ من غضبك يا أبا خالد وفكّر في الأمر جيداً، أليس منتهى غايتنا جميعاً شفاء المسكينة؟ ألسنا ندعو الله لتحقيق هذا؟ هي فرصة ذهبية لحصول

المرأة على العلاج.. لا نريد أن نفوتها عليها، وقد أصبحت ممكنةً وقريبةً إلى هذه الدرجة.. ثم إن ثابت يثق بهم وبقدرتهم على الحفاظ عليها وعلى ولدها.. -نعم هي فرصةٌ جيدةٌ، ولكن بحضوره هو، لا أن يدعها تسافر وحيدةً مع طفلٍ صغيرٍ هو ابننا.. إلى بلادٍ غريبةٍ بعيدةٍ لا تعرفها ولا تجيد لغتها، وأن تقيم مع أناسٍ لا نعلم عنهم الكثير.. أيعقل هذا؟ هل تجددين ذلك لائقًا ومناسبًا؟ متى كانت الغاية النبيلة تبرر الطرق الملتوية؟ هل تقبلين لابتك أن تتعرّض لمثل هذا؟ ثم من أين له كل هذه الثقة بهم يا امرأة؟ بم اختبر هؤلاء الناس؟؟ هو بالكاد يعرفهم.. منذ أيام قليلة..

قال ذلك بنبرةٍ أقل حدةً مما سبق رغم تعدّد عناصر ريبته، وأسباب عدم قناعته.. فأدركت أم خالد بحسّها المتمرّس بهذا الرجل طويلاً.. أن مسألة إقناعه باتت مسألة وقتٍ قصيرٍ.. رغم استمرار معارضته:

-الرجل يعرفهم بما يكفي يا أبا خالد، وقد عاش بينهم وفي بيتهم مدّةً لا بأس بها، وأعتقد أنها كافيةٌ ليختبر فيها معدن الناس، وهم كما يبدو من خلال وصف ثابت وهادية أهل نعمةٍ وراقين.. ليس من المعقول أن يهملوها أو يضرّوها، لقد تكفّلوا بكل نفقات علاجها، ثم إن والدتهم ما تزال برعاية ابننا.. وهم ممتنون لهذا كثيرًا..

-افهميني أرجوك...ماذا سيقول الناس عنّا لو علموا يا امرأة؟ بل ماذا سيظنّ بنا أهلها وأقاربها؟ بأيّ وجه سنقنعهم وهي أمانةٌ في رقابنا؟.. وقبل كل شيء هي عِرْضنا ومعها ابننا.. أرجوك تفهمي الأمر..

-دعك من الناس فلا سبيل لإرضائهم في كل الظروف.. أما أهلها فأنا سأتولى إقناعهم.. أنت تعلم أن أباه لا يمانع إن كنت راضياً، فهو قد وهبها لك واثقاً يوم زوّجها لابنك.. تذكر هذا جيداً..

تأفف أبو خالد وتنهد، ثم هز رأسه يمنةً ويسرةً قبل أن يصمت بعدها إيداناً بقبوله على مضضٍ.. ما لبث أن استسلم للأمر.. أنهي الحديث بالدعاء لهما ولباقي الأولاد وللجميع.. خالدة التي التحقت بهما في المضافة، وحضرت الجزء الأخير من النقاش بحكم إقامتها مذ مرضت عند أهلها.. كانت تعلم مدى أهمية أن تُشفى هادية بالنسبة للغالي ثابت، ولها أيضًا للعائلة برمتها، ولأنها تخشى أن تغامر بإبداء رأيها بما قد يُغضب والدها، فقد لجأت إلى الدعاء وبإلحاح كي يوافق والدها، وقد لبَّى الله لها مرادها بصمت أبي خالد الذي اختتم به الحديث إيداناً بالرضى..

تلا هذه الليلة مفاجأةً جديدةً من العيار الثقيل لأبي خالد وعائلته، لم يكن يتوقعها ولا حتى أقرب المقربين، رغم كل الأحداث الأخيرة الغريبة التي جرت، والتطورات التي عايشوها إثر حادثة خالد.. زاره وبغير موعدٍ أو إنذارٍ عضو شعبة الحزب في المنطقة، وهو من قرية مجاورة، لم يكن على معرفة سابقة بأبي خالد.. لم يره قطُّ سوى في يوم الصلح مع آل الخليل.. أراد أبو خالد كثيرًا بدافع الفضول أن يقفز لو استطاع فوق مجاملات الرجل الطويلة وثنائه المنمق، حتى لا يُضطرَّ بالتالي لردِّ المجاملة بأجمل..

- ماذا يريد هذا المرتزق الوضع مني؟ لميأت إليّ وما كنت يومًا فاتحًا ذراعيّ ومنزلي لمثل هؤلاء؟.. هل كُتب عليّ وأنا في هذه السن أن يصبح بيتي مضافةً لضباع الأرض بعد أن نزّرتها عن حضورهم طويلاً وأردتها لليوت عريناً؟ أيّ مصيبةٍ ترى تقبع خلف مطلّي لسانك يا هذا.. قل ما عندك وأرخني؟ قال أبو خالد في سرّه.. قبل أن يقاطع خواتمه كلام الرجل:

- أخي أبا خالد أنت خُلقت لتكون قائداً وزعيماً وفي الواجهة.. والله إن هذا ظني بك مذ عرفتك وقبلها مذ سمعت عنك.. بلا مجاملةٍ أو تملُّق.

- بارك الله بك.. أستغفر الله.. ما أنا إلا عبدٌ فقير.. وللزعامات أهلها
- لا أبداً.. أنت بخلاف ذلك.. رغم تواضعك فأنت جديرٌ بها وربّي، فالجميع يدركون قدرتك على التأثير بالناس، بما حباك الله به من رجولة وخبرة في الحياة، وحسن خلقٍ.. ووطنية لا يشكُّ أحدٌ بنزاهتها وإخلاصها..
- هذا من طيب أصلك.. أشكرك
- لا أخفيك بأننا رشّحنك في القيادة لأن تكون في قائمة الحزب للانتخابات القادمة لمجلس الشعب.. وأنت كما نرى أهلاً لذلك..
- وكمَن دُقَّ في جسده إسفينٌ انتفض أبو خالد واحتقن رأسه مما بدا في وجهه، عدّل جلسته.. واستجمع ما تبقى لديه من حكمةٍ وصبر.. واستنشق الكثير من الهواء:
- لكنني لست بعثياً كما تعلم
- نعم.. أعلم.. وللحزب أن يقدم قائمةً تضم البعثيين وغيرهم.. ثم إننا نصنّفك ضمن الحياديين الإيجابيين الوطنيين، وأنت تعلم أن قائمة الحزب مضمونة النجاح..
- وأنا أتساءل دائماً.. تُرى لماذا؟
- لم أفهم قصدك بالسؤال..
- لا شيء مهمّ.. لا تكثر.. هذه ثقةٌ غاليةٌ بارك الله بكم، ولكنني أخشى أنني لا أستطيع تلبية رغبتكم هذه.. للأسف..
- لا.. هذا موقفٌ غريبٌ منك يا أبا خالد... لم ترفض هذه الفرصة وقد جاءتك طائعةٌ راغبة؟ الكثيرون يسعون إليها بشتّى الطرق كما تعلم..
- سامحك الله.. من يرفضها؟

- أنا يا صديقي.. أنا.. لست لها، وليست مني؟
- على العموم فُكّر جيداً.. سنقوم بزيارتك مجدداً.. أمين وأعضاء الشعبة، وسنقدّم لك المزايا التي يمكن أن تحصل عليها إذا وافقت.. عسى أن تدرس الأمر جيداً وتغيّر رأيك..
- وهل يُفترض أن يفكّر عضو مجلس الشعب بمزايا له؟ كنت أحسب أن المزايا فيما لو كانت.. هي للناس الذين يمثلهم..
- قالها بسخرية العارف والمطلّع على ما يدور في كواليس مثل هؤلاء الذين يصفهم دائماً بالمنافقين والوصوليين المرتزقة.. ثم أردف قائلاً:
- لن يحصل صدّقي، وافهمني.. لا أريد أن أخرجك ومرافيك فيما لو الحُيتم بالطلب..
- قال هذا وقد بدأ تحت إلحاح الضيف يفقد قدرته على الاعتصام بالحكمة، أوشك صبره على النفاذ أو كاد، اختنق بالكثير مما يؤدّ قوله.. ظهور خالد في هذه اللحظات، ونظرته الممتلئة بالرجاء لأبيه ألجمت رغبته بالمجاهرة بما تحتقن به مشاعره لحظتها، وأضافت له المزيد من التصبّر فأكمل:
- انظر يا أخي.. مرة أخرى أشكر لكم ثقتكم.. إنني فعلاً لست أهلاً لها، ولا أستطيع تحمّل المسؤولية، ثم إن لي من الظروف ما يمنعني عنها.. اعذروني عن عدم تلبية رغبتكم وأدعو الله لكم بالتوفيق، وأرجوكم لا تزيدوا عليّ من الضغط، أنت في بيتي ولا أود أن أخيب رجاءك..
- حين تقبّل الضيف نتيجة الحوار بصمتٍ وانسحب مودّعاً، كان خالد لحظتها أكثر الفرحين بانقضاء هذا على خير، شاركتة الفرحة والدته التي استرقت من بعيدٍ السمع... وحمدت الله كثيراً على ما لم يحدث وكانت

تتوقع حدوثه.. مضت السّاعة دون أن يضطرّ أبو خالد ليفجّر ما بداخله من استنكارٍ وما سيفيض عنه من مكنونات نفسه..

لقد فعلها فيما مضى في مواقف أخرى.. وقد كلّفته الكثير..

- أرايتم ما يفعل بي أخوكم؟ يريد أن يذلّني في أواخر عمري..

قال غاضبًا يخاطب خالد وخالدة بعد خروج الرجل.. في جمع من العائلة، حيث انضمّوا في مضافته لسهرةٍ مقرّرةٍ مسبقًا.. لوّن وجهه إضافةً إلى الغضب مزيجٌ من الخيبة والاستهجان؟

- أيليق بي أنا أبو خالد بعد كل هذه السنين أن أكون محسوبًا على هؤلاء المنافقين الوصوليين؟ وأن تطمع بي زمرة الطغاة السارقين العابثين وممعاتهم.. هذه التي تعيش على امتصاص دماء الناس؟ لا كنتُ إن أصبحتُ منهم.. ولا بقيت.. آه كم فرطت يا ثابت بنا.. وأنت لا تدري؟

هنا تدخل الجميع للتهديّة، ومن ثمّ تغيير دقّة الحديث، استلزم الجميع الكثير من الوقت والأحاديث حتى راق كبير العائلة، وعاد إلى طبيعته بوجود حشد الأحبة حوله في المضافة.. عاد أخيرًا إلى أجواء الطرافة والمتعة والفائدة من خلال أحاديثه، حين هدأ تدريجيًا، وتناسى ما جرى، ثم انساق في خضمّ بهجة العائلة وانتظارها لما يتحفهم به في كل جلسةٍ مما طاب وطُرف من الحديث:

- أحد أعضاء مجلس الشعب المُنتخبين مرةً، وهو معروفٌ بالتزامه وجديته، طالب المجلس في إحدى الجلسات بمداخلته التقليدية كباقي الأعضاء.. بالتوجّه إلى القيادة بطلبٍ لزيادة أجور الموظفين والعاملين في الدولة، ومرّبات المتقاعدين. انتقد المسكين الوضع الاقتصادي

والاجتماعي عمومًا، وحالة الناس الاقتصادية المتردية في البلد، وقد أسهب في ذلك وتماذى، ساق لهم الكثير من النماذج والأمثلة، مدعمًا حديثه بما يعتقد أنه غائبٌ عن عيون ومدارك الدولة.. ولأنه جديدٌ وجاهلٌ لحقيقة الأمور، وقد ظنَّ نفسه في واحدٍ من البرلمانات الأوروبية.. أتاه الرَّد من رئيس المجلس.. المُعَيَّن من قبل أجهزة المخابرات.. بأن المرئيات جيدة وكافية، وبحسابٍ علميٍّ مدروسٍ بالمقارنة مع الدول المجاورة فإن الدَّخْل الفردي في سورية أفضل بكثيرٍ من جميع تلك البلدان، وقد أيدَ بالمقابل رَدَّه بجداول تثبت ذلك من فروق الأسعار المتداولة لأهم المواد المعيشية، وإنه شخصيًا -أي رئيس المجلس- درس الأمر وحسب وفكَّر، ودقَّق به كثيرًا بناءً على شكاوى سابقة، فوجد أن خمسين ليرةً في اليوم تكفي عائلةً متوسطةً من أربعة أو خمسة أفراد.. قام الرجل المسكين مرةً أخرى وذكره بأنه سمعه منذ أيام، وهم يهنئونه في بيته بتجديد رئاسته للمجلس.. من خلال ثقة القيادة به.. وفي سياق الحديث الودِّي الذي جمعه بهم، وعلى هامش الحديث يقول: إن الكلب لديه في المنزل يكلفه في الحدِّ الأدنى كمصروفٍ إطعامٍ ما يقارب مائة ليرةٍ يوميًا؟ سأل الرئيس إن كان يعني هذا أن كلبه صاحب السعادة الموقر.. بما يستهلك من مخصصاتٍ.. يعدل قيمة عائلتين كاملتين من سكان هذا الوطن؟؟

هنا انفجر الساهرون والساهرات في المضافة بالضحك، فابتسم أبو خالد وقال:

- هناك أيضًا من ضحك مثلكم يومها في الجلسة.. على وقع تعليق المسكين..

ثم صمت وضحك هو أيضًا.. وتابع:

- وكان هذا آخر عهدهم بالضحك؟

فاهتزّت المضافة بضحكاتٍ أقوى، وشاركهم أبو خالد، ثم عاد ليكمل:

- أما الرجل المتحدّث.. والعلم عند الله.. فقد كان هذا الحوار آخر عهده بالسياسة والمجالس..... والثور أيضًا..

على أصوات ضحكات الحاضرين التي ضجّت بها أرجاء المضافة الكبيرة، والمزيد من الأحاديث.. استمرّت سهرتهم حتى منتصف الليل..

بعد أيام قضّاها ثابت في إتمام إجراءات سفر عائلته.. جاء اليوم الموعود.. استعدّت هادية وأعدّت ولدها عثمان، وحضّرت كل ما يلزمهما من حاجيات في الحقائب، حان موعد التحرك من البيت إلى المطار.. كان وداع السيدة أم ماري لهما مؤثّرًا للجميع، فالمرأة التي تحاول أن لا تظهر الكثير من العواطف وجدت نفسها مضطّرةً للبكاء على فراقهما، أخذت تضمّهما بحزنٍ ظاهرٍ وحسرةٍ، رغم فرحها الكبير بإمكانية أن تكون وبناتها سببًا في شفائها.. ربما شفاءً كاملاً لا تحتاج بعد تحقيقه إلى الإقامة في المشافي.. كانت قد اعتادت عليهما منذ أيام المشفى، وازدادت أنسًا بهما في المنزل، ولم تعدّ تستطيع أن تفكر بخلوّ المنزل من حضورهما الفاعل المريح.. قالت لهادية وهي تحاول إخفاء دمعيتين حارّتين فقدت السيطرة عليهما:

- عزائي أنك ذاهبةٌ إلى خيرٍ لك ولعائلتك.. وأن هذا المجنون زوجك سيبقى هنا لينجز مشروعه في القضاء عليّ مبكرًا..

ابتسم الجميع على مضضٍ وحزن، خلال دقائق كان ثابت يقلّهما بالسيارة، ويتجه بهما إلى طريق المطار.. حيث بدا الطريق طويلًا كئيبيًا، يغشاه الهدوء والشجن..

صمت ثابت طويلاً، راحتُ تنظر إليه بمزيجٍ من مشاعر الخوف والفضول.. فهادية التي تزوجته يوماً كعريسٍ عاديٍّ بزواجٍ تقليديٍّ.. أحبَّته كثيراً بعد ذلك إلى حدِّ الهوس، ولأنَّ أهمَّ الوسائل التي تعرفها لإبداء محبتها هي الخضوع للحبيب، وعدم مجافاته أو إحزانه.. فقد همست له بكل رفق:

- إن كان هذا لم يقنعك ولا يرضيك، فأقسم عليك أن تعيدني الآن.. لا أطيع أن أسافر أبداً وأنت على هذه الحال..

نظر إليها عابساً متجهماً، وقال لها بطريقته التي تبدو دائماً لغير العارفين بنقاء سريره قاسيةً صمّاء:

- هل ترين أنني غاضبٌ من سفرك؟ ألا تميّزين يا مسكينة بين ما ظننت الآن.. وبين صمت الحزن على فراقكما؟

بكت وأبكته.. حتى استدرك، وأشار لها بيده أن تتوقّف عن هذا ولا تثير بدموعها عثمان الذي استقرّ في المقعد الخلفي، يلعب ببعض ألعابٍ يحملها.. فرحاً بسفره مع أمه.. غير شاعرٍ بما يشعر الجميع؟

في قاعة المسافرين وبعد أن تهيّأت ولدها للانطلاق إلى مخرج الطائرة.. أعطاهما ثابت رقم السيدة ماري هناك للطوارئ في حال أضعفها في المطار عند باب الخروج.. إذ تمَّ الاتفاق بينه وبين ماري على استقبالها في مطار باريس، ومن المؤكّد أن أحداً من قبلها سيكون هناك في الموعد، إن لم تكن هي وعائلتها، وودّعها مصافحاً، ضمَّ يديه على يديها مؤازراً، ثم طبع قبلةً على جبينها، وعانق ولده وضمَّه بشوقٍ أصابه حتى قبل مغادرتهما.. مودّعاً حبيبه عثمان بالكثير من الأسى.. لم يستطع ثابت إلا أن يشيّع خطواتهما باتجاه مخرج المسافرين بنظرةٍ أثخت عينيه بالدموع،

وحلقه بغصّة حارقة.. مضيا بعيداً كأنهما للتو يُقتلعان من صدره، استودعهما الله.. وعاد وحيداً مكتئباً؟

كاد الحزن في الأيام التالية، والوحشة التي شعر بها في غياب هادية وعثمان أن يأتي على كل ما لديه من إقبالٍ على الحياة، لاحظ الجميع من حوله الحالة المتردّية التي وصل إليها، مما يستطيع الملاحظ أن يقرأه في وجهه العابس الحزين، وفي سلوكه غير المتّزن، وشروده معظم الوقت.. أصبح أكثر ميولاً للعزلة رغم رغبة العجوز أن تعوّضه ما استطاعت عن هذا الفقد المؤلم، والذي لم يعتدّ عليه ثابت منذ أن تزوج.. كان هذا دأبها بالمزاح والمشاكسة، وإشغاله بحوائج المنزل الخارجية والداخلية.. لكن من غير تلك الحسنة يستطيع أن يداوي وجومه؟ بارق من طيف فاتنة خطر له عائداً بقوة، كان كافياً ليتنّش فؤاده، وتستقيم نفسه، ويهدأ من الوريد إلى الوريد.. ورغم الموقف الأخير الذي حصل بتهديد الشَّيخ زوجها السابق والذي كان يفكر كثيراً في إبلائه الجدّية الكافية.. فإن مجرد ورودها في خاطره أبعد عن وجهه مسحة الكآبة، وعاد ليشغل باله وتفكيره كما فعل في الأيام الخالية.. عاد الرجل تدريجياً إلى طبيعته أمام العجوز مستمراً بخدمتها ورعايتها، محاولاً ألا يشعرها بحدوث أدنى فرق بين وجود المسكينة وغيابها الذي أحزنهما معاً..

كانت هادية والولد مصدر تسلية وأنس كبيرين للمريضة التي لا خروج لها من سجنها إلا إلى المشفى، تقضي معهما جُلّ وقتها، تبثُّ هادية همومها وأوجاعها، والكثير من حكايات الحنين إلى الماضي، وتصغي إليها باهتمام، وتستفّزها لتبوح لها بكل ما تشعر به، رغم أن المسكينة ليس من طبعها كثرة الكلام.. غالباً ما تميل إلى الصمت والإصغاء للعجوز التي رضيت بقدرها، وآثرت الصمود في بيتها، وراحت تنتظر مع ذكريات من أحبت.. موعد

سفرها المحتم الطويل؟ عرض ثابت على السيدة كثيرًا الخروج من المنزل، وخيرها إلى أي الأماكن تحب أن تتوجّه، رفضت سوى الجلوس في بيتها، أصبح هو الآن البديل الأقوى لهادية في مجالستها معظم الأوقات.. ورغم أنها كانت ترتاح جدًا لثابت فيما سبق وتثق به وتودّه، إلا أن ارتباطها به خلال الأيام التالية أصبح وثيقًا للغاية، حتى أنها كانت تتذمّر معاتبه إن تأخّر خارج المنزل.. حتى لو كان غيابه في عمل.. رغم المشاحنات العدوانية ظاهرًا بينهما، والمجادلات المبنية في باطنها وحقيقتها على الود، شرعت له العجوز كل باب مغلق في قلبها، وأسرت له بكل ما لديها من مكنونات نفسها منذ ولدتها أمها.. وحتى ساعة تعارفهما؟

تدرك السيدة كلما مرّت الأيام، ودون حاجة لقول طبيب أنها تستعدّ لمغادرة هذه الحياة، وتحاول أن تطوّع نفسها لهذا الإدراك.. تطوّرت حالتها المرضية أكثر، وأخذ يزداد ألم جسدها المبرّح ويتضاعف، فتضطر لزيادة جرعة المسكّنات بناءً على توجيهات الطبيب، هي من أنواع المواد المخدرة تقريبًا.. كان ثابت من وحي هذا يحب كثيرًا ممازحتها لدرجة الاستفزاز أحيانًا، ومن أكثر أساليب استفزازه المحبّب لديها أن يقول لها كلما تمادت معه بحديث، أو أبدت له علامات غضبٍ أو انزعاج:

- لا ألومك أيتها العجوز فاقدة الوعي، فأنت تتعاطين الممنوعات.. وليس على المدمن حرج.

تبتسم.. وتصمت، وتخبئها لثردّها في مناسبة قادمة.. وهو يعلم أنها لن تفوّت فرصةً متاحةً لثردّها له الصّاع صاعين؟

اقتحم عليها في تلك الفترة حتى غرفتها الخاصة، وكان ذلك بصمتها ورضاها.. الأمر الذي لم تكن تسمح به حتى لبناتها.. كان كثيرًا ما يجالسها

هناك لمدة طويلة، وهي مستلقيةً على سريرها، يحكي لها الحكايات وسير أهل القرية وقصص الجامعة، وتحكي وتشكو له ما لا تستطيع أن تبثه بمسامع أحد غيره.. بقي متعجباً فترةً طويلةً من درجة تعلقها بالاستماع إلى صوت مقرئ قرآنٍ معروف، فكان هذا لديها شبه سنةٍ يومية، ولساعاتٍ أحياناً.. كان قد اكتشف هذه العادة لديها صدفةً، حين دخل مرةً بشكلٍ مفاجئٍ إلى غرفتها.. تحدّثا طويلاً عن الإسلام والمسيحية، وغرّدا خارج الخطوط المتاحة للجميع، رغم أن هذا يكون عادةً مصدر حرج وحساسية عند الكثيرين.. أصبح هذا كله يؤنسها، ويخفّف عنها آلامها، ويعطيها دفعاً قوياً لمقاومة الشعور بدنوّ الأجل والصمود.. متشبّهةً بالحياة.. حكّت له عن أيام زمان، وكيف كانت العلاقة بين الناس جميعاً إسلام ومسيحيين في هذا الوطن.. ومن كل الأديان والقوميات أيضاً.. مبنيةً على الود الحقيقي والتكامل واحترام الآخر، عن التعايش بكل سرورٍ وتقبّلٍ، ودون نفاقٍ أو ضغطٍ، كيف غاب التفكير في المصالح، وعمّ الإخلاص والنقاء.. أخبرته أنه كان لزوجها العديد من الأصدقاء الحقيقيين والجيران وشركاء العمل من المسلمين الذين ربطتهم به معاملاتٌ فاقت درجة المجاملة والمصالح المادية.. حتى هي كانت تربطها بأسرهم المودة، والترابط الاجتماعي الصادق.. تردد العجوز دائماً كلما طرقت تلك السيرة:

-لقد كان المسيحيون يتورّعون خجلاً وتقديراً عن الإفطار في رمضان، احتراماً لصيام المسلمين وتضامناً مع مشاعرهم، وفي المقابل كان المسلمون.. يفعلون؟

ثم حكّت له كثيراً عن فارس بيك الخوري النصراني الذي كان ذات حكومة قديمة وزيراً للأوقاف، ومسؤولاً عن تسيير كل ما يخص الأديان،

قبل أن يترأس الوزارة، عن دوره الكبير في التحرُّر من الاستعمار، وكيف كان الجميع يجلُّونه ويقدِّرون وطنيته وانتماءه النبيل لجميع فئات الشعب وطوائفه، كان صديقاً مقرباً لوالدها، قبل تحمُّله العديد من المسؤوليات.. أثناء وبعد الوجود الفرنسي في سورية.. حدَّثته عن المشاركة السائدة في المناسبات الخاصة والأعراس والوفيات بين الجميع، وكيف كان هذا أمراً مطلوباً واعتيادياً، تحدَّثت بأسى عن المجتمع في هذا الزمن:

- يبدو للنظر إليه من بعيدٍ أن سمته التوافق.. لكن من يجيد سبر الواقع ولا تخونه الملاحظة يعلم في الحقيقة أنه توافُقٌ صوريٌّ زائفٌ، خلا من الروح والصدق والتلقائية؟

مرةً قال لها مداعباً أثناء حوارٍ يوميٍّ معتاد:

- لم لا تعلنين إسلامك ما دمت تحبين سماع القرآن؟ صديقي إن فعلتها فسوف أطيّر بك فوراً إلى مكة لأداء العمرة؟

- ومن قال لك أنني لست مسلمةً أيها الداعية الفالح؟

- كيف ومتى يا حاجة؟

- أليس شرط الإسلام الأساسي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟

- بلى.. وربّي

- فكيف لا أكون مسلمةً وأنا والكثير من المسيحيين مثلي نؤمن بذلك ونصدِّقه، ونشهد به يا جاهل؟

- غلبتني وعرفت كيف تتملّصين يا امرأة.. لكني كما وعدتك.. سأدفعك في مقبرة مسلمين، فهي أكثر شعبيةً من مقابر كرم الكبيّة..

يضحكان.. وتمرُّ الأيام.. لم يجرؤ ثابت على مصارحة العجوز بأنه واقعٌ في غرام فاتنة، رغم أنها بوابته الوحيدة المحتملة إليها.. كيف له أن يفعل، وهو ذاته يشعر بعظم ما يقتضيه وفداخته بالنسبة لما يؤمن به واعتاد عليه؟ يلجمه الخجل، ويجبره على التراجع كلما كاد أن يطلق قلبته في وجهها.. ورغم هذا الود الذي تجاوز كل الحدود بينهما، والذي شكّل تناغمًا نادرًا، فإنه خشي أن تقتله ردة فعلها، وآثر الصمت ومداراة مشاعره أمامها..

- لماذا لا أقول لها؟ الفرصة متاحةٌ لهذا قبل أن تكتشف هذا وحدها من خلال سلوكي.. سيكون حينها الأمر أصعب بكثير..

يسائل نفسه مشجعًا إياها:

- ألن تفضحني عيون حالي، وتقرأ من خلالها ما بي؟ هل يمكن أن يظل هذا الأمر سرًّا مهما حاولت إخفاءه؟ لم جبتُ رغم معرفتي أن لا سرِّي يبقى إلى الأبد طيَّ الكتمان؟ ألأني ما زلت أصارع هذا الأمر في داخلي؟ أم لأن ضميري يؤنبني من أجل هادية؟ أم لخشيتي أن أسقط من عين العجوز سقوط الجيفة؟ ظل ثابت يتقلب على صفيح حارٍّ مؤلم من التساؤلات طوال أيام وليال، وقد كان أكثر ما ألمه هو قدرته تدريجيًّا - كلما رأى فاتنة مرّة، وتوغّل في عوالم سحرها أكثر - على إسقاط بندٍ من بنود محاكمات ضميره.. بدأ يتجاهل أيضًا حساباته العائلية ودون شعورٍ منه.. كلما غاص أكثر فأكثر في عشقه الخارج عن المألوف.. والمخالف لموقف أهله وزوجه وأقاربه، وكل من يمتُّ إلى خلفيته بصلة؟ لقد خرج شيئًا فشيئًا من محيط عالمه، صارت هي وحدها كونه الخاص.. لم يعد يرى سواها أفقًا وامتدادًا، وأصبحت أطيافها بوصلته وكل الجهات.. اتصالاته بزوجه وولده أصبحت تقلُّ كلما ازداد تورطًا في كونه الجديد، وتواصله بأهله اضمحل، وكذا بصديقه

المقرَّب كمال الذي بقي له من سلسلة الصداقة كلها، ولولا أن السيدة ميرفت بشرته بنجاح مسعاها بشأن وظيفة صديقه، وطلبت منه أن يخبر صديقه بذلك، وحددت له المؤسسة والشخص الذي سيقابله.. لكان كمال أيضًا من المنسيين.. ازدادت لقاءاته بالفتاة حتى بدون علم العجوز التي لم تنتبه حتى الساعة لحجم ما يدور بالقرب منها.. كثرت ذرائعه للخروج بعيدًا عن عيون رقابتها، والوصول إلى مدارات الفاتنة في كل مناسبة.. اتضح له فيما بعد أن السيدة والدة فاتنة على علم بكل ما يجري منذ أول لقاء، وقد كان أصلاً يشك في هذا، من خلال سيل المودة الجارف الذي تفيض به السيدة ميرفت عليه منذ أول لقاء، وما زال هذا الأمر يسير نحو التنامي.. أدرك أنها تعلم عن نظرات الإعجاب المتبادلة، فكل شيء يشي بينهما بالمودة والقرب، ولم تشأ التحدث بهذا مع ابنتها، أو الخوض في الموضوع.. منعًا للحرج أو تأجيلًا له، أما الأخطر الذي اكتشفه أيضًا.. أن العجوز أيضًا أصبحت تشك إلى حد ما بنشوء رابط مميز بينه وبين الفاتنة، لكنها بدورها أيضًا احتفظت لنفسها بهذا الظن.. ربما لأنها لم تكن متأكدة بعد، أو خشيت أن يؤثر خوضها معه في الموضوع على علاقته بها، وقد أصبح بالنسبة لها ذو معزة كبيرة.. وأيضًا لأنها لمتلحظ بوحًا حقيقياً بينهما بعديتعدى حدود الإعجاب والمجاملات، ولمعرفتها بقدر محبته وإخلاصه لزوجته هادية..

أهمل في هذه الفترة كل شيء ما عدا العجوز وبيتها، فقد كانت بالنسبة له أمانة ثقيلة، وهي بذات الوقت ضمانته للاستمرار على تلك الحال.. لقاءاته بفاتنة لم تتجاوز محيط الفيلا والحي، رغم أنها تدريجيًا استجرتة إلى بيئة أخرى لم يكن يومًا... هو أو أحد من معارفه يفكر بها أو يدنو من أسوارها أو حتى يجروا على ذلك.. غيَّبه جمالها وسحر أنوثتها عن الوعي

إلا ما يلزم منه للاعتناء بمراقبتها والتأمل في جمالها، والباقي القليل منه للمحافظة على عمله ورعايته للعجوز.. بينما أهمل صلاته وهي عبادته التي رافقته منذ طفولته، ومن زيارة إلى زيارة.. مرةً هنا في بيت العجوز، وأخرى هناك.. كان الشعور العارم بالحاجة إلى قربها الدائم يستفحل تباعاً عند ثابت، وفوق هذا صار يشرب الخمرة من باب المسيرة قليلاً في مناسبات العائلة.. وما أكثرها.. يرقص الآن رقصاتٍ عالميةً أجنبيةً، كما يرقص (عليه القوم)، بعد أن صار يرتدي من الثياب ما يناسب البيئة الجديدة، ويتوشَّح كما يفعلون حسب المناسبة والموقف.. ساعده على ذلك هداياها الدائمة من أرقى الثياب والعطور، وكان مضطراً لمبادلتها حتى أرهقه ذلك مادياً.. رغم وفرة ما تُكسبه رفقة العجوز؟ صارت همسات فاتنة ولمساتها، وأحياناً تدخّلات أمها، هي من يُملِي عليه سلوكه.. وفي مجتمع كهذا، وضمن مجال هذا الحب الخارج عن دائرة ثقافته، لم يكن له أن يعترض أو يقارع.. رغم كل هذا لم يكسر ثابت بعد الحاجز الأخير بينهما.. ظلَّت العلاقة ضمن هذا الإطار، وفاتنة تنتظر منه أن يكون المبادر لمرحلةٍ متطورةٍ جديدةٍ، غير عابئةٍ بوضعه الاجتماعي، أو انتمائه الطائفي، أو أي عائقٍ آخر، فقد استبدَّ بها عشقٌ جامعٌ لهذا الشاب، وحبٌّ جارفٌ لا متلاكه.. وجد نفسه في النهاية وذات لحظةٍ ضعيفٍ، عند خطِّ تجاوز اللاعودة، ينظر بعين ثابت اليوم، وبأحاسيسه التي خلعت بشرتها القديمة.. وارتدتْ جلدًا عازلاً كতোما؟

لكن شعوره الذي خَلَفَه تماديه السَّافر، وبقايا خيوط صلته ببيئته الأصلية القوية والمتجذِّرة في عروقه، ومنهله الخلقي المكتسب خلال سنين طفولته وبدايات شبابه، أوقفاه فجأةً، ومنعاه من الوصول إلى ما بعد هذا، انسحب محاولاً الهروب من الغوص أكثر في هذا المحيط العميق المخيف، ودون

أن يبدر منه أي تصريح واضح، أو مكاشفة كانت تنتظرها منه جلاّدته الفاتنة.. لكنه رغم تمنّعه.. ظلّ في مداراتها يدور.. كان لابد له وقد انقطع عن كل المحيط إلا العجوز، أن يردّ على ملاحظات السيدة التي تهتم به كابن لها، ويطنّي جمر تساؤلاتها وشكّها بشأنه، وبشأن تغيّره المفصوح مؤخراً.. هذه التساؤلات التي يقرّؤها كل يوم في وجهها.. أخيراً أتى اليوم الموعود الذي طالما فرّ منه، وجد نفسه في ظلّ رغبته بأن يُرسي سفينته النائية في عرض بحر الغيّ مضطراً لأن يصارحها بكل شيء... لم يُغفل تفصيلاً واحداً، منذ اللقاء الأول في بيتها.. مروراً باللقاء التالي هناك.. وحتى يومه هذا.. العجوز أحزنها ما سمعت، وأصابها بالكثير من المشاعر السيئة، ليس أقلّها الخيبة والشفقة على هادية، والتي لا تودّ إحزانها، ولا يمكنها تحمل مشاهدتها مفجوعةً بزوجها.. لما عرفت عن هادية من طيبة وبساطة وما تحمله مشاعر مرهقة، ولما لها في نفسها من محبة استثنائية..

وجدت نفسها في موقف لا تُحسد عليه.. انتفضت أول الأمر في وجهه وقرّعته كثيراً، وغضبت بشكل لم يعهده بها، ثم استدركت نفسها، وانكفأت إلى غرفتها حزينةً معتزلةً الجميع وهو أولهم.. ربما أرادت العجوز بهذا أن تستوعب المعضلة أكثر.. وبهدوء، وأن تجد لها الحلّ المناسب الذي تؤمّل النفس وهي تفكّر بإيجاده - رغم صعوبة تحقيقه - أن لا يكون مستحيلاً..

- ليس هذا ثابت الذي عرفته يوماً، ولا هذا هو بريق عزة نفسه في عيونه واعتداده بقيمه.. عيونه التي كانت أشعتها تقنع كل ناظرٍ دون أن يضطرّه لأي إثبات.. ما الذي أصابه حتى وصل إلى هذا الحد؟ وكيف اخترقته هذه الفاتنة كل هذا الاختراق؟ حتى لو كان يحقّ له هذا الأمر.. فهذا ليس الأسلوب المناسب لتحقيقه..

ظَلَّتْ تَرَدَّدُ هذا كثيرًا قبل أن تقنع نفسها بالهدوء والترُّث، ودراسة الأمر من كافة جوانبه، ثم الشروع بمحاولة علاجه، آخذةً بعين الاعتبار أنه شابٌ صغيرٌ، وأن فاتنة بها من اسمها الكثير.. ربما يفتقد لزوجته، وقد تكون الوحدة من أهم عوامل تأثره.. رأت أن عليها استدراج هيسرٍ ورفقٍ ليحرِّر نفسه من قيد ما وقع به من تيهٍ إن كانت نزوةً عابرةً، ومن حبائل الإغواء القوية التي أحاطته كشبكة صيد.. قبل أن تطلب منه إعادة التفكير في ما ينبغي له أن يفعل.. في جلسة استثنائيةٍ معه مساءً، وبعد أن أفنعت نفسها بما توجب الحكمة والعقل عليها أن تفعل.. واجهته بسؤالٍ خرج عن المتوقع، وقد فاجأه بقوة:

- أتريد أن تتزوج من فاتنة؟

- ماذا؟ .. أنا لم أقل هذا ولكن.... يا إلهي.. كم هو مربكٌ هذا السؤال.. وماذا لو كنت أريد هذا؟

قالها وهو يراقب بكل خجلٍ ردّة فعل العجوز.

- افعل إذاً ولكن.. لا أطلب منك بحكم المودة سوى أن تعطي لنفسك الوقت الكافي لتدرس الأمر وتفكر به ملياً من كل جهاته.. هل تريد ذلك فعلاً عن سابق عقلٍ وإرادة؟ .. أم هي نزوة مغفّلٍ جاهلٍ؟ أريد لك أن تتخذ قراراتك بتأثير العقل والمنطق، لا بتأثير الرغبة والعاطفة فحسب.. هل فكرت بزواجك الطيبة وابنتك الصغير وأهلك ومجتمعك؟

الحب يا ولدي ليس خفقة قلبٍ، وتوتر شريانٍ، وتنهيدة صبحٍ، وأرق ليلٍ فقط.. وليس مجرد أحلامٍ وردية.. الحب في نظري وحسب تفكيري.. هو قرارٌ عاطفيٌّ لا يمكن له أن يكون صائباً ما لم تتوفر له ميزة التجانس الفكري

والعقلي، والتواؤم الاجتماعي وغيرها من عناصر إنجاحه.. هل خطر ببالك أن تحسب تكلفة ما أنت مقدمٌ عليه فعلاً؟ هذه التكلفة لا تخصُّك فقط، سيساهم في دفعها الكثيرون من حولك ممن تحبهم ويحبونك.. فكّر بذلك دون أن تخذرك الأماني والأحلام والمشاعر التي تجتاحك الآن؟ أنا أكثر من يستطيع أن يفهمك ويجد لك العذر.. ربما بعض العذر فيما أنت مقبلٌ على الوقوع فيه.. ولكن صدّقني.. أنت بالنسبة لي لم تعد ثابت أول يوم حين أتيتنا.. أنت ابني الذي لم ألدّه، وأريد لك كل ما يسرُّك ويريحك، ويجعلك هائئاً سعيداً.. عدّني أن تضع انجذابك كله لها ولأجوائها جانباً، وأن تفكر بعقلك الذي غيّته المشاعر الآنية.. هل يمكنك أن تعدني بذلك؟

- سأحاول صدّقني.

راح يفكر في الأمر بكل ما أوتي من صحوٍ، كأن حديثها مع شعوره الذي سبق بخطورة الوضع الذي آل إليه أيقظا فيه بعض ثابت القديم... حرّض فضيلة الاستقامة التي تربّى عليها طويلاً، والتي لم تكن تتيح له فيما مضى أن يمارس الخطيئة، أو حتى يفكّر بأن يقربها قيد أنملة، رغم أنه ما زال في قرارة نفسه لا يعتقد أنه وقع بها لمجرد أنه أحب الفاتنة.. أو فكّر أن يرتبط بها.. لكنه بات يخشى أن توقعه فتنها، وتزلّ قدماءه في بيئتها المختلفة إلى ما هو أبعد من مجرد الانجذاب والحب.. انقطع عن فاتنة وبيئتها أياً ما، وأوقف لقاءاته بها، ليعطي لنفسه الفرصة كما طلبت منه العجوز أن يتخذ قراراً منزّهاً عن جاذبية هذه الفاتنة..

فاتنة المغرمة أيضاً، والتي ما فتئت تتصل وتسأل مستغربةً عن سرّ ابتعاده.. وهو يتذرّع بالكثير من المشاغل.. أحسّت بأن شيئاً ما يحصل بعيداً عنها، وأن ثمة تبدّلٍ أصاب ثابت.. وهذا ما كانت تخشاه؟

كانت تلك فرصةً أيضًا له ليتصالح مع ذاته، ولكي يحدث ارتباطاته بمحيطه التي كانت تقيد الاهتراء، ويعود إلى حاضنته الأولى بعد طول انقطاع.. عاد للاطمئنان على هادية ونتائج علاجها يوميًا، وقضاء الوقت الطويل في التحدث مع صغيره الذي استفاق الشوق إليه بقوة في هدأة هذا الانفراد بالذات.. كما عاد للاتصال بأهله والاطمئنان عن أحوالهم بشكلٍ دوريٍّ كعادته سابقًا، خصوصًا حال والديه، ووضع خالد وخالدة الصحي.. وأحوال باقي إخوته وأخواته.. لم ينسَ في هذا الوقت أن يتصل بصديقه الحبيب كمال، وأن يبشّره بنجاح مسعاه، ويوجّهه إلى حيث ينبغي له أن يذهب، بعد أن تلقّى خبر توظيفه وصدور قرار تعيينه.. طلب منه أن يزور مديرًا مهمًّا في إحدى المؤسسات، حاملاً معه الأوراق والإثباتات اللازمة لمباشرة عمله في وظيفةٍ محترمة.. وقد بلغ به فرح صديقه بالخبر مبلغًا رائعًا من النشوة والسعادة.. حمد الله على ما وُقِّع لتحقيقه لهذا القريب الحبيب.. في خضمّ هذا الانغماس في واقعه الأول، وابتعاده عن مدارات الجاذبية الطارئة، شعر أنه قادرٌ على أن يتخذ القرار بدرجة تأثيرٍ أقل، رغم مطاردة طيفها وذكريات لقاءاتها ورفقتها له دون هوادة، وجد أن قدرة المقاومة ضدّ السقوط غدت أكبر.. على الأقل في هذا الوقت الذي أغراه بمزيد من التأمل والمقاومة والثبات.. في أحد المساءات بعد أيام اتجه إلى العجوز مبتسمًا، وقف أمامها صامتًا بثقةٍ واعتدادٍ.. التقطت العجوز الذكية في عينيه ملامح البريق الذي فقدته منذ مدة، فسارعت قائلةً:

- كأنك اتخذت قرارك، وأظنه كما تمنّيت

- نعم أيتها العجوز المشاكسة.. فعلتُ.. وكما تريدن، وتتمنين

- هنيئًا لك أيها الطائش الأرعن

- لكنني فكرت أيضا أن انقطاع العلاقة نهائيا سيكون مربيا، وقد يخلق لك ولي الحرج والحساسية، فهما من أهم معارفك هنا وأقربهم.. قَرَرْتُ أن أرسم خطأ يجعلني أبقيه بيني وبين هذه العائلة كشعرة معاوية.. لا يؤثر على علاقتك بهم

- نَعَمْ القرار.. أحسنت التفكير.. سوى أنني أخشى عليك من الوقوع مجدداً، فاحذر أيها المراهق من التزحلق على الشعرة؟

ضحكاً معاً.. وقد بدا على العجوز بعد شديد قلقٍ جميع علامات الارتياح؟ الجميع في بيت أبي كمال محتفٍ مسرورٌ بخبر الوسطة التي نجحت بنقل كمال من زاوية اليأس والإحباط إلى موقعه الجديد في وظيفةٍ محترمةٍ بإحدى مؤسسات الدولة المرموقة، باستثناء والده الذي كان أقلهم حماساً، وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تخمين العلاقة بين مجال اختصاصه التجاري والاقتصادي ومديرية الثقافة التي تبلغ عن وجوب تقديمه أوراقه الشوتية لها فوراً.. إلا أن مجرد حصوله عليها كان كافياً ليكون مصدر سعادةٍ وأمان:

- مديرية الثقافة؟ لعل مهمتك ستكون إحصاء عدد المثقفين في البلد، وحساب ما يقضونه خلال حياتهم في الفقر والحاجة جرأ ذلك؟

كانت هذه إحدى دعابات الوالد لابنه والتي أثارت لدى الجميع الابتسام.. تركوا هذا الأمر للأيام، وجلسوا جميعاً يتسامرون مبتهجين، أولهم كمال طبعاً الذي سيوفر له هذا الإنجاز خطوةً حقيقيةً يستشرف من خلالها معالم مستقبل يأمل أن يوفر له استقراراً، ويمكّنه من ملازمة حلمه ببناء عائلته الخاصة مع من تمنى يوماً أن تكون من نصيبه عروساً، وشريكة القادم من الحياة.. لطالما وجد هذه الصبية الحسناء قريبةً، ليس في المكان فقط، بل وبالمشاعر والتفكير، وأبعد ما تكون حين يصبح القياس بالظرف

وإمكانية التحقيق.. سميرة ابنة حيه وأخت صديق الطفولة والمدرسة حامد فتاةً حسناء مهذبةً ودارسةً في مجال التعليم، تخرّجت من معهد إعداد المعلمات، وها هي تستعدُّ بعد انتهاء دراستها لتبدأ حياتها العملية في هذا السلك الذي تحبه وأرادت الوصول إليه مبدئيًا من خلال وظيفة في معهد خاص، وفَرَّها لها قريتهم صاحب المعهد، بانتظار فرصة تثبيت في وزارة التربية من خلال مسابقة تعيين، أو واسطة.. ربما.. كواسطة كمال. هو ليس متأكدًا تمامًا حتى الآن إن كانت سميرة تبادله ذات الميل والتفكير، لم يجروا قطُّ على مواجهتها والحديث معها، لكنه يمني النفس بهذا من خلال لغة التقدير والاحترام المتبادل، ونظراتها التي تكاد تنطق بالقبول، ومبادلته الانتظار والرسائل الصامتة بلغة العيون.. فضلًا عن كونه صديقًا مقربًا من حامد، وهو معروفٌ جيدًا لدى العائلة بحسن أخلاقه ومنشئه العائلي الطيب، مع الأخذ بعين الاعتبار علاقة العائلتين الحميمة المبنية على الودِّ والاحترام.. هو لا ينسى أبدًا المرّة الأولى التي التقى فيها سميرة خارج مرحلة الطفولة، بعد غيابٍ طويلٍ في حلب، كانت في مخيلته ما تزال (سمورة).. تلك الطفلة الشقيّة المدلّلة ابنة الحارة، وشقيقة صاحبه المقرب، ذات الشعر الطويل الأشقر.. والوجه الملائكي الجميل.. فجأةً يجد نفسه وهو يقرع باب بيتهم زائرًا أمام فتاةٍ ناضجةٍ فائقة الجمال، تراقص ورود الأنوثة على خديها.. تفتح له الباب، وترحب به بابتسامةٍ أشرفت لها عوالمه جميعها، صار هذا المشهد من ساعتها أيقونة كمال التي ترافق مخيلته في كل مكانٍ وزمانٍ؟ لم يكن لكمال أن يتجاوز حدود رسائله الصامتة لسميرة لنذر نذره على نفسه بألا يفعل مالم يكن مؤهلًا للزواج منها كما يشتهي ويريد وبالظرف الذي يتمنى.. وأيضًا.. لأنه لا يسمح لنفسه وفق العادات والتقاليد المحافظة والجوار والعلاقة الطيبة التي تربطه بأهلها أن يفعل؟

بدأت في اليوم التالي مع كمال رحلة التنقيب وجمع الأوراق اللازمة للوظيفة.. فمن مختار الحي إلى السجل المدني.. إلى البلدية.. إلى الجنائية.. مروراً بالمكتبات للتصوير والنسخ.. وانتهاءً بالحصول على صور شخصية، رافق هذا وصول وثيقة مصدّقة للتخرج من حلب، كان مضطراً لبذل النقود في كل مرحلة وخطوة حتى ولو كانت بالأصل مجانية في وطنٍ لم يعدّ يمكن فيه أن يحرك المرء شيئاً فيه دون أن يمرّر المعلوم من المال من تحت الطاولة.. اكتمل الملف لديه، وجمع أوراقه.. اعتقد أنه صار جاهزاً ليستلم عمله، لكنه في اليوم التالي لم يستطع مقابلة الشخص المطلوب، بسبب سفره كما قيل له، فعاد وانتظر وحاول مرةً ثم مرّات.. حتى استطاع بعد أيام طوال أن يجده، أخبر مدير مكتبه بأنه مرسلٌ من قبل الشخص الذي أخبره عنه ثابت من دمشق.. ولأن الشخص المعني هنا اسمٌ كبيرٌ، ورقمٌ مهمٌ في دواوين الوزارة، وكان ذلك الرجل قد اتصل مسبقاً به.. فقد استقبله المدير، أكرمه وتبادل معه الحديث، وأخبره أنه سيكون مبدئياً مشرفاً في المكتبة، وحين يجد له شاغراً آخر في مكان أنسب.. فسوف ينقله إليه، حوّل في نهاية اللقاء الودّي إلى دائرة شؤون الموظفين لمتابعة أموره، ويكمل الإجراءات اللازمة من حيث توقفت.. حين دخل في هذه المعمة أدرك كم استبق خياله المتعطّش لمن، وقفز قفزة أملٍ أكبر مما ينبغي في تفاؤله باستلام عمله الجديد هذا؟ بعد أن أرسلوه في رحلة ملاحقة أوراقٍ ثبوتيةٍ... مرةً لتبديل ورقة، وأخرى لتصحيح كلمة، أو استدراك ختمٍ وتوقيع.. وغيرها لإتمام الملف بأوراق لم يحضرها جاهلاً بها، أو أضيفت بطلبٍ مزاجيٍّ من أحد الموظفين، استغرق ذلك أياماً.. شعر في نهاية الأمر بالعجز وقلة الحيلة حين وقف يشكر الموظف الذي حضّر له إضبارةً كبيرةً ثقيلة الوزن بما حوت من أوراق واستمارات، وطلب منه أخيراً هذا الموظف أن ينتظر في بيته حتى تأتية الموافقة؟ أخبر الموظف أنه أتى من

قبل المدير العام وأن هناك قرارين بتعيينه قد صدرا.. أحدهما من الوزارة، والآخر من المديرية هنا، وأنه حاصلٌ على الموافقة مسبقاً، بلغه المسؤول في هذه الدائرة أن هناك الكثير من الموافقات يجب أن تتمقبل الحديث في أمر اكتمال المعاملة، وهي تدرجيةٌ تصل إلى أعلى الهرم في الوزارة.. ثم تعود من خلال المراسلات الروتينية، ولا تنتهي سوى بالحصول عليها كاملةً غير منقوصة، مضافاً إليها العنصر الأهم والأصعب.. وهي الدراسة والموافقة الأمنية.. وهذه تستغرق وقتاً أطول.

- كم كنتُ ساذجاً حين اعتقدتُ للحظاتٍ أنني وصلت إلى غايتي منذ أن تسلّمتُ خبر الموافقة المبدئية من خلال ثابت، وأن كل شيء صار مضموناً.. يا الله.. إن كنتُ أنا صاحب الوساطة الثقيلة، والحاصل على توقيع الوزارة أعاني هكذا.. فكيف بمن يتقدّم دون أيّ دعمٍ أو سند؟

يحدث نفسه وهو عائدٌ إلى بيته، بعد قضاء يومٍ طويلٍ مترعٍ بالإجراءات والتواقيع والأوراق والتسليم، والتنقل من غرفةٍ إلى أخرى، ومن دائرةٍ إلى أختها.. هذا اليوم الذي كان لكمال مخيباً للآمال بامتياز.. في جلسة المساء مع أصدقائه كان موضوعه جزءاً من مسار الحديث، ما بين مزاح وجدّ.. سرّب البعض قطراتٍ من التذمّر والنقد محفوفةً بالحدّر من التّماذي، تخفي خلفها سيولاً حال بينها وبين الفيضان سدّ من التورّع والخوف، أدّى إلى تغيير مجرى الحديث، وعودته إلى السياق المقبول؟

- لا تغضب يا صديقي واصبر قليلاً، فأنت تعلم أن صديقنا أحمد الحداد سبقنا إلى التخرّج من الكلية بسنة، وقد تقدّم إلى وظيفةٍ منذئذٍ، ورغم وجود الموافقة المبدئية.. فإنه لم يستلم عمله بعد.

قال جوزيف وقد وافقه الجميع.. وأكمل قائلاً:

- الموافقة الأمنية وحدها استغرقت حتى الآن ثمانية شهور لكنه عاد للتخفيف من مخاوف صاحبه وقلقه.. بعد أن رأى مساحات اليأس التي توسعت في وجهه قائلاً:
- لكن صدّقني هي مسألةٌ نسبيةٌ.. فقد يكون هناك مشكلةٌ ما في موضوعه ليس بالضرورة أن تعترضك تدخّل صقر معقّباً:
- أما حصلت عليها بواسطةٍ ثقيلةٍ من دمشق؟ فلم لا ترجع إلى صاحب واسطتك؟ فقد يسرّع لك الإجراءات، ويعفيك من طول الانتظار وقعت هذه الملاحظة موقعاً طيباً في صدر كمال.. وتجاوباً مع ما أشار إليه صقر، حيث راقّت له الفكرة.. لم يتردّد.. تنحّى جانباً واتّصل بثابت، أبلغه بما حصل معه، وتلقّى منه وعداً بمتابعة الأمر مع أصحاب الوساطة.. أنعشت تفاعله من جديد جرعة الأمل بالوعد الذي قطعه له ثابت، جلت غمام الإحباط الذي عكّر صفو يومه، فعاد إلى الجلسة وقد اغتسل وجهه بالبشر، ونظر إلى صقر نظرة امتنانٍ.. لتذكيره بما يتوجّب على الساعي لموضع قدم في وظيفةٍ في هذا الوطن.. ينطلق من خلالها في معركة الحياة.. أن يفعل، انطلق يشاركهم الحديث، مبشراً إياهم بوعد صديقه المنتظر، كل الذين كانوا في الجلسة على اختلاف مشاربهم كانوا يعانون بشكل أو بآخر، أثار ما جرى لكمال لديهم التفكير سلباً أم إيجاباً.. غبطة أم حسداً باطنياً:
- الحال أن جميع أفراد هذا الشعب وجد دائماً ما يشغله ويكفيه من همّ، وعانى من لهاثٍ خلف تأمين فرصة الحياة المستقرّة، بعيداً عن مقارعة الدولة التي لا تعيرهم اهتمامها بقدر ما تعيرهم أذنيها وأنظارها، لتراقب سلوكياتهم فقط، ومقدار التزامهم بقانون الخنوع والصمت الذي فرضته أجهزتها الأمنية على الجميع..

يقول كمال لجوزيف هامسًا في غفلةٍ عن الجميع، وهو ينظر منتقلًا بين عيون الحاضرين، مشفقًا على الذين لم تتوفَّر لهم فرصةٌ نالها، في غفلةٍ عن عيون القائمين على تحطيم آمال الشباب.. يتابع:

- ما بين السأم من الانتظار، وفقدان الاكتراث بأي هدفٍ أبعد من وظيفة تستر المرء حدَّ الكفاف، وعائلةٍ وبعض استقرارٍ.. وبين هموم جيلٍ يجد نفسه عاجزًا حتى عن أن يطمح، أو يهضم واقعه المتردِّي الآخذ بالتدهور حينًا بعد حين.. تسير الحياة على شفا حفرةٍ من ضعفٍ وخوفٍ في وجه مقارنة أوضاعهم المتردِّية بأوضاع العالم خارج هذه الحدود، وانخفاض منسوب طموحاتهم... نوازع الخوف والسلبية التي تجرَّعوها بالوراثه، وما يرونه من جبروت أجهزة السلطة الأمنية، وقفت حائلًا بينهم وبين الصراخ، وإعلان حالة التمرد.. اعتادوا أن يلتفتوا على كل هذه المشاعر بالسخرية المرَّة، والنكات الطريفة التي تُنفس قليلًا عن مخزون دواخلهم.. وتخدَّرهم بانتظار واقعٍ أفضل؟

غير أن همَّ صقر كان مختلفًا، كاختلافه شخصيًا عن الجميع الحاضرين، حتى في نوعية همِّه واهتمامه.. فقد كان يشكو من تأخُّر ترقيته في مجال الحزب الحاكم بعد أن تلقَّى وعدًا من آله ومحبيه بأن يجعلوه أمينًا للفرقة الحزبية في دائرته قبل أكثر من شهر، مؤكِّدين له أنه أمرٌ حتميُّوأنه لن ينتظر حدوث ذلك طويلاً..ها هو ينتظر قلقًا، ومتأملًا حدوث هذا بسرعةٍ، بما سيفتح له من آفاق للمستقبل وتحقيق الطموح، ويرسم عالمه المقبل بريشة الرغبة، ولون الدعم المنتظر.. ليمهِّد أمامه طريق الصعود في سلَّم الوصول، كما خطَّط له في أحلامه.. مثل كل الذين سبقوه في هذا الطريق؟

استمرَّت الجلسة طويلاً، والأحاديث تتشعَّب وتنوع بين الأصدقاء، وأفكار كمال تذهب بعيدًا نحو أحياء المدينة الفقيرة، وبعض سكان القرى

الذين يجوبون شوارعها بحثًا عن كفاية رمتي، ومعاناة الناس أصحاب الدخل المحدود.. كان جوزيف أقرب الشباب إليه في الجلسة.. استمرَّ بصوتٍ خافتٍ يثبُّ بعض خواطره عما يراه ويعاني منه الناس.. جالت في خاطره ذكرى قريبةٌ لذلك الشاب العامل الفقير الذي وقف أمامه منتظرًا دوره على مخبزٍ لشراء الخبز منذ أيام..

- كان الطابور طويلًا جدًا.. هذا دأب المواطنين كما تعلم.. حينما يريدون خبزًا طازجًا في كل البلاد، حيث جعلت الدولة أفران الخبز موضعًا يوميًا لتجمُّع الناس بطوابير إذلالٍ وإشغالٍ بلقمة العيش.. لا أمل يلوح في الأفق لهذا الشاب بوصول الدور قريبًا.. أتذكر كيف سوَّلت له نفسه يومها بأن ينتقل إلى نافذة العسكريين الخاصة، ليحصل سريعًا على كميةٍ قليلةٍ كان يحتاجها، وقد كان يبادلني الحديث قبلها ويشكو من أنه لو لم يحصل عليها بسرعة، فإنه سيفقد فرصة عملٍ قد تؤمِّن قوت يومه. الشاب كما فهمت يعمل حملاً، ينقل على كتفه وظهره مواد البناء في العمارات التي تُبنى حديثاً، رزق يومه مرتبطٌ بوجوده أثناء بحث أصحاب العمل عن عمال في ساحةٍ أنت تعرفها، يأتيه طالبوا العمالة من كل مكان.. يجتمع العمال هناك بكثرة، وصاحب الحظ السعيد من يلفت انتباه باحثٍ ماٍ بسيارته، ليلتقطه باتجاه ورشة بناءٍ، أو مشروعٍ قريبٍ.. أو بعيد.. ليس مهمًّا مقدار الجهد الذي سيبدله العامل حينئذٍ، أو الزمن الذي يستغرقه، أو بعد المسافة عن بيته، ولا مقدار تناسب الأجر مع ذلك الجهد.. الأهم هو الحصول على رزق اليوم، أو ربما يومين أو ثلاثة على أبعد حد، لأن الفرصة هذه قد لا تتوفر مرةً أخرى إلا بعد أيام.. من سوء حظِّ هذا الشاب أن نافذة العسكريين في المخبز التي لم يكن أحدًا قد ارتادها في تلك الساعة، جلبت له ما لا يتنظر ويطلق.. ما إن وقف يريد مدَّ يده لإعطاء

بائع الخبز نقودًا، حتى تقدّم من خلفه رجلان يرتديان ثيابًا مدنيّة، ويظهر على خصريهما من تحت القمصان مسدّسان، وتعلم يا صديقي ماذا يعني هذا.. ينبئ بشكل واضح بأنهما رجلا مخابرات، أو ممن يلوذون بفروعها العديدة، أو مرتبطان بها بشكل أو بآخر... هذا المشهد اعتدناه، وهو بقدر ما يولد الرُعب لدى الناس من أصحاب الخصور الممتلئة، ويجعلهم يتجنّبون هذه الأنواع من البشر، بقدر ما يثير لدينا الضحك والسخرية.. كان من المفترض أن يحصل الشاب على خبزه في تلك اللحظة، قبل أن يتشكّك في وضعه الرجلان، لكن شكّهما لم يطلب أمره، فملاح الرجل ولباسه المغبر، وخلو خصره من السلاح مؤشّرات لا تحتاج إلى نبّه.. سأله أحدهما:

- هل أنت عسكري؟

- لا.. ولكنني في عجلة من أمري، ولم أجد أحدًا هنا.

- إذا عدّ إلى الدّور، وانتظر هناك مع الناس، ولا تقترب مرّة أخرى من هذه النافذة.. هل أنت غبي؟ أما تعلم أن هذه النافذة فقط للعسكريين؟

- أرجوك يا أخي.. هناك عملٌ ينتظرنني، وأنا لا أريد سوى القليل من الخبز يكفي لتناول الغداء مع رفاقي على عجالة.. نحن عمال بناء ننتظر فرصة عمل، لم أقصد أن أتعدي على نافذة العسكريين.. وجدتها فارغة، وطلبي قليل...

- يبدو أنك لا تفهم أيها الحيوان.. قلت لك عدّ إلى هناك قبل أن نعاملك بما تستحق.. لا أريد مزيدًا من الحديث.. هيّا.. قبل أن نحملك قضية انتحال شخصية، وأنت تعرف الباقي بعد هذا.. احمد ربّك أننا عفونا عنك..

حاول الشاب أن يدفع عن نفسه الإهانة.. وقبل أن يتلفّظ بحرف.. وبدون مقدماتٍ يا صديقي والله.. أمطرتُ وبشكلٍ مفاجئ وجه المسكين

أيدي الرجلين بصفعاتٍ ولكماتٍ سريعةٍ عنيفةٍ، بينما تسابقت أقدامهما على جسده بمجموعةٍ من الرفسات، ناهيك عن معزوفات الشتائم التي لم تترك عرضاً مخفياً.. أو طابقاً مستورا؟ لم أر في حياتي كمًّا من الضرب والإهانة يتلقاها إنسانٌ كالتي رأيتها حينئذٍ، ولم ينته الأمر باللحم والرفس والإهانة أمام الناس، بل جرّوا الرجل من لباسه الذي تمزّق.. كأنه كيسٌ من قمامة، واقتربت سيارةُ بيضاء طويلةٌ كانت تقف بعيداً بسرعةٍ عاليةٍ، مصدرةً أصوات احتكاك العجلات على الأرض، كانت سيارة الدورية التي تعرفها، وترجل منها رجلان آخران يملكان ذات السّحنة، يحملان بندق آليّة، تمّ اقتياد الرجل إليها والدّماء تسيل من أنفه وشفتيه، وتغطّي وجهه المتورّم المحمرّ، وضعوه داخلها بمنتهى القسوة واللؤم.. ثم عاد الرجلان إلى الفرن، تناولا طلبهما دون أي تأخير، حين وجدا البائع قد حضّر لهما صاغراً ما أرادا من الخبز، ومضيا باتجاه سيارة الدورية.. كأنّ شيئاً لم يكن.. ثم ركباً فيها في الخلف، بحيث أحاطا بالرجل الضحية الذي فيما يبدو غاب عن الوعي من شدّة ما تلقى من الضرب المبرح، ذهبَت السيارة بالرجل بعيداً، تحمله إلى حيث تكتمل الاحتفالية بتحطيم الرجال، وتمريغ أنوفهم بالوحل؟

ما زالت هذه الصورة لا تغادر مخيلة كمال، واجتمعت لها فجأةً جميع صور القهر والذلّ والاستعباد، من المدرسة إلى الشارع، إلى الدوائر الرسمية، وليس انتهاءً بالفروع الأمنية التي أصبحت زيارتها شبح الرعب المائل في أذهان الجميع دائماً، تذكّرهم بخطر التجرؤ على ما لا ينبغي لهم أن يفكّروا في اقترافه في هذا الوطن.. صمت عن الحديث مع صاحبه وراح يفكر ساهماً.. تذكر أيضاً ما حصل له هو شخصياً في حلب.. أيام الدراسة الجامعية.. حيث كان يعتقد حينها مع الكثير من زملائه أن للحرم الجامعي

قدسيته الخاصة، كما يسمعون ويقرؤون في مختلف البلاد، حتى أسقط هذه المقولة وطمسها في مستنقع الاستبداد رجال المخابرات الشرسون الذين تشاكس مع أحدهم مرّة، وهو يراه داخل الكلية يضايق زميلة لهم ويعاكسها، أراد أن ينجذ زميلته، وشجعه على ذلك اعتصامه بكليته وشعوره بأنه يستطيع أن يكون فيها بمنأى عن أيّ تناولٍ أو عدوان.. الأمر الذي سبب له التعرّض للضرب والإهانة داخل مبنى الكلية، على مسمع ومرأى الطلاب والإدارة والموظفين، ولولا الرجاء الخاص يومها من وكيل الكلية لرئيس الدورية.. لتّم اقتياده أيضًا بطريقة العامل المسكين، آخر ما قفز إلى ذهنه.. كيف قضى أحد جيرانه أسبوعًا كاملاً، ليستوفي شروط إقامة حفل عرسه.. في آخر المطاف صدموه بأنه كان لابدّ أن يأتي بموافقةٍ أمنيةٍ لذلك، وتلك تأخر صدورها حتى اضطرّ لتأجيل الموعد أكثر من مرّة، على الرغم من أنه دفع المعلوم، وقد شعر حينها بأنهم يكادون أن يشاركوه بيته وأنفاسه وزوجه؟ لم يقطع هذه السلسلة من الخواطر في ذهن كمال.. يرافقه الكثير من الغيظ والحقن، سوى اقتراب جوزيف منه.. وسأله بصوتٍ خافت:

- ما بك كمال؟ أين صرت؟ كأني بك خارج التغطية..

ابتسم كمال وردّ على صاحبه:

- كلنا كذلك يا صاحبي.. كلنا... ومتى كنا داخلها؟

ضحكا معاً، ثم قام كمال منسحباً، معتذراً لتأخر الوقت عن إكمال الجلسة.. يتوجّب عليه هذه الأثناء أن يمارس طقوساً ما لم يمتنع عن أدائها طوال سنوات، عليه أن يقف أمام بيت سميرة، ليرسل لها هذه المرّة رسالةً صامتة.. ربما تكون الأخيرة.. يشرّها فيها بقرب الموعد الذي يستطيع فيه أن يجهز بحبها على المألأ.. ويعدّها بما يمكنه أن يفعل.. ويصرخ حتى يسمع صرخته الكون؟

- ليس من عادة ثابت أن يتأخر في الاتصال بنا فما خطبه؟ هل اتصلتم لتطمئنوا عليه وعلى أخبار زوجته وعثمان؟

قالها أبو خالد.. مبعداً وجهه عن وجه محدثته أم خالد، كأنه يريد لسؤاله أن لا يفضح قلقه على ابنه وعائلته بحركة لا مبالاة لم تكن مقنعة إلى الحد الذي يقنع زوجته:

- لم تسألني هكذا وتشيح بوجهك؟ هل لتوحي بعدم اكتراثك كثيراً.. أم لتخفي علائم شوقك لولدك؟ .. أم تخشى أن أراها بادية بين ركام مشاعر تحبسها هذي العيون التي تدعي القسوة؟ كيف تستطيع أن تمرر هذا من خلالي أيها الحنون؟

قالت هذا أم خالد ولكن بسرّها.. فلم يكن لهذه المرأة الصلابة التي تخفي أيضاً كثيراً من العواطف المتأججة أن تتجرأ على رفيق العمر بهذه الكلمات، في واقع الأمر ردّدت ما اعتادت أن تقوله دائماً:

- لعلة خير يا أبا خالد، سنتصل به اليوم إنشاء الله.. أغلب الظن أنه مشغول في عمله، وكما فهمت.. فإن عليه مسؤوليات كبيرة في البيت الكبير..
- خيراً إن شاء الله

اكتفى بها أبو خالد، وراح يبحث في قنوات التلفاز عن أخبار جديدة، من الواضح للجميع أن وضع ثابت لدى أبي خالد أصبح مصدر استفهام كبير، لم يعد من السهل عليه أن يثق بما آلت إليه أموره، وماذا يفعل هناك.. هو الذي أمضى حياته حريصاً على تصرّفات وسلوك أولاده، ومراقباً لها بحذر، اليوم يجد نفسه عاجزاً عن مراقبة هذا البعيد القريب، بعد أن تسلّم عمله ذاك، وبعد أن اتّضح له أنه يخالط شريحة اجتماعية سافرة الاختلاف.. بعيدة كل البعد عما اعتاد عليه وأهله.. قلبه يلهج بالدعاء لأولاده والكثير من

الأماني، ليحفظهم ويثبتهم على الطريق السواء، رغم أنه لا يبدى من هذا علانية سوى التجهم وبعض الاستنكار والسكوت، حين يمر ذكر أحدهم.. وعلى الأخص ثابت..

- انظري أينما وليت وجهك، رأيت صنماً للديكتاتور يرغم الناس على التطيل له والتزير وتخليده، والسجود له.. أصبحت أفضل وسيلة لإلغاء المثل العليا، واختزال الوطن والتاريخ بأسطورة مبنية على الأوهام ووسائل الإعلام لرجل عاجز عن أن يبنى له قيمة تذكر.. إلا بالاستبداد والقمع وتآليه الذات؟ قال هذا أبو ثابت مبدئياً استياءه، وهو يقلب بين المحطات المحلية في التلفاز باحثاً عما يشبع فضوله من أخبار..

-من تقصد؟

-سامحك الله.. لنا السبق في الميدان، فما خلد قومٌ ظالمهم كما فعلنا ونفعل.. الابن فاق أباه ظلمًا ونرجسيةً، بعد أن ظنَّ البعض الساذج أن وضعنا سيتغير بعهد جديد، وأنا سنرتقي بحكم أن الوريث مثقفٌ ومطلعٌ على ثقافة الغرب المتحضر..

وجدها فرصةً ليستثمر إصغاء أم خالد وبعض أفراد العائلة الذين انضموا للجلسة في المضافة، وعلى رأسهم الابن البار الكبير خالد:

- صمتنا ورضينا طويلاً، وصمتت هذه الشعوب جلّها، وقدمت أكبر خدمةٍ للطغاة، حين رضخت للأمر الواقع، هذا الذي سرَّ خاطر الدول الاستعمارية، ووفر لها الراحة مع تحقيق المصلحة التي هي هدفها الرئيس، فها هي تحكمنا بحديدنا الساخن دون تكاليف.

- هل تقصد يا أبي أن هذه الأنظمة من صنع الاستعمار؟

قال هذا خالد وهو لم يكد يأخذ زاويته في المجلس..

- وهل لديك شك بهذا أو لدى أيّ عاقل؟

- ولكن يا والدي الأنظمة تتمايز بالاتجاهات والولاءات، رغم اتفاقهم على منهج القمع والاستبداد، فكيف أستطيع أن أستوعب أن جميع وجوه هذا التنوع من صنع ذات المصدر؟

- كيف؟.. لم أفهم مرادك.

- لا يمكنك أن تساوي مثلاً بين نظامنا.. رغم كل ما يعيبه وما يمارسه فينا كمواطنين.. والذي يدعم الفلسطينيين في قضية المسلمين والعرب جميعاً، والمقاومة في لبنان.. بأولئك الذين ينامون جهراً نهراً بحضن الغرب واسرائيل..

كانت تلك من المرات القليلة التي يتجرأ خالد على الدخول بجدالٍ مفتوحٍ سياسي مع أبيه، فقد كان جلّ ما يفعله أن يهزّ رأسه إيداناً بالموافقة على ما يقوله، لتسليمه المطلق بخبرته وإطلاعه.. هو ذاته لا يدري لم فعل هذا في قرارة نفسه هذه المرة.. هل هو فعلاً يعتقد هذا؟ أم أراد له أن يكون أداةً لاستمطار الأب المليء بالمعلومات والحقائق التي يرغب بسماعها.. رغم أن أبا خالد لا يحتاج فعلياً لمثل هذا التحريض.. هو يرى الكثير مما يقوله الوالد ماثلاً نصب عينيه في كل مكانٍ من هذا الوطن.. لذا تأثر خالد بفكره ووجهات نظره.. بل وتبنّاها حد الاعتقاد اليقيني الراسخ؟

- تستدعي المرحلة يا ولدي أن تظهر واجهاتٍ للغرب، وأخرى للشرق، وثالثة بين هذا وذاك.. هي لوحة تمثيلية على ذات الخشبة يجب أن يؤدّيها الجميع..

- لم أفهم يا والدي؟

- ما كل ما تسمعه وتراه في الظاهر هو الحقيقة، لو منحت نفسك فرصة التأمل والاستقراء لعرفت أن من يدعون الممانعة ويشتمون الغرب

والصهيونية هم أكثر الناس خدمةً لها، ورغم يقيني الكامل أننا لنختبر هذا اختباراً حقيقياً ما علينا سوى أن ننتظر.. ستكشف الظروف والأيام ما أقوله لك واثقاً.. كلُّ له دوره من تلك الأنظمة المقاومة. ما يسمى بدولة إسرائيل.. هذا الكيان الغاصب قامبدعمه العالم كله، غربه وشرقه شماله وجنوبه، وتعهّد له الجميع بالبقاء والتمدّد والسيطرة.. فهل يقبل منطلقك العقلي أنهم يدعون بجواره قوى حقيقيّة تنمو وتكبر لتؤذيه أو تمانعه، بينما يستطيعون إن أرادوا أن ينهوا أي دولة تسبّب له ولهم القلق والمتاعب؟

- لكن يا أبي لا نستطيع أن نغضّ النظر عن الحقيقة الواضحة بالشكوك والريبة.. لقد قاتل حزب الله والمقاومة الفلسطينية الصهاينة بدعم من هذه الجهات الممانعة، رغم كل ملاحظاتنا عليهم، وإيماني الشخصي المطلق بأنهم مجرمون، وقد فعلوا بنا الكثير وسرقوا مقدرات البلاد ودمروها، ورغم اعتراضي على أساليبهم في الحكم والسيطرة على مصير البلاد والعباد..

- وماذا فعلوا وقدّموا هم وحزبهم هذا؟

- في أضعف الأحوال كانوا سبباً بتحرير جنوب لبنان، وكسر جيروت هذا العدو الصهيوني الغاشم الذي ظل طويلاً يشعرنا بعجزنا الكامل..

- ومن قال لك إن الصهاينة أرادوا البقاء هناك؟ بل ما أدراك أنهم لم يدخلوها سوى لطرد الفلسطينيين منها بالتعاون مع ممانعتكم وزرع البديل المناسب؟ لقد كانت المنظمات الفلسطينية المقاتلة حينها انطلاقاً من الجنوب اللبناني تعتبر شوكةً في خاصرة الكيان الصهيوني، ثم قلّ يا هذا.. ما هو الدعم الذي قدّموه للقضية الفلسطينية حقيقةً؟ لم يجرؤ أحدٌ على اختراق جبهتنا أبداً ولم يتم توجيهه حتى رصاصة واحدة من خلالها باتجاه العدو، كانت بالنسبة لهم وباعترافهم وما زالت أفضل الجبهات أمناً وأكثرها التزاماً.. لا بد

لك وأنت سوريّ الآن، إذا أردت أن تذهب إلى القنيطرة أو أية منطقة متاخمة لحدود الكيان المدلّل أن تحصل على موافقة أمنية، ولا بد أن يقتنعوا بسبب زيارتك وإلا لن تشم رائحة المكان أبداً، ثم إني سأسألك سؤالاً مهماً.. هل يمكنك أن تحدّد لي في حقيقة الأمر ووفق التصنيف السياسي المعتمد.. ما هي طبيعة النظام السياسية؟ هل هو علمانيّ ليبرالي، أو دينيّ، أو قوميّ أو ماذا؟ على أي فكر أو منهج يقوم؟ وأيّة قيم يحمل؟ هل لديك الإجابة؟ وقف مع ايران ضد العراق فأين القومية العربية من هذا؟ ووقف مع أمريكا ضد العراق فأين الممانعة والعداء للامبريالية وأين الاشتراكية في ذلك؟ الأمر في حقيقته يا ولدي.. نظامنا الحاكم هو عبارة عن عصابة تابعة ومتقيّدة بمخطّطات ايرانية طائفية ممنهجة، تحت تغطية ومباركة غربية، للسيطرة على المنطقة والضغط على أي توجّه حقيقيّ للمقاومة أو التمرد، هي جزء لا يتجزأ من منظومة ظاهرها طائفيّ وباطنها استعماري، لها أغراض مختلفة تماماً عما تتصوّر ويُراد للكثيرين من المخدوعين بوهم المقاومة أن يتصوّروا، سرقت ثروات البلاد وارتفعت الأقليات لمشروعها فربطت مصيرها بمصيرهم، هي ترتدي لبوس المقاومة والممانعة المزعومة وتتجنّج به، فتخدع من كان سطحياً لا يعرف بواطن الأمور، الغرب الذين خطّطوا لهذا، أو على أقل تقدير غصّوا النظر عنه، يعلمون أيضاً أن هؤلاء هم العصى الجديدة التي سيضربونها بها، دون أن يحتاجوا إلى مدّ أذرعهم الباهظة الثمن، أو يغامروا بمخاطرة التواجد عسكرياً في المنطقة لضبط الوضع، اربط الأمور ببعضها بعقلانية وتفكّر، أصبحت القضية الفلسطينية والممانعة لإسرائيل وحلفائها سلعة للمتاجرة والعدو يصفّق لها ويضحك.. ألا تستطيع أن ترى بوضوح؟

شعر خالد الذي ربط كل خيوط الحديث ببعضها كم أن والده ربما يقول الحقيقة.. وإن كان ذلك.. فكم يلزمه من إجابات مفصّلة بعد.. حتى تزيل عن

كاهل تفكيره آلاف إشارات الاستفهام؟ .. لعلّه كان بحاجة فقط لتذكير من مرجعه أبي خالد لتوثيق كل ما أراد سماعه.. وما زال يرغب بسماع المزيد..؟

رنّ جوال ثابت صباحاً، فنظر إليه وهو على الطاولة غير بعيد عنه، فإذا المتصلة هي صاحبة الحسن والفتنة.. التي تملك القدرة على أن تعبت بنبضه كيفما شاءت، والتي يهتّز لمجرد قراءة اسمها كيانه، فكيف وهو يسمعها حين تداعب بأسلوبها الجذاب ومشاعرها الرقيقة أحاسيسه.. فهبّ من رقاذه واقفاً مرتعشاً.. كان اختبأً صعباً لثابت الذي كان قد وعد العجوز ونفسه بالابتعاد عنها عاطفياً، وهي لم تدّر بعد ما هو سبب عزوفه عنها، قاوم رغبته الشديدة في التواصل معها لأيام مريرة.. فاتنة أيضاً تعلّقت به حدّ الجنون.. أصبح يعني لها أكثر من شابٍ وسيمٍ تعشق امتلاكه.. أصبحت تراه جزءاً لا يتجزأ من منظومة حياتها.. لا يفارق وجهه وصوته أحاسيسها وذاكرتها.. بينما الجوال يرن واسمها يلمع أمامه، كان هو يقلّب فكره في كل ما جرى له معها.. عليه في تلك اللحظات أن يختار بين أن يردّ على المكالمات أو يتجاهلها، وأن يتابع من خلال بعض الرسائل ترديد ذرائعه الوهمية للابتعاد عنها.. استقرّ الرأي عنده قبل آخر رنّته، كان يمكن أن يتوقّف بعدها الرنين؟ دافع قويّ في داخله، تفوّق على إرادة عزوفه.. حمل يده على الإسراع بالتقاط الجوال.. أراد ألا يفوّت على نفسه التوّاقية لها سماع صوتها.. فتح الخط، أحجم برهنة عن الكلام، وأحجمت.. كانت لغة الصمت هنا هي سيدة اللحظة.. حتى أتاها صوتها الساحر، وبغنجٍ رقةٍ كدأبها:

- ألو ثابت.. أين أنت.. وكيف حالك؟

- أنا بخير وأنت؟

- أنا مشتاقة جداً.. لم أرك منذ مدةٍ، بصراحةٍ أشعر وكأنك تنهَرَّب مني.. هل عليّ أن أعرف شيئاً لا أعرفه؟
- لا لا أبداً.. لا شيء.. هي مشاغل الدنيا كما تعلمين.. انشغلت قليلاً بالبيت والسيدة، ومتابعة بعض الأمور خارج المنزل و...
- وهل هنتُ عليك إلى هذه الدرجة حتى تعدم الحيلة لإيجاد دقائق أراك فيها، أو حتى أسمع صوتك؟
- لا لا.. ولكن صدّقيني....
- ليس مهمّاً الآن.. سنتحدث حين نلتقي.. لدي الكثير مما أحب أن أقوله لك.. اتصلت فقط لأمرٍ ضروريٍّ وهامٍّ جداً.. غداً مساءً يجب أن تأتي إلينا، الأمر جدُّ هام، ستتعرف على عمي اللواء شخصياً لأنه مدعوٌّ عندنا في السهرة.. حدّثته عنك كثيراً وأحبّ أن يلتقيك.. أرجوك لا تنس.. مهمٌّ كثيراً حضورك..
- وقف مذهولاً وحائراً، حضر المشهد أمامه.. وهو يقف في حضرة الرجل الأسطورة الذي بمجرد أن يسمع الناس باسمه ترتجف قلوبهم رهبةً.. سيقابله شخصياً؟
- يا إلهي.. أي موقفٍ هذا؟ إذا كنت أرتعد خوفاً الآن من مجرد تخيل لقائي به.. فكيف إن حدث هذا فعلاً؟ تُرى من يصدّقني الآن من أقاربي أو أصدقائي.. لو قلت لهم هذا؟
- يحدّث نفسه مرتباً ومنتشياً.. لم يعد بمقدوره أن يتملّص بأيّ ذريعة بعد هذا، وعليه راغباً لا مرغماً أن يعدها:
- حاضر.. ساتي إن شاء الله
- بانتظارك حبيبي؟

زعزعته كلمتها الأخيرة التي قد تكون أطلققتها عامدةً، وفجّرتها في فؤاده بسياق الحديث.. حرّكت كل ما استطاع ترقّده حتى اللحظة بشأنها.. أخذ يتداعى كل ما بناه خلال الأيام الماضية من حصونٍ تقيه حرارة فتنتها، وخطورة سحرها.. عادت وبكلمةٍ واحدة، فأفسدت بدلالها الأنثوي الفائق مشهد الذهول.. من وعد اللقاء مع اللواء..

في مساء اليوم التالي.. عاد من الخارج بعد أن أطال الغياب، وضح من خلال قصّة شعره وتسريحته أنه كان في صالون الحلاقة، أعدّ نفسه جيداً، وتأنّقاً جمل ما لديه من الثياب وتطيّب.. لديه ما يقوله للعجوز من مبرراتٍ اختلقها رغبته الدّفينّة.. العجوز التي أصبحت بارعةً بقراءته، راحت ترمقه بعين الدهشة والاستنكار، أدركت بفطنتها إلى أين المسار، أخذت تحدّق به طويلاً.. لم تعقّب على ما قال أو فعل.. حاول أن يبرّر للمرأة التي يحترمها ويعلم أنه وعدّها فيما مضى، بما تمكّن من استجماع للذرائع في هذه الأوقات التي ضاق دماغه بها، امتلأ مخيلته وحواسه بألف سيناريو للقاء المنتظر.. لم يعدّ يعتني في زحمتها بخاصيّة الإقناع أو براعة التسويق، أو التفكير بما وعد سابقاً وما نويوما عليه أن يقول، يهّم متعجّلاً بالخروج للالتحاق بموعده.. استأثر مشهد الفاتنة ولقاؤها واللواء الكبير بكل منافذ اهتمامه.

استقبلته الفاتنة عند مدخل القصر كالعادة كأميرة من أميرات الحكايات الخيالية، لم تتوانَ عن أخذه في الأحضان معانقةً إياه، كما يفعلون في المجتمعات الأوروبية، كأن هذا بعض تقاليدّها، بينما كان هو يرتجف متفاجئاً بما فعلته.. الحرس ومن في داخل القصر كانوا يشاهدون حفاوة استقبالها وحضور الضيف الشاب المنتظر، وجّهت له الأم التي كادت أن تسبق ابنتها فتنةً وبهاءً.. بلباسها الذي أوحى بأنها ابنة الخامسة والعشرين

من عمرها.. سيلاً من عبارات التأهيل والحفاوة، كان هو في حالةٍ لا يُحَسَد عليها من الخجل الشديد والغبطة في آنٍ معاً، لم يكن الضيف الكبير قد وصل بعد، تناول الثلاثة بعض الشراب ريثما يصل اللواء، وتبادلوا الحديث على أنغام معزوفات الشوق بين ثابت والفاتنة.. وضحكات الأم التي تعطي الضوء الأخضر لقطار الغرام السائر.. والذي لم يعد لأحد القدرة على إيقاف انطلاقه بسرعة الصاروخ؟

عندما وصل اللواء الشهير.. دخلت سيارته الفخمة الكبيرة، وحوله الحاشية والحراس، ارتعد بدن ثابت من جديد، أراد أن يهرب لو استطاع من لحظة اللقاء.. فمواجهة الأسطورة أمرٌ مختلفٌ جدّاً عن مجرد تخيلها.. الرجل الخمسيني الطويل الأصلع له هيبةٌ لا يمكن تجاوزها، بهدوء وثقة الكبار سلّم على السيدة مقبلاً يدها كالسادة نبلاء الغرب، وعلى ابتنها التي قبّلها واحتضنها، كونه يعتبر نفسه بمقام ولي أمرها.. هنا مدّ ثابت يده مستبقاً اللواء الذي رمقه بقسوةٍ وب نظرةٍ استخباراتيةٍ فاحصةٍ، تنقصها ابتسامةٌ صريحةٌ تريح أعصاب الشاب.. انتظر قليلاً قبل أن يمدّ يده أيضاً:

- ثابت

- ها قد تعرّفنا عليك أخيراً يا سيد ثابت.. سمعتك سبقتك إلينا

- يا إلهي..

قالها ثابت في سرّه.. وقد نضحت دماء وجهه الفاترة حباتٍ من العرق البارد.. أخذت تتساقط من جبينه على عينيه وخديّه.. تجمّدت الكلمات على شفّيته للحظات؟

- تشرّفْتُ وسعدتُ بلقائك سيدي اللواء، وأشكر من كان سبباً في هذه السعادة والشرف الكبير، وأرجو أن أكون عند حسن ظنك وظن من حدّثك عني..

رفع اللواء حاجبيه، وأطلق ابتسامته منبهراً بطلاقة ولباقة ثابت رغم الارتباك والخوف الواضحين على قسماته.. هزَّ رأسه ترحيباً وإعجاباً بهذا ثم أشار للجميع بالجلوس، جلس بعنفوانه كالمملوك؟ راح الجميع يتحدثون ويتسامرون، وثابت تنفّج أساريه شيئاً فشيئاً كلما دارت عقارب الساعة وامتدَّ الحديث.. حتى بدا له أن الرجل على غير ما توقَّع من خلال سمعته، أو رسم من انطباع ارتبط بقامة الرجل، يبدو أنه بالغ في التَخَوُّف من اللقاء.. كاد ينسى أنه في حضرة هذا الرجل الواصل الكبير، الرجل يمازحه ويطلق النكات، ويستقبل من الجميع طرائفهم ودعاباتهم بابتسامة عريضة ولباقة وتواضع، أدرك ثابت أن علاقة الرجل بالسيدة ميرفت أكثر بكثير مما تناهى إلى إدراكه، وأنه بين يديها وعلى رنين كؤوسها يثمل ويصبح شخصاً آخر، السيدة أيضاً تبادلته ذات الشعور والاهتمام، ما إن استغرق الجنرال بالسَّهرة حتى تحوَّل إلى طفلٍ صغيرٍ هائم، خلع رداء الوقار ونَحَّاه جانباً، تحوَّل إلى رجلٍ أقل من عادي، صار يبتُّ السيدة الكثير من كلمات الغزل.. منها ما كان صريحاً مسموعاً، ومنها ما بدا لثابت.. ولكن من خلال المراقبة واختلاس النظر فقط.. حتى إن ثابت في زخم هذه الأريحية لم يجد حرجاً في ممازحته كلما سنحت له الفرصة، ومحاورته في الكثير من القضايا، باستثناء السياسية التي غابت تماماً عن الطاولة.. حتى يبدو لمن لا يعرفه أن الرجل لا علاقة له بالدولة وما يجري بها..

كانت سهرةً عامرةً بالسَّمر والطرافة والاستمتاع.... امتدَّت حتى ساعات الفجر الأولى، لم يشعر ثابت فيها بأنه يريد ليل أن ينتهي، خصوصاً وأن الفاتنة جاورته في المجلس، راحت تقدِّم له الكأس تلو الأخرى، وتطعمه أحياناً بيديها من الفاكهة والمكسَّرات وغيرها.. على مرأى ومسمع الجميع.. ثابت فوجئ قبل أن يهَمَّ بالاعتذار والمغادرة، وحين كان اللواء على وشك

الرَّحِيل بما كان مبيّناً لدى السيدة وابنتها الفاتنة، أنهوا السهرة بطرح موضوعٍ يخصُّ ثابت وخدمته العسكرية التي يؤجِّلها دائماً بعذر الدراسة ومرض الزوجة، أصبح التأجيل في الفترة الأخيرة يسبِّب له قلقاً وإزعاجاً، ويكلِّفه الكثير من مال الرشوة الذي يضمُّه خلسةً إلى ملف التأجيل.. كان قد ذكر ذلك لفاتنة في جلسةٍ سابقة؟

- نعم يا سيد ثابت ما مشكلتك مع الخدمة الإلزامية؟ سمعت أنك متوقِّفٌ عن الدراسة الجامعية، وأن التأجيل يسبب لك المشاكل.

وجَّه اللواء السؤال لثابت.. وهو يوجِّه للسيدة ميرفت نظرةً ترافقها ابتسامةٌ عريضةٌ.. يستخبر من خلالهما عن مقدار رضاها باهتمامه.

- نعم للأسف هذا ما يحصل.. فلم يعد بإمكانني التأجيل أكثر، مالم أرجع إلى دراستي.. وفي الواقع لست مستعداً الآن للاستمرار فيها، فربما علمت يا سيادة اللواء أنني مرتبطٌ كلياً بوضع زوجتي الصحي، بالإضافة إلى وضع العمل الحالي.. والمسألة بالنسبة لي تعتبر التزاماً أخلاقياً قبل أن يكون عملاً..

- ما رأيك إذاً أن تخدمها وترتاح؟

- ماذا؟؟؟؟

وقع السؤال في أذني ثابت كالصاعقة..

- كيف يا سيدي اللواء وأنت تعلم الحال؟

- لا عليك لن يتغيَّر شيئاً.. سأطلبك للخدمة في الفرع عندي، سيكلِّفك الأمر فقط دورةً بسيطةً، لا تتعدَّى أياماً معدوداتٍ في منطقةٍ قريبةٍ من هنا، سأعمل بعدها على أن تكون خدمتك على شكل دوامٍ مؤقتٍ حتى الظهر في الفرع، مع مبيتٍ يومي حيث تقيم، ويكون لك بذلك الفرصة لتمارس دورك

المعتاد.. سواءً مع عائلتك أو السيدة المريضة في فترة ما بعد الظهر، سيتمُّ فرزك إلى الفرع، وهناك ستكون في مكثبي وتحت رعايتي شخصياً، سترأس مفرزة المرافقة في النهار، بينما لا علاقة لك بما يخصُّ مرحلة المساء.. وسيكون متاحاً لك أن تتواجد في بيت السيدة دائماً.. ما لم يستدع الأمر المناوبة للأمر الطارئة فقط.. وهذا طبعاً كرمي لعيون السيدتين الجميلتين.. لا يحصل عندي مثل هذا إلا للقلائل المدلّين..

أتبع اللواء كلامه الأخير بضحكةٍ مدوِّيةٍ بدا أنها تأثرت بنشوتي الحسن الأثنوي والكأس.

- رائعٌ يا سيدي.. أقدر لسيادتكم هذا العطف وهذه المنحة، وأشكركم على تفضُّلكم بها..

- إذاً على بركة الله.. أعط هويتك الشخصية ودفتر الخدمة لعناصر السيدة ميرفت.

انفضَّ الجمع على فرحةٍ غامرةٍ ملأت قلب ثابت، أخذ يوجِّه المدائح والشكر للفاتنة وأمها على هذه الخدمة والسيدتان تبسمان.. أما الفاتنة فكانت بما خطَّطت له تبدو أكبر الرابحين.. ثابت وجدها فرصةً حين كان يواكب اللواء حتى وصوله إلى سيارته الفاخرة، طلب منه مباشرةً التدخل في أمر وظيفة صديقه الحبيب كمال، وموضوع الموافقة الأمنية، وعده خيراً وطلب منه أيضاً أن يوصل له المعلومات الكاملة عن الموضوع.. فجأةً استدار اللواء قبل أن يصعد إلى سيارته، وقال لثابت بابتسامةٍ ملؤها الثقة:

- بالمناسبة لا تكثرث لأمر هذا الأرعن الذي هدّدك.. لا يستطيع أن يفعل لك شيئاً، أرسلتُ له رسالةً قويّةً كافية..

أشعرَ هذا ثابت بالمزيد من الطمأنينة، جلا بعض الكدر والقلق الذي كان يتتابه كلما خلا إلى نفسه.. حين كان يودّع ثابت السيدتين وجد يده تشدُّ على يد فاتنة وتطيل، كأنها لا تريد المفارقة، لم تتذمَّر صاحبة الشأن من هذا.. بل وضح من خلال تسمُّرها أمامه وابتسامتها وثبات نظرتها في عيونه، مقدار سعادتها بذلك.. عاد ثابت ثملاً إلى بيت العجوز، ليس بقوة الخمرة، ولكن بنشوة ذكريات الليلة وفاتنة وحصيلة اللقاء، وما أحسَّ أنه تحقَّق له وجعله يبنى قصوراً من الأحلام على أرض خياله التي امتدَّت وتوسَّعت حتى أعمته عن كل حدود؟ سارع باللقاء نظرة خاطفة على العجوز النائمة للاطمئنان عليها، ثم انسحب هارباً من إمكانية أن تستيقظ لتقرأه من جديد، وترى انهزامه أمام وعدٍ كان قد قطعه أمامها بالانسحاب من مدارات فاتنته. ظلَّ يتقلَّب على نيران قلقه من المستقبل القريب والبعيد، يحاكم الأمر في عقله الذي أجهده التفكير.. مازال أسير نبضه الذي احتجزته وأعادت توجيهه فاتنة، بحيث أصبح لا مفرَّ منها إلا إليها..؟

يتنهد علي وهو ينظر إلى لوحة النتائج.. ليرى نتيجة آخر مادةٍ تقدم لامتحانها في كلية الحقوق.. يراجع أعوامه الأربعة بكل تفاصيلها، يحلو له اجترار الذكريات.. هناك في المدرج كان لا يفوت محاضرة ولا درساً ولا لقاءً، في الكافيتيريا حيث كان يلتقي أصدقاءه وزملاءه كل يوم، يقضي بين مواعيد المحاضرات وبعدها أجمل أوقاته في مسامرة أصحابه، أو في نقاشاتٍ ثقافيةٍ متنوعة.. شأن معظم طلاب الجامعة المثقفين.. أحبَّ دائماً أن يلعب دور المثقَّف المنفتح العارف والمحيط بكل الأمور، خاصةً وأن هذا كان حلمه القديم المتجدد، في بعض الأوقات كانوا يجتمعون بعد

انتهاء محاضراتهم، ويقفون فيها حتى موعد إغلاقها.. كثيرة هي المرات التي احتدمت بها النقاشات بين الشباب إلى درجة الاختلاف والمشاحنة، لكنه غالباً ما كان يمثل فيها الطرف المتنور المعتدل صاحب الموقف المتوازن.. الذي يجمع ويحتوي النقائض والمتناقضين..

- هكذا أنا منذ نشأت في هذه الدنيا.. أحمل كل المتناقضات في قرارة نفسي.. لذا تجدني صاحب لياقة عالية في استيعابها والتوفيق بينها؟

قال هذا مرة لأحد زملائه المقربين وهو يضحك ساخراً إثر نقاشٍ أنهاه علي بأسلوبه المعتاد، حيث جعل الجميع يعتقد أنه على صواب.. في المدينة الجامعية قضى أجمل سنين إقامة في عمره، رغم وجود بيت خاصٍ مفتوح له دائماً.. هو بيت أخيه.. لكنه حجز لنفسه مكاناً فيها، قضى الكثير من الأوقات مع رفاقه، مارس فيها كل نشاطٍ ممكنٍ برفقة العديدين من زملاء السكن، هناك طبخوا وأكلوا ودرسوا.. تسامروا وغنوا واحتفلوا، وهناك كان يقرأ كل يوم لمحمود درويش ونزار قباني وأدونيس، ويستمتع لأغاني فيروز في كل صباح، عندما كانت ساعات يومه تسمح له كان يقرأ الصحف ويصغي لإذاعات العالم الإخبارية ويتابع كل أخبار الدنيا، في هذه الأجواء بنى علي لنفسه طريقاً مختلفاً عن أقرانه في المقعد وفي القرية وأيضاً في منطقته، تناسى جميع تناقضاته وهواجسه الداخلية، هنا كان جلُّ أحبائه وأصدقائه من مختلف المشارب والمدن والقرى، حتى أن أولاد بيته الأصلية كانوا الأقل، في هذه الأجواء الودّية المنفتحة تقلّصت في قلبه مخاوف كان فيما سبق في قريته تجرّعها ويستشققها كل يوم.. عن العدو المفترض المتربّص داخل كل شخصٍ من خارج البيّة كما أسمعته جده وأبوه وعمه وجاره دائماً.. الغريب في الأمر بالنسبة له.. أن كل هؤلاء الذين زرعوا بذور هذا

الخوف والشك في نفسه صغيراً وناشئاً ساهموا في ترسيخ عوامل التناقض الداخلي الصارخ الذي يعيشه، فقد كانوا أصحاب علاقات جيدة وصحية مع المحيط من كل الأطياف، عادةً ما يزورونهم ويستقبلونهم بكل حفاوة في القرية، وأحياناً لأيام عديدة.. والأغرب أن هذه الحالة لم يكن يشوبها النفاق والإسرار ومخالفة الظاهر فيما كان يلاحظ ويتابع، فحتى في غياب أصحابهم أولئك، كانوا يذكرونهم بكل خير، بل ويرسلون لهم كلما جنوا من فاكهة الحقل الهدايا.. ويتلقون منهم مقابلها الكثير؟ فقط كانوا يستنفرون جميع مستقبلات هلعهم، ويقرعون ناقوس الخطر فيما بينهم حين يأتي ذكر السياسة وأعداء النظام المتربّصين، ومستقبلهم ومستقبل الحكم دائماً..

كان هناك عددٌ لا بأس به ممن يعرفهم من منطقته يشاركونه ذات الاهتمامات.. بينما احتفظ الباقون وهم الأكثر بنمط معيشتهم الذي اعتمد على الوظيفة بأحد قطاعات الدولة، ومعظمها عسكرية وأمنية، وإعالة عائلاتهم بما توفّر من مرتّبات، القليل منهم كان يستطيع تحصيل المزيد من خلال فرص أخرى، مثل رشاوى المتبوعين لهم من عسكريين ومتطوّعين ومجنّدين، أو اختلاس مقدرات الجيش وميزانيات الأمن وبعض الدوائر الحكومية.. هؤلاء الذين ربطوا أنفسهم ومسار حياتهم ومقدّراتهم بوجود النظام، بضمن زهيد لا يتعدّى أبسط مقومات العيش، معتمدين كثيراً على مناخ الفوضى والفساد السائد، تراهم في غاية القناعة والرضى.. هذا ما كان يثير حفيظته أكثر ربما.. أحب نمط حياته المختلف، الذي خرج فيه عن هذه الدائرة، ووسع مداركه، جعله هذا ولو باطناً في مواجهة وضع سياسي واجتماعي واقتصادي لم يحبه أو يتقبّله قط، رغم انخراط محيطه وأقرب الناس فيه وتورّطهم حتى النخاع، كان يجد في حروف أدونيس مثلاً ملاذاً له

ومؤنسًا، إذ أنه كما عرفه من خلال حروفه وأسلوبه الأدبي ومواقفه.. شاعر الحرية والحدأة فكرًا وحرًا.. وقد مثّل له كونه ابن منطقته وبيئته - انتماءً لا فكرًا - فرصة أكبر ليتبنّى فكره وهواجسه وخطاه.. حتى أنه كان كثيرًا ما يكتب مقلّدًا إياه بأسلوبه، مضمّنًا حروفه الكثير من الترميز والضبابية المقصودة، ولكن كان يحتفظ بكتاباتة لنفسه، وأحيانًا فقط للقليل من المقربين، هنا أحبّ علي بصمتٍ وشغفٍ وألم.. أربع سنواتٍ قلبه متعلّق بميلته الدمشقية المحجّبة ليلي، يحتفظ لها بالكثير من أحلام النوم واليقظة، وأماني النفس الملوّنة الزاهية، لا يدري إن كانت تبادل شيئًا من هذا الحب أم لا.. لكنه كان يكتفي بقربها وقليل مجاملاتها وابتسامتها الخجولة الساحرة، لتؤنس قلبه المتيمّ.. حتى وإن لم تكن ترسمها شفتها لعينيه العاشقتين؟ لم يجرؤ على الاقتراب منها إلى مسافة أقرب من الزمالة وتبادل التحايا ومشاركة بعض المحاضرات شأنها شأن الجميع.. ربما خوفًا من اصطدامه برفضها المتوقّع، أو ليعبد عنه شبح مشهدٍ لطالما خشيّه وحسب له ألف حسابٍ وحساب.. مشهد تحطّم أحلامه الوردية على صخرة الأهل من الطرفين، هذا أيضًا كان من شبه المؤكد حصوله بالنسبة له عندما يعالجه بمنطق الواقع كثيرًا، ويقلّبه في عقله بكل اتجاه.. بعيدًا عن وردية الأحلام.. يكاد يجزم أنها لا تتذكّر حتى اسمه الكامل، رغم وجودهما تحت ذات المظلة، ورغم اهتمامه الكبير بها خلال سنين.. اكتفى ببعض أخيلةٍ نشطةٍ، يرى نفسه فيها حبيبًا لها، ثم زوجًا ليلي، وأبًا لأولادها..

بشّر أخاه والعائلة بخبر تخرّجه عبر الهاتف الجوّال، ومضى إلى بيت أخيه حيث كان مدعوًا هناك لتناول الغداء والاحتفال بإنجازه الذي انتظره وعائلته طويلاً، عانقه أخوه بحرارةٍ مهنئًا، راح مع عائلة الأخ الكبير يتناول

ما لذَّ وطاب على طاولتهم العامرة، غانم الذي مذ أصبح عميداً ونائباً للواء رئيسواحد من أكبر فروع المخابرات.. يعيش في (فيلا) في أحد الأحياء الراقية بدمشق، ومفرزة الأمن الكبيرة ترابط على باب بيته، وعددٌ من السيارات.. كأنَّ منزله الكبير قد تحوَّل إلى مركزٍ حكوميٍّ حسَّاس؟

- ماذا بعد يا علي؟

سأله غانم بعدما تناولا فنجانين من القهوة على شرفة البيت الكبير

- لم أفهم يا أخي؟

- أقصد ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

- والله لا أعرف ولم أحدِّد بعد، ولكن النية متوجَّهة للتقديم إلى سلك القضاء.. فهذا كما تعلم كان مطلبي منذ البداية.. ومنتهى أمنيائي..

- والله نعم ما اخترتِ شقيقي.. سلك القضاء في هذا البلد جميل، يضمن لك مستوى اجتماعياً جيداً ومادياً طيباً أيضاً.. فمن أعرفهم من القضاة يتحصَّلون على إيراداتٍ كبيرةٍ من خلال مهنتهم؟

- كيف يتحصَّلون يا أخي ومرتبَّاتهم محدودة؟

- وهل ستبقى ساذجاً هكذا يا أخي طوال عمرك؟ أم أنك تدَّعي ذلك؟ لقد تخرَّجت من الجامعة ولم تفهم بعد كيف تسير الأمور ومن أين تُؤكل الكتف؟ افتح أبواب ذهنك قليلاً.. وتعلَّم إن كنتَ فعلاً لا تدري..

صمت علي على مضضٍ.. هو يعني تماماً مراد أخيه، لكنه يود أن يتجاهله لأنه يحمل فكراً مختلفاً، وقيم ونوايا خارج هذا المفهوم..

- حسناً.. ريثما يأتي وقت مسابقة القضاة وتنتهي من تقديم مشاركتك فيها، وتنتهي الإجراءات وفرز النتائج، وإلى حين ظهورها.. ما رأيك أن

تنتهي من موضوع الخدمة الإلزامية ما دمتُ موجودًا هنا في الفرع؟ ماذا لو أتيْتُ بك الآن لتخدمها في مكنتي؟ هما عامان ويمضيان، ونكون قد ربَّنا لك خلالهما أمر القضاء..

- لا أريد الآن يا أخي، فلستُ مستعدًّا بعدُ لهذا.. ما رأيك لو أني أستريح من أعوام الدراسة بضعة شهورٍ، ثم نفكر في الأمر؟
لم تنفَع محاولاته المتعدِّدة بالتنصُّل.. فقد وجد لدى غانم إجابةً وحلاً لكل ذريعةٍ أراد عليّ القفز إلى أحضانها كملجأٍ مما يخشى أن يُساق إليه.. تابع غانم تذليل الأمر، وهو يربَّت على كتف شقيقه:

- يا أخي يا حبيبي.. وهل تظنُّ أنك عندي ستعَب؟ ستكون مدير مكنتي المدلَّل.. آلاف الشباب يحملون بأقل من هذا بكثير.. هنا السلطة والقوة والمال، ستدرك حين تتذوَّق طعمها كم كنتَ ساذجًا حين أُيِّتَها ذات ضلالٍ.. هيَّا اذهب عدَّة أيام في إجازةٍ، وخذ قسطًا من الرَّاحة في القرية، والتقي بالأهل والأحبة.. ثم عدَّ سريعًا لننهي المسألة..

- حسنًا.. سأفكر في الموضوع

- لا.. لن تفكر يا علي، بل ستنفَّذ.. وفورًا..

جاءت كلمات غانم الأخيرة بأسلوبه الصارم الحاسم كالصاعقة، هو لم يعتدَّ من أخيه هذه اللهجة الأمرة.. تباينت مؤثِّرات وجهه بين الرهبة والدهشة والشعور بالعجز.. حتى أكمل غانم حديثه:

- انظر يا عزيزي كنتَ تمرُّ بمرحلة طيش الشباب، وقد تجاهلناها ومضت.. إيَّاك أن تظنَّ أنَّي لا أعلم بكل حركاتك وعلاقاتك واهتماماتك.. إن كنتَ تعتقد أنه يمكنك التغريد خارج السَّرب، فاعلم أنه وهمٌ ستحرَّر

منه.. شئت أم أبيت، هذا لن يكون.. تذكر دائماً من أنت، وابن من، ولمن تنتمي.. أفهمت أم أشرح أكثر؟

- فهمت يا أخي، ولكن انت افهمني أيضاً لو سمحت.. أنا...

- لم يعد بالإمكان الآن فهم أي شيء سوى أنك ستفعل ما أقوله لك، ستثبت لك الأيام أنني أجبرك على فعل ما هو خير لك حاضراً ومستقبلاً.. اذهب غداً كما قلت لك إلى القرية، واقض وقتاً جميلاً مع الأهل، وأنا بانتظار عودتك، سأرتب لك الأمور ريثما تعود.. بالمناسبة لن اشغلك بموضوع مصدقة التخرج من الجامعة، وباقى الأوراق المطلوبة، ومراجعة شعبة التجنيد.. سأحل كل هذا بمعرفتي.. فقط كن مستعداً وجاهزاً نفسياً وجسدياً

انتهى الحديث على غير ما يشتهي علي ويريد.. لم يستطع أن يستوعب وهو يفكر خلال الليل الذي لم يذق فيه طعم النوم كيف خضع هكذا أمام سطوة أخيه غانم بعد كل نوايا التمرد والخروج من عباءة الأهل والبيئة، كيف أخرسّت هيبة أخيه وجدّيته وأمره الحازم كل إرادة قد عبأ نفسه لها، وكل لسانٍ كان قد أعدّه سابقاً لمثل هذا اليوم..

- ترى الآنني ما زلت لم أحسم أمري بعد؟ أم لأنني جبانٌ ولست أهلاً لهذا؟ أم هي سياسةٌ توفيقيةٌ تعتمدُها نفسي الحائرة كالعادة، أجعلها جسراً لعبوري سالماً إلى الشاطئ كلما نويت السباحة ضد التيار؟ كم كنتُ أمّني النفس أن أنأى بها بكل ودٍّ دون أن أغضب أخي أو والدي وجدي.. ماذا أفعل الآن؟ هل أنا مستعدٌّ فعلاً لمواجهة الضغط، والتمرد من جديد؟

في القرية كان الجميع بزهوٍ وفخرٍ يستقبلون ابنهم المحامي علي، ويحتفون ضمن أجواء القرية الحميمة التي تربى عليها واعتاد صغيراً وشاباً، على دفء الأهل ومحبتهم.. هذه كانت دائماً نقطة ضعفه كما يقول هو دائماً..

- أحب أهلي كثيرًا.. أعشق ريحهم وذكرهم، وأتمنى من الله دائمًا أن لا يفجعني بأحدهم في حياتي، أو أن أخسر أحدهم لأي سبب كان، هذا وحده سيكون مقتلي.. كل ما أريده هو أن أستطيع ممارسة الاختلاف معهم بكل المحبة؟

قضى أيامًا ممتعةً في القرية بعد طول انشغالٍ في دمشق.. زار فيها الأقارب والجيران ورفاق الطفولة والشباب، جدد الولاء لذكرياته وكل قديمه.. حتى أتى موعد الرحيل من جديد، وجد جدّه وأباه ينحيان به جانبًا، ويحدثانه بجديّة لم يرها بهذه القوة من قبل:

- انظر يا ولدي.. ساءنا كثيرًا ما أنت فيه من حالٍ منذ مدةٍ طويلةٍ، ولكنا كنا نعوّل على تفهّمك لاحقًا، وعودتك إلى رشك، واستيعابك لخطورة ما تفكر فيه..

قال هذا أبو غانم، ومن ثم ترك دفّة القيادة للجدد ليكمل:

- انظر يا ولدي.. هذا الوضع الذي نحن فيه الآن نعمةٌ كبيرةٌ من الله ساقها لنا، كان سببها بعض الرجال العظماء الذين جعلوا لنا قدرًا ومكانةً، سيّدنا الموقف من خلالها، صرنا في القمة بعد أن كنّا عبيدًا ومأجورين للسلادة وأصحاب الملوك من الإقطاعيين الذين استثمرونا واستملكونا سلعا بلا ثمن، ذقنا الأمرين في عهد تولّيهم زمام الأمور.. اليوم يا ولدي أصبحنا السادة الأحرار، كلنا في خدمة بقاء هذا الحال، نتشبّث بمكاسبنا حتى بأظفرنا بكل ما أوتينا، هذا أمرٌ لا يقبل القسمة على اثنين.. هل تظنُّ أنّنا المتوحشون الذين نجور ونقسو على الآخرين؟ أغرّك أن وجدت لدى البعض ممن تظنهم أصدقاء لك وإخوةً ابتسامة طيبٍ أو كرم معاملٍ، فرحت تثق بالجميع وتسترسل في أوهامك التي تعيشها الآن؟ لا تتوهّم كثيرًا يا ولدي، معظم من

تراهم يفعلون هذا في الظاهر، ينتظرون حقيقةً أن نضعف أو نقع، ليلتهمونا ويقضون علينا، إن لم تكن الصياد القويّ يا ولدي.. فأعدّ نفسك لتكون الفريسة.. وآية فريسة.. لأنك لم تعش الحقائق جيداً من قبل ومن بعد كما عشناها، وربما لأنك أطيّب مما ينبغي ولم تتعرّض لاستغلال بساطتك من قبل الطّامعين بعد كما تعرّضنا، فإنك تحلم يا ولدي أحلاماً ورديةً فارغة.. هي أحلام الكتب والنظريات.. صدّقني لو تمكّنوا منّا في الثمانينيات ما كانوا ليبقوا على أيّماً حيّاً، لا صبيّاً ولا كبيراً، ولسبوا نساءنا.. واغتصبوهنّ ونكّلوا بنا وبهن.. صدّقني هذه تجربةٌ عشناها ودفعنا ثمنها الكثير من الدماء؟

- لكن هذه كلها كانت نتيجةً، وليست سبباً يا جدي، ما فعله البعض كان ردّة فعلٍ على سوء معاملةٍ، وكثيرٍ من القمع والاستبداد.. لم أسمع أنهم هاجمونا في بيوتنا أو اقتربوا من نساءنا.

- وهل كان ما فعلناه أصلاً إلا ردّة فعلٍ ودفاعاً عن الوجود؟ افهم يا أسدي.. أنت لم تعد صغيراً.. لكي تحافظ على وجودك هنا وأنت تمثل أقليةً مكروهةً تملك القوة لا بدّ لك أن تكون أكثر عدائيةً وبطشاً، حتى تهابك الأثرية الحاقدة التي عليك أن تتوقّع في آية لحظة ضعفٍ لكانه استُجهز عليك، لا تقل لي أنّ هذا الحكم لا ينطبق عليهم جميعاً.. نعم منهم الجيد ظاهراً، وقد يكون بريئاً فعلاً، وأنا شخصياً أودّ بعضهم.. لكن مع كثيرٍ من الحذر، ومع ذلك فهؤلاء أقلّة، بينما الغالبية العظمى منهم ينتظرون فرصةً للانقضاض علينا، ولو أظهروا لك غير ما يظنون.. نحن بالنسبة لهم أعداء مهما فعلنا، والمودة التي تراها.. معظمهم مرغمون على إظهارها بدافع رهبة السلطة..

اهتَرّ علي بعد هذا الحديث السّاخن كما لم يهتز من قبل.. في هذه اللحظات أدرك أن أربعةً من الأعوام انقضت دهرًا وضاعت تأثيراً، عاد إلى

مرَّبعه الأول من حيث انطلق، يضرب أخماسه في أسداسه من جديد، حرَّض ذلك بعبع الخوف الراقد من المجهول، أصبح التناقض في داخله أقوى من ذي قبل وأشد.. عاد بعد عدَّة أيامٍ ليلتحق بالخدمة، بعد أن أعدَّت له الولادة الكثير من الذخيرة الغذائية، مما يحب ويشتهي، حملها متَّجهاً إلى دمشق على وعدٍ مسبقٍ وانتظارٍ من أخيه، ليرافقه في رحلة الخدمة العسكرية.. لكنَّ شعوراً صارخاً فيه شدَّه ليتهرَّب في اليوم التالي، أراد أن يماطل في هذا اليوم، الأمر الذي أثار ريبة ومخاوف العميد غانم، لكنَّه أثر ألا يقف عشرة هذه المرَّة في وجهه ورغبته، أراد علي أن يرى أصحابه وزملاءه ويلتقيهم لقاء الوداع.. لم يكن قد فعل هذا قبل أن يغادر الكلية آخر مرَّة.. وأيضاً.. وهو الأهم.. لعلَّه ينال نظرةً من الحبيبة الحلم ليلي التي توقَّع أن يجدها في الكلية وفي ذات الموقع الذي اعتاد أن يسترق النظر إليها فيه، هي لم تنه بعدُ دراستها في الكلية، لديها بعض المواد المؤجَّلة.. كان له بعض ما أراد، بل أهمُّه.. حين وجدها كما توقَّع في ذات المكان، حشد لنفسه كل ما يمكن من جرأة.. واقترب منها وألقى عليها السلام، استأذنها بالجلوس معها، رغم أنها تجلس وحيدة.. الأمر الذي لم يحدث فيما سبق، أذنت له بعد قليل تردُّدٍ، لكنَّها لم تطل الجلوس، حيث تذرَّعت بوجوب التحاقها بزميلاتها في مكانٍ آخر، غادرت بكل تحفُّظٍ كما كانت قبيل ذلك، بقي هو يشيَّعها بنظراته متحسِّراً.. يمني النفس بأن يمتلك الجرأة الكافية.. ليتقرَّب منها أكثر؟

صباحٌ مشرقٌ جميلٌ ذلك الذي بدأ باتصالٍ هاتفيٍّ مبكرٍ.. جعل كمال يصحو مستغرباً ويسارع في ارتداء ثيابه، ويغادر المنزل على عجلٍ.. حتى بدون أن يتناول إفطاره المعتاد.. ولأنَّ صاحب الحاجة أوعنُّ فقد خرج لا يلوي على شيء.. كان مصدر المكالمة هو الدائرة الحكومية التي كان

قد وُعد بالعمل فيها، هي مديرية الثقافة التي ينتظر منها إتمام الموافقات للالتحاق بها كموظفٍ عاديٍّ في مكتبة.. ذلك ما كان ينتظره على أبعد حدٍّ.. لم يكن يتوقع منهم اتصالاً بعد أيامٍ قاتلةٍ من الانتظار والتأمل، كاد يفقد الأمل من تحقيق الأمر، نتيجة شعورٍ سيطر عليه بأن الوسطة في دمشق لم تفلح في تغيير واقعه الميؤوس منه، يحمل الحظَّ العاثر دائماً المسؤولة، وبالطبع أيضاً الوضع السيء الراهن في البلاد.. حين وصل كان بانتظاره الشخص الذي اتصل به مرَّحَّباً، يبدو عليه الكثير من الاهتمام، تولَّى مهمة إيصاله فوراً وبدون تحفُّظٍ إلى مكتب المدير العام الذي قام ورَّحَّب به قرب باب المكتب بابتسامةٍ أعرض من سابقتها الباهتة.. وترحيبٍ أكبر

- مرحبا بالأستاذ كمال.. لو تدري ماذا فعلت اليوم في المؤسسة؟

- من؟ أنا؟

- نعم.. أتت توصياتٌ خاصةٌ وعاجلةٌ من الوزارة بشأنك بالأمس مساءً، ومن سيادة الوزير شخصياً، ولولا الحرج لاتصلنا بك ليلاً، ولكن حصل خيراً وشرَّفَتنا اليوم.. لنشرب القهوة ونتحدث، وصلت كامل الموافقات الخاصة بموضوع توظيفك.. بما فيها الموافقة الأمنية..

جلس كمال مشدوهاً غير مصدِّق، لدرجة أنه لم يستطع أن يردَّ على الرجل.. فالسيد المدير العام بجلالة قدره يحدثه بودٍّ مبالغٍ به، بعد أن طلبه شخصياً، واستقبله استقبال المسؤولين.. ثم يبلغه باهتمام الوزير شخصياً بقضيته.. فأَيُّ حالٍ هذه؟ وكيف له أن يستوعب الأمر؟..

- انظر يا أستاذ كمال لقد أصدرنا قرار تعيينك رسمياً منذ الساعة، وهذه هي أوراق تعيينك جاهزةً أمامي، بإمكانك مباشرة دواملك منذ اللحظة لو

أردت، وسيقوم السيد مدير شؤون الموظفين بإجراءات تسلمك العمل،
وتسليمك مكتبك الخاص..

- عفواً؟؟؟ مكتبتي الخاص؟

- نعم.. أعتذر لم أقل لك.. مهمتك في المؤسسة ستكون مبدئياً معاون
المدير المالي ورئيس لجنة المبيعات.. أنت تعلم أنه لا يمكن مباشرة أن
تكون مدير قسم، لعدم وجود خبرة وظيفية بعد، لكنني أعدك بأنك ستكون
في القريب العاجل.. بالنسبة للسيارة فقد أمرت لك بواحدة من سيارات
المؤسسة الموجودة حالياً، وهي ذات نوعية جيدة وبحالة مقبولة، أرسلناها
إلى الورشة، وسنقوم بإجراء فحص سريع لها خلال ساعات.. أعلم أنها
ليست مناسبة تماماً لموقعك الوظيفي، ولكن اعتبرها أيضاً حالة مؤقتة،
ريثما تجهز لك أفضل منها من السيارات الجديدة القادمة إلى المديرية
قريباً.. بالمناسبة هل لديك شهادة قيادة أم نفرز لك سائقاً؟

- نعم لدي شهادة

- وهل تجيد القيادة؟

قال المدير هذا ونظر إلى وجه كمال الذي استهجن سؤاله بادئ الأمر، ثم
أصدر المدير ضحكة طويلة مجلجلة

- عذراً منك فأنت تعلم أن الحاصل على شهادة قيادة في البلد.. ليس من
الضروري أن يكون سائقاً فعلاً؟

- نعم صدقت والله.. (وهو يتسم) هذا صحيح يا أستاذ، لكن أنا والحمد
لله لدي الشهادة وأجيد القيادة تماماً

- إذاً فلتتم إجراءات تسليمك السيارة فور انتهائك من تسليم مكتبك
وصلاحياتك.. وفقك الله.. أرجو لك في مديريتنا أوقاتاً طيبة..

أيُّ سعدٍ هذا الذي تلقَّفَ كمالٌ أخيراً واحتواه في أحضانه؟ وأيُّ وضعٍ مفاجئٍ لم يكنْ إلى ما قبل ساعاتٍ يجرؤُ على مجردِ تخيُّله؟؟ لا بد أنه يحلم.. أو هكذا خيَّلَ إليه؟

تمَّت الإجراءات بسرعةٍ ويسرٍ، أمضى كمالٌ يومه الوظيفي الأول بإتمام الإجراءات وتسلمه لمكتبه المريح الواسع، تسلَّم سيارته بعد أن تمَّت معاينتها والتأكد من صلاحيتها للتنقل وتعبئتها بالوقود اللازم.. لم يردْ كمالٌ أن يتصل بأهله خلال هذه الفترة رغبةً منه بمفاجأتهم بجديده المذهل، احتفظ لهم ولغيرهم بفرصة الشعور به حين يغادر المديرية باتجاه الحي والبيت.. توجَّه كمالٌ بسيارته الجميلة إلى البيت، وفي ذهنه أمرٌ فوريٌّ مهمٌّ وعاجلٌ عليه أن ينجزه قبل وصوله، سيكون موقع تحقيقه بالقرب من المنزل.. هناك رسالةٌ صارخةٌ هذه المرَّة بخلاف سابقتها.. يريد إيصالها اليوم بالتحديد وفي هذه الساعة، أراد أن تراه سُمُورة.. حلم حياته المستقبلي.. وهو يركن السيارة في الحيِّ قبل أن يدخل بيته، ربما أراد التفاخر والتباهي أمام عيون جميلته، أو ربما أراد أن يوصل لها ما مفاده: أنني العريس المنتظر القادم.. وقد أصبح كل شيء جاهزاً لإتمام هذا الحلم، استثمر كمالٌ لتحقيق هذا الغرض جميع الأصوات الممكنة قبيل ركنه السيارة في جانب الطريق ليلفت انتباه سميرة، ما أهمُّه في هذه اللحظات رغم حرصه عادةً على الظهور أمام الناس في أفضل وجه، أن يكون مصدر إزعاج للجميع.. وقد تمَّ له في النهاية ما سعى وأراد.. خرجت أميرته إلى الشرفة لتستطلع مثل غيرها عن مصدر الضوضاء التي سبَّبتها سيارة كمال، أثارت حركته موجةً من التذمُّر لدى الجيران في المنطقة تبدَّت في خروج الكثيرين إلى شرفات منازلهم يستطلعون متوتِّرين، خاصةً وأنَّ المكان من الضواحي الهادئة في أطراف المدينة، والد سميرة من بين الذين خرجوا

على أثر الضوضاء مستطلعين، وجد أن كمال هو المسبب.. هو ممن يحترمون هذا الشاب ويحبونه، ابتسم.. وأشار بيديه إلى كمال مستفهمًا بلغة الإشارة.

- أعتذر يا عماه منكم من الجميع.. لم أرّد أن أزعج أحدًا، ولكنني فعلت ذلك والله عن غير قصد..

- لا عليك يا كمال.. مباركة السيارة الجديدة.. متّعك الله بها، ووقاك من شرّها إن شاء الله يا ولدي..

- بارك الله فيك يا عم.. هي في الحقيقة سيارتي الوظيفية، استلمتها من مكان عملي الجديد اليوم، باشرتُ دوامي اليوم في مديرية الثقافة كنائب للمدير المالي، ورئيس للجنة المشتريات في المديرية..

- ما شاء الله.. تبارك الله.. هنّاك الله بعملك ووفقك في حياتك..
كان هذا الحوار على مشهدٍ وسمِعَ سميرة التي أقرّ حالها بأنها تلقت الرسالة الصارخة الأهمّ اليوم براحةٍ وتفاؤلٍ ظاهرين، فهمتُ مراده، كما كانت تفهم رسائله الصامته منذ سيندون أن يقولها.. بادلته التجاذب.. وقَدّمت من خلال ابتسامتها ردًّا أوليًا مبشّرًا..

كان لسان حاله اليوم يقول:

- فقط أردتُ أن تعرفي يا فتاتي.. أنني الآن أستطيع بكل جرأة وقوّة.. بملء فمي وقلبي أن أطلبك شريكةً للعمر القادم، أنا الآن أقوى وأكثر استعدادًا.. فلترّيني يا أميري الحسنة كما أردتُ أن أكون أمامك، ظلتُ أختبئ خلف صمتي خجلاً منك لسنين، أدعو الله فيها أن يوفّقني إلى مثل هذا.. أن أكون سبّاقًا قبل أن تسرقك أيدي الطالبين؟ الآن فقط أحسستُ بمذاق المودّة الحقيقية التي أكنّها لك، وقد كتمتها حبيسة أضلعي، راجيًا

أن أنال يوماً فرصة هذا الاستعراض، ونشوة الاستمتاع به من خلال رضى عينيك الجميلتين.. أجزم الآن فقط أنك كنت تنتظرين مني هذه المبادرة منذ زمنٍ طويل.. وقد طال انتظارك.. لكنني أخيراً فعلت؟ ها أنا آتٍ.. هيا أشرعي لفارسك القادم أبواب لهفتك وقبولك.. وأبدي له ما كان يحصي الليالي والساعات والدقائق.. ليلقاه في حضرة جمالك ذات يقين؟

تفتّحت لدى كمال كل جروح الرغبة الحبيسة والانتظار، وامتزج الحزن والفرح.. بنشوة الانتصار، في لحظةٍ ظل ينتظرها منذ أمدٍ طويل، هو يعلم علم اليقين أنه لو طلبها للزواج قبل ذلك فلن تمنع، ولا حتى أفراد عائلتها جميعاً، لكنه أثر أن يتقدّم لخطبتها بوضعٍ مستقرٍّ بثقةٍ أكبر.. تحقّق له اليوم جزءٌ كبيرٌ مما كان يحلم ويتخيّل، كان هذا الجزء هو ابتسامة قبولٍ ونظرة مباركةٍ ارتسما على محيّا سميرة، بإشراقة وجهٍ زادته جمالاً وجاذبية؟

في البيت كان الجميع بانتظاره على أحرّ من الجمر، ليخبرهم بما حصل معه، حيث أنه خرج على إثر اتصالٍ في الصباح، ومازالوا ينتظرون خبراً منه.. زادهم قلقاً حين لم يرد على اتصالاتهم، وخاصةً والدته.. التي صبرت طويلاً لترى وليدها المدلّل الوحيد يحقّق أحلامه، هم الوحيدون ربما الذين لم يخرجوا على إثر ضوضاء سيارة كمال.. فلجأ إلى إثارة ضوضاءٍ مختلفةٍ بالطّرق على باب البيت بقوة، أخرج الجميع بما فيهم الوالد الذي كان قد أعدّ العدة وتجهّز ليمارس مشواره المعتاد اليومي. كانت فرحةً عارمةً للجميع، واحتفاليةً كبيرةً أقامتها العائلة بالتحوّل الإيجابي المفاجئ في حياة كمال، انتهت بالاستعداد والتخطيط لطلب العروس والعرس المتوقّع القريب.. ظلّ الوالد المتوجّس يقف في المنتصف.. يحاول أن يبدي فرحه وتشجيعه لابنه الحبيب، دون أن يصرّح بعدم الرضى عن الطريقة التي حصل بها كمال على وظيفته، ومدى أحقيته بها.. ومآل هذا الموضوع في المستقبل..

لطالما أدركتُ العائلة ما يدور بذهن كمال، وما يعترى قلبه من ودٍّ ورغبةٍ لسميرة، حاولوا مرارًا أن يدفعوه لخطبتها، بمباركةٍ منهم ودعم كبيرين.. لكنَّه كان يأنف عن فعل هذا دائمًا، ويعلّل ذلك بعدم قدرته الحالية على تبني مشروع الزواج.. أما اليوم.. فهو وبكل همّةٍ وحيويةٍ يحرض أهله على الإسراع بإجراءات طلب العروس، والتجهيز لما بعد ذلك.. لم يؤجّل مبادرته هذه المرّة لحظةً واحدة؟

في مساء اليوم ذاته كان يختلي بصديقه حامد شقيق العروس المنتظرة، ويطلب منه أن يسأل أهله عن القبول من حيث المبدأ.. والأهم سؤالها هي حتى لا يضطرّ للوقوع وأهله لاحقًا بالخرج فيما لو كانت هي أو أهلها رافضين للفكرة من حيث الأساس.. رغم استبعاده لهذا الاحتمال بعد كل المؤشّرات التي طالما أبدتها.. ووصلته من خلالها رسائل انتظارها له، وكما كان يحدثه قلبه الذي استمدّ تفاؤله من عيون سميرة، والتي كادت تنطق بموافقتها منذ عهدٍ طويل..

جاءه ردٌّ إيجابيٌّ سريعٌ.. تمّت على إثره إجراءات الخطوبة باجتماع العائلتين على الفرح والأمل.. والاستعداد للمرحلة التالية من حياة كمال وعروسه المقبلة...؟



(٦)

لحمٌ وعصب

ليس كلُّ شيءٍ في الحقيقة كما يبدو عليه.. فكم من العيونِ
الجميلة تحيلُ الأحياء إلى القبور.. وكم من العيونِ القبيحة قد
تهدي الضال إلى النور..

الضميرُ واحدٌ غناء ونهرٌ شفيف.. والقيمُ الحميدة زرعُ
الحلال بين..... والحرام بين، والرمادية حالةٌ تزينيةٌ فاشلة
فقد شوّهت الأبيض.. وما أفلحت في تجميل الأسود!

اليوم هو الموعد المنتظر لوصول هادية وعثمان من السفر الذي طال
لشهور، أثمر في النهاية، وتحسّن وضع المريضة إلى حدٍّ كبير، أصبح من
السهولة بوسائل بسيطةٍ وعن طريق بعض الإجراءات والأدوية السيطرة على
حالتها الصحية، بعد نجاح التدخل الطبي في المشفى الفرنسي على أيدي
أطباء متمرسين بهذا النوع من الحالات النادرة.. قضت وقتاً ممتعاً في ضيافة
السيدة التي لم تقصّر وعائلتها أبداً في جعل هذه المدة الطويلة فترة علاجٍ
واستجمام وتسوّقٍ لم تحلم هادية بممارسته قط.. عثمان أيضاً الذي كانت
له رعايةٌ خاصةٌ عوّضته عن حرمان السنوات الفائتة من عمره، استمتع وقضى
في فرنسا أياماً جميلةً مترعةً بالرعاية والتسلية والألعاب، لكنهما مع ذلك كانا
يتربّان موعد السفر بكل شوقٍ وحنينٍ لثابت وللوطن والأحبة.. ثابت الذي

اشتاق لهما كثيراً، كان يؤمل نفسه بعودتهما قبل انشغاله بالانخراط في الدورة العسكرية المكثفة التي ستبدأ قريباً، ليتسنى له أن يراهما أطول مدة ممكنة.. الأسبوعان المقرَّران لهذه الدورة كما سمع من أحد الأشخاص العارفين.. لن يتمكن فيهما مطلقاً من المغادرة، هذا كان سبباً آخر ملحاً لاستعجاله عودتهما، لتستلم هادية مهامها مع العجوز في القصر على الأقل.. وتخفف عبء غيابه؟ كان له ولهما ما أرادوا، التقى الجميع في المطار في مشهد استقبالٍ حافلٍ بالعواطف بين الوالد والولد والتي تأججت طوال غيابهما، هادية المسكينة الطيبة المشتاقة جداً لزوجها، وللعجوز التي تحبها.. كان بمقدورها ومن النظرة الأولى أن تستشعر وجود تغييراتٍ كبيرةٍ في شكل ثابت وسلوكه ومشاعره، لم تفكر في أسبابها كثيراً رغم استغرابها، ولم يخطر ببالها أبداً أن تحيله التحوّل عاطفيّ باتجاه امرأةٍ أخرى، فهذا آخر وأبعد ما قد يصل له خيالها، وفق ما تعرفه عن ثابت وخبرتها به.. انتظرت أن تكشف لها قادمات الأيام أسرار ما أحسّت به.. كان لقاءً حميمياً حارّاً أيضاً ذلك الذي جمع العائدين بالعجوز، والعاملين في بيتها الكبير.. لعلّ السيدة الكبيرة كانت فيه أكثر السعداء، رغم ما تعانیه في الفترة الأخيرة من الآلام وتراجع عام في صحتها، احتفت بهما كثيراً وهي تحبس في داخلها حزناً لا تريد أن تظهره للمسكينة.. لما آلت إليه أمور زوجها الحبيب؟

لم يعكّر صفو لقاء العائلة في البداية بعد فرقةٍ طويلةٍ، سوى بعض تصرّفاتٍ من ثابت مريبةٍ، مثل تلقّيه للعديد من الاتصالات ورسائل الجوال، يتنحّى على إثر تلقّيها جانباً في زاويةٍ ما ليحجب عليها، بما يبدو عليه من تحفّظٍ ومحاولة إخفاءٍ لأصحابها. حين تسأله هادية وكان هذا دائماً دائماً فيما مضى عن المتصل وأهمية الاتصال وأسبابه.. كان يتلوّى نزقاً ويتذمّر، ويتهرّب

من الإجابة، أو يُلْفَق لها إجابةٌ مُبهمَةٌ ليسكتها، عدا عن ملاحظتها لشروده الطويل الدائم، علمت منه في الليلة السابقة عن مشروع الخدمة العسكرية القريب، وعن المدبّرات لهذا الأمر، كان ذلك قد أثار حفيظتها بعض الشيء، وأكثرت عليه من الأسئلة حوله، بينما كان يمارس بالمقابل فنون التحايل بالرُّدود والهرب من المواجهة، كل ذلك حدث قبل أن يتأتق ويتعطرَّ ويغادر إلى جهةٍ مجهولةٍ لساعاتٍ.. ويعود في ساعةٍ متأخرةٍ بحالةٍ غير عاديةٍ..

- ثابت

- نعم

- أريد أن أسألك واعذرني على سؤالٍ.. تخرج من فمك في هذه الأيام رائحةٌ كريهةٌ.. تذكّرني برائحة الفم بعد الخروج من عيادة طبيب أسنان.. ما سببها؟

لم تكن هادية تتصنّع بسؤالها، هي كما تبدو بحق وبكل تلقائية لا تميّز رائحة المشروبات الكحولية، رغم أنها عاشت مدّة في أوروبا مع عائلةٍ مسيحيةٍ، ليس لديها مشكلةٌ مع تناولها، ولم يكن ممكناً لها رغم كل ما لاحظته وتسأل عنه.. أن تتجرّأ على مجرد التفكير بمنكرٍ قد يتناوله زوجها.. هي تعرف ثابت وأخلاقياته، وثباته على قيمه، فقد كان حتى اللحظة.. ما زال بالنسبة لها هرمًا، لا يمكن المساس بهيته وصلابته.. فكيف تفكر بغير هذا؟ - نامي يا امرأة الآن.. لا تكثري من الأسئلة الفارغة.. سأقول لك في الصباح.

أدار ظهره ونام.. يا لها من صدمةٍ وخيبة أملٍ من طريقة ردِّ حطّمت هادية، وأبكتها بحرقةٍ؟.. هذه هي الليلة الثالثة للقائهما بعد غيابٍ طويلٍ، لا تجد منه لهفةً أو حميميةً كانت تنتظرها من زوجها الحبيب، ناهيك عن غرابة سلوكه وحرركاته.. لم يكن ثابت على استعدادٍ حاليًا لمواجهتها، أخذ يتهرّب منها

ومن النظر في عينيها، حتى لا يضطر للبوح بما يعتريه.. كان في تهرُّبه يزداد توغُّلاً في الكشف عن نفسه الجانية في حرم المسكينة التي بدأت تتلمَّس مصعوقةً حقيقة الأمر بدخول بواذر الظن إلى نفسها كلما مرَّ الوقت.. في الطرف الثاني من البيت كانت العجوز التي شهدت تقلُّبات ثابت على نيران فاتنة وعودته الأخيرة إلى أحضانها، تعيش حالةً ثقيلاً من الحزن والاكتئاب والحرج أيضاً خشية أن تربكها أسئلة هادية وريبتها التي بدأت تتوضَّح أكثر بحسَّها العفوي النقي، وتصرُّفات ثابت المفضوحة..

سبَّب كل هذا حالةً عامةً غير مريحة في البيت قبل انطلاق ثابت إلى دورته في إحدى ضواحي دمشق، مودَّعاً الجميع، ومؤتمناً هادية وباقي العاملين على خدمة العجوز كما ينبغي، بعد أن وفرَّ لهم كافة متطلبات البيت لمدة طويلة.. تزيد عن أسبوعي الغياب.

بانظاره عند باب الفرع، كان يقف أحد عناصر مرافقة اللواء الذي أدخله إلى داخل المبنى الكبير، وقام بإجراء بعض المعاملات الخاصة به، جهَّز له كتاباً يتوجَّه به إلى معسكرٍ تجرَى به الدورات التدريبية، قبل أن يسمح له بمقابلة اللواء لمدَّة قصيرة، خصَّ بها اللواء ثابتبرغم حجم انشغاله الكبير وضيوفه الذين لا ينقطعون عن الحضور.. اللواء هنا لم يكن هو الذي التقاه ذات سمر، رَحَّب به بتحفُّظٍ وطلب منه أن يكون عند حسن الظنِّ به، وطمأنه على أن دورته قد يجدها ثابت صعبةً قليلاً.. إلا أنها ضروريةٌ لتهيئته للقادم من الأيام، خاصةً أنه سيكون أحد عناصر مكتب اللواء شخصياً، وذلك يستلزم بالضرورة استعداداً بدنياً ونفسياً جيداً، كما أكَّد له أنه أوصى به الجميع، وأنه بانظاره بعد أسبوعين.. لياشر مهامه في الفرع..

من هناك سارت به سيارةٌ من الفرع باتجاه مكان الدورة، حاملاً في يده حقيبته التي امتلأت بكل ما يمكن أن يلزمه من ألبسٍ وحاجيات.. ونفسه

المتوجّسة بذور حياةٍ جديدةٍ مختلفة.. تمّ تسليم ثابت إلى موقع الدورة، استقبله رجلٌ قاسٍ حديديّ، ضخّم البدن، أجشُّ الصوت.. عرفه فيما بعد على أنه الضابط المناوب المباشر، والمسؤول عن تدريبهم، اقتاده أمامه مسافةً طويلةً، قبل أن يأمره بالاتجاه نحو مستودعٍ يستلم حاجياته العسكرية من لباسٍ وأغطيةٍ وفراش، ثم أشار له إلى مهجعٍ كبيرٍ.. دخله فوجده عبارةً عن قاعةٍ طويلةٍ، وعلى جانبيها الكثير من الأسرّة الحديدية ذات الطوابق، وجد الكثيرين من زملائه قد سبقوه.. كلُّ اختار موقعه والتزم سريره، بانتظار اكتمال اجتماع العناصر وأوامر القادة والمدربين..

وجد نفسه وهو ينقلُ نظره باحثاً عن مكانٍ مناسبٍ.. بمواجهة شابٍ أشقرٍ هاديٍّ يرتّب سريره، مما يوحي بأنه قد قدّم للتوّ قبله، فوق سرير الشاب الذي اختاره كان هناك طابقيّ ثانٍ، أعجب ثابت فأراد، لعلّوه وقربه من إحدى نوافذ المهجع الكبير، سلّم على الشاب بتحفظٍ، وألقى التحية على الجميع، استأذن باختياره لسريره خشية أن يكون محجوزاً لغيره، وباشر بوضع حاجياته، أخذاً موقعهم مثل الجميع صامتاً.. بانتظار ما سيصدر من أوامر..

بعد ساعاتٍ من الانتظار، اكتمل فيما يبدو نصاب الملتحقين بالدورة، فهم من خلال بعض الهمسات من هنا وهناك، أن معظم المشاركين من أصحاب الشهادات الجامعية.. الملاحظة الثانية التي وصلتته أن معظم الموجودين من أهل السّاحل، كان هذا لا يستلزم كثير ملاحظة.. مجرد سماع اللهجة المميّزة لهم كفاه.. لم يجد بداً من التحدّث مع جاره محاولاً بناء جسرٍ أوليٍّ للتعارف، سأله بصوتٍ خافتٍ:

- ما الاسم الكريم؟

- أنا علي من اللاذقية

- تَشَرَّفْتُ بمعرفتك.. وأنا ثابت من ريف حلب

-مرحبًا بك أخ ثابت.. هل لديك فرزٌ مسبق؟

- لم أفهم

- يعني هل أنت مُفرزٌ هنا لصالح جهةٍ معينة؟ هل تعرف أين ستخدم بعد الدورة؟

-نعم في مكتب اللواء محفوظ

-والله؟

وهنا ضحك الشاب بصوتٍ جليٍّ، ولم يخفِ شعوره بالمفاجأة..

- أنا أيضًا مفرزٌ لذات الفرع في مكتب العميد غانم.. هل تصدِّق؟ أنا شقيقه.. مرحبًا بالزميل

ضحكا معًا بعد أن تصافحا.. كانت هذه أولى لحظات لقاء ثابت بعلي..
هنا أتاهاهم صوتٌ قويٌّ هزَّ أركان المهجع صارخًا:

- انتبه.. الجميع (بالشورت) فقط إلى الساحة

كان اليوم الأول ثقيلًا مؤلمًا ومرهقًا لهؤلاء الشباب.. مليئًا بالرياضة والجهد والضغط والعقوبات التدريبية.. البرد شديدٌ ليلًا لدرجة أن ثابت الذي كان يتباهى يومًا بتحمُّله له، كان يرتجف وزملاءه.. وهم يصطفون عُراة الصدور، المدرب يوبِّخهم، ويلقنهم درسًا في التحمُّل والصبر..

تلته ليلةٌ أشدُّ وأمرُّ على المتدربين، نقلت هؤلاء الشباب من عالمهم الحالم الهادئ الفوضوي.. إلى عالمٍ لم يألُفوه قط، أدرك الجميع أن أسبوعهم سيكون حافلًا قاسيًا..إلا أن الألفة التي نشأت مع رفيق السلاح علي قد خففت الكثير من الأعباء عن كاهل ثابت، أمست تجمعهم بقايا

الليل، وحكايات الحاضر والماضي.. وتبادل الهموم والتطلُّعات.. بدا أن هناك الكثير مما يجمعهما ويقربهما.. كلُّ منهما كان يلتحف البطَّانيات العسكرية.. ويهمس للآخر، وقد أطفئت الأنوار قسراً..

كان يُفترض بالجميع النوم.. استعداداً لاستيقاظٍ مبكرٍ في صباحٍ تدريبيٍّ جديدٍ، خلال يومين فقط كان كل واحدٍ منهم يعرف عن الآخر كلَّ شيءٍ تقريباً، نَمَتْ بينهما براعم صداقةٍ قويةٍ، لِمَا وجد كل منهما في رفيقه من أسس مشتركةٍ ونفْهُم.. ناهيك عن إعجاب كلِّ منهما بأخلاقيات الآخر، وحسن معاملته ودماثة خلقه..

أوشكت الدورة المكثَّفة الثقيلة على الانتهاء، تدرب الجميع فيها على فنون استخدام السلاح الفردي والقتال القريب والبعيد، وبعض المتفجرات الخفيفة، وأصول المداهمة والاعتقال.. حدثت حادثة خطيرة خلالها.. كادت أن تودي بحياة علي إثر خطأ فنيٍّ حينما كانوا يتدربون على القفز من خلال حلقاتٍ مشتعلة... فقد علقَت ثيابه بإحداها واشتعلت بالنيران، سارع ثابت إليه بجراةٍ ولهفةٍ وضمَّه بشكلٍ هستيريٍّ، وقلَّبه على الرمال حتى أطفأ النار بين جسده والرمل.. كان هذا سبباً في عقوبةٍ ليليةٍ ثقيلةٍ تلقاها ثابت لتصرُّفه هذا رغم نجاحه بإنقاذ زميله.. إذ إن تصرُّفه حسب رأي القادة غير مسؤولٍ كان من الممكن أن يؤذي كليهما.. وحده علي كان ممثناً جداً من حركة صديقه الجديد.. ولم ينسَ ذلك من ثابت؟

سمع وشاهد ثابت في هذه الدورة على قصر مدتها الكثير مما حرَّض لديه كوامن التفكير بكل ما عرفه وسمعه من والده والكثيرين، عن شراسة أساليب المخابرات في التدخُّل بأيِّ مكانٍ أو مع أيِّ أشخاصٍ عندما تقتضي الحاجة، كان التدريب جلُّه يركز على هذا.. مع العديد من الإرشادات والتأكيدات

حول وجوب تخلي كل فرد منهم عن خصوصياته النفسية والشخصية والأخلاقية السابقة، وطبي حياته المدنية السابقة، والانصياع الكامل لأوامر القادة دون تذمر أو تقاعس أو تقصير..

تخلل هذا أيضًا بعض ساعات التوجيه السياسي، التي اكتفى محاضروها بتلقين المتدربين على جملة من القواعد الأساسية، دون الحاجة لبذل الجهد الكافي والوقت في إقناع الجميع بها.. فقد أصبحت لدى الموجودين من مدربين ومتدربين بديهيات مقدسة مسلمًا بها دون أدنى تفكير أو محاكمة.. أهمها بالطبع خلود القائد الكبير وامتيازاته الإلهية، كونه من ذوي الاصطفاء والتفوق.. فكرًا وجسدًا وروحًا.. حيث من غير الممكن أن يجاريه أحد في حكمته وحنكته وقدراته الخارقة وسعة اطلاعه، ثم الولاء المطلق غير المشروط لهذا القائد الرمز الأوحد...

ولابد من بعض الولاءات الأخرى التي هي جزء من الحياة العسكرية المقبلة لتحقيق الغاية الأساس، والتي لها في أدبيات السياسة الخاصة مسميات كثيرة، تصب جميعًا في ذات النهر. ذلك النهر المقدس الذي لا مانع للحفاظ على قدسيته من أن يكلف كل الناس أي شيء، حتى أرواحهم.. هو بأدق التسميات التي يعرفها ثابت بباطنه وأقربها: الحفاظ على السلطة القائمة.. وكرسي الحكم؟

الغريب أن ثابت مع كل خلفيته المسبقة، وما يراه مطابقًا هنا لما اعتاد على سماعه.. لم يتذمر، ولم يدفعه كل هذا إلى الاعتقاد بغير ما يعلمونهم إياه ويريدون لهم أن يؤمنوا به.. سرعان ما أقنع نفسه بأن هذا أمرًا طبيعيًا لا غرابة فيه، وأن كل أنظمة الحكم في العالم يمكن أن تمارسه، وعليه.. مادام ضمن الخدمة الإلزامية أن يحترمه، ويعمل عليه مثل الآخرين.. في هذا مصلحة خاصة وعامة..

كان ثابت المعبأ مسبقاً في داخل فكره ولا شعوره بأفكار والده والبيئة المحيطة حول الدولة والقائمين عليها.. يحاول كلما تذكر شيئاً مما حفظه عن والده أو رسخ في ذهنه.. أن يشيح بوجه ضميره ليتخطأه، وهو يعلم أن والده لم يعرف حتى الآن بالتحاقه بهذا السلك.. يمكنه تخيل ما يمكن أن تكون ردّة فعله تجاهه لو علم..

يوماً بعد يوم وبسرعة ملفتة توثقت عُرى العلاقة بين ثابت وعلي، حتى أحسَّ كلُّ منهما أنه يعرف الآخر منذ سنين طويلة، مما دفع الشابين للاعتقاد بأن الله اختار لهما أن يكونا معاً هنا وفي الإدارة ذاتها، لتكون مفاجأة الخدمة الجميلة لهما..

انتهت الدورة أخيراً تاركةً أثراً جميلاً في نفسي علي وثابت، رغم صعوبة ما وجد الجميع بها من الالتزام الكامل مع الجهد المضاعف.. ودّع الجميع بعضهم من خلال حفل تخرُّج بسيط، ردّدوا فيه نشيد الوطن، وشعارات التمجيد للقائد.. والتأكيد على الإخلاص المطلق.. وحيّوا العلم الوطني وأقسموا على الحفاظ على أمن الوطن والمواطنين بكل ما يمتلكون.. بيد أن وداع ثابت لعلّي كان مؤقتاً على أمل اللقاء بعد إجازة قصيرة لن تتعدى يوماً واحداً وبقيّة هذا اليوم، يلتقيان بعده في الفرع.... ليبدأ معاً رحلة الخدمة المشتركة..

كان يوماً دافئاً جميلاً لعلّي الذي استوعب الوضع الجديد وهضمه، وقضى ليلته ما بين بيت أخيه.. وجامعة تناديه ذكرياتها التي مازالت ساخنة..

بينما كان يوماً بارداً لثابت حمل المزيد من توسّع الفجوة بينه وبين المسكينة هادية، وجد في فترة غيابه أن فاتتة.. لم تقصّر في توصيل رسالة مدمّرة إلى هادية من خلال تصرّفاتِها وزياراتِها المتعدّدة واتصالاتِها، وسؤالها

عن ثابت، وما أبدته من لهفةٍ حيال أخباره، بالإضافة لما تعمّدت أن ترويه عما جرى بينهما في فترة غياب هادية للسيدة العجوز لتُسمع هادية بشكلٍ غير مباشرٍ كل التفاصيل.. باستثناء ما هو صريحٌ فج.. كل هذا كان كافياً لأن يتفجّر الموقف بين ثابت وزوجته، ويحضر مشهد المواجهة الذي تنبأ بحدوثه ثابت أجلاً أم عاجلاً.. ظلّ يحاول أن يتجنّب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً..

- ما الذي يجري يا أبا عثمان؟

- عمّ تتحدثين؟

- أنت تعرف عمّ أتحدث.. ولا أعتقد أنك تظنّني بلهاء إلى هذه الدرجة.. وأني سأبقى مغمضة العينين..

- أنا لم أتهمك يوماً بالبله، معاذ الله، وأعلم أنك كنت ستعلمين ذلك وتدرينه، وما كنت لأخبيّ أمراً كهذا طوال العمر.. أرجو أن تنصتي إليّ جيداً.. لتحدّث لو سمحت بهدوءٍ ووعيٍ

- ماذا؟ وعي وإدراك وهدوء؟ إن هذا يضحكني حقاً؟

لكن هادية التي بقيت أياماً متوتّرة لا تنام، ولا يهدأ هدير شلال دموعها.. لم تكن فعلاً بحالةٍ تسمح لها بالسخرية.. كانت كالطير يرقص مذبحاً، تريد أن تسمع ما يمكن أن يبقى لها بقعة أمل ولو صغيرة بأنّ ما فكرت فيه وما لاحظته ووصلها.. غير صحيح، أو أنها حالة مؤقتة طارئة أصابت ثابت وهي بطور الزوال..

مسار الحديث لم يخدمها بهذا الاتجاه أبداً، مما زاد من صدمتها بالرجل الذي كان له في وجدانها صرحٌ كبيرٌ راسخٌ متّصفٌ بالنزاهة والثبات، هي تجده الآن من وجهة نظرها في طور السقوط المهين؟

- انظري يا امرأة.. يشهد الله أنني أودُّك كثيرًا وأحترمك، لم أفكر يومًا بأن أحزنك أو أغضبك.. وأنت تعلمين ما فعلته لأجلك.. وهذا واجبي وماكنت مضطرًا.

- وهل تقبض ثمن ما فعلته لأجلي اليوم بهذا؟

- أرجوك دعيني أكمل حديثي باختصارٍ ووضوحٍ ودون موارد.. نعم.. أنا أحببتُ فاتنة وتعلّق قلبي بها دون إذنٍ مني.. هكذا وجدت نفسي تميل إليها.. لا لأنك سيئةٌ، ولا لأن لي نوايا مسبقةً بالغدر.. فقط هو أمرٌ خارج سيطرة العقل والمنطق، وقوانين الصواب والخطأ.. أعلم أنك تفكرين بأن هذا ليس ثابت الذي عرفته، وليست هذه شيمه، لكني أعود فأقول لك.. هو ليس خيارًا.. بل..

- انظر يا أبا عثمان.. لقد هيأت نفسي منذ الليلة الفائتة، وبعد كثير حزنٍ كي لا أبكي اليوم ولا أغضب.. سأختصر عليك الطريق، وأعفيك من حرج مواصلة الحديث في الأمر وأعفي نفسي المجروحة منه.. هذا من حقك كرجل، ومن حقّي أيضًا أن أحافظ على كرامتي، إرثي الوحيد وكل ما أملك.. لك أن تفعل ما تريد، أنا سأخذ عثمان وأذهب إلى القرية لنعيش هناك.. لم يعد لنا هنا متسعٌ ولا قدرة..

إن كنت تريدنا ستجدنا، وإلا فلك الشام ومن فيها، فانعم بها، وأفرح قلبك العاشق.. لا تنتظر مني أن أكون لك زوجةً بعد الآن طالما استمرت الحال على ما وصلنا إليه، لا أحرملك من رؤية ولدك أبدًا فهذا لك وقتما تريد.

- وأنا لا يمكنني أن أطلب منك ما لا تطيقين، ولن أردك عن مرادك، وسأبقى إلى جانبك في كل الظروف، وإن كنت أتمنى ألا أفقدكما.. لكن

بالله عليك سامحيني ولا تحقدي عليّ، لا تنسي أن ما بيننا كانت عشرة حاولت فيها قدر استطاعتي أن تكون على خير وودّ وسلام، كنت وستبين أم ابني الوحيد الغالي.. أوصيك بنفسك وبولندا خيرًا.. أرجوك استري ما رأيت مني، وحاولي أن تسامحيني..

-أدعُ هذا للأيام.. وأدعو الله لك بالهداية والرشاد ولي.. وأدعو لولندا بألا يكون هذا الذي يحصل سببًا في تدميره مستقبلًا.. واعلم.. أنني سأذهب فور وصولي إلى القرية إلى بيت أهلك، سأبقى هناك ما دمت على عصمتك.. إلى أن يشاء الله، وتعود لنا كما كنت.. أو تطلقني.

في أصعب حوارية يمكن أن يؤدّيها زوجٌ وزوجةٌ عاشا معًا سنين بحلوها ومرّها، لم يعكّر صفوها سوى المرض.. وقف الاثنان ينظران كل منهما للآخر بحسرة وحزن.. بكى كما لم يفعل من قبل، وحاول أن يسترد دمه فما أفلح.. وبكت رغم أنها حاولت أن تبرّ بما وعدت نفسها، وتمنع دموعها من الجريان.. ما استطاعت.. وعثمان نائم.. لا يدري ماذا ينتظره في صباح اليوم التالي..

وقفا أمام العجوز في الصباح، وكلّ منهما لم تشهد أجفانه النوم، أخبرها بنتيجة الحوار القصير المختزل كلامًا والثقل المديد مشاعرًا.. وقرارات الأمس، ولأنها كانت تتوقع ذلك مسبقًا.. اكتفت بإبداء الأسف والحزن، وإجراء محاولةٍ أخيرةٍ بإقناع هادية بالعدول عن قرار المغادرة.. حتى ولو بشكل مؤقت.. إلا أن الأمر سار على ما أرادت المسكينة التي حزمت أمرها وأغراضها وحاجيات ولدها.. وودّعت السيدة وأهل القصر.. وغادرت مأسوفًا عليها من الجميع؟

وقف ثابت مشدوهاً حزينًا.. ينتظر من العجوز أن تؤبّه، وأن تسخط عليه.. وربما فكر لحظتها في احتمال أن تطرده.. لكنّها لم تفعل، اكتفت

أيضًا بالنظر إليه نظرة عتابٍ قاسيةٍ، وبالبكاء على الابنة التي فقدتها اليوم، وأصبح من المستبعد عودتها إلى هذا البيت في وقتٍ قريب؟

فاجأ وصول هادية وعثمان الجميع في بيت أبي خالد، فلم يكن هناك حديثٌ مسبقٌ عن هذا رغم أن أم خالد كانت قد تحدّثت معهم هاتفياً قبل يومٍ واحدٍ فقط.. شكل وجه المرأة وسوء حالتها لا ينبئان بخير.. استقبلهما الجميع بعد طول غيابٍ بمحبّةٍ وشوقٍ.. ولكن مع الكثير من الريبة والظن..

- ماذا هناك يا أم خالد؟

سأل أبو خالد وسيوّل من الحيرة والخوف تتدفّق من نبرة سؤاله

- تقول لا شيء مهما سألتها.. والله أنا التي لم تعد تعلم شيئاً

- حاولي أن تفهمي منها بهدوء، لا داعي للضغط عليها.. من الواضح أن المسكينة لديها مشاكل، ونحن لم نصدّق بعد كيف شفيت من أمراضها والحمد لله..

- حاضر.. لن أضغط عليها.. سأدعها الآن لترتاح قليلاً، وسأكلّم ثابت

فلديه أيضًا الخبر اليقين

لم يجبُ ثابت على اتصال والدته.. فهو لم يكن قطّ أضعف موقفاً من اليوم في حياته.. جلس مع العجوز التي تأثّرت كثيراً، الوجوم يخيم على محيّاها.. والكثير من الحزن والحرج.. صمتت السيدة طويلاً لكنها مازالت محتقنةً لدرجة أنها أوشكت أن تنفجر غاضبةً في وجه ثابت، لولا أن محبته الكبيرة في قلبها، وتعلّقها به لدرجة الشعور بالحاجة الملحة له في حياتها.. منعها من ذلك

- ماذا أفعل الآن؟ كيف أنصرفت؟ من سيفهمني؟؟

- لا لأحد.. وهل كنت تنتظر أن تتحامق، وتكون سببًا بخراب مالطة..
تفرط بأهلك وعائلتك.. وعلى الآخرين أن يتفهموا حماقتك ورعونة
تصرفاتك؟

- أرجوك أنت لا تفعلي هذا أيضًا.. لم يبق لي في هذه الدنيا سواك..
أرجوك افهميني.. هذا الأمر لم أمتلك قراره، وأنت خير من يعلم أنني
حاولت كثيرًا وبصدق أن أتخلّى عن هذا الطريق، لكنني للأسف فشلت..
مهما حاولت.. لم أمتلك في حياتي حبًا حقيقيًا، نابعاً من رغبة نفسي المنزّهة
عن الغير.. كما اليوم.. فلم تستكثرون هذا علي؟

- ما يدريك يا ولدي أن هذا حبًا حقيقيًا، وعلى أي أساس صنفته؟ .. إن
هي إلفنة تصيب مراهقًا مثلك، وقد تعلّمتم معشر الرجال أن تحبوا كل ما
هو خارج العرف والقوانين، على مبدأ: كل ممنوع مرغوب..

- لا.. لا.. صدّقيني ليس الأمر كذلك، لست أنا من يفكر أن يقع في
الممنوع.. إنما لا أخفيك، ولن أخجل من التفسير لك.. حينما رأيته أول
مرّة هنا امتدّ ما بين عينيها وقلبي رابطًا جاذبًا لم أتمكن من مقاومة تأثيره،
وقد حبسني إليها بقوة خارج قدرات إرادتي.. شعورٌ جديد لم أعتده، ولم
أذوّقه فيما مضى..

أمضيتُ شبابي ما بين القرية والجامعة، لم تسعفني قيود حملتها يومًا في
أن أراهاق أو أتعلق بفتاة، حتى أننا في الجامعة كنا نقابل الكثير من الحسنات،
لم تثر فيّ نوازع الشغف للعلاقات أيّ منهن، لأنني كنت مبرمجًا مسبقًا على
حرمة الاقتراب أو التفكير من غير ما قدر الله لي كصبيب، رغم أنني كنت قد

تزوجت هادية عن غير رغبةٍ وبغير إرادتي.. كنت حينها لا أودُّها كما الآن.. هل تعلمين ؟ الكثير من رفاقي كانوا يراهنون علي، وينتظرون أن أقع، طال انتظارهم سنةً بعد أخرى.. وخسروا جميعهم الرهان..

في الوقت الذي ظننت نفسي أنني استعصمت لنفسي تمامًا، ولم يعد هناك أدنى خطرٍ يعرِّضني للسقوط في هذا الفخّ.. ظهرت فاتنة هنا كالصاعقة.. كالبرق الخاطف للأبصار.. يا إلهي.. لم تمنحني مجردَ فرصةٍ للتفكير والمحكمة.. لذلك تجدينني الآن أجاهر بحبها، وأسعى للزواج منها.. بما أعتقد أنه من حقِّي؟ كيف أفسر لك ما لا يُفسَّر؟.. هي مختلفةٌ عن كل نساء الأرض، كأنها خُلِقت لأجلي.. كانت تنتظرنني.. سحرها أصابني في مقتل، كان الأسبق من دفاعات خلفيتي الدينية والأخلاقية، صرت أرى فيها وبقربها مفاهيم مختلفة، لم أعرضها على ميزان الخطأ والصواب..

الآن أقف أمامك وكلِّي مؤمنٌ بأحقِّية ما ذهبتُ إليه.. لا أرى أنني مضطَّر للدفاع عن اختياري، أو حتى تفسيره أو تبريره.. إلا حين أدرك بذاكرة الخوف من العيب ما يمكن لأهلي ومحيطي أن يظنوا به.. ويذهبوا إليه.. هل أنا مضطَّر أن تتبعني التقاليد والأعراف مدى الحياة؟

- لا يا ولدي.. لست محتاجاً أن تفعل.. هي ستتبعك وإن لم تشأ.. ليس عندي ما أستطيع أن أعيذك أو أمنعك به.. لكنني أقول لك فقط وبحسب قيمي وخبرتي في الحياة، وما عرفته عنك وعن تربيتك وأخلاقك.. صدَّقني ما تقوم به ليس صحيحاً، وهادية المسكينة لا تستحقُّ هذا، ليس لأنك مقدَّم على خطيئة.. فما تفعله حقٌّ من حقوقك.. لكن الأهم ما سأقوله الآن.. أرجو أن لا يدفعك حبك المجنون إلى التفريط به، أو إيصاله لأصحابه..

فاتنة رغم علاقتي الطيبة بها وبأمها.. ليست المرأة التي تناسبك، ولا بيئتها، ولا تسألني أكثر في التفاصيل.. فلو حكمت عقلك وضميرك لأدركت

ذلك دون توضيح.. أما وأناى أحببتك كولدٍ لم أنجبهُ، فإنى أتمنى لك حظاً سعيداً، وتوفيقاً فى حياتك.. حيثما توجهت.. وكيفما اخترت..

- لا فائدة.. لن تفهمينى أنت أيضاً.. أنا عندما أحببتها لم أفكر، لم أحسبها وفق لغة القيم واختلافاتها وقواعدها.. ولن أفعل الآن.. لقد ملكت عليّ كل يقينى وعالمى، أرى من خلالها وأسمع وأشعر.. نعم.. قد أكون مخطئاً، ارتكبت جرماً عظيماً.. سيكلّفنى الكثير.. ولكن..

توتّر وارتبك وثار فى مكانه.. انهار ثابت للحظات.. احتقنت عيناه بالدموع، وغصّت فى حلقة الكلمات.. لم تجد العجز بداً من الشعور بالأسى لأجله.. شدّته باتجاه مقعدها مواسية.. وراحت هذه المرّة تشاركه البكاء.. وقبل أن يستفحل المشهد الدرامى أكثر.. استدركت الأمر، وعادت لممازحته، لتنسيه الموقف وتخرجه من دائرة الألم والتخبّط الذى يعيشه:

- لم تقل لى أيتها الماجن المراهق؟

- ماذا أقول؟

- هل ستسكين العروس الجديدة عندي هنا أيضاً؟

نظر إليها نظرةً رأت من خلالها قسمات وجهه التى اعتادت على رؤيتها سابقاً وقد استعادهها.. هدأت أوصاله، ردّ عليها بطريقة من تمّ استفزازه.. وبحركة استعراضية:

- وهل لديك اعتراضٌ يا سيدتي؟ طبعاً سأفعل.. إلى أين سأذهب بها؟ ومن يدري.. فقد نحتاج غرفتك مستقبلاً للعروس الثالثة..

ابتسما معاً.. وراح بعدها يوصلها إلى غرفتها، ويطمئن عليها كالعادة قبل أن يأوى إلى فراشه.. محاولاً النوم.. استعداداً لافتتاح أول أيام خدمته فى الفرع صباحاً..

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، الجمع مازال ساهراً في بيت أبي خالد.. قلقين ومنتظرين أن تبوح هادية بحكايتها التي تصر على كتمانها.. تقدّمت أم خالد وابنتها خالدة التي حضرت لدى سماعها بقدوم هادية وعثمان.. أقبلتا إلى أبي خالد.. بعدما استطاعتا أن يستنطقا هادية.. وعلى وجهيهما المصفرين آثار دموعٍ لم تجف بعد.. والكثير من التردّد والحيرة والحزن..

- ما الأمر يا امرأة.. أكاد أفقد صبري.. هلا أخبرتي ما القصة؟

- والله لا أعرف كيف أقول.. ومن أين أبدأ؟

قالت هذا أم خالدٍ ثم انفجرت بالبكاء، وهي التي كانت دائماً رمزاً للثبات أمام العواصف.. استغرقت في بكائها.. بينما نأت خالدة بوجهها تهرّباً من سؤالٍ محتملٍ لها؟

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. تحدثي أنت يا ابنتي.. ماذا هناك.. هل

ثابت بخير؟

قبل أن تجيب خالدة متلعثمةً بما لم تستطع أن تصوغه لوالدها.. استعادت أم خالد زمام المبادرة، واستجمعت نفسها وتنفّست قهراً:

- ليته لم يكن يا أبا خالد، لكان الأمر أسهل ربما.. لقد توقّعت ولم أصدق،

وما أزال حتى اللحظة لا أصدق أن ثابت ابننا قد وصل إلى هذا الحد..

أخذت تروي له كل ما نقلته عن هادية من مغامرات ثابت والتحاقه بسلك المخابرات وحبّه الجديد، وعلاقاته غير المألوفة، أبو خالد يتقلّى على جمر الألم والغضب والإحباط.. راح يقلّب كل ما سمع على صفيح ناره الكامنة، فقد كانت صدمةً كبيرةً مفاجئةً له.. رغم توقّعه أو إحساسه الداخلي الذي باح به غير مرّة..

كل أمرٍ قام به ثابت هو جريمةٌ نكراء تستحقُّ مقته، فكيف وقد جمع بين كل هذه المحرّمات، لعلَّ أصعبها على نفسه برغم صعوبة تقبُّله للمرأة الجديدة.. وما حدث لهادية.. هو التحاقه بالخدمة في أكبر فروع المخابرات برغبته وإرادته، دون أن يعود إليه أو يشاوره حتى.. راح بثباته المعهود وحزمه يحجر على مشاعر أبوته ويكتبها، ثم يطلق أخيراً صرخته المدوِّية..

- اعتباراً من هذه اللحظة لا يحاولنَّ أحدكم أن يحدثني، أو يفكر في مراجعتي بشأن هذا المدعو ثابت، ومن يفعل سأكسر قلبه.. هو ليس ابني ولا أعرفه، ولا أسمح له بالاقتراب من هنا، أو الاتصال بأي أحدٍ من العائلة.. ومن يخالف هذا.. فليعتبر نفسه في صفه؟

كان صاعقاً قرار أبي خالد للجميع ومؤلماً، رغم توقُّعهم لرْدّة فعله الممكنة.. لم يجرؤ أحدٌ بما فيهم أم خالد على الاعتراض أو مناقشته بالأمر.. لا بل على العكس فقد أيّدته ظاهراً.. ونبض أمومتها يحترق مع كل حرفٍ تُلي من حروف قرار الحرمان..

كان من نصيب خالد أن يكون رسول الخبر السيء إلى ثابت.. وناقل القرار الصارم، لم يتبقَّ غيره يمكنه أن يتواصل مع خالد بأمرٍ من الكبير.. فقط ليوصل له قراره، وإعلان النفير العام، وغضب وحزن وخيبة أمل العائلة.. غير أن خالدة الحنون لم تستطع الانتظار طويلاً.. حتى وإن كان الوقت متأخراً جداً، اتصلت بثابت وكانت تبكي رفقاً بشقيقها الحبيب، وب نفسها التي قد تُحرم من لقائه طويلاً، وبأهلها جميعاً..

لم يستطع ثابت السّاهر الحزين.. الذي لم يوقظه اتصالها قبيل الفجر.. أن يمتنع عن الرّد، رغم إحساسه الأكيد بأن هناك أخباراً سيئة ستأتيه من هناك.. حدّثته وهي تبكي ونقلت له ما جرى، ورغم توقُّعه لكل ما صدر، إلا أن ذلك

جرحه كثيرًا، وأحزنه طويلًا، خاصةً وأن أخته رجته كثيرًا، وتوسّلت إليه أن يعيد النظر في وضعه، ويحاول استدراك الوضع، وإصلاح ما يمكن إصلاحه مع الأهل، ولو على الأقل.. بإنهاء علاقته المرفوضة مع فاتنة.. لكن ذلك لم يكن في وارد خاطره إطلاقًا في هذا الوقت، مهما كانت درجة قرب الطالب منه.. ومهما بلغت الضغوط؟

- كم تمنيت يا أبي أن تكلمني وتسألني قبل أن تصدر حكمك غيبيًا.. وأن تتيح لي الفرصة لأدافع عن نفسي ومشاعري.. لا يهمني حتى ولو وبختني.. سأقبل لو صفعتني، على الأقل حتى أشعر بأني وقراري خرجنا من دائرة رضاك بعد أن استنفدنا جميع الفرص.. أعلم أنني أخطأت في عدم إخبارك في حينه بما أنا مقدّم عليه، ولكنك تعلم.. كما أعلم.. أن ردة فعلك ستكون واحدةً في الحاليتين..

يحدث طيف أبيه المائل وكأنه القاضي في محكمة أمامه.. لكنه وهو يتحسّر شاردًا حزينًا، كان يعلم علم اليقين أن شيئًا مما يفكر فيه.. لن يحصل أبدًا في عُرف أبي خالد.. وليس هذا هو المتوقع منه.. أمضى ما تبقى من ساعات الليل يصارع التفكير المضني والسهد وخيبة الأمل، متزوّدًا من وجه الفاتنة المائل أمامه، والذي أصبح أيقونة الضياء.. كلما احلولكت به الليالي، ومتحصّصًا بنشوة القوة التي يشعر بها جرّاء وضعه الجديد ضد الخسارة الكبيرة التي مُني بها بفقدانه لأوثق رابط ظلّطوال عمره يباهي به ويحافظ عليه.. هو رباط العائلة.. ظلّصاحبًا هكذا يجافيه مضجعه حتى حان موعد التحاقه بيومٍ يحمل منذ ساعاته الأولى سمات عهدٍ جديدٍ آخر؟

هذا هو اليوم الأول لثابت في الفرع، وهو يبدو فيه غريبًا ومستغربًا.. أربكه هذا الشعور الثقيل المحرج، مع ما يحمله في نفسه وجسده من مخلفات ليلة

عصية، جعله يشعر في لحظاته الأولى أنه كالتائه المنبوذ، وقف قرب مكتب اللواء واجمًا.. يواجه حرجه من الوضع الجديد..

لم يقطع وجومه سوى قدوم صديق الدورة علي.. الذي هجم وضمّ ثاب وعانقه، كأنه الحبيب الذي لم يره منذ سنين.. خفف هذا اللقاء الحميم كثيرًا من العبء عن ثابت، وأشعره بالأنس، كان قد فكر صباحًا قبل أن يأتي إلى الفرع بالاتصال بحبيبه كمال ليثّه همّه ويستشير، لولا شعوره الداخلي بأنه قد يكون مُدائنًا في هذه الأيام حتى لدى الغالي الأصيل، فألغى المشروع تحت ضغط الخجل..

خلال وقتٍ قصيرٍ من الانتظار.. وتبادل الحديث بين الصديقين الزميلين.. تمّ استقبال ثابت من قبل العميد غانم نائب رئيس الفرع بتحفيز وتركيزٍ من علي الذي حدّث أخاه كثيرًا عن ثابت وعلاقتهما المتميزة في الدورة، وما حصل بينهما ومعهما من أحداث، خصوصًا موقف إنقاذه إياه..

رحّب العميد كثيرًا بثابت وعامله معاملة الضيف المحترم.. وليس كصفّ ضابطٍ يخدم تحت إمرته، ساهم هذا المجلس الودّي لدقائق في رفع معنوياته، وبدء تعاطيه مع الواقع الجديد بروحٍ مختلفة طوت الماضي القريب، وأشرعت للقادم جميع انتباهه وتركيزه.. ثم انتقل إلى مكتب اللواء حيث تمّ اللقاء مع الضابط الذي يشغل منصب مدير مكتب اللواء.. هناك تمّ تلقينه دوره الجديد، وتسليمه سلاحه، وبعض المعدات مثل جهاز اللاسلكي والواقى من الرصاص، وغيرها من مستلزمات الخدمة.. ثم أتت الأوامر من اللواء شخصيًا بمباشرة موقعه الجديد.. وهو المرافق الأول للواء ورئيس مفرزة المرافقة، الأمر الذي يجعل مركزه خلال ساعات الدوام في الفرع

دائمًا في مكتبٍ محاذٍ لمكتب اللواء.. صاحبه ضابطٌ أيضًا.. وقد أصبح هذا الضابط منذ الساعة رئيسه المباشر..

لم يمنعه هذا من التنقُّل ضمن الفرع مع علي الذي أصبح مدير مكتب أخيه العميد غانم.. شاهد ثابت لأول مرة في حياته ما كان يسمعه قديمًا عن غرف الرُّعب للناس، وفروع الموت.. والتي كان مجرد طلب أي منها لأي شخصٍ بالحضور إليها.. يعني شعورًا بالهلع الشديد من سوء المعاملة، ما يمكن أن تخبِّئه زيارتها من مجهولٍ لا تُحمد عقباه.. فكم من الناس ذهبوا إلى إحدى هذه الفروع الأمنية كمطلوبين عاديين للاستجواب.. ولم يعودوا إلى بيوتهم.. لسنين طويلة.. هذا إن عادوا؟

تذكَّر حديث والده مرَّةً عن صديقٍ له أتت إليه دورية المخابرات في مكان عمله في بدايات الثمانينيات من القرن الماضي، حيث طلبوا منه أن يذهب معهم لدقائق لاستجوابٍ بسيطٍ، لم يعد بعدها الرجل إلا جثةً هامدةً في عام ٢٠٠٢، وقد سمع من الكثيرين أيضًا طوال حياته، وعرف الكثير من هذه الحوادث..

- يقولون عن صدام حسين أنه جرَّار العراق، والطاغية الذي لا يرحم، لكنه على الأقل كان يرحم معارضيه بإعدامهم، أما عندنا فإن المخالف والمعارض، والذي يمكن أن يسبَّب أيَّ قلقٍ للنظام.. يموت في المعتقلات مائة ميتةٍ وأكثر، وإن أسعفه القدر بأن يخرج حيًّا.. فليس قبل سنين طويلةٍ قاتلة، يفقد فيها كل مقوِّمات الصحة والقدرة على الحياة..

وإن استطاع أن يتأقلم من جديدٍ مع الحياة، وهذه حالاتٌ نادرة.. فإنه يبقى فاقداً لكل حقوقه الإنسانية والمدنية، وممنوعاً من المغادرة حتى خارج حدود محافظته إلا تحت المراقبة ومراجعة الفرع المسؤول عنه، وبموافقة أمنية مشروطةٍ، فكيف لو فكَّر بمغادرة البلاد..

هكذا قال أحد المعتقلين السابقين من أقربائه مرةً في جلسةٍ ضيقةٍ بالطبع، معبراً عن سخطه من معاناته والكثير من الناس من غضب الدولة الذي يتمثل مجسداً في هذه الفروع الأمنية المنتشرة بكثرة؟

رأى ثابت الكثير من المكاتب، شاهد فيها كيف يُهان المواطنون ويُحتقرون، بل إن أكثر ما هاله أنه رأى الكثير من العسكريين ومنهم الضباط في حالةٍ لا تسرُّ، نتيجة التحقيق معهم وتعنيفهم.. ربما بسبب تقرير كتبه أحدهم، أو بدافع الشكِّ والريبة بهم.. أو بدافع الترهيب الاحتياطي المسبق، غير أنه لما نزل باتجاه القبو.. تمثَّلت له سيرة هذه الأقبية وما يسمع عنها بعض الناس شاهدةً يقيناً أمام عينيه.. لا من خلال ما سمع عنها طوال عمره، من أفواه الذين رأوها وجربوها..

إن الذي يراه هذا مختلفٌ تماماً.. شاهد ما لم يستطع متابعة النظر فيه من فنون التعذيب المبتكرة، الجسدية منها والنفسية، وعلم أن من هؤلاء الذين يُعذَّبون من هم مقيمون في هذه الأقبية منذ سنين.. سمع أصوات المستغيثين بلا فائدة.. لم يكن ممكناً ألا يظهر مقدار التأثير الذي أصابه في قسَمات وجهه وخديّه.. حيث تورَّداً احمراراً.. وعروق رقبتِه التي تضخَّمت، وفي سلوكه الذي أبدى مقدار اهتزازِه لهذه المشاهد المفجعة، كل ما سمعه طوال عمره لم يستطع أن يخلف أثراً كالذي خلفته المشاهدة بالعين المجردة في دقائق.. والسماع مباشرةً من قلب الحدث..

علي أيضاً تأثر كثيراً، وأخفى تأثره، وحاول أن يتجاهل الأمر.. وأمضيا معاً أول أيامهما.. كلُّ منهما يتحفَّظ أمام الآخر، ويتورَّع عن التعليق أو إبداء رأيٍ أو وجهة نظر، لكن هذا لم يستمر طويلاً رغم معرفة كلِّ منهما بعواقب التحدُّث بهذه الأمور.. وخصوصاً باتجاه نقدها.. ولو بمجرد الإشارة؟

خلال الأيام التالية أصبحت الأحاديث بينهما أكثر انفتاحًا بعدما وثق كلٌّ بالآخر ثقةً كبيرة، جرى بينهما حوارٌ أوليٌّ تميَّز بالمكاشفة والشفافية إلى حدٍّ ما.. وأيضًا بالسبر المبدئي، تلمَّس مقدار العمق الممكن الوصول إليه من كلا الطرفين.. وربما كان هذا الحوار ممهِّدًا لما بعده.. وفاتحة حواراتٍ أكثر بُعدًا في إدراك التفاصيل.. الملفت لثابت أن المشاكسة الأولى في هذا الموضوع كان صاحبها علي وليس هو، إذ كان المبادر:

- أتعلم؟؟ كنتُ وما زلتُ منذ أن كنتُ يافعًا صغيرًا بالنسبة لعائلتي وأقاربي وبعض أصدقائي أعتبر متمردًا، أعلن احتجاجي على هذه المعاملة القاسية للسلطة القائمة بحق الناس، ورفض لي مبدأ القمع والشدة.. كان هذا دائمًا يسبب لي من أهلي ومحيطي الكثير من التأييب الشديد..

- ماذا كنت ترى بالضبط؟

- أرى أن الدولة من حقها أن تعاقب الخارجين عن القانون، وأن تؤمن متطلبات الوطن والناس من الأمن والرفاهية، ولكن ليس على حساب كرامة الإنسان، وحقه في الحياة حرًا، وما أراه أن يد الدولة تبطش بالناس أكثر مما توفر لهم حقوقهم..

- ربما تكون مخطئًا أو لديك حساسيةٌ مفرطة، فليس الوضع تمامًا كما تصفه.. ألا ترى أنك تبالغ قليلًا يا صديقي؟ ورغم ما رأيته من قسوة.. لا أعتقد أن هناك بريئًا يعتقل أو تُساء معاملته..

كانت هذه إجابة ثابت الدبلوماسية المتحفظة في بادئ الأمر، ربما ليستطيع ان يسبر داخل علي أكثر، فهو يعلم من هو حقًا، من أي بيئة أتى، ومن هم أهله ومحيطه.. وفي النهاية إلى أي اتجاه يمكن في نهاية الأمر أن يتتمي؟

- هل تعتقد هذا فعلاً يا ثابت؟ أم أنك تتحفّظُ أمامي لأنني من الساحل..
وأعتبر بالنسبة لك من أبناء السلطة، والمحسوبين على النظام؟

صدمه رد علي، وجعله يشعر بالكثير من الإحراج والإرباك.. تاهت من
لسانه أي ردود، حوّلته هذه المواجهة الجريئة إلى وضعية الدفاع.. لكنه
استدرك فيما بعد:

- لا أبداً فأنا أعرف أنك إنسانٌ مثقّفٌ ومتحضّرٌ، وأثق بك تماماً وبآرائك
وانفتاحك، ولا حرج لدي من قول أي شيءٍ أمامك، لكن هذا ما تبادر إلى
ذهني أن أقوله، بحكم أنني لم أشهد شخصياً ما تقوله أنت، ولكن لأكون
صريحاً أكثر، فقد تربيّت كما ذكرت لك سابقاً على يدي والدي الذي عانى
كثيراً، وهذا الرجل لديه خبرةٌ طويلةٌ في رصد ما تفضّلتَ به، وقد ذكر لنا الكثير
من القصص والحوادث، ولديه الكثير من الانتقادات للحالة التي ذكرتها للتو..
لكن هذا لا يكفي لتكوّن صورةً عما يجري فعلاً.. أليس كذلك؟

- لا تقل لي أنك مقتنعٌ بأن الأمن أولى من الحرية.. وأن سلامة الوطن أولاً..
- لا بالعكس أنا أوّمن بالحرية، وأعشقها وأدافع عنها.. لكني لا أوّمن
بوجود حريةٍ مطلقةٍ في الحياة.. الوطن ليس موضوع وجهات نظرٍ يدلي بها
من يشاء في الوقت الذي يشاء، ويُلزم الجميع بأن يأخذوا بها، وليس ثوباً بالياً
يسعى لترقيعه كل من يعتقد أنه أهلٌ لذلك.. بل هو منظومةٌ ومؤسسات.. أنا
أعتقد يا صاحبي، بأن الوطن مسؤولية الجميع ولكن.. بشكلٍ منظمٍ يمر عبر
أقنية ولاية الأمر أولاً وأخيراً.. والمؤسسات التي تمثل كل فئة..

- هل أقول لك بصدقٍ؟ أنا أحترم وأقدّر السيد الرئيس جدّاً، وأوّمن
بقدرته على الأخذ بسورية إلى أبعد مما نحلم.. ولكني سأعبرُ لك عما يجول

في نفسي بكل صراحة.. ربما تفهمني من سياق الحديث.. رغم أن الكثير يستمتعون ويأمنون لما يجري.. إلا أنني لا أحب اللون الأوحـد حتى لو كان بياض الثلج.. هل فهمتني؟

- نعم أعتقد أن الفكرة وصلتني.. ولكن بما أنك كنت صريحاً بهذا القدر معي فسأصارك أيضاً.. أنا أيضاً أوافقك الرأي.. أحب التنوع والاختلاف، وأعجب مثلاً ممن يدهشهم تطابق التوائم، بينما الأولى برأيي أن يندهشوا لجمالية التنوع والاختلاف.. لكن.. يخطر في بالي أمرٌ مـلـح الآن.. أرجو ألا أجرك أو أسيء لك من حيث لا أود ذلك.. هو مجرد سؤالٍ علي أن أوجهه لك أنت بالذات، أنت من السّاحل ومن المناطق المـوالية تماماً للنظام؟ كما تعلمون علم جميعاً إن السلطة والنظام القائم معتمدٌ كل الاعتماد في نواحيه الأمنية والعسكرية عليكم.. وإن بدا للنّاظر من بعيدٍ أن هناك تنوعاً ومشاركة من الجميع.. ما رأي الجميع من أهلك وأقاربك؟ كيف ينظرون إلى هذا؟ من أيّ بابٍ يتقبّلونه أو يتبنّونه؟ أهو بالنسبة لكم مزية أم بلاء؟

- أشكرك على طرحك الجميل والصريح صديقي.. لو لم تسأل هذا لأجبتك أيضاً.. أنا والقليل المثقف الواعي من أبناء منطقتي نعتقد أن هذا توريطاً وبلاءً، وليس مزيةً كما يظن السّدج منهم.. وسأشرح لك لماذا؟ في حقيقة الأمر نحن أصبحنا في الواجهة من حيث الواجب الأساسي، وهو الحفاظ على النظام.. بينما لم يتغيّر ترتيبنا بالنسبة للمكاسب.. فيما عدا القلّة القليلة التي استأثرت بالمكاسب الكبيرة، وأمامك ريفنا الذي نعيش فيه.. إنه حتى عموماً لا يوازي أيّ ريفٍ في أيّة منطقةٍ في سورية من حيث التطوّر العمراني والخدماتي ومستوى معيشة أهله.. وبينما تضع طاقات معظم شبابنا في فروع الأمن والعسكرية، لا تجد سوى القليل من الدارسين

المثقفين وأصحاب الشهادات الجامعية مثل الأطباء والمهندسين وغيرهم.. في مقابل أن غيرنا يتفوقون في جميع الميادين، وقد كنا أيام الفقر والذلّ قبل تسلّم المحسوبين علينا السلطة فيما مضى أفضل من هذا على المستوى الكمّي والنوعي للمثقفين والقادة الشعراء وغيرهم.. لكن للأسف فإن قومي لا يعلمون..

مع كل هذا سأكون أكثر صراحةً، حيث سأقول لك ما أشعر به دون أيّ مواربة: كما يقولون بالأمثال.. من يتعرّض للدغة أفعى ترعبه جرّة الحبل.. ما زلتُ أتمنى في قرارة نفسي ألا يحدث يوماً ما يغيّر هذه الحال، رغم محاولاتي المتكرّرة للتمرد والخروج من عباءة السلطة وأصحابها.. لأنّ لدى كلّ منا - وأقصد أهل منطقتي وبيّتي - خوفان يسريان مع الدم..

أحدهما من مستقبلٍ مخبوءٍ نخشى عاقبته من انتقام الآخرين أو العودة بنا إلى ما قبل عهد البعث، حيث عاش أهلونا قديماً ما نقلوه لنا بالموثّرات.. مع الحذر.. بل الرعب من عودته.. ونعتقد أن بعد هذه السنين من سطوة القبضة التي تتحكّم بزمam الأمور، والشدّة والقسوة التي رافقت هذا العهد.. لا شيء مضمونٌ يمكن أن يشعّرنا بالأمان مما يمكن أن يكون ثأراً أو تصفية حسابٍ من الآخرين.. لو حدث وتغيّر الواقع يوماً ما..

أما الآخر فهو من بطش النظام الحالي، ولا أخفيك فإنّ أحداً بالذات لو فكّر في أن يتمردّ لكانت عقوبته أضعاف عقوبات الآخرين.. وقد حدث هذا فعلاً للكثير من أقربائي؟

- وأنا أيضاً أشكرك يا صاحبي على كل هذه الصراحة.. وأقدّر ثقّتك الغالية.. ولكن ألا تعتقد أنكم تبالغون في هذه المخاوف أيضاً؟ أليس الشعب السوري بعأمته شعباً طيباً ومتسامحاً؟ ألا ترى رغم كل ما ذكرت أننا

نعيش بودّوتفاهم وبكثير من التجانس؟ وهذا ليس وليد اليوم أو اللحظة، بل عمره بعمر الاختلاف الذي صنع قوس قزح هذه الأرض.. وبغض النظر عن حالة الإقطاع وما رافقها من سلباتٍ وهي تتعلق بفئة محدّدة بعينها فإنّ ذلك ذلك قائم من قبل تسلّم حزب البعث ورجالكم السلطة بزمنٍ طويلٍ، وأراه ما يزال مستمرّاً معها، وأكبر دليلٍ ما نحن عليه من صداقةٍ ومحبة..

- للأسف يا صديقي.. رغم ثقني الكاملة بك ومحبتي التي لا يعلمها إلا الله فإنني لست متأكّداً فيما لو تغيّر الوضع من الجميع أن يكونوا مثلك.. وحوادث الثمانينيات فيها أقوى دليلٍ على ما نخشاه ونحسب له ألف حساب؟
- لكنها كانت محدودةً في محيطٍ معينٍ وفئةٍ قليلةٍ.. عموماً فقد كان ردُّ الدولة مفراطاً، وربما ساهم إلى حدٍّ بعيدٍ في وصول المسألة إلى المرحلة التي شهدناها.. ثم إن الحديث في أمر التغيير هذا أصلاً غير واردٍ فالجميع راضٍ ومقتنع.. وإن كنّا لا نودُّ أنا وأنت والكثير من شباب الوطن أن تكون البلاد في حالٍ أقلّ مما تستحق.. ونريد لها المستوى الذي يتماهى مع إمكانياتها وثرواتها وطاقات شعبها.. أليس كذلك؟

-نعم صدقت يلزمنا الكثير من الإصلاحات وأعتقد أن أوانها اقترب.. فقد آن لعامة الناس أن يعيشوا بهامش حرية أكبر، وأن ينعموا بخيرات بلادهم.. وأن يروا الوطن يرتقي بارتقاء الناس والمعيشة.. ليست الوطنية ولا الوطن حكراً على أهل الساحل أو غيرهم، ولا يجوز لنا بأي شكلٍ ولا بأي ذريعة أن نحيد الآخرين بالحديد والنار.. أو نقصّهم..

لم يستطع ثابت أمام هذا المدّ الموغل في الصراحة والمجاهرة أن يصرّح بالكثير مما التقطه في هذه الحياة من رؤى وتصورات، رغم أنه لم يتمنّع كثيراً عن إبداء وجهات نظره تجاه الكثير من الأمور.. سوى الاقتراب من الخطّ الأحمر

الذي يتوقَّف فيه الحديث عند الأسرة الحاكمة، ويحيطها بقُدسيةٍ قد تؤدي بمستقبل بل حياة متجاوزها.. يقول ثابت لنفسه في لحظة توقّفٍ عن الحوار:

- أعلم أن المسألة في النهاية ليست في جلِّ حقيقتها سوى صراعٍ على السلطة، واستثثارٍ بمقدرات البلاد لصالح فئةٍ بعينها هي الدائرة الأضيّق من المتنفعين، وهي وإن كانت تستخدم هذه البيئة بمجملها كدرعٍ للدفاع عنها وتثبيتها وحماية مصالحها، فالنتيجة هي حكمٌ بالقوة لعائلةٍ ومحيطها ومقرّبيها.. لكنَّ ثابت أراد أن يتناسى هذه الحقيقة أو يتجاوزها أمام رغبته الكامنة بتبرير وضعه الحالي، وانخراطه في هذه الأجواء، وقد وجد الكثير من الذرائع تعينه على ذلك، كالمصطلحات المتداولة كثيرًا: (هم أفضل من غيرهم)، و(الأمل في المستقبل)، و(الأمن والأمان الذي يوفره كثرٌ حقيقي).. بالإضافة إلى تأثره بمقولة: (تشفع لهم مواقفهم الوطنية والقومية).. وعلى هذا كله يبني ذريعته الكبرى..

- إنني أخدم الآن مواقفهم الوطنية والقومية النبيلة.. أخدم الوطن وليس الأشخاص لذاتهم..

وأخذ فعلاً يتبنّى ما ابتدعه لنفسه من مبرراتٍ، يدافع عنها بشراسةٍ وانتحالٍ قويٍّ لاقتناعٍ يتسلّح به، حين يخطر بباله وقوفه بين يدي والده، أو أحدٍ من رفاقه.. وسهامٌ نظرات الاتهام تتوجّه إليه..

كانت هذه الأحاديث بين ثابت وعلي تدور فعليًا خارج الفرع، خلال لقاءاتهما في أطراف الحديقة الخارجية للفرع بعيدًا عن المراقبين، أو في السيارة حينما يكونا معًا وحيدين، أو خلال لقاءاتٍ خاصةٍ كانت تجمعهما خارج أوقات الدوام.. أعجِب من خلالها ثابت أكثر فأكثر بشخصية علي المنفتحة التّواقة للخروج من القوقعة وكسر الطوق، والمتأمّلة بغدٍ أفضلٍ

للجميع.. مع اعتراف علي.. وهو ابن هذه الفئة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسلطة.. بأن الذي يحصل في البلاد مشوّب بالكثير من الأخطاء، وإن الكثيرين من المحسوبين على النظام من أصدقائه وأقاربه لا يحملون باطناً خلاف ما يحمله من بذور اختلافٍ ومشاعر استنكارٍ لكثيرٍ مما يجري، وأنهم منفتحون على الآخرين بقدر ما يرون في الآخرين رهبةً وحذرًا منهم..

ثابت في قرارة نفسه مع ما تشربه سابقاً من فكرٍ منقولٍ، وآراء تبناها بالتجربة القليلة التي يمتلكها، يعتقد أن الأمر برمته قائمٌ على ما يفوق توصيفه بالخطأ.. وأن كل شيءٍ يسير بمقدارٍ مخطّطٍ له بعناية.. ولكنه بهذه الحقيقة.. لا يريد أن يعترف حتى لذاته..

استمرّ هذا التقارب بين الشابين بالازدياد والتعمّق، لدرجة أن الاثنين لم يعودا يطبقا الابتعاد عن بعضهما حتى خارج أوقات الدوام، كان علي كثيراً ما يزور ثابت ويطلب السهر عنده، وأحياناً يدعوه إلى بيته في إحدى ضواحي دمشق.. والذي ساعده في الحصول عليه أخوه العميد، ويقع قريباً من بيته.. وعلى حساب الدولة.. ليكون مقرّاً لعلي أثناء خدمته، ومن يدري.. ربما يصبح مكان إقامةٍ دائمٍ فيما بعد.. حين يصبح قاضياً..

الحالة الخاصة التي جمعتهم امتدّت إلى قرية علي وبيت أهله حيث كان في بعض الأوقات يصرّ على صديقه ثابت بأن يقضي معه إجازته هناك بين رفاقه وأهله.. حينما تكون قصيرةً ليومٍ أو يومين، فكان يستأذن العجوز ويرافقه فيها، وكان لهذا الأثر الكبير بتوطيد العلاقة بينهما إلى مستوى متقدّم.. على ما لقي ثابت من حفاوة استقبالٍ وبوادرٍ ودّ ظاهرةٍ في بيئة علي وبين أهله وأقاربه والمقربين؟

تمنى ثابت كثيرًا أثناء ذلك وتخيّل أن يرافقه علي إلى قريته بالمثل، ويلتقي بأهله، ويلقى ذات الحفاوة، غير أن علي يدرك ما يمنعه من ذلك.. ويقدر هذا تمامًا؟

لكنّ كلًّا منهما أيضًا كانت له همومه واهتماماته الخاصة وعلاقاته اليومية وارتباطاته، فثابت الذي بدأ يلحظ تراجع وضع السيدة العجوز الصحي أكثر فأكثر.. أصبح قلقًا باضطرابٍ.. وقد تعلّق بها كثيرًا مع مرور الوقت، إذ بقيت هي كل أهله وعائلته، بينما كان تواصله مع فاتنة يزداد عاطفةً ووجدًا..

صارت كطلّهُ وصار كطلّها.. كلّ منهما يحصي الدقائق والثواني للقاء، وإن لم يتوفّر اللقاء وجهًا لوجه، كان التواصل مستمرًا عن طريق المكالمات الهاتفية، أو الرسائل عبر وسائل التواصل الاجتماعي من خلال الانترنت، وإلا فإن لكلٍ منهما طيف حبيبه.. يختلي به يقطًا ونائمًا..

غير أنه أيضًا لم يسلم كلما أراد أن ينام من مداهمة أطياف أفراد عائلته فردًا فردًا.. من الوالد وحتى عثمان الذي أصبح يومًا بعد يوم يشاق إلى أكثر، ويحلم بلقائه وضّمّه ولو لدقائق.. فيعتمد إلى ارتكاب ما يعلم أنه قد يسبّب المشاكل لأحبابه، وهو مخالفة أوامر أبي خالد.. ويجبر بالعاطفة شقيقته الحبيبة خالدة على العصيان سرًا، لتصوّر له جلسة ولده.. وترسل إليه بالصور، يستأنس بها.... ويكي ملء حنينه؟

أما علي فإنه استمرّ بمداومته على زيارة الجامعة كلما سنحت له الفرصة، للالتقاء برفاقه الذين لم يتخرّجوا بعد، ومن خلال زيارتهم تسعفه الزيارة بنظرة أو تحية يلقيها على التي ملكت فؤاده.. وأعياء التفكير بها..

ما زال كلما حاول أن يتقرب منها، ليعترف لها بشعوره.. جبن فجأة.. وراوده ذات الهاجس والخوف من المتوقع حدوثه، وظل يخدر نفسه التوافة والعاشقة لها بمجرد دقائق يحصل عليها مراقباً لها، تسمح له بالاقتراب منها ما أمكن؟

في هذا اليوم حمل القدر لثابت ما كان يتهرّب من التفكير فيه ومقارعة حساباته لمدة طويلة، فقد استيقظ فجراً على قرع باب بيته بقوة من قبل الممرضة التي استقدمها مؤخراً.. لتبقى مع العجوز المريضة.. وهي تصرخ فرعة..

- ماذا هناك ؟ ؟

يردّ ثابت.. وهو يفتح الباب بثيابه الداخلية دون أن يتنبّه.. لهول المفاجأة؟
- السيدة بحالة خطيرة، ويجب نقلها فوراً إلى المشفى.. هي لا تستجيب ونبضها ضعيف، وضغطها منخفض للغاية.. لم أשא أن أوقظك ليلاً فقد عانت من الألم المبرح الكثير قبل أن تصل إلى هذه المرحلة؟

أدرك ثابت بإحساسه وهو يرتدي ثيابه بسرعة البرق، ويطلب سيارة الإسعاف من المشفى أن هذه المرأة ليست كسابقاتها، وأنّ عليه أن يهيئ نفسه وغيره لأسوأ ما في هذه السيرة مع المرأة التي أحبها وتعلّق بها بشدة، وبادلته الحب بمثله والتقدير، كانت علاقته بها بالنسبة له الفيصل الذي غير اتجاه حياته، مجرد النظر في وجه طبيبها الذي حضر فور الاتصال به وعانيتها، كان يكفي ليخبر ثابت بصدق إحساسه..

- خبر كهذا مفعج حتى ولو كنت أتنبأ به وأستعد لتلقيه، كيف تتركيني الآن أيتها العجوز القوية وحيداً ولم يبق لي دونك من أهل؟ كم كنت أمل أن تصمدي لأجلي قليلاً بعد.. ليتك تفعلين؟

الطبيب الذي أخبر ثابت بأن ساعات المرأة أصبحت معدودة إن لم تكن دقائقها.. نصح ثابت بإخبار عائلتها فوراً وابدون تلکؤً بالأمر، اتصل ثابت بالسيدة ماري ابنتها ليبلغها بالوضع، كان يعلم مقدار ما سيولده اتصاله من ألمٍ وحزنٍ، لكنها السيدة العاقلة الحكيمة كما عرفها ثابت.. ما أسرع ما تحكمت بعواطفها بعد صدمة لم تدم طويلاً، طلبت منه أن يحتفظوا بجثمانها في حال موتها في غرفة التبريد في المشفى.. ريثما تصل وأخواتها وعائلاتهم، لتتم إجراءات الوداع والدفن حسب الأصول. اتصل ثابت بقائده المباشر، وهو الضابط الذي يدير مكتب اللواء، طلب منه الإذن، وأخبر صديقه علي أيضاً.. طلب منه أن يكون إلى جانبه في هذا الوقت العسير؟

دخل إليها بعد أن استأذن الطبيب في غرفة العناية المركزة، أطل النظر إليها باكية بحرقه، وهي في عالم آخر لا تدري بما يدور حولها.. لكنه وهو يستعد ليودّعها الوداع الأخير، فوجئ بأنها فتحت عينيها نازرةً إليه، أشرق وجهها وابتسمت له، مما أعطاه أملاً كبيراً وتفاؤلاً بأنها قد تكون خالفت قواعد الطب.. وأنها ستعيش المزيد، تهلل وجهه لهذا، أخذ يبادلها الابتسامة ويحدثها.. يمازحها فرحاً.. ويتنظر أن ترد..

لكن.. كأنها اكتفت بهذه النظرة المتوهجة لتنتقل له كل ما تريد صاحبته من إبداء إشارات الوداع ومشاعر المودة.. أخذت تتنفس بصعوبة مع خفقانٍ شديد، الأمر الذي استدعى تدخل الطاقم الطبي جميعاً، أجرى الطبيب المحاولة الأخيرة معها قبل أن يستكين ويتوقف، ثم يغطي وجهها على مرأى من ثابت.. ويعزّيه بوفاتها؟

أنفق من مشاعر الحزن عليها ما لم ينفقه على أحد.. وحيداً في أحد أطراف المشفى، دعا لها بالخير، ثم توجه إلى إدارة المشفى، طلب إبقاء جثمانها في

المشفى إلى حين حضور جميع أفراد عائلتها، غادر كسيرًا محبطًا.. كما لو أن بساط الرِّيح الذي أتى به إليها قد قذفه إلى الخلفاء إلى مرحلة ما قبل التفريق بظلال هذه السيدة العظيمة، ذكره هذا بحالته البائسة التي كانت أيام هادية والمشفى، وبقائه هناك طويلاً في أحلك أوقاته السالفة؟

- كأنها كانت تعرف أنها ليلتها الأخيرة.. سبحان الله.. كان حديثها مختلفاً، وملفتاً..

يخبر ثابت صديقه علي الذي التحق به بعد انتهاء دوامه إلى المشفى

- هل تصدّق؟ لقد أدركتُ بالإحساس ما يمكن أن يحصل قريباً من خلال سهرة الأَمس معها، لكنني لم أتخيّل أبداً ألا يستغرق الأمر سوى انطواء الليل، الآن أدرك سرّ هذه النبوة التي تحدّثتُ معي بها.. شكرتني كثيراً على الأيام السّابقة وما فعلته لها وفي بيتها، عاتبني برفقٍ من جديدٍ على موضوع زوجتي وأهلي، أوصيتني بأن أحاول إصلاح الأمر معهم، ثم أرسلت لي إشاراتٍ كثيرةٍ من خلال حديثها... لا أدري هل كانت جادّةً فيها أم تمزح كعادتها.. فقد اعتدنا أن نتبادل مثل هذا الكلام مداعبةً..

- ماذا تقصد وعن أي شيءٍ تتحدّث؟

- كنتُ كثيراً ما أمزحها وأقول لها سأدفنك في مقبرة مسلمين، وهي لا تستنكر مني هذه الدعابة.. لكنها ليلة الأَمس قالتها بطريقةٍ مختلفةٍ، نظرت إليّ قبل انتهاء الحديث ومفارقتي لها، قالت بما يوحي رغم ابتسامتها أنها لا تمزح: هل أعددت لي قبراً مناسباً في مقبرة المسلمين؟ وهل استأذنت لي حتى لا أواجه بالرفض والاستنكار؟

ضحكت العجوز بعدها يا صديقي.. وضحكتُ معها، لكنها سبّبت بهذا القول لي غصّةً موجعةً، الآن تزداد حيرتي ودهشتي.. حتى لو كانت جادّةً، من أين لي أن أبتأنا في هذا، أو أنفّذ لها رغبتها.. وبناتها صاحبات الأمر قادمات؟

- رحمها الله وألهمك الصبر.. أعلم كم تعني لك هذه السيدة، ولكنها سُنَّة الحياة دائماً تمضي نحو خطِّ النهاية، لا بد أن نتقبَّل حلوها ومرّها.. الأمر الذي يقلقني الآن.. ماذا ستفعل بعد الآن يا ثابت، وأين ستقيم؟

كان سؤال علي بمثابة القنبلة الموقوتة التي يعلم ثابت بوجودها تحت قدميه دائماً، بل ويدرك تماماً شِدَّة انفجارها، لكنّه يؤجِّل التفكير فيها، ربما خوفاً وتهرُّباً من مواجهة هذه الحقيقة المؤلمة القادمة التي طالما عايشها هاجساً مقيماً.. مرَّتْ العسكرية لا يكفي حتى لشراء وجبة طعام واحدة مما كان يُحَضَّر في بيت السيدة، ولا بيت له ولا أهل هنا، ولا يمكن العودة إلى الورا.. هو يعلم أن فاتنة وأمها سيفرحان إن طلب منهما المساعدة، وأنهما لن يقصِّرا في ذلك، لكن هذا يسبِّب له حرجاً شديداً بمجرد التفكير فيه.

- كيف أوصل لك مثل هذا الخبر يا هادية الآن.. كيف؟ أعلم أنك تحبِّين هذه السيدة حباً شديداً؟ كيف أخبرك بأنها أنبَتني كثيراً لأجلك؟ يا إلهي.. لقد رحلت السيدة الغالية يا هادية وبقيت هنا وحدي أتجرَّعُ وُوس عذابي بفراقكم جميعاً، كيف ستخبرين عثمان الذي وجد فيها الجِدَّة الحنون الراقية التي غمرتنا بكرمها وأمومتها؟

هكذا أمضى ثابت ليلته بين جدران البيت الكبير التي كان كُلُّ منها يذكره بغائبٍ أو بصوته أو طيفه، تكالبت عليه مشاعر الفقد من كل حُدْبٍ وصوب، كادت أن تخنقه عبراته وأصداء أصوات الراحلين، كلمات أبيه التي قالها ذات زهوٍ بالعائلة الكبيرة.. يطرُقْنَ أبواب ذاكرته بعنف:

- البيت ليس حجارةً يُبنى بها، وليس عمارةً يحلو فيها ويعلو.. البيت أرواحُ بَنَتْه وسكنته.. تتحرَّك في أروقتة.. لتدبَّ به الحياة.

السيدة ماري كما توقَّع ثابت كانت أول الواصلين إلى دمشق ومعها زوجها، كان ثابت في استقبالهما، تبعهما باقي أفراد العائلة بعد ساعات، اجتمع الجميع في بيت العجوز الراحلة، حضرت أم فاتنة وابنتها وبعض الأقارب.. وتفرَّج الجمع بانتظار اليوم التالي لتتمَّ المراسم المعتادة.. لكنَّ اتصلاً مسائلاً مفاجئاً أتى من محامي السيدة العجوز، يطلب لقاء بناتها في الغد في مكتبه قبل إجراءات وداع السيدة والدفن، هذا الاتصال غيَّر البرنامج كلياً، تمَّ تأجيل كل ما خطَّطوا له إلى اليوم التالي.. المفاجئ أكثر في الأمر أنه طلب حضور ثابت مع الجميع، مما أحدث صدمةً أخرى للعائلة.. ما عدا السيدة ماري.. التي لم يبدُ عليها أيُّ ملمح استهجان؟

كان الجميع في اليوم التالي مجتمعين في مكتب المحامي ومعهم ثابت ينتظرون باهتمامٍ وفضولٍ.. ما سيخبرهم به محامي السيدة..

عرض عليهم بالتفصيل محتوى وصية السيدة المتوفاة، مع شرحٍ وتوضيحٍ مُرفقٍ بالمستندات لممتلكاتها، الأموال المودعة في البنوك، وحصصها من إرث زوجها بما فيهم المنزل الذي تعيش فيه، وقد كان خصَّصه لها قبل وفاته.. وعوَّض بناته حينئذٍ بدلاً عنه بأموال وأملاك أخرى.. والشركة التي كانت تديرها قبل مرضها، إضافةً إلى بعض الأراضي والممتلكات الأخرى، ومنها التُّحف الكثيرة الموجودة في المنزل، وبعض الأموال والذهب والمجوهرات.. كان ثابت يعدُّ العدة لتسليمهم المنزل بما فيه، ويهيئ نفسه للخروج نظيفاً من عبء هذه المسؤولية، وفي وجهه علائم الخوف من ظهور ما قد يمسُّ سلامة هذه العملية أو يؤثر على صورته كمؤتمنٍ على البيت وما فيه، عمل جاهداً على الخروج بوجهٍ أبيضٍ وبدٍ نظيفة، بالإضافة إلى خوفه بعد وفاة الغالية من المجهول القادم، لأجل هذا جهَّز كشوف محاسبية، دَوَّن فيها بدقة كل المبالغ التي وصلته، وما تمَّ صرفه منها.. لم يهمل فيها مسار قرشٍ واحد..

مجرى وسياق الحديث نفس كل هذا، أحدث مفاجأة مذهلة أدهشت ثابت والحاضرين، لم تكن أبداً في الحساب.. على الأقل للبعض منهم؟ بادئ الأمر وزّع المحامي الحصص من الممتلكات الثابتة على بنات السيدة، ثم الأموال المنقولة والأرصدة، وتوقف عند بندٍ مهم صعد الجميع ما عدا ماري التي يبدو أنها كانت تعرف به مسبقاً أو تشعر؟ كان هذا البند من وصية السيدة ينص على بقاء ثابت في المنزل بذات الوضع الذي هو عليه حتى انتهاء خدمته الإلزامية كمستثمر بأجر مدفوع سلفاً، وبقاء السيارة له شخصياً، مع تخصيص مبلغ مالي له كهدية تعويض عن خدمته للسيدة.. وقدره عشرة ملايين ليرة سورية، أي ما يعادل تقريباً مائتي ألف دولار أمريكي، ولزوجته هادية وولدها مبلغ ثلاثة ملايين ليرة؟

وقف ثابت مندهشاً ومصدوماً.. اختلطت لديه مشاعر الدهشة والفرحة بالهبة المفاجئة مع مشاعر الحزن على رحيلها، انتشله إحساسه بالأمان الذي حقق لروحه السلام من قاع خوفه وقلقه، وغمره شعور الامتنان لهذه السيدة العظيمة التي قدّمت له كل هذا ولزوجته وولده.. حيث نقلته فجأة إلى شاطئ حلمٍ ما كان رآه في أفضل حالات استشرائه للأمل.. هو مبلغ كبير بالنسبة لعائلة متوسطة الدخل تعيش من مرتبٍ وظيفي، فكيف بثابت الذي كان على شفا انهيار تامّ وضياحٍ محتمٍ.. لو أن ذلك لم يحدث فعلاً؟

السيدة ماري وحدها من ابتسمت راضية.. وهنأت ثابت:

- أنت تستحقّ وأكثر يا أبا عثمان.. نحن نشكرك كثيراً على ما قدّمته للمرحومة ومعك السيدة هادية وعثمان، ويكفي ما وفّرتموه لها من الأُنس والطمأنينة والراحة النفسية والمحبة في أواخر أيامها، وقد أسرّت لي كثيراً بمقدار محبتها لكم، وتقديرها لجهودكم وإخلاصكم وأمانتكم..

بينما انكفأت الشقيقتان الأخريتان كاتمتين لغضبٍ دفين، غابت أصواتهما رغم ضخامة ما نالهما من إرثٍ، بدا عليهما الكثير من علائم الاستهجان لحصول من يعتبرونه عاملاً لدى والدتهما وعائلته على كل هذه الامتيازات، غير أن صوت السيدة ماري الحكيم، ووصية السيدة التي لا تقبل التأويل عن طريق المحامي سيطرا على الأجواء، وأجهضا كل مجاهرةٍ ممكنةٍ بعدم الرضى..

لكن الأمر لم ينتهِ هنا، لم تنفُص الجلسة بعد، فقد أتت المفاجأة القنبلة التالية، كأنها توشك أن تغطّي على وقع الأولى.. كانت صادمةً للجميع.. حتى للسيدة ماري نفسها التي بدا واضحاً أنها لم تكن تعرف عنها شيئاً؟

السيدة المتوفاة صاحبة الوصية توصي بدفنها في مقبرةٍ للمسلمين؟ يتولّى ذلك ثابت، دون أي إيضاحاتٍ أو إضافة تفاصيل، جعل هذا الأمر ثابت يجesh بالبكاء ويتأثر كثيراً، يتذكر آخر حديثٍ لها، وما ظنّه منها بأنه مداعبةٍ أخيرة، وما خلفه في نفسه من بعض شكوك، تتعثر فرحته بالمزيد من شعور الفقد.. راح يتساءل في قرارة نفسه:

- أيعقل أنها أسلمت فعلاً؟ أو لعلّها كانت مسلمةً أصلاً من قبل ولم تصرّح بهذا.. أيا كان الأمر فقد رحلت ومعها هذا السرُّ، وما يهمني منه سوى أنها كانت امرأةً صالحةً عظيمة، سادعو لها بما تستحق، وأصلي على روحها صلاة الغائب فيما بعد..

لم تعقبَ أيّا من السيدات على ذلك سوى بنظرات دهشةٍ واستغرابٍ.. كانت تتجلى واضحةً من عيونهن المترعة بالدموع.. وبعض التساؤلات وجّهنها للمحامي حول هذا الأمر، غير أن الجميع وافق في النهاية بلا أيّة ممانعةٍ أو ترددٍ على رغبة الوالدة ووصيتها المحترمة، تمّ التوقيع على

مضمون الوصية بمعرفة المحامي الذي تلقى التوصيات بمباشرة الإجراءات فوراً بعد الانتهاء من مراسم الدفن..

بناءً عليه فقد طلب المحامي من ثابت بعض الأوراق والثبوتيات اللازمة، تلك كانت أيضًا مشكلة لا يدرك تعقيداتها سوى ثابت نفسه، كيف يتواصل مع هادية ويساعدها في الحصول على حقها الطارئ الجديد؟ كيف يحصل على ثبوتياتها لتثبيت حقها بالوصية؟ وما هو ردُّ الفعل المحتمل هناك في القرية؟

في اليوم التالي وقف الجميع مع الأقارب والمعارف، بما فيهم ثابت وصديقه علي في الكنيسة في الحي القديم للعائلة في دمشق القديمة.. يستمعون ويشاهدون مراسم الوداع للمفقيدة، يلقون النظرة الوداعية الأخيرة، ثمَّ نقل جثمانها إلى القبر الذي كان ثابت قد اتفق عليه مسبقاً مع المسؤولين عن مقبرة معروفة للمسلمين في أحد أحياء دمشق.. حيث دُفنت على الطريقة الإسلامية.. وقف ثابت يدعو لها من كل قلبه ويبيكي، ويواكب مشهد مواراتها التراب بدموعٍ ساخنةٍ صادقة.. صلى عليها تلك الليلة وحيداً صلاة الغائب..

تلا ذلك بضعة أيام من الإجراءات قبل أن تغادر بنات السيدة وأزواجهن أرض الوطن، ثمَّ خلالها تقييم الموجودات في البيت، وحفظ المقتنيات المالية والثمينة في البنوك.. وتمَّ إبقاء الخادمة الرئيسية والحارس وعامل الزراعة بالإضافة إلى ثابت.. مع تعهّد كامل من السيدة ماري باستمرار إيصال الرواتب وحاجيات البيت إلى ثابت طوال فترة وجوده، وتمَّ تكليف المحامي بتوكيل من بنات السيدة بمتابعة أمر الحصص المالية المتفق عليها وفق الوصية..

بقي ثابت يشعر بغربةٍ وحزنٍ مضاعفٍ على فقد الغالية التي كانت تشغل المكان والكثير من حيز كيانه.. عوّضته بكفاءةٍ منقطعة النظير عن حضن أمٍ هجره ذات اغتراب؟

فقدتها بعد أن سبق له وأن خسرها دية وولده الحبيب، وحُرِمَ أيضًا من فرصة التواصل مع أهله.. ملأ عليه بعض فراغه صديقه علي الذي لم يتركه خلال هذه المدة، أزره كثيرًا، بالإضافة إلى زيارة الحبيب الأصيل كمال، التي دعمته نفسيًا رغم قصرها كسابق أفعال الصديق الودود، حيث قضى كمال ليلةً عند صديقه يواسيه، لم يخلُ اللقاء من بعض المكاشفات بين الصديقين، أبدى فيها كمال تخوفه من انجراف ثابت في هذا المحيط الجديد حدًّا لا يمكن العودة منه، وهو الذي تأثّر كثيرًا بانفصاله عن زوجته وولده وأهله، أبدى مخاوفه أيضًا من التحاق ثابت في سلك المخابرات عن طريق هذه الفئة من الناس على حدّ تعبير كمال.. على الرغم من معرفته أن هذا مؤقَّتٌ ربطٌ بخدمة العلم، لكن ثابت حافظ على صلابة موقفه وتمسّكه بدفاعه المستميت عمّا يحصل متسلّحًا بالذرائع ذاتها، ومطمئنًا كمال بما عذّب من المفردات العائمة..

العنصر الثابت الأبرز الذي كان في هذه الفترة هي فاتنة، وجدت في هذه المناسبة فرصةً كبيرةً لتعزّز حضورها في مشاعر ثابت ووجدانه، بمؤازرته والخروج معه وزيارته حينًا، دعوته إلى بيت عائلتها في أحيان أخرى، أصبح وقت ثابت مقسمًا ما بين صاحبه علي وفاتنته.. ولكن يظلُّ للقاءات فاتنة طعمٌ آخر مختلف، ظلَّ الحديث يدور كثيرًا عن الغائبة الراحلة ومزاياها وخصالها ودرجة شعوره بالفقد لها.. ويد فاتنة الحانية تربّت على مواجهه وتداري دموعه؟

في كل مامضى كان هناك اتفاقٌ ضمنيٌّ غير معلنٍ بينهما عن الحب الذي يجمعهما، لكنه اتّضح جليًّا في سلوكهما المشترك والحميمية الظاهرة في لقاءاتهما، وجد ثابت في هذه الفترة بعيدًا عن كل المؤثرات الفرصة سانحةً ليعلنها بطريقته لفاتنة، وليضع النقاط على الحروف.. فاتنة ما زالت تنتظر منه هذه المبادرة منذ وقتٍ ليس بالقصير، وقد حاولت من قبل مرارًا أن تدفعه لذلك بكل ما أوتيت من فتنةٍ وأنوثَةٍ ورغبة:

- أريد أن أقول لك أمراً لم أعتدّ قوله من قبل.. وستكون هذه هي المرّة الأولى.. وربما لهذا تأخّرت كثيراً..

قال هذا ثابت ووجهه ينبض حمرة.. خجلاً وعشقا

-ماذا تودّ أن تقول يا ثابت؟ قل ما تريد

ردّت فاتنة وسحائب الرّضى تغشى وجهها الباسم المستشعر لنصير
ووصول مرتقبٍ لما تريد؟

- أعلم أن كلينا يعلم ما يجب أن يقال، وما قيل أصلاً دون كلام... ولكن
مع هذا فلا بدّ أن أصرّح لك بأني... أحبك؟

أشرق وجهها أكثر بعد سماعها لما كانت تنتظر، تنهّدت كمن حصل على
خبرٍ جميلٍ كان ينتظره منذ ألف قلبي وترقبٍ..

- أخيراً؟ أوّاه.. كم رأيتك وأنت تقولها في أحلام نومي ويقظتي..
لم تمالك نفسها فأقبلت تضمّه بلهفةٍ، وجد الفرصة متاحةً لما يودّ طرحه
بعد اعتراف.

- انظري إليّ فاتنتي.. أعلم أن ردّك هكذا سيكون.. إنني سعيدٌ جداً بحبّك
لي في مقابل حبي الكبير، أشعر أنني الآن أملك العالم كله.. وعلى هذا فإنني
سأتجرّأ وأسألك فوراً.. هل تقبلين الزواج بي؟
-وهل لديك أدنى شكّ بهذا؟

كان ردّها هذا مع ما رافقه من غنج الحسناء ولهفتها كافياً ليشعر العاشق
بالوجد والنشوة حتى الثمالة.. فغاب طويلاً في سحر عينيها ناهلاً ومتأملاً..
ثم استدرك:

-إذا فلتتكلّم حول تفاصيل هذا بعقلٍ وهدوءٍ فيما بعد، هناك الكثير مما يجب أن يقال.. لكنّ دعينا اليوم نحلّق معاً بفرحة ما وصلنا إليه.. دعينا نتشي ونحلم..

كان هذا اللقاء الذي اختزل دنياهما في عالم لم يشهد سواهما حبيين حالمين.. بداية حقبةٍ جديدةٍ لثابت سينطلق منها إلى عوالم أكثر اغتراباً ونأياً عن واقعه، لكنّه مع ذلك كان بتأثير جذور تربيته يريد لهذه الحقبة أن تكون أقلّ انكشافاً على ما تستهجنه نفسه ويصطدم مع عقله وتفكيره ومواضع اعتقاده الفكري والديني والاجتماعي الراسخة فيه.. رغم كل التبدّلات؟

شهدت الأيام التالية الكثير من الأحاديث بينهما والمناقشات حول الحيشيات والتفاصيل، وعن والدتها وقبولها للأم، رغم أنه كان من السهل التنبؤ بهذا من خلال سلوك السيدة ميرفت مع ثابت وحميمية استقبالها له في كل مرّة كان يزورها فيه ويختلي بفاتنة لساعاتٍ، أو حين كان يوصل فاتنة إلى منزلها بعد رحلة تنزّهٍ خارجة.. ضمّت أحاديثهما مناقشة إمكانية معارضة أحدٍ آخر على هذا الزواج.. كاللواء مثلاً.. أو أحد أقاربها بحكم اختلاف المذهب، كانت فاتنة في كلّ مرّة تمسح من أمام عيني حبيبها غشاوة هذه الرؤية ومن قلبه روايب الظنّ والخوف بتطمينه والتوضيح له عن كونها ووالدتها خارج هذه الحسابات، وأنّ الجميع في محيطهما يعلم ذلك ويستسلم له.. غير أن الموضوع الأخطر والأكثر حساسيةً الذي كان يدور بينهما كثيراً هو إصرار ثابت على التغيير الذي يجب على فاتنة أن تنتهجه تنازلاً منها، لحماية حبهما وارتباطهما المتوقع والعمل على دوامه.. كتغيير أسلوب اللباس ونوعيته، وبعض السلوكيات التي لا تتناسب مع فكر ثابت وعاداته وتقاليده. أراد ضمناً أن يحصل على أكبر قدرٍ ممكنٍ من المكاسب باتجاه جعلها أكثر مواءمةً لعالمه، الأمر الذي جوبه بشدّة من فاتنة، وتمّ رفضه مراراً، تسبّب هذا في كل

مرّة ببعض الجفاء وارتباك العلاقة بينهما، قبل أن تستسلم أمام حبها الجارف لرغبات هذا الشاب المحافظ الغيور.. ربما بدافع احتوائي مؤقت، طلبت من حبيبها التمهّل في هذا إلى وقت اقتراب الزواج وما بعده، ليتسنى لها على حدّ زعمها أن تفعل هذا بتدرّج لا يثير الكثير من التساؤلات والريبة.. في عالم تنتمي له.. أهمّ عناصره وأقربهم والدتها والعم اللواء، وعدته بجدية ظاهرة أن تهيّئ نفسها لمثل هذه التغييرات؟ شيئاً فشيئاً بدأ هو أيضاً في خضّم حرارة العلاقة وتعلّقه الكبير بها يتنازل عن بعض متطلّباته، راح يمّني النفس بموعد قريبٍ لالتقائهما تحت سقفٍ واحدٍ كزوجين سعيدين ضارباً بعرض جدران القصر الكبير المترف كل محظورٍ في نفسه، تمّ أخيراً طرح الموضوع بشكلٍ جدّيٍّ مباشر، والدتها وكما أكّدت له فاتنة، وكما كان يخمّن من خلال إيجابيتها الواضحة في التعامل مع علاقتهما.. لم تكن عائقاً أمام الموضوع، لم تناقش معه حتى وضعه العائلي والأسري المعلق، ولم تطالبه بأي إجراءٍ يتعلّق بهذا.. بل كانت أيضاً عامل مساعدةٍ وتيسيرٍ إضافي، حين تولّت تقديم الموضوع للواء والأقارب، كان مطلبها الوحيد والأكيد هو أن تكون إقامتهما في قصرها الكبير.. كي لا تفارق وحيدتها.. الطلب الذي رضخ له ثابت راغباً في قرارة نفسه، رغم خططه السابقة بالبحث عن بيتٍ مناسبٍ في أطراف دمشق.. لم يدم الأمر طويلاً حتى تمّ تحديد موعدٍ قريبٍ للخطوبة والتجهيز لحفل زفافٍ كبيرٍ يليق بالعائلة والعروسين السعيدين، تأخّر موعد الزفاف أكثر من مرّة ولعدة أسباب.. حتى بدأت الأجواء السياسية والأمنية تتلبّد سماؤها بغيوم القادم الذي لم يكن بالحسبان؟



(٧)

طلقْ مُبَكَّر

يوشكُ الرَّبِيعُ أن يصادِرَ سَطْوَةَ قَحْطِ الشَّتَاءِ الطَّوِيلِ الثَّقِيلِ ..
 ويزرعُ بذورَ ياسمينِهِ الأَبْيَضِ في تربةِ الغَدِ المَشْرِقِ الجميلِ
 لكنْ .. أليسَ الرَّبِيعُ جزءًا من منظومةٍ متكاملةٍ .. تبدأ بِبَرَقِ
 ورعدٍ وتمرُّ بعواصفٍ .. وتنتهي بلهبٍ ما قبل الحصادِ ؟!
 من يدَّعي أنَّ الرِّصَاصَةَ لا تروي عن خلفيةٍ مُطلَقِها فليقرأ
 سيرةَ رصاصَةٍ من لحظةِ الزَّنادِ إلى مستقرِّها في رأسِ طفلٍ
 .. أو في رَحِمِ امرأةٍ حاملٍ .. أو في خاضرةٍ عجوزٍ!
 ومن يزعمُ أنَّ التُّرابَ يمكنه أن يضمَّ الإراداتِ الحرةَ مع أجسادِ
 الرَّاحلينِ .. فليتابعْ حكايا المجدِّ في مختلف العصورِ !

ظَلَّ علي مواظبًا على الخروج كلما أتاحت له الفرصة إلى الجامعة،
 يستجدي القدر فرصةً للالتقاء بمن تعلَّق بها قلبه حدَّ الهيام .. صارت ليلي
 بالنسبة له الحب المستحيل الذي يكتفي منه بنظراتٍ يحصل عليها خلسةً ..
 وعن بعدٍ .. كلما سنح حضورها إلى الجامعة بها .. يكتفي بمراقبتها أو
 الوصول إلى أدنى نقطةٍ من محيطها، يتشبَّث بحلم حياته الصعب .. الجميل ؟
 غير أنه في إحدى هذه الزيارات فُجِعَ بمشهدٍ لم يعتده فيما مضى، سبَّب
 له صدمةً جعلته يتفص ويهبطُ بتأثير مشاعر الغيرة الفياضة تجاه الفتاة بلا
 هوادة .. رأى ليلي يرافقها زميلٌ ممن تخرَّجوا قبل علي بعام، يجلسان

وحيدين، وكانا يدوان سعيدين ومتجانسين لدرجةٍ أشعرته بأن الحلم الذي عاش له وبه مهدّد.. وفي طور النّحر؟

لم يكن متأكّداً من دقّة إصابة أحاسيسه بالخوف من ذلك المشهد، ولا شيء يوحى بما يخشاه.. لكنه يملك الكثير من مبررات الخوف أصلاً تكفيه اليوم لأن يطلقه، ويتنقل إلى مرحلةٍ أكثر جرأةً في الاقتراب من مواجهة ما تهرّب من مواجهته مراراً، وتردّد في البوح به؟

حاول أن يتقصّى عن أصل العلاقة بينهما، هل كان ذلك بمحض الصدفة، أم أنها حالةٌ قد تمّ إعدادها عن عمدٍ وسابق تدبير وشعور؟

لم يصل إلى إجابةٍ شافية.. زملاؤه الذين كانوا قد لاحظوا اهتمامه المفرط بها صاروا الآن يرثون لحاله، نصحه البعض منهم بالمجاهرة بحبه والتقدّم خطوةً باتجاهها، والبعض الآخر نصحوه بطريقةٍ مؤدّبةٍ بالابتعاد ومحاولة تخطّي هذه التجربة لأن نتائجها يمكن تخمينها بسهولة، هذا سيؤدي إلى إحباطٍ مضاعفٍ.

غير أن أهمّ حواريةٍ في هذا الصدد كانت مع حبيبه المقرب ثابت، لجأ له على إثر صدمته وشعوره بالخوف الشديد من تبدّد بقايا أحلامه، وشكا له شعوره المقلق، أسرّ له بكل مخبوء نفسه، وطلب بحرقه وحزنٍ ظاهرين مشورته ونصحه:

- ماذا أفعل يا صاحبي؟ أكاد أموت غيظاً وعجزاً

وقف ثابت أمام صديقه.. وقد بدا أنه أكثر عجزاً من صاحب المشكلة، هو يعلم صعوبة وخرج أن يجيبه عن هذا الأمر بلا رتوشٍ أو تجميل، لكنه اليوم يجد نفسه مرغماً أن يواجهه بالحقيقة المرّة، وألا يخدعه بالتغطية والمواربة..

فالهروب من الإجابة والخوض في المشكلة لن يحلها.. وهو الذي يجد نفسه مضطراً للوقوف مع صاحبه، وتقديم المشورة والعون.. والمساعدة إن أمكن.. ينظر ملياً في وجه صديقه ويضع يده على كتفه ويهمس:

- دعني أكنُ معك صريحاً كما عهدتني.. أنت تعلم أن العائق أكبر من أن يتدلل بالسهولة التي نودُّ ونريد.. وأعتقد أنك تفهمني جيداً

- نعم أفهمك جيداً، ولكنني أتساءل كثيراً بيني وبين نفسي.. لماذا؟

- هكذا فرضت الوقائع الظرفية من قبلي وقبلك.. لست مسؤولاً عنها ولا أنا ولا ليلي أيضاً يا صاحبي

- أليست تفكّر بالزواج من فاتنة رغم أنها تنتمي لمذهبنا؟ ما المشكلة التي تراها في هذا؟ وما المانع الذي واجهته؟

- أنت تعلم أن حالتي تختلف عن حالتك تماماً، فاتنة من عالم بعيد لا يخضع لذات المؤثرات.. دعني أسألك سؤالاً مباشراً وأريد إجابتك الصريحة عليه.. هل كنت لتقبل بزواجي من أختك مثلاً؟

كان سؤال ثابت صادمًا ومحرّجاً جداً لصديقه.. ألجمه وجعله ساهماً حتى استغرق إطلاق ردّه وقتاً طويلاً

- بالنسبة لي نعم أوافق.. لا مشكلة لديّ..

- أكمل.. لم توقّفت يا صديقي؟ ما زلتُ أنتظر تتمة الإجابة.. أنا وأنت نعلم أن هناك إكمالاً لابدّ منه للجواب... هناك ما يجب أن يقال بعد الاستدراك بـ(لكن).. أليس كذلك؟ ولكن.. أهلي وأقاربي لن يسمحوا بهذا ولن يوافقوا قطعاً.. أليست هذه الإجابة الكاملة يا صديقي العزيز؟ لا أستطيع أن ألومهم، لأنني لو وضعتُ في ذات الموقف لعلتُ مثلهم..

انظر.. مهما حاولنا أن نذلل صعوبة المشكلة فهي موجودة رغمًا عني وعنك وعن كل تقاربٍ وألفة، الفوارق الطائفية والمذهبية قائمة منذ أجدادي وأجدادك، تقرّرها الكثير من العوامل.. قد تكون بالنسبة للعديدين موضوعيةً، ولل بعض الآخر تخلفٌ وظلمٌ، لكن لا مفر من القبول بحكمها، وهي لم ولن تفسد للود قضية.. لأن أكثر صراحةً معك.. لو سألتني أنت يا صاحبي ذات السؤال للقيت مني ذات الجواب؟

-سيفيقى الأمل قائمًا وحيًا في فؤادي وعقلي يا صديقي.. لا بد أن أجد لهذا الأمر حلًا مهما كلّفني ذلك، لن أقف مكتوف الأيدي.. ولا أسمح لحلمي أن يتناثر أمام عيني في الأفق سرابًا.. ألا يمكن أن نكون معًا نموذجًا للتغيير والخروج عن العادات والتقاليد والعرف؟

ألن أجد بالقليل من الإرادة والإصرار، وبعض التفهم لديها ولدى العائلتين نافذة ضوء.. حتى لو كانت ضيقة؟ سأستمر بالتمسك بهذه المساحة من الأمل مهما ضاقت، ويكفيني أن يلقى هذا لديها بعض القبول.. حتى أحارب الدنيا من أجله؟

استعدّ كمال وأهله بعد عودته من دمشق للزفاف المتوقع خلال الشهر القادم، بشراء الحاجيات الضرورية لذلك، ومساعدة العروس في اختيار ما يمكن من الثياب المناسبة للمرحلة المنتظرة.. مستمرًا بوظيفته التي برز فيها سريعًا، أثبت وجوده بنشاطه ودماثة خلقه.. بالإضافة للدعم الذي سبق وصوله، مما جعله في فترة قصيرة يصبح كما وعده المدير العام.. مديرًا للمالية في دائرته، مع حصوله على سيارة فاخرة جديدة، ومكتب فخم أنيق.. لكن هذا بدأ يعرضه للكثير من الأقوال والتعليقات..

أصبحت لقاءاته بأصحابه تأخذ بالنسبة له بعداً مختلفاً ومناخاً لا يشبه ما مضى، فبينما كان البعض فرحين لما ناله مبكراً، مستبشرين بنظيره في المستقبل القريب، كان البعض الآخر يكتم حسده وتذمره ويجالسه على مضضٍ، بينما وجد عند الآخرين بعض الاستهجان للطريقة التي حصل بها عليه، بدأ هذا بالنسبة له يكشف المعادن الحقيقية لكلّ منهم.. يعرّي الوجوه التي كانت تنتكر بالودّ والتقدير واللهفة..

أكثر الحاسدين هو صقر الذي لم يستطع أن يخفي عدم رضاه بما تحقّق لكمال في فترةٍ وجيزةٍ، وهو الذي كان يعتبر نفسه المحظوظ الوحيد والمدعوم الذي لا ينافسه طامحٌ. تمنّعت الكثير من طموحاته عن التحقيق حتى هذه الساعة بانتظار الكثير من الوعود من الأهل والأقارب الواصلين، وأقربهم والده المدعوم وأعمامه الضباط.. رغم أنه حقّق الكثير بالمقارنة مع الآخرين.. لم تخلُ الجلسات رغم هذا من مظاهر الفرح والأنس المعتادة، وما تخلّلها من مداعباتٍ لكمال بشأن الزواج المفترض القريب.. وقد أعدّ معظمهم العدة لإقامة حفل زواجٍ مميزٍ لصديقهم.. أخذت الجلسة تتحوّل إلى ساحةٍ يتنافسون فيها على تخيل هذا اليوم بكل ما فيه من تفاصيل..

- لن أرثي لحالك بعد هذا اليوم يا هذا؟ فيداك أوقدتا وفوك نفخ

كانت هذه مداعبة أحدهم لكمال على وقع ضحكات الجميع

- لا والله سأبقى حزيناً لأجلك طويلاً يا صاحبي.. وسأندكر بأسى ما كنت عليه من الشموخ والألق قبل أن تصبح خادماً بيتٍ مقموعٍ.. وقبل أن تشغل بإطعام الصغار وترقيدهم.. وربما ب... من يدري؟

يقول الآخر.. وتأتالي التعقيبات والمداعبات.. حتى ينفصّ الجمع؟

بينما كانت عائلة أبي خالد هناك في القرية تحاول الاعتياد على الوضع الجديد، باعتبار ثابت غير موجودٍ، خصوصاً الأمُّ المجروحة المشتاقة لولدها، رباطة جأش المرأة لم يعفِها من رسوم الأمومة التي تسدّها باهظةً، بينما كانت خالدة الزائرة الدائمة التي تحنُّ إلى لقياءه.. تشي بحجم حنينها دموعٌ ساخنةٌ غزيرةٌ كلما اجتَرَّت ذكراه.

بقيت إقامة هادية وعثمان عندهم، حيث رفضت بقوةٍ رغم ضغوط أهلها أن تعيش في بيتهم، بحجّة أنها مازالت على عصمة ثابت.. وبيت أهله أولى بوجودها فيه كما تقول.. الأمر الذي جعل أبو خالد وأم خالد والجميع يزدادون تمسُّكاً بها وبولدها، وجعل قدرها في عيون أهالي القرية والبيت يسمو أكثر فأكثر..

كثرت الأقاويل هناك حول ثابت ووضعه، مما أزم الأمر لدى أبي خالد وعائلته، صار يتمنّى ألا يواجه أحداً حتى لا يضطرّ لفتح هذه السيرة المزعجة.. في الداخل بقي الحزن الغائر في القلوب على وضع ثابت يؤرّق الجميع، يحرض لديهم الشعور بالنقص والعجز والحسرة.. دون أن يحاول أحدهم إظهاره للآخرين..

يُستثنى من هذا الوضع ما كان يدور سرّاً بين أكثر كائنين عاطفين يمُسُّهما الموضوع، وهما أم خالد وابنتها خالدة.. كان آخر ما دار بينهما ما علمته خالدة ونقلته بناءً على طلب ثابت إلى الوالدة وهادية عن وفاة السيدة الكبيرة، وموضوع الإرث الذي نال ثابت وزوجه وولده منه نصيباً..

أمر الإرث هذا كان ليكون مبهجاً ومدعاةً لاحتفالٍ عائليٍّ مهيبٍ في غير هذه الظروف، تحدّثنا عما تمّ الاتفاق بينهما عليه، وهو إرسال واثق هادية المطلوبة إلى ثابت لتتمّ إجراءات تثبيت حصّتها من وصية السيدة، وقد تمّ الاتفاق على أن

يبقى كل هذا سرًّا طَيَّ الكتمان.. لا يعلمه سواهما إلا هادية التي تَمَّت توصيتها بكتم هذا الأمر عن الجميع؟ لم تفعل أم خالدٍ مثل هذا فيما مضى طوال فترة زواجها.. لكنها أجبرت هذه المرأة تجنُّباً لرفضٍ متوقَّعٍ من زوجها.

كان الأمر المحيِّر والمثير للتساؤل هو التفكير بما بعد هذا، كيف ستصرَّف هادية بهذا المال.. تعدَّدت الاقتراحات والأفكار لضمان ما يحقق للمسكينة وابنها مستقبلاً مريحاً نافعاً، وانتهت جميعها بما يشبه الاتفاق على شراء منزلٍ تستطيع هادية وابنها أن يقيما فيه.. ريثما يُحدث الله أمراً..

أما خالد وإخوته الآخرون فقد كانوا أيضاً يضمرون الكثير من الشوق لأخيهم والحزن على فراقه القسري هذا، غير أنهم كانوا يستسلمون لأوامر الأب بالمقاطعة.. دون تدميرٍ أو محاولة اختراق.. استمرَّ هذا الحال بل ازداد سوءاً، بعدما علم الجميع بأن ثابت استمر في وضعه المريب بعد وفاة العجوز وما ناله منها.. ودرجة القرب الكبيرة التي توطَّدت مع الفاتنة وبيئتها؟



حين عاد ثابت إلى ممارسة عمله ملتحقاً بالفرع بعد فترة الإجازة التي نالها بسبب الوفاة.. كان بانتظاره هناك وضعٌ طارئٌ جديد؟

لاحظ على الفور حركةً غير اعتيادية في الفرع، بدا كأنه خلية نحلٍ لا يهدأ قاطنوها عن الحركة.. الجميع في عملٍ دوَّوبٍ، الاجتماعات على قدمٍ وساقٍ في كل الطوابق.. وفي غرف الجميع.. خصوصاً في غرفة اجتماع اللواء، حيث لم تفرغ الطاولة المستديرة من المجتمعين ومكتبه من استقبال الزائرين.. لاحظ ثابت الذي لم يكن مدرِّكاً تماماً لما يحدث أن الضيوف يتمنون إلى مختلف الملل والقوميات والأشكال.. والقطاعات..

لاحظ قدوم ضباطٍ عسكريين كبار، ورجال دينٍ من أصحاب العمامات السوداء والبيضاء، ورجال علمٍ وجامعاتٍ ومسؤولين مدنيين بالوزارات.. وغيرهم وغيرهم.. كما لاحظ خلال ساعتين من دوامه استقبال أكثر من عشرة قراراتٍ وتوصياتٍ صادرةٍ عن الجهات الأعلى، هي غالبًا من القصر الجمهوري والرئيس شخصيًا..

- ماذا هناك يا علي؟ هل حصل شيءٌ أثناء غيابي؟

سأل ثابت مبدئيًا استغرابه بالوضع الجديد

- أيعقل أنك لا تعرف؟

- أعرف ماذا؟ صدّقني لا فكرة لدي عما يجري.. كل ما أعرفه أنني أرى

حالةً جديدةً لم أعتدّ عليها قبل إجازتي

- ولم ترَ نشرةً أخبارٍ أو تسمعها؟

- أفلقتني يا رجل.. لا صدّقني لم أكنُ على اطلاعٍ، أنت تعلم الوضع

جيدًا، ما حصل وبمَ كنتُ منشغلًا في هذه الفترة.. حتى أنني لم أشاهد التلفاز

منذ أيام

- حصلت ثورةٌ شعبيةٌ مفاجئةٌ في تونس أطاحت بالرئيس التونسي،

والآن هناك ثورةٌ قائمةٌ في مصر.. الجماهير تملأ الشوارع..

- كل هذا حصل في هذه الفترة القصيرة؟ هل هي مشاريع انقلابات؟

- لا.. هي ثوراتٌ شعبيةٌ، لكنّ الجيش في تونس تدخل وأقال الرئيس،

ويبدو أن هذا من الممكن أن يحصل قريبًا في مصر أيضًا..

- وعلى افتراض حصول كل هذا.. فلم كلّ هذا الاستنفار هنا؟

-هي إجراءاتٌ احترازيةٌ طبعاً لضمان عدم العبث بأمن الوطن.. فسورية بوضعها القائم وقيادتها الحكيمة، وارتباط الشعب والدولة بالجيش، ووجود مؤسساتٍ أمنيةٍ قوية.. لن تسمح بحصول مثل هذا، مع العلم والثقة أن شعبنا لا يمكن أن يقوم بأمرٍ سلبٍ ضد الدولة.. ألا ترى معي هذا؟

قال هذا الزملاء المتواجدين موجّهاً الخطاب لثابت.. بينما تنتشر من بين كلماته رائحة الخوف والتوتر..

- طبعاً.. طبعاً..... بالتأكيد

ردّ ثابت وهو يستدرك، يحاول أن يللم نفسه التي تشتّت من هول المفاجأة، يرى مقدار الارتباك والخوف في عيون صاحبه علي أيضاً، ونبرة صوته التي أيدت ما قيل للتوّ بغير ما كان يتوقّعه منه على اعتبار اختلافه عن الجميع هنا على الأقل فيما يتعلّق بآلية اللهجة وشدّتها، وما رآه في وجوه الجميع من اصحاب البيت والزائرين؟

أصبح ساعةً بعد ساعةً، ويوماً بعد يومٍ، أكثر استيعاباً لما يجري، وقد تابع كغيره نشرات الأخبار وتعليقات الحاضرين.. في البداية لم يتلقّ هو شخصياً أو من مثله من العناصر تعليماتٍ خاصّةٍ، كانوا مجرد متابعين وملاحظين لتحركات الكبار من بعيد.. منتظرين ما ستسفر عنه هذه الاجتماعات والتعليمات المتلاحقة.. ومنفّذين لحملة اعتقالاتٍ احترازيةٍ سبّبت زحمةً في أقبية الفرع.. ضاقت بها الزنازين الصغيرة؟

الإجراءات الصارمة في الدوام والدوريات والحراسة أصبحت ظاهرة ذات صيغةٍ متشدّدةٍ شيئاً فشيئاً، ثم بدأت التعليمات الواضحة تأخذ طريقها للجميع.. المطلوب هو الاستنفار الكامل والتركيز ومراقبة كل شيءٍ

وكل أحد، تمّ رفع الجاهزية وفرض قانون طوارئ يمنع الجميع من المغادرة إلا بإذن خاص من رئيس الفرع شخصياً.. جرى العمل سريعاً على رفع عدد المخبرين المدنيين المكلفين من فروع الأمن بتقديم التقارير عن الناس وتحركاتهم، تمّ تفعيل نشاط الكثيرين السابقين المتقاعدین أو المستبعدین منهم، تارةً بالترغيب المادي.. وأخرى بالترهيب والتهديد..

صار لزاماً على ثابت كغيره أن يناوب كثيراً في الفترات المسائية والليلية، أحياناً بفعلها مرغماً حتى الصباح.. أصبح يلاحظ زيادة التركيز على مراقبة المشكوك بأمرهم من أصحاب السوابق أو النشاطات السياسية المعروفين، خصوصاً من فئة الشباب.. مع استمرار متابعة ما يجري داخل وخارج الحدود.. لم يكن هذا مريحاً لأحد، بل مصدر قلقٍ للجميع، لكن ثابت أكثرهم تأثراً لأنه لم يكن بعد قد أدرك ما يجري تماماً، ولا كانت هذه من ضمن حساباته.. حتى أخذ يحسبها من جديد.. ماذا لو؟؟؟؟

هناك في قرية ثابت.. الجميع يتحلّقون باهتمام أمام شاشات التلفزة، متابعين ما يحصل في ساحات وشوارع مصر بعد ثورة تونس التي بدأت قبلها بقليل، حيث انفجرت وبشكل مفاجئ ثورة عارمة على نظام الحكم فيها، على إثر حادثة حرق أحد التونسيين المقهورين الفقراء نفسه.. ليعلن تمرّده على الظلم بحسده المحترق، على مرأى الملايين.. على مساحة كل الوطن العربي والعالم؟

خلّف هذا صدمة كبيرة للبعض ومرعبة إلى حدّ كبير، بينما كان للغالبية مفتاح أملٍ لاحتمالٍ راود أحلامهم كثيراً.. لكنه بقي طيّ الكتمان خوف القبض عليهم متلبّسين بهذا الحلم المزمّن القديم... والاقتياد إلى جهة مجهولة لا يعلمها إلا الله..

الشباب كانوا أكثر جرأةً في التعبير عن هذا الحلم والتمسُّك به، ربما بدافع القهر والمعاناة التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم.. وتأثُّرهم بما يجري حولهم في العالم بحكم تواصلهم أكثر مع التكنولوجيا التي حوّلت العالم إلى قريةٍ واحدةٍ صغيرة، أو بحكم أن الكثير منهم يجهل ما يعلمه الكبار وما اختبروه سابقاً من وسائل القمع والقتل في هذه الأرض الموسومة بمستبديها منذ زمنٍ طويلٍ.. وعذابات السجون والاعتقال...

لم تستغرق الثورة في تونس سوى ساعاتٍ قليلة، أطاحت برأس النظام الذي فرَّ خارج البلاد مع عائلته، تاركاً الشعب يحتفل بواحدةٍ من أسرع الثورات في التاريخ نجاحاً، شاهد الناس في مختلف البلاد واستمتعوا بكمّ الفرحة التي أبدتها الجماهير التونسية التي خرجت إلى الشوارع محتفلةً بنصرها الكبير..

في مصر أيضاً قامت الثورة الجماهيرية الكبيرة على إثر قتل رجال الشرطة لعددٍ من النُشطاء المصريين الأحرار الشباب، لم يكن الناس بانتظار أسباب أكثر ليقوموا بثورتهم، فلديهم في النفوس الكثير من المتراكمات التي تنتظر شرارة الانطلاق لتشتعل ثورةً في النفوس قبل أن تصبح ثورة حشودٍ هائلةٍ في الشوارع والميادين.. وقد أتت بشائرها مع نجاح ثورة تونس، وتضحيات الشباب النشطاء المصريين..

ما زال الوضع متأزماً مستمراً باعتصاماتٍ ومظاهراتٍ كثيرةٍ في كافة أرجائها.. خاصةً في ميدان التحرير في العاصمة الذي أصبح محطّ أنظار عشرات الملايين من العرب وغيرهم عبر وسائل الإعلام، ومنهم السوريون؟ أبو خالد وعائلته والمقرَّبون صاروا يتجاوزون ما عهدوا عليه آباءهم من النوم مبكراً، أصبحت أمسياتهم العامرة في المضافة بالأخبار ومتابعة الموقف.. تستمرُّ حتى ساعات الصباح الأولى.

- هل ينجحون بالإطاحة بالنظام كما فعل التوانسة يا أبي برأيك؟

سأل خالد والده

-لم لا؟ إرادة الشعوب قوية يا ولدي أقوى من بأس السلاح والمدرعات وكل وسائل القمع، الحضارة الإنسانية العريقة والقيم الأخلاقية المتأصلة في النفوس.. مهما حاولت أحدى عسكر الأنظمة أن تدوسها وألاعيب السياسة أن تتحایل لطمسها، فلا بد أنها الظاهرة والقاهرة بحكم جذورها العميقة.. لكن السؤال هو: إلى متى يستمر الوضع حتى يحققوا مرادهم؟ .. هذا علمه عند الله.. -هل يمكن فعلاً أن يكون في هذا فرجة أمل لنا.. وأن نحلم بيوم مشابه قريب؟

سأل هذا خالد وهو يكاد يدخل شفاهه في أذن أبيه، فقد كان بحكم الموروث اللاشعوري مجرد التفكير بالأمر كارثة.. فما ظنك بالتصريح به.. - دعنا نتابع هنا ما يحصل في مصر، وقد تحرّك الشارع في اليمن أيضاً، أعتقد أنها عدوى ستنتشر، ولكن لكل دولة حساباتها الخاصة، ليس بالضرورة أن تنجح الثورات بنفس اليسر والسّهولة كما في تونس، فعلى الأقل جيش تونس حسم الأمر مبكراً قبل أن تستفحل الأمور، ورئيسها المخلوع حزم حقائبه واختار الرحيل.. لا نعرف بالنسبة لمصر حتى هذه السّاعة ما يمكن أن يكون..

أما بالنسبة لنا فذلك حديث آخر مبكر الخوض فيه الآن، فاحرص على نفسك من إبداء شغفك هذا أمام أيّ كان ولأيّ سبب، وتجنّب الحديث في هذا الموضوع أمام أي أحدٍ.. بالتأكيد الآن تكون مستشعرات المخابرات عندنا قد رفعت جاهزيتها للتلقّي والالتقاط أكثر.

هل ترى وسائل إعلام النظام عندنا كيف تطبّل للثورة وتزمر وتتابع تغطيتها بتشجيع واهتمام؟ يحاولون أن يصوّروا أن هذه الأنظمة عميلةٌ تستحقُّ ما يحصل لها.. ظناً منهم أنهم بذلك ينزّهون نظامهم بحسب تفكيرهم.. صدّقني وأجزم بذلك وعليه أراهن.. هم الآن يعدّون العدة للنفير، تجدهم جميعاً وقلوبهم شتى ترتجف.. ويد كلّ منهم على الزناد؟

لذلك أقول لك إنهم سوف يزدون من الرقابة على الشباب خصوصاً في هذه الفترة، فكن وإخوتك على معرفة بهذا، واحسبوا تصرفاتكم جيداً، راقبوا أقوالكم، لا ترتجلوا قراراتكم بعشوائية واعتباط.. هذه ليست تونس أو مصر.

ثم تنهّد أبو خالد طويلاً بحرقة وصمت، أخذته الأفكار ساهماً خارج المكان، أدرك خالد ما يدور الآن في ذهن أبيه، علم أنه يفكر في ثابت وأين هو الآن، ماذا يفعل لو ساءت الأمور، حتى ولو كان الأمل في هذا مازال في سوربة بحكم البعيد.. فإن هواجس الأب وعاطفته تغلب كلّ منطقٍ ومعقول؟

شباب القرية والمنطقة بأسرها كغيرهم من شباب الوطن تحرّكت في نفوسهم عوامل الشّغف والحماس، ورغم توصيات أبي خالد وجميع الكبار فإن حماسهم وتشوّقهم لاستعجال حلم التغيير تفوّقت على محاذير الكبار، صاروا يكثرّون التجمّعات في بعض المنازل والملتقيات والمضافات الكبيرة، بدأت الأصوات تعلو رويداً رويداً باتجاه استحضار اللحظة المناسبة.. ولما كانت أغلبية الشباب قد تعلّقت بوسائل التواصل الاجتماعية لما صار لها من دورٍ في إشعال ثورتى تونس ومصر وباقي الدول التي بدأت بالتحرّك، فإن هؤلاء الشباب أصبحوا أكثر تعلّقاً بها وتواصلاً، الآلاف منهم انشغلوا بتأسيس مجموعاتٍ خاصّةٍ على هذه الوسائل، يشاركون فيها بأسماء مستعارة، ويعملون على تحشيد أكبر عددٍ من الأصوات للتنسيق فيما بينهم..

حطب النفوس الرابضة تحت ضغط الاستبداد، والذي طال أوان جفافه..
كان ينتظر فقط عود الثقاب؟

حتى خالد وإخوته ورفاقهم وجيرانهم الأحرار الحائقون على الوضع
برمته، وخاصة ممارسات المخابرات والشرطة والبعثيين المنافقين
الوصوليين على حدّ وصفهم والمخبرين والمتعاملين مع أجهزة النظام من
أمثال بيت الخليل وغيرهم.. كل هؤلاء ساهموا إلى حدّ بعيد في خلق مناخ
جديد قابل للاشتعال في آية لحظة، أصبح هؤلاء الشباب جميعاً مستعدين
لأن يكونوا القشّ اللازم لإشعاله..

- الربيع قادمٌ لا شك في هذا، ولن تكتمل دورة الفصول من غيره..
لكنّ علينا أن ندرك أطوارها وتقلّباتها ونتأهّب، فلا يمكن للربيع أن يكون
بلا رعود الشتاء، ولن يؤتي أكله قبل التعرّض للهبب الصيف.. يا جماعة أنا
لست ضد هذا التوجّه، بل أنا أول من نادى به منذ سنين طويلة، كنت وما أزال
أطمح لساعةٍ مثل هذه تأتينا لتخلّصنا من نير العبودية، لكني أوصيكم بالعقل
مع الحماس، والحكمة مع الحركة.. يا إخوتي ويا أولادي.. الأمر عندنا
سيكون مختلفاً، غداً ستعرفون وتشعرون بصدق وأهمية ما أقول، الوضع هنا
لن يكون كتونس ومصر، ولا حتى اليمن وليبيا.. يا جماعة الخير.. موقعنا
وطبيعة نظامنا، وكل الأسباب الموضوعية هنا مختلفة..

أبو خالد يصيح منبهاً في مضافته، في تجمّع لشباب القرية وبعض رجالها
المتحمّسين الفرحين على إثر انتهاء ثورة مصر بعد تونس برحيل رئيسها وتغيير
السلطة، ونجاح جماهيرها بتحقيق إنجازٍ كبيرٍ تاريخيٍّ خلال أيام قليلة...
الأمر الذي اضطرّ قوى العالم الكبرى أن تغيّر حساباتها في المنطقة بأسرها،
وتطلب هي من النظام الحليف الرّحيل.. ويتدخّل الجيش لحسم الموقف؟

- بَمَ يختلف يا عم؟ .. عندما تقف الشعوب وقفةً واحدةً كما رأينا، فلا مفرّ للنظام وداعميه من الاستسلام للأمر الواقع..

- هذا ما تظنونه أنتم.. مرّةً أخرى أؤكد لكم أنّي معكم قلباً وقالباً، وفداكم مالي وولدي وبيتي، لكن كونوا مستعدين لدفع فواتير باهظة، هي أكبر مما تعتقدون، هذا النظام هو حارس مصالح للجميع.. للغرب والشرق البعيد وللمحيط القريب.. وافهموها إن كنتم راغبين.. لن يستطيع أن يدعنا أحدٌ مادامت القوى الكبرى لم تحضّر بديلاً يقوم على مصالحها.. لن أقول هذا بعد اليوم مرّةً أخرى، وسترونني وعائلي في مقدّمكم كما عرفتمونا، لكنني أنذر من كان غافلاً ليصحو ويعتبر.. وتتسع مساحة الرؤيا عنده، ويتهيأ لمثل هذا.. ألا هل بلغت؟؟

سمع الجميع بعد فترة قصيرةٍ وتابعوا ما حدث في منطقة (الحريقة) بدمشق، حيث قامت مظاهرةً حاشدةً من تجار السُّوق والعاملين فيه تحنّج على معاملة شرطيٍّ لأحدهم ومحاولةٍ إذلاله.. ورغم أن المظاهرة التي كبرت بسرعة، وعلا هديرها كانت احتجاجيةً بقوة، إلا أن سقفها لم يتجاوز التنديد بالمعاملة القاسية للشرطي، وإشاراتٍ محدّدةٍ من خلال صيحات الناس، وما ردّدوه أثناءها من هتافاتٍ، تدلُّ على حاجة الناس للكرامة والحرية، كان شعارها بلهجة الشارع، والذي حفظه كل السوريين وأرّخوا له: (الشعب السوري لا يُذل)؟

مرّ خبر هذه المظاهرة في بعض وسائل الإعلام الخارجية، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، دون أن يكون محرّضاً كافياً للتعميم في باقي المناطق.. لكنه منح الكثير من شباب الوطن الثقة الأكبر لتخطّي حاجز الخوف الرّهيب..

جاءت الأوامر العليا في دمشق حينها باحتواء هذه الحركة، دون الضغط على المتظاهرين بشكل مباشر، وإنما بمراقبتها والعمل على عدم توسُّعها وانتشارها.. وهضمها.. ثم باقتناص الفرصة لوضع اليد على مدبِّريها إن تمَّ تحديدهم، فاتهم أنها خرجت عفويةً إثر مقدِّماتٍ طويلةٍ وعوامل ذاتيةٍ موعِلةٍ في القِدم في النفوس..

تدخَّل وزير الداخلية شخصياً وخاطب الناس، مرَّت بسلام على أصحاب الأمر.. لكنها أعطت إشارةً لإمكانية حدوث ما كان بالأمس القريب من المستبعد عن التفكير..

ثابت كان ممن حضر وراقب مع دورياتٍ من الفرع مع زملائه وضابطٍ قاد المجموعة.. تابع معهم كل مجرياتها من بعيد، بدأت هواجسه من يومها تكبر وتفتح لوساوسه من قادمات الأيام الكثير من النوافذ.. تائها ما بين موقفه الصعب المتوقع لو جرى ما يدور بذهنه، ومواقف أحبَّته هناك.. من أبعدته عنهم المسافات والقرارات.. لكنهم ما برحوا روحه ووجدانه ملتصقين..

جميع الناس في سورية ظلُّوا في حالة ترقُّبٍ وحماسٍ وتعبئة.. حتى الصُّغار من أبناء المدارس الذين قُدِّر لهم أن يكونوا هم الشعلة الحقيقية، لانطلاق الثورة واشتعالها بعد سنواتٍ طويلةٍ من الكبت والقهر.. وفي مدينة درعا بالتحديد؟

بعد أيام من حادثة سوق الحريقة.. قامت مجموعةٌ من الطلاب القُصَّر في هذه المدينة بالكتابة على الجدران، راسمين بعض الشعارات المحرَّضة على النظام والكلمات التي حفظوها، مما رأوه في وسائل الإعلام منقولاً، أو مما التقطوه من جلسات من هم أكبر منهم.. مما أدَّى إلى اعتقالهم من قبل فرع الأمن السياسي، وبتراسه ابن خالة رئيس الدولة..

قام بتعذيبهم أشدَّ التعذيب.. اقتلع عناصره أظافر الأطفال، شوَّهوا وجوههم، ثم ردَّ على رجال العشائر الكبار من أهل المدينة الذين أتوه بوفدٍ لمحاولة حلِّ المشكلة باستخفافٍ وعنجهيةٍ، بل وأمر باعتقال كل من تسوَّل له نفسه الاحتجاج من رجلٍ أو امرأةٍ أو طفل، وجَّه الإهانة القاسية من خلالهم للمدينة وأهلها.. قامت مظاهراتٌ حاشدةٌ في مدينة درعا إثر ذلك لم تشهدُها البلاد منذ ما قبل عهد البعث، وربما قبل الاستقلال، كانت تلك هي البداية.. وطلقة الانطلاق؟

بدأت المظاهرات بالتنديد بأفعال رئيس فرع الأمن السياسي والمحافظ، طالبت بإقالتهم.. لكنها ما لبثت أن توسَّعت وامتدَّت تحت ضغط قوى الأمن وعدم تلبية المطالب، ارتفع معها سقف المطالب بسقوط أول الضحايا برصاص أجهزة النظام، بينما استمرَّ التوجُّه الشعبي سلمياً، صارت تكبر هذه الاحتجاجات وتضمُّ المزيد من المدينة والريف، تمَّ تنظيم وتنفيذ أول اعتصامٍ للمتظاهرين قرب الجامع العمري في المدينة القديمة (درعا البلد)..

ثابت أيضاً كغيره كان ممن شهد بواكير هذه الحركة عبر وسائل الإعلام، والأحاديث التي دارت في الفرع، غير أنه لم يكن يدري أنه سيكون أحد العناصر الذين يُفترض مشاركتهم في العملية التي أعدَّت لها القيادات من الجيش الذي لم يكن حيادياً وأجهزة الاستخبارات والشرطة لاقترحام المسجد العمري وفُصِّل الاعتصام بالقوة.. كان قبلها يسمع من خلال الاجتماعات والتحرُّكات في الفرع عمَّا سمِّيَ بالمؤامرة الكونية الخارجية لزعة أمن واستقرار البلد، هذه المؤامرة التي كانت بحسب ما أُلقيَ في مسامعه وتقتات بها وسائل إعلام النظام، تقودها قوى عالميةٌ على رأسها الولايات المتحدة والكيان الصهيوني بالتعاون مع جهاتٍ اقليميةٍ على رأسها المملكة العربية

السعودية وقطر والأردن وتركيا وجهاتٍ معينةٍ في لبنان، مراحل تنفيذ هذه المؤامرة كما سمع بدأت بتوزيع منشوراتٍ تحرّص على التظاهر، وتخريب الممتلكات العامة وزعزعة الأمن، وإدخال ارهابيين من الخارج، وتغذية متطرفين لإشعال الوضع وتفجيره، كما أنه سمع عن إدخال كمياتٍ كبيرةٍ من الأموال والأسلحة.. وأنها بواورها قد بدأت تظهر فعلاً في مدينة درعا، وأن المسجد العمري الآن هو المركز الرئيسي لانطلاق أعمال هذه المؤامرة..

كاد أن يصدق في البداية بل إنه صدّقها بالفعل وتبنّى هذه الفكرة، أراد أن يوصل رسالةً إلى أهله بطريقةٍ ما، مع معرفته بما يمكن أن يحفز أباه وإخوته على المشاركة في مثل هذه الاحتجاجات لاحقاً.. ربما بنيتٍ حسنة.. لا بدّ له وهو العارف بخبايا الأمور، والقريب من منابع الحقيقة.. أن ينبّههم إلى جوهر الموضوع، ويحذّرهم كيلا يتورّطون لاحقاً..

لم يستمرّ تعامل أجهزة النظام بسياسة الاحتواء للمظاهرات السلمية التي أرادت أن توصل للعالم كله سلميتها من خلال الخروج بأكفّ خالية مرفوعة وصدرٍ مكشوفٍ.. أكثر من ساعاتٍ، اختبر فيها حجم انتشارها وأعداد المشاركين فيها وخطورة استمرارها.. وبينما كانت الأمور توحى إعلامياً بتوجّه شخصي واهتمام مباشرٍ من الرئيس لتهدئة الأوضاع واحتواء الأزمة، فوجئ الجميع بتدخلٍ عنيفٍ بالرصاص الحي والاعتقالات من قبل رجال المخابرات والقوى الأمنية، ونزول قوات الجيش الذين تطلق عليهم وسائل إعلام النظام (حُماة الديار) بكامل صنوف أسلحتهم الثقيلة إلى الشوارع ضاربين بقوة وبطشٍ شديدين، انتشرت المدرّعات العسكرية والدبابات في كل حيٍّ وشارع، أُحضِر القنّاصة المحترفون ليعتلوا أبنية مؤسسات الدولة العالية، ليتصيّدوا كل متحرّكٍ في الشارع، ويقمعوا كل حراكٍ بغضّ النظر عن ماهيته أو حالته أو نواياه؟

كان ثابت بمفاجأة غير متوقَّعة منه، وبقرارٍ صدر قبل ساعةٍ واحدةٍ فقط أحد العناصر الذين تمَّ اختيارهم للمشاركة في هذا الحدث.. عملية فضّ الاعتصام.. سمع أوامر مشيرةً للانتباه غريبةً ومحمَّسةً من خلال صوت اللواء رئيس الفرع الذي راح يخطب بالضباط والعناصر بقوةٍ وتفاعلٍ كبيرين:

- أبناء الوطن الغيورين ورجال الأمن الأشاوس.. اليوم يومكم.. فلا تسمحوا للمتآمرين الأوغاد بتمرير مخططاتهم والعبث بأمن الوطن والمواطنين، إنهم مجموعةٌ مندسَّةٌ من الخارج، وبعض الذين غرَّ بهم من المواطنين السُّدج البسطاء.. اضربوا المتآمرين والدُّخلاء بقوةٍ وبيدٍ من حديد، لا تتوانوا عن قتل كل من يقاومكم فهو خائنٌ لا يستحقُّ الحياة على أرض هذا الوطن...

إنهم إن ظلوا سيكونون عبئًا ثقیلاً ونذیر شرًّا.. وإن لم نوقفهم الآن عند حدِّهم سيوغرون صدور الكثيرين من عامَّة هذا الشعب، وستكون فتنةٌ لا تُحمد عقباها.. الفتنة أشد من القتل.. عليكم بهم أيها المخلصون للوطن ومسيرة الدولة والقائد.. فأنتم أمل القيادة والشعب.

إنهم يستهدفون بمعونة الأعداء الخارجيين وحدة الوطن والشعب، ويستهدفون من خلال المؤامرة الأخطر مواقف القيادة المبدئية الصامدة الممانعة.. ليزعزعوا الاستقرار.. عليكم بهم، ولا تعودوا إلا وقد أخدمتم هذه الفتنة وخفتموها في مهدها.. الله معكم والقيادة الحكيمة من ورائكم، سيتمُّ التنسيق بينكم وبين قوَّات جيشنا الباسل بواسطة ضباطكم، وستلقون الأوامر تبعاً..

اضربوا الأوغاد المتآمرين بيدٍ من حديدٍ، ولا تأخذكم بهم شفقةٌ ولا رحمة.. فمن يراهن على أمن وأمان المواطنين، وسلامة الدولة فلا يستحقُّ

رعايتها.. أحبيكم مقدّمًا، وأدعمكم وأنقل لكم ثقة القيادة وتوحيها عليكم..
وأنظر أخباركم الطيبة..

لم يستطع ثابت بعد أن تأثّر بهذه الخطبة النارية وتحمّس على غير
العادة للكلام كان يعتبره فيما مضى ممجوجًا فارغًا من أيّ محتوى.. وبعد
ما تنهى إلى سمعه من هنا وهناك، من خلال وسائل الإعلام المحلية العامة
والخاصة داخل الفرع.. إلا أن يكون مقبلاً على المشاركة في هذه العملية
بكامل حماسه ورغبته، لكثرة ما أوغرت صدره أحاديث المؤامرة الكبرى..
والحرص على الوطن؟

توجّه مع زملائه بواسطة مروحياتٍ أفلّتهم إلى الملعب البلدي في
المدينة، ومنها تمّنقل مجموعةٍ منهم بمدرّعاتٍ خاصّةٍ إلى حيث أقيم
الاعتصام، غير أنه بناءً على توزيع الأدوار تخلف مع البعض الآخر ليكونوا
مجموعة دعمٍ تتقدّم لاحقًا.. كان خلال هذه الفترة يسمع فقط أصوات
القذائف والرصاص، وبعض أصوات المتحدثين عبر اللاسلكي.. لم يكن
بعدُ ومن تخلف معه قد رأوا شيئاً مما حصل فعلاً في السّاحات والشوارع..

حين التحقوا بالعملية كان على ما يبدو كل شيءٍ في منطقة الاعتصام قد
تمّ حسمه، أصيب بصدمةٍ كبيرةٍ حين وجد الكثير من الناس مازالوا يقفون
في وجه المدرّعات بأجسادهم ومن غير سلاح، يحاولون إيقافها ومنعها
عن مواصلة مسيرها، القليل منهم استخدم الحجارة.. وبعض الزجاجات
المشتعلة.. بينما كانت طلائع القوات المشاركة تطلق الرصاص الحيّ باتجاه
الناس، رأى سيولاً من الدماء تجري في الشوارع، لكنه حتى هذه اللحظة لم
يردّ أن يصدّق سوى ما اقتنع به وامتلأ به عقله وفؤاده.. شاهد حينما وصلوا
إلى منطقة الاعتصام آثار تشير إلى انتهاء الحركة والقضاء التامّ عليها، سمع

من زملائه المحتفلين كيف أنهم أثناء ذلك الاقتحام وجدوا داخل المسجد الكثير من الأموال ومنشوراتٍ وأسلحة.. ما كان يُعتبر شاهداً حقيقياً على صدق الرواية الرسمية؟

في الجانب الآخر لاحقاً أخبره أحد الذين شاركوا وكانوا داخل المسجد، كيف تمّ اقتحامه والعبث بمحتوياته، وحرق المصاحف والرّقص داخله وشرب الخمر من قبل المعتصمين، وأنه جرى تصوير الفيديوها التذكارية للحظة النصر على المعتصمين وسحقهم، أخبره كيف تمّ إدخال أسلحةٍ ومنشوراتٍ أعدت مسبقاً من قبل جهاتٍ أمنيةٍ لتصويرها عبر وسائل الإعلام المالية على أنها الحقيقة، ولتصديق نظرية المؤامرة الخارجية.. وأكد صديقه هذا وهو من محافظة السويداء بسريّةٍ كبيرةٍ.. خوفاً من أن يسمعه أحد.. أن كل هذا حدث أمام عينيه، وأنه لم يكن بمقدوره سوى أن يقبل الأمر الواقع، ويشارك في احتفالية النصر المزعوم.. ثم اقترب من ثابت أكثر قائلاً:

- صدّقني يا ثابت لولا أنني أثق بك ثقةً عمياء.. ولا أخشى على نفسي منك.. فلن أجرؤ على قول هذا، أنا شاهدٌ والله عليه، نحن أصلاً في صفٍّ واحدٍ ولا مصلحة لي في الافتراء على أحد، لكن قلبي وضميري المصدومان يبيان إلا أن أصرّح بهذه الحقيقة لأحدٍ أثق به.. على ما فيها من خطورةٍ على حياتي..

ولأنّ ثابت المعبأ مسبقاً يأبى القبول بأن يكون شريكاً في هذا الترتيب الذي سمع.. فإن قراره استسلم لإرادة نفسه بالهروب نحو نظرية المؤامرة التي تسكّن له وجع ضميره بما رأت عيناه من دماءٍ، وأبكت على تدفّقها في شوارع المدينة قلبه.. لذا فإنه سارع بالردّ على زميله بالإنكار التام:

- لا يمكن.. نعم أنت بالنسبة لي صادقٌ وموثوق، وقد خبرتك منذ أن تعرّفت عليك لكن.. لا أستطيع أن أصدّق حتى ولو أردت.. لا بد أن هناك

خطأً ما.. ربما في مشاهدتك، أو في تحليلك للأمر، لا يمكن أن يحدث مثل هذا السيناريو يا صديقي، فقد علمنا سويةً وتأكدنا أن هناك مؤامرةً فعلاً، وأن ثمة تحريضٍ من الخارج لإثارة الفتنة والبلبل، شاهدنا عبر الشاشات وكل العالم شاهد آثار التدمير والتخريب الذي افتعله المسلحون في المدينة قبل أن نصل بأيام، وكيف حرقوا مؤسسات الدولة.. أنا أحترم وجهة نظرك ورؤيتك، وبالتأكيد لن أسمح لنفسني بأن أنقل رأيك هذا لأحدٍ، لكنني أخالفك يا صديقي، وأدعوك للتفكير جيداً، وألا تتأثر بالإعلام المغرض، أو ربما بشكوى أتنك من أحد المُعَرَّر بهم..

اضطرَّ بعدها الصديق المغلوب على أمره إلى التراجع أمام إصرار ثابت، واستدراك نفسه بعد الصدمة من ردّة فعله، وخوفه من تبعات ما صرّح به، والانسحاب مما قال تدريجياً، اعتذر الشاب مرتبكاً وخائفاً.. ميرراً بأنه ربما أخطأ في زحمة الأحداث، ولم يتقدّم في الصفوف الأولى للاقتحام، وتهياً لناظريه وسمعه.. ما لم يكن؟

صوتٌ داخل ثابت كان يحرضه على الاستيضاح أكثر، وما من أحدٍ يثق به وبرؤيته قدّر حبيبه علي، فمال عليه حين عاد الجميع يسأله عن حقيقة الأمر، وجد ما لا يشع فضوله، ولا يرضي ثقته، فاجأه صديقه بالهروب والقفز من فوق الموضوع، مما أوحى لثابت بالمزيد من الشكّ حول حقيقة ما جرى، والكثير من الريبة والغرابة من سلوك صديقه المفاجئ؟

دائماً ما تنتهي مغامرات ضمير ثابت في حضن الفاتنة المبرمجة كبيتها الحاضنة بذات القدر من القدرة على تسويق نظريات الإعلام الحكومي الموجه، لكنها تستطيع أن تقدّمه له على طبقٍ خاصٍ من الأنوثة لا قبل له به.. ذلك يكفيه تخديراً إلى أجلٍ غير مسمّى؟

كمال متحمّس فوق العادة لما حصل ويحصل في الشارع العربي، وما سمّي فيما بعد بالربيع العربي الذي أخذ يظهر ويتجلّى بقوة على السّاحة بعد نجاح في غير موقع.. أصبح يصرّح وبكل قوّة بين أهله والقريبيين من أصدقائه بما لم يكن قبل مدّة من المعقول والممكن:

- تحوّل هذا الربيع إلى رمزٍ حيٍّ لجميع المترقّبين والحالمين بلحظة نور ترشدهم إلى طريق الخلاص من الواقع المرّ الذي يعيشونه مقهورين تحت أحذية جنرالات الديكتاتوريات الظالمة المتخلفة.

يقول هذا وقد أخذ يبنى مع أهله وأصحابه الكثير من الأحلام أيضًا، كان يخالف الكثيرين بشعوره بثقة واضحة بأن ما جرى هناك لن يتأخّر حدوثه هنا، رغم كل المعارضات والمجادلات والأسباب الموضوعية التي تشير إلى استبعاد حصول هذا في سورية في الوقت الراهن...

كما حدث في معظم أنحاء سورية، التفّ الشباب المستعدّ للمخاطرة غير عابئٍ بالعواقب حول كمال وغيره من الشباب المتحمّسين النشطاء، والذين يُعتبرون الأكثر وعيًا وثقافةً، ويمكن لهم أن يتحمّلوا مسؤولية أيّ حراكٍ متوقّع بما يمتلكون من الجرأة والقدرة على القيادة والتواصل، الجميع يترقّبون وهم على أهبة الاستعداد.. ما كان بالأمر مستحيلًا من أساطير الحكايات الخرافية صار اليوم للنفوس الطامحة المعبّأة جسدًا حيًّا من لحم ودم.. هو أكثر قربًا للحقيقة والواقع مما كان متوقّعًا.. هذه جماهير ليبيّا أيضًا قد أكملت عقد الثورات التي سبقت انطلاقتها في تونس ومصر واليمن..

رغم خوف أبي كمال وأمه من تبعات هذا، وإشفاقهما على ولدهما الوحيد الحبيب.. فإنهما اضطرّا للاستسلام أمام عنفوان الشاب ورفاقه، ما عاد كمال في هذه اللحظة يكثرث لما وصل إليه مكانةً في عمله، وما يمكن

أن يُعتبر مثار حسد الآخرين، هو أصلاً كان قد خطَّط مع عروسه الغالية سميرة أن يتخلَّى عن هذه الوظيفة التي نالها بطريقةٍ صِحا ضميره على حقيقة أنها غير مشروعة، وربما تكون من حقٍّ من لم يجد الفرصة والواسطة التي أتاحت له، أبت نفسه بعد ذلك أن يظلَّ فيها مضطراً للتفاؤل وتحت عبء الشعور بفضل أصحاب السَّيادة في الحصول عليها، قرَّراً أن يؤسِّساً مصلحةً قريباً، وهي عبارةٌ عن روضةٍ أطفالٍ صغيرةٍ يديرها معاً، كان والده تشجيعاً له قد وعده بمنحه الجانب الخلفي من المنزل مع الحديقة.. ليقيم عليها مشروعه الحلم الصغير.. في هذه الساعة فكَّر كمال فقط بالجميع، بالماضي والحاضر، وبتراكمات النفوس التي قهرها الذلُّ وأثقلت كاهلها الضغوط المستمرة، غابت الأنا عنده وعند الكثيرين من الشباب، ظهرت روح الجماعة، توقَّدت في العيون الحماسة، وارتفع منسوب الجراءة والتفاؤل، ليصل إلى القمة في ساعة انطلاق..

- يا ولدي لست أمانع رغبتك، لكنني أراك في فوْهة المدفع وهذا ما يرعبني.. فقط نظِّم حماسك وهذِّئ من روعك وتصرَّف بحكمة.. ليقتدي بك من خلفك، ولا تكن غير ذلك فتكون أنت المتحدر والمسبَّب لانتحار الآخرين؟ قال أبو كمال هذا لولده الجامع، والذي أصبح يراه كنمرٍ خرج من قفصٍ، مخالفاً حتى سمات شخصيته المعروفة بالهدوء واللين..

- أرجوك يا أبي لا تصادروا لنا هذه اللحظات التي انتظرناها طويلاً.. ها هي الفرصة قد أتت والفرصة صارت متاحةً وأقرب مما كنا نريد، فلا تضعوا العصي في العجلات.. أرجوكم.. نريد أن نغتنمها كما ينبغي.. كفانا هواناً ودلاً وقمعاً.. لا تغضب مني يا والدي.. إن جيلكم والأجيال التي سبقتكم هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه الآن، لقد اعترفت أنت بهذا.. وبلسانك..

فكفى بنا ما صرنا إليه، دعونا نخوض هذه المغامرة بكل ما فيها من مخاطرة، بعون الله سننجح في التغيير، حتى وإن قدّمنا التضحيات، الكرامة والحرية تستحق، لمَ نستمرُّ بحياةٍ هي أقرب إلى الموت.. بينما بمقدورنا أن نموت ونحیی في النفوس الكرامة؟

وقف الأب صامتًا مشدوهاً يراقب ولده وهو يتقطّر حماسةً وتحديًا، أثاره المشهد وشعر من الصميم بالفخر والاعتزاز رغم أنف الخوف، ربما وصله في تلك اللحظة في قرارة نفسه أن ما قاله ولده رغم جرأته وقسوته أصاب عين الحقيقة.. استدرك الأمر:

- لا يا ولدي.. لن نكون بعد الآن عائقًا في وجه تطلّعاتكم، حتى وإن كنّا كأهل نخاف عليكم، ويتولّانا القلق مما يمكن أن يفعله هذا النظام، لن نحاول أن نمنعكم عن تحقيق حلم هو لنا جميعًا، لكن فقط أريد أن أفيدكم بخبرتي كي لا تقعوا في فخّ الحماسة العشوائية، ولكي تحسبوا بشكل صحيح، التدبير والحكمة أمورٌ مهمّةٌ وضروريةٌ لتنظّم الحماسة يا ولدي.. أليس كذلك؟

- نعم يا والدي الحبيب.. كم أسعدني حديثك وحفّزني.. سنكون إن شاء الله كما تريدون.. لكن صدّقني.. مهما فعل النظام هذه المرّة فلن يوقف سير القدر، لن يستطيع أن يصدّ رياح التغيير العاتية مهما أوتي من بطش، العالم كله يتغيّر، هؤلاء الشباب كما ترى أكثر استعدادًا اليوم للتضحية بالغالي والرخيص ليحصلوا على حريتهم وكرامتهم...

- وفّقكم الله ونصركم وأيدكم وحفظكم من كل سوء..

كانت هذه هي كلمات الأب القلقة الأخيرة رغم أنها حملت كل أسباب الدّعم قبيل انطلاق الثورة في درعا، ومن ثم الصدى العظيم الذي وجدته في

حمص.. كأول مكانٍ يلتحق بالثأثرين في درعا مع بعض مناطق ريف دمشق وضواحيها وإدلب وبناس دعماً وتضامناً.. خرجت المظاهرات حاشدةً في حمص من بدايتها، ولاقت ذات الردّ العنيف من قبل أجهزة الأمن، مُبعت بقسوة وإصرارٍ حشود المتظاهرين من الوصول إلى مركز المدينة، حيث أراد الجميع أن يكون مقرّاً لاعتصامهم وإيصال صوتهم إلى العالم.. كان كمال من أوائل من خرجوا ونسّقوا كما وعد وكان يأمل، صار اليوم وقته مقسوماً ما بين التّظاهر والتّواجد على الانترنت، حيث يتم التّواصل عبر مجموعاتٍ تنسيقيةٍ منظّمةٍ للعمل الجماعي، ومواعيد انطلاق المظاهرات.. أنسب توقيتٍ للجميع كما في المحافظات الأخرى هو بعد صلاة الجمعة من المساجد، كونه أكبر جامعٍ للناس مكاناً وأدقّه زماناً.. كان أصدقاءه المسيحيون وبعض الاسماعيليين والعلويين وغيرهم من المشاركين ينتظرون المصلّين في أحد أروقة المسجد، أو في أطراف الشوارع بعيداً عن أعين المراقبين من الأمن والمخبرين، إلى حين انتهاء الصلاة وخروج الحشود، حيث كانت تخرج من تحت أردية الكثير منهم اللافتات المُعدّة مسبقاً.. وترتفع الرّايات التي تطالب كتاباتها بالحرية والكرامة.

كما حدث في درعا بادئ ذي بدءٍ فإن الأصوات علتْ بالمطالبة بتغيير المحافظ، ولم تصلْ إلى سقف تغيير النظام، على اعتبار ما يعتقدّه الناس هنا بأفعال هذا المحافظ وما يتداوله الجميع بأنه شخصياً خطّط له ونفّذه من تغييراتٍ في حمص، أثارت هذه الأفعال حفيظة معظم سكّانها، وجدوا مدينتهم تواجه تسلّطاً كبيراً وتغيّراً ديموغرافياً ممنهجاً.. وبأسلوبٍ مفصّوحٍ فجّ.. مرّت الأسابيع الأولى ولغة الرّصاص الحيّ والقذيفة والاعتقال كانت اللغة السائدة لدى الطّرف الآخر، والضّحايا يكثر عددهم، صار مشهد تشييع

الشهداء أمراً شبه مألوف، بينما كان عدد الشباب الذين يتّم اقتيادهم إلى المجهول الخطير في كل مناسبة كبيراً وكل يوم بازدياد، كمال شاهدٌ على كل هذا، بل ويبتظر غيره من الشباب دوره على القائمة.. لا يعرف ماذا سيكون المصير أو متى.. لكنه كان واثقاً أن الأجهزة الاستخباراتية ليست غافلةً عنه وعن غيره من الناشطين، وأنه سيكون له موعدٌ قريب، إن لم يكن بالجُرم المشهود متلبساً في ساحات التظاهر، فإنه سيكون باعتراف أحد المعتقلين الذين يتعرّضون للتعذيب بغية الوصول إلى المنسّقين المهمّين.. ليتسّى لهم خنق الحركة من خلال رؤوس مدبريها ومنظّميها..

الحشود بدأت تتزايد رجالاً ونساءً وفتياناً، جمعةٌ إثر جمعةٍ وليلةٌ إثر ليلة، جميعهم دفنوا خلاصة خوفهم المقيم المزمّن رغماً عن القمع والرصاص الذي كان يستهدف جميع هؤلاء الشباب في مقتل، أو على الأقل ردعهم بأكبر عددٍ من الضحايا، تحوّلت الهتافات على إثر هذا إلى سقف إسقاط النظام، بل واستهدفت رأس النظام الحالي والسابق، راحت الحشود الثائرة تحطّم كل معلّم فيه تمثالاً لأحد الرأسين أو صورةً لهما، وتهاجم مراكز الدولة الأصغر والأقرب إلى متناول اليد.. لتعبّر من خلالها عن الكره الشديد لهذه الأجهزة الحكومية، والرغبة العارمة بالغائها بعد طول صبرٍ على ممارساتها التعسّفية.. خلال الأسابيع اللاحقة وعندما عمّت الاحتجاجات أكثر مناطق المدينة والريف، ووصل عدد المتظاهرين في كل حي إلى الحدّ الذي يسمح بالتجرؤ رغم القمع على الوصول إلى مركز المدينة.. قرّر الجميع وبكل تحدٍّ ورغبةٍ أن يفعلوها؟

غدا الوقت في بيت أبي كمال يزحف زحف السلاحف، مشفوعاً بالقلق المستمرّ والانتظار والترقّب، فكمال الشاب الوحيد في العائلة ومحبوب

الجميع في استنفارٍ دائمٍ خارج المنزل، ينظّم وينسّق ويتواصل مع رفاق الثورة في أماكن لا تعرفها العائلة، يعلمون تمامًا ويشاهدون عيّناتٍ يوميةٍ من الرّاحلين والمُعذّبين والمُختطفين من أجهزة الأمن، بينما ألزم الأب نفسه رغم هلعهِ على ولده بوعْدٍ كان قطعهُ لابنهِ ولنفسهِ بتأييد تحرّكاتهم، والسُّكوت مهمما كان الثمن غاليًا، جلست الأم منزويةً في غرفتها تذرف دموع الخوف، وتترقّب بألمٍ ما يخفيه القدر، كمال إن وُجد في البيت في أوقاتٍ محدودةٍ كانوا يقابلونه جسدًا... بينما روحه هائمةٌ وجلُّ تفكيره هنا وهناك في ساحات التّظاهر وأروقة القرار والتخطيط.

عروس كمال التي لم يمضِ على انضمامها للعائلة سوى شهرٍ ونيف جمعت النّقيضين معًا.. خوفها الشديد وتأييدها الأكيد.. لم يكن من الصّعب على كمال أن يقنع رفيقة العمر القادم بمبرراته للقيام بما يفعل، فهي أيضًا ممّن يحملون وأهلها ذات الهمّ القديم الجديد الذي استوطن نفوس الجميع، راحت تشدُّ على يديه وتدفعه دفعًا أثّر به أيّما تأثير.. تواصلت مع الكثير من النّساء عبر وسائل مباشرةٍ في الحيّ والوظيفة أو غير مباشرةٍ عبر وسائل التواصل الاجتماعية ليشكّلن محورًا داعمًا ورديفًا، حتى أنها طلبت منه أن تشارك في بعض المظاهرات، غير أنه طلب منها التريث قليلًا حتى يوم الاعتصام الكبير.

أتى اليوم المحدّد للاعتصام المقرّر في وسط المدينة حول السّاعة المركزية، فوجئ الجميع رغم عزمهم المسبق وإصرارهم والأخذ بعين الاعتبار مقدار التضحيات التي يمكن أن تكون ثمنًا لهذا الهدف.. بأنهم يصلون دون حدوث مجزرة.. كما هو متوقّع؟

كثرت الأحاديث والتأويلات، من الناس من قال باضطراب النظام وأجهزته لقبول الأمر الواقع تحت ضغط الرأي العام الدولي والإعلام الذي

ينقل الصوت والصورة، رغم أن النظام حاول جاهداً منع هذا بأي وسيلة..
 الثائرون كانوا سباقين إلى إيصال صورتهم عبر الجوّالات الشخصية
 والأترنت، مثابرين بما أوتوا من تصميمٍ على الوصول والنجاح.. وبمختلف
 الوسائل المتاحة بين أيديهم.

بينما ذهب الآخرون إلى الاعتقاد بإمكانية أن يكون هذا فخاً تستجرُّ
 به سلطات القمع المتظاهرين إلى حيث يمكن اصطيادهم في تجمّعهم
 المكشوف ما بين قتل واعتقال.. هؤلاء كانوا يترقّبون بحذرٍ وخوفٍ كلما
 مرّت لحظةٌ إضافيةٌ في ساحة الاعتصام..

جلست العروس ملتصقةً بعريسها كمال في مقدّمة المعتصمين تشعر
 بالفخر والحماسة حيناً، وبالأمن والراحة حيناً آخر، فقد شاركت في التدبير
 لهذا الاعتصام بكامل طاقتها ورغبتها جنباً إلى جنبٍ مع حبسها ورفاقه، لم
 يخلُ المكان من الكثير من السيّدات والصّبايا اللواتي شاركن بقوةٍ وكان
 لحضورهنّ الأثر الفاعل، حتى أنّ البعض من صغار السنّ في عمر الطفولة
 كانوا متواجدين في مسرح الحدث..

جميع المعتصمين في نشاطٍ وحماسٍ، علت الرايات واللافتات،
 وصدّعت أصوات الحاضرين بألوفهم المحتشدة بصوت التمرّد والاحتجاج
 الذي ظل حبس صدورهم الملهبة منذ سنين، تعبّر عما يجول بخواطر
 الناس وتجهر برفضها للظلم والعدوان، تعلن تضامنهما مع درعا وأهلها..
 تترخّم على شهداء سورية وخصوصاً الشهداء الأوّل في حوران..

كان الجميع قد أكّدوا على وحدة المسار والتوجّه في مخاطبة الجميع بلا
 تفرقةٍ ولا عنصريةٍ ولا طائفيةٍ، توافقوا تقريباً على أنها ثورةٌ لكلّ السوريين
 مشاركةً ومطالبةً بالحقوق.. لا فرق بين سنّي وشيعيّ ومسيحيّ وعلويّ

وكردّي وعربيّ إلا بمقدار مساهمته في خوض هذا الطريق وإخلاصه في الوقوف مع المظلومين:

- أحبابي ورفاقي لم نقم اليوم لنخرّب وطننا كما يدّعي مخربو الوطن الكبار، ولم نتمرّد لنعلن انقسامنا وتشتّتنا.. بل هو اليوم الذي نرجو أن يكون فاتحة محبةٍ وألفةٍ حقيقيةٍ، ووحدة صفٍّ ومصير، نستورد بها ما كان حاصلاً قبل أن يعمل النظام على تفريقنا مدّعياً حرصه على الأقليات.. إن لم نتوحد اليوم كسوريين بجميع أطياننا على وقع معاناةٍ واحدةٍ.. وقد تعرّضنا جميعاً وخصوصاً ذوي الدّخل المحدود والفقراء والفلاحين وصغار الكسبة من جميع الطوائف والأطياف لذات الظلم والممارسات.. فمتى سنفعل؟ وكيف؟

كان هذا صوت أحد رفاق كمال الثّائرين القادة خاطباً في جماهير الاعتصام، سُمعت مع الهتافات أصوات مكبّرات الصوت المتفرقة بُثّمن خلالها الأناشيد الوطنية الحماسية، لم تغبّ المداعبات بين الرفاق بما عُرف عن أهل حمص من حبّهم للنكّته وخفّة الدم.. وبعض وجبات الطعام الخفيفة والأشربة حملها البعض من المشاركين، قدّم بعضها متطوّعون من أصحاب المطاعم المؤيدين للحراك..

كان المشهد مهيباً بحجم عدد المشاركين وبتنوّع أعراقهم وأطيافهم وأعمارهم وأجناسهم.. وبتراصّهم الملفت، وقدرة صوتهم الموحد الهادر على هزّ الأرض من تحت أرجل القوات الكثيفة التي اجتمعت تحيط بهم من كل حدبٍ وصوب؟

قبل منتصف الليل وبينما كانت الأصوات قد هدأت، رابط الجميع في المكان.. البعض ينقل ما يشبه المخيم إلى المكان بخيمه ومقاعده، والبعض الآخر يتحدثون فيما بينهم، والآخرون يأكلون أو يشربون.. انطلقت

أصوات رصاصٍ مفاجئةٍ أحدثت خللاً وفوضى، حين تناثر الناس في وسط الازدحام، تداخلت الأجساد والأصوات، بينما وقف البعض فاقداً التركيز لا يدرون ما يفعلون، تسمّروا في أمكنتهم، لم يدرك كمال وزوجته ومن حولهم ماذا حصل، كانت النظرات تتوزّع في كل الاتجاهات لالتقاط مصدر الإطلاق، وما يمكن أن يكون قد حدث على إثر رشقة الرصاص التي أرعبت الجميع.. وجدوا تجمّعاً قريباً من الناس يتزاحمون حول بقعةٍ معيّنة تعلو أصواتهم، يوجّهون بعضهم، وينقلون مجموعةً من الأشخاص المصابين، الدماء تناثرت على الأرض وأجساد المسعفين الأقرب.. هاج الجمع وماج، وتشتّت الكثيرون في كل الاتجاهات..

نظر كمال باتجاه الخلف، ثم مسح بناظره الأبنية المجاورة، وجد القنّاصة وقاذفي الرشاشات الثقيلة في وضع استعداد.. وما إن أعاد نظره باتجاه الأمام ثم إلى يمين الساحة وشمالها.. حتى وجد عرباتٍ مدرّعة تقترب مدجّجةً بالعناصر والرشاشات، لم يتسّع له الوقت ولا المكان ليعلن منذراً أو يصرّح بتحذير.. أو يحاول أن يصل إلى زوجه ويضمّها إليه ليحميها..

انفتحت أبواب جهنّم في هذه اللحظة على مصراعيها، انطلق الرصاص من كل اتّجاهٍ يفرّق بين كبيرٍ وصغيرٍ، رجلٍ أو امرأة.. انبطح الجميع فوق بعضهم البعض حين لم تعد مساحة الأرض تكفي لكل هذه الأجساد المستلقية المترّصة، استمرّ وابل الرصاص ينهمر بلا توقّف والجميع مستسلمٌ حيث لا حول ولا قوة لأجسادهم إلا أن تقبل قدرها القادم أو تنتظر الفرصة للنجاة؟

عندما استدرك كمال الأمر بعد لحظات تيهٍ وذهول.. وقد توقّف إطلاق النار لبرهة.. نظر باتجاه زوجته فما وجدها في زحمة من تداخلوا وتشردوا في كل اتجاه، تناسى رهبة الموت أمام فزعه عليها.. حين استقرّ الوضع لوهلة

على مشهد قتلى وجرحى وسيولٍ من الدماء، كان هو يبحث بغير هدًى عن سميرته، لم يجدّها بين الذين ما يزالون في المكان منتصبين على أرجلهم، راحت عيناه تبحث في المفترشين الأرض فهاله ما رأى ذات التفاتٍ وصدمه، كاد أن يفقد وعيه مصدوماً في مكانه، انطلق بعدها كالمجنون باتجاهها وهي ممدّدةٌ مضرجةٌ بدماؤها، غابت ملامح وجهها الناعم الجميل في غطاءٍ من الأحمر السّاخن.. انكبَّ عليها يناديها ويصرخ بأعلى صوت، لم ير لحظتها سوى الرفيقة الغالية، وكل ما حوله مجرد ضبابٍ كثيفٍ ودخان، انفصل عن الواقع حوله ورفع رأسها بين يديه هلعاً وحزناً، كان كل شيءٍ بالنسبة له ككابوسٍ مزعجٍ طويلٍ أراد عقله أن ينكره، فغاب عما حوله.. لولا أنه صحا على حقيقته المؤلمة الصادمة:

- قفي أيتها الجميلة.. اصحي من نومك أيتها العروس، أمانا الكثير من الأحلام التي رسمنا دروب تحقيقها، لا تتركيني وحدي.. أرجوك.. أناشدك بالله.. لا تذهبي فقد انتظرتك طويلاً.. ألا تنتظرين كمالك قليلاً بعد؟

يصيح كمال منتحباً على عروسه التي وضح أن الطلقة قد أصابتها في مقتلٍ في رأسها، وأنها صارت جثةً هامدةً بين يدي زوجها المفجوع.. وهو لا يريد أن يصدق؟

في هذه الأثناء اقتربت مجموعةٌ من رفاقه الذين أدركوا غيابه وزوجته بين الحشود، عادوا من بعيدٍ باحثين عنهما ليسحبوهما من أرض المعجزة، بينما عاد الرّصاص لينهمر بغزارة.. أصاب عدداً منهم فأوقعهم بين قتيلٍ وجريح.. تمكّن الآخرون النّاجون من سحب من تمكّنوا من رفاقهم والوصول إلى مبتغاهم بسحب كمال وفقيده والسّير بهما نحو المخرج الوحيد الباقي والذي تركته قوات الأمن للناس لكي تفرّ بعيداً.. كان هذا فيما يبدو مبتغاهم الرئيسي من هذا المشهد الدموي الرّهيّب؟

ظَلَّ الناس حوله أو من تَبَقَّى منهم يجرون بكل ما أوتوا من سرعة حاملين جرحاهم ومعه زوجته يقبض على جسدها بكل قوة وحرصٍ.. الجميع في الشوارع ممن شاركوا بالحدث توزَّعت أدوارهم ما بين شخصية تائه خائف هاربٍ ومختبئٍ لا يجد اتجاهًا يلجأ إليه.. وما بين آخر مطعونٍ سابحٍ بمائه على قارعة الطريق أوفي قلب السَّاحة لم يتمكن المنجد من الوصول إليه، وصل الفارُّون أخيرًا إلى مأمنٍ مؤقتٍ من الرصاص خلف أحد الأبنية البعيدة في شارعٍ فرعيٍّ.. أخذوا قسطًا من الراحة بعد لهاثٍ شديد.. بعدها تمكَّنوا رويدًا رويدًا.. ومن خلال طرقٍ متعرَّجةٍ جانبيةٍ من إصالحهما إلى البيت، ومن استطاعوا نقلهم من الشهداء والجرحى إلى أقرب مركزٍ بعيدٍ عن رقابة السلطات، حيث أراد أبو كمال وعائلته وعائلتها الذين تلقَّوا الصَّدمة القاسية على حين غَرَّةٍ بعد أن كانوا قد خلدوا إلى النوم على نقلها إلى المشفى، غير أن وضعها كان محسومًا سلفًا.. في الوقت الذي حاصرت فيه قوات الأمن المشافي الخاصة والعامة، ولاحقت المصابين ومن أسعفهم، أو من حاول مداواتهم.. أدخلوا شهيدتهم إلى بيت زوجها في جوٍّ مثقلٍ بالكآبة حزين..

يقول أحد الشباب في مجلسٍ للثَّائرين المجتمعين خلف أحد الأبواب المغلقة:

- في واحدةٍ من أبشع صور القرصنة التي لم يجد لها أحدٌ مبررًا سوى التوغُّل في الإجرام، وقمع الحركة الشعبية بأسوأ الوسائل، وأبعدها عن أصول وأبسط مبادئ الإنسانية.. يحاصرون المشافي ويطلقون على أيِّ منها لأنها تستقبل جرحى ومصابين.. مما دعا معظم الثَّائرين إلى اللجوء إلى المشافي الميدانية في شقق البعض أو في محلاتٍ تجاريةٍ نائية، أو في أقبية الأبنية بمساعدة الأطباء المؤيَّدين للحراك.. والذين يعلمون قدر التضحية

التي وجب عليهم أن يقدّموها في هذه الظروف للحركة الشعبية، ويعون أن هذا بالنسبة للقتلة أكبر جرم يحاسبون عليه حساباً عسيراً..

مرّت أيامٌ عصيبةٌ على كمال.. كان خلالها خارج الوعي يبكي حبيبته ورفاقه الذين قضوا في المجزرة، كان أحد من استشهدوا أيضاً في هذه المجزرة واحداً من أقرب المقرّبين إليه وهو أحد أصدقاء الطاولة التي جمعتهم كمجموعةٍ لسنين طويلة، بينما عاش أهله وأهل سميرة حزنهم على الراحلة وكمال المعتكف أسى عليها.. حتى استفاق من حالة الإحباط والحزن في تجمّع حاشدٍ في بيته بعد عدّة ليالٍ قضّاها محاولاً استيعاب ما جرى وامتصاص الصدمة القاسية.. يناجي فقيدته ويصبر نفسه ويلمّ شتاتها الذي بعثرته المصيبة:

- كانت مجزرة مروّعة لم يكن أحد يتوقّع أن تحصل بهذا الشكل السّافر المباشر، أسفرت عن قتل العشرات وجرح المئات من العُزّل الذين كان ذنبهم الوحيد أنهم ظلّوا للحظة أن العالم الحرّ سينصفهم، وأن صوته المعبّر عن رفض الظلم والمطالبة بحقّ الكرامة والحرية سيكون سبب مقتلهم.. بلا أدنى رادع من إنسانية أو ضمير، قتلهم للأسف أيدي أبناء وطنهم.. ممن يُفترض أن يكونوا رعاة الوطن والمواطن وحماته.. وبأسلحةٍ دفع ثمنها الضحايا الذين اغتيلوا بها.. استشهدت البريئة الطاهرة الغالية مثل الكثيرين -رحمها الله وتقبّلها وجميع شهدائها- ولم يكثر لدمايهم سوى المزيد من الحشود المظلومة التي خرجت في كل بقاع سورية، وبعض أحرار الأمة والعالم.. وبعض وسائل الإعلام التي تنقل على استحياءٍ، ولا صدى لما حصل يتناسب مع حجم الكارثة.. نعم.. نحن خرجنا وكنا نحسب ونحتسب لمثل هذا، ولن نتراجع رغم التضحيات، وقد دفعنا منها اليوم ما يجعلنا أكثر تمسّكاً بمبادئنا وغايتنا حتى النهاية..

قال هذا كمال.. وهو يبكي بحرقه حبيبته الشهيدة ورفيقة دربه.. وحوله بعض رفاق الكفاح وأهله في بيتهم في يوم رفض أن يعتبره دار عزاء.. بل أصراً أن يكون مجلس تهنته بالشهداء الذين سقطوا على مذبح الحرية والكرامة؟

في الوقت الذي ودّع فيه كمال زوجته الرَّاحلة ومجموعة الشهداء الذين قضوا في حمص، كان ثابت يستقبل يوم حفل زفافه الخاص الذي تجري مراسمه في أهم قاعات فنادق دمشق ذات النجوم الكثيرة..

وحيداً خرج ثابت من غرفة خاصة لتزيين الرجال بأحلى وأبهى حلّة بطقمه البراق الجميل ذو الماركة العالمية المعروفة، وربطة عنقه التي تشبه ما يضعه نجوم السينما والأزياء، وقَصَّة شعره المتفردة على أيدي مختصين من الطبقة العليا في موازين المجتمعات الراقية، بينما خرجت فاتنة من مكان آخر بسيارة فاخرة معها والدتها وصديقاتها وبعض قريباتها، تجرّ ثوب الزفاف الأبيض الممتدّ ذيله بما يتعلّق على أطرافها من الأشكال والرسومات التي تفنّن الخياط الخاص بصناعتها، ترتدي أطقم الذهب والجواهر الخاصة، وتُبدي من جسدها أكثر مما تستر.. فتزداد فتنةً على فتنة..

وجد ثابت صديقه علي بانتظاره في القاعة الرئيسية للحفل ومعه بعض زملاء الفرع قبل حضور الضيوف والمدعوين، كان كلُّ شيء مرسومًا بدقّة ومنظّمًا بعناية خبير، العيب الذي لا يمكن لخبير أن يفلح في تنظيمه هو شعور ثابت بالوحدة ووخزة الاغتراب والألم، وإحباط من يشعر بأنه يقوم بفاحشة رغمًا عن مقاومة ضمير، بالإضافة إلى الشعور بالقلق والحذر الشديدين نتيجة تلقّيه تهديدًا ليلة الأمس من غريمه زوج فاتنة (الشيّخ)..

وصله التهديد عبر الجوال، أكّد له فيه أن هذا الحفل لن ينتهي على خير، ولو كلفه ذلك تدمير القاعة بمن فيها، ثابت يعلم تمامًا ماذا يشكّل تهديد مثل هذا الخارج عن القوانين، والذي سبق له أن عاند كبار رجال الدولة ونجا في كل مرّة من غضبهم وعقوباتهم، أصبح يدرك أن (الشبيح) الضخم ذو اللحية الكثيفة والنظارات السوداء وصاحب قصّة الشعر المميّزة لا يتوانى عن فعل شيء حين يُملّي عليه مزاجه المتقلّب وجنونه المزمّن ذلك.

اليوم هذا المارق وأمثاله أقوى بحكم أن الدولة أطلقتهم ليكونوا بلاءً جديدًا وسيفًا مسلطًا على رقاب الباحثين عن الحرية، لا شيء يردعهم.. عاجل ثابت بالاتصال عقب وصول التهديد إليه باللواء الذي طمأنه وهذا من روعه، أكّد له أنه سيتولّى شخصيًا الإشراف على أمن الحفل والمدعوين، وأنه سيقوم بمنع الأخرق هذا من التصرف بما يسيء لثابت أو الموجودين، حيث لجأ إلى سلطاته بالتضامن مع كبار رجال الدولة وعائلة المريض النفسي كما وصفه اللواء..

القلق لم ينحسر مدّة كثيرًا في نفس ثابت ولا في قلبه الذي يستعدُّ لبذل نبضه القادم في حضرة الفاتنة العروس؟

حضر اللواء والكثير من الضباط ورجال الدولة ورجال الأعمال وعائلاتهم، كان حفلًا مميّزًا بمواصفات الطبقة التي يجد ثابت اليوم نفسه قد انضمَّ إليها رسميًا وبالوثائق والصور، حفل بالكثير مما لا يودُّ ثابت أن يراه ويعيشه من طقوس شربٍ واحتفالٍ ورقص.. انتهى بفتح زجاجة الشمبانيا الكبيرة وتقطيع كعكة الزفاف، وانتقال العروسين إلى جناح فاخرٍ في ذات الفندق ليمضيا ليلة الدخول، على أن ينتقلا بعدها وبشكل نهائيٍّ للإقامة في قصر السيدة والدة فاتنة..

مرَّ الحفل المهيّب على خيرٍ ودون حدوث أية مشاكل، أكّد له الجميع أن مشكلة غريمه قد تمَّ حلُّها وإلى الأبد وأنه لن يتعرَّض هو أو عروسه إلى المزيد من المتاعب بعد تدخُّل اللواء.. كانت ليلة دخول ثابت على عروسه بالنسبة له فاتحة تأريخٍ جديد؟



في القرية هناك حيث الأجواء المفعمة بالجاهزية والحذر والقلق على شبابٍ مهتدين في كل وقتٍ بانتقام الدولة، وحيث الرُّكود والحزن على ما يجري في باقي مناطق الوطن، وصل خبر زفاف ثابت إلى العائلة، كان المجلس أشبه بعزاء.. الوالد والوالدة بمواجهة بعضهما في المضافة يهزَّان رأسيهما حسرةً وحزنًا بصمتٍ، تعقيبٌ يرميه أبو خالد كل حينٍ وحين:

- (زوج السَّت) يحتفل بالفنادق على نخب دماء الشهداء

دمعتان حاضرتان لأُم خالد.. وتنهيدة.. في كل مرَّة يذكِّرها تعقيبه بالمأساة؟

- أنا لا أدري لم يحزن من يُحرَم من الأولاد؟ .. لم يتأسَّف؟ ليتنا بقينا وحيدَين ولم نُرزق بمن يثقل كاهل وجودنا وسمعتنا بالخزي، لا بارك الله بخلفٍ ساقطٍ كهذا.. سأظلُّ أخجل من وجود اسمه في سجل العائلة، وسيبقى وصمةً عارٍ في جبين الجميع؟

تزداد أم خالد شعورًا بالخيبة والحزن كلما سمعت زوجها يردّد هذا، تعتصر حزنها ودموعها بعيدًا عن عيونه تجلُّدًا، بينما تجلس هادية في غرفتها مع عثمان صابرةً محتسبةً.. عثمان المشتاق لوالده يتهيأ للنوم، وهو لا يدري ماذا يحصل هنا وهناك؟

علمت هادية بالخبر في حينه، رغم توصيات الوالدين بكتمانه عنها، على الأقل في هذه المرحلة.. حتى يتسنى لهما إيصاله بالكيفية التي قد تخفف عنها وقع المصيبة ومرارة الحزن، وإن كانا يعلمان أنها أكثرهم توقُّعاً منهما لاستمرار ثابت في نهجه الذي شرع به، واكتمال سقوطه في أتون النار التي لا تبقي ولا تذر، راحت تتذكَّر كل لحظة قضتها مع ثابت منذ خطوبتهما، تحاول أن تجد منفذاً من خلال سيرتهما يمرُّ لعقلها المصدوم تبريراً لثابت، فقط لكي يغادرها شعور الخيبة والمفاجأة، لم تجد سوى صور جميلة لرجل أحبَّته.. طيب كريم.. ونقي بريء؟

- هي النهاية التي اخترتها إذا يا أبا عثمان، وقد اخترتها بملء إرادتك.. هنيئاً لك.. وعوّضني الله وولدي اليتيم..

كانت كلماتها تختصر بؤس حالها، بعد أن انتظرت طويلاً بمرارة الخيبة حدوث معجزة تخالف ظنّها، وحلمت بتحقيقها خلال الفترة الماضية، تربيها في نفسها وخيالها.. وتبني عليها صروحاً من أمل؟

- آه يا ثابت.. منك اليوم تعلّمتُ كيف يمكن لطريق الحلم أن تعطلّها خيبة صحوٍ مؤلمٍ لتنتهي بجبال من كوابيس..

ضمت عثمان الغافي بقوة.. أطلقت دمعها الرابضتين خلف تلال صبرها.. شهقت شهقةً أخرجت بها كل مكبوت... منذ أن غادرت دمشق مودعة ذات فصال؟

ما زال علي يتردّد في شأن حبيبته التي لا تزال جاهلةً بحبه المحقن داخل شرايين صومعته، وما يمكن أن يفعل حيالها، اللهب يأكل حشاشته..

حتى غدا شبَّحًا على هيئة إنسان.. يتخبط حتى من قبل أن تداهم الظروف الطارئة الحالية، وما تشهده البلاد من تصاعد لحركات التمرد، الأمر الذي كان يخشاه طوال فترة مخاض وعيه لما يدور حوله، وصراعه مع الازدواجية التي حملها مذ كان يافعًا، والتي يجسدها تباين رغباته وميوله ما بين عدم رضاه عن واقع الدولة والسياسة وطريقة الحكم، وتورط أهله ومجتمعه الضيق فيها إلى حدٍّ عدم القدرة على التراجع إلى الوراء من جهة، وخشيته المزروعة بين جوانب كيانه والمروية بحكايا الترهيب من مستقبل العائلة الحاكمة ومن هم محسوبون عليها في حال تغيير الواقع في الجهة المقابلة.

لكن كل هذا كان بفعل فاعلين.. هم أقرب الناس إليه ويحبُّهم حبًّا جنونيًا ويخاف عليهم قبل نفسه، مازالت هذه الحقيقة تصفعه كل لحظة وتجنح به نحو أحجية حياتية لا يستطيع أن يفكِّكها أو يتعامل معها كما ينبغي ويريد، حتى بات علي في خضم هذا الانقسام الداخلي المستمر عبارة عن شخصين يتصارعان ويتجادلان في جسد واحد.. في حقيقة ما يشعر به عندما يكون بمواجهة نفسه يعلم أن النظام يقوم الآن بشئ أنواع القمع والقتل والضغط على الناس ليضمن بقاءه على رأس الهرم السياسي كما تعود دائمًا منذ عقود أن يمارس دون اعتراض أو شكوى، لكنَّه لا يلبث أن يجد له ألف وسيلة للتبرير ومسوغات ينجو به ويُنجي من معه على ذات المركب من تهمة الطغيان والخروج عن قيم الإنسانية فيما يُمارس على العباد..

مرَّت حوادث درعا وشاهد كل ما جرى بأَم عينه.. من ثمَّ بقية المناطق التي شهدت غليانًا شعبيًّا ووجه بكل القسوة الممكنة، كان شاهدًا متقدِّمًا عن ثابت بحكم توليته الكثير من المهام الحساسة في هذا الصدد من قبل أخيه ورئيس الفرع، لكنه ودون أن يشعر يجد نفسه متهرِّبًا من مواجهة ثابت

والغوص في هذا الحديث.. كان يكفي أثناء لقاءاتهما الأخيرة بأحاديث العموميات وبشكلٍ مائعٍ مبهم..

- هل تعتقد أن الوضع سيتطوّر أكثر، أم أن الأمور تسير باتجاه إيجاد حلٍّ يهدئ الأجواء ويعيد الأمور إلى نصابها؟

يسأل علي صديقه ثابت وهما يتسامران في بيت ثابت ذات ليلةٍ بعد يومٍ مرهقٍ طويلٍ

-والله يا عزيزي لا أدري، أفق الأزمة بالنسبة لي ضبابيٌّ غير واضحٍ تمامًا، لن أجيبك اعتمادًا على الأمنيات.. فكلنا يتمنّى لهذا الوضع ألا يستمرّ طويلًا.
-نعم أدرك هذا وأقدّره، لكنّ ما هي استنتاجاتك وفق ما عايشته وتراه، على أي شيءٍ تبني تقييمك؟

-في الحقيقة لا شيء يوحى بتوجّه الأمور نحو الانفراج، فالحركة تسير نحو التوسّع والانتشار رغم زيادة عدد القتلى يوميًا، كلما قلنا أن هذه الجمعة ستكون أهدأ، وجدنا مناطق جديدةً تنضمُّ إلى سابقاتها في حالة التمرد.. ألا تعتقد معي أننا فشلنا حتى الآن في إدارة الأزمة كما ينبغي؟
-كيف؟ .. ماذا تعني؟؟

-أقصد أن المزيد من العنف قد يولّد المزيد المضاد، وإن كانت الآن مجرد حركة شارعٍ طبيعيّةٍ في معظمها سلمية.. فمن يدري ماذا يمكن أن تصبح بعد فترةٍ ضمن هذه الشروط، من خلال هذه الحالة من العنف؟
-لكنك تغفل حقيقةً مهمّةً، من بدأ بالعنف هم المتآمرون المندسّون، لا يمكن للدولة أن تقف صامتةً أو متفرّجةً على ممارساتهم، في النهاية هذا أمن دولةٍ ومصير وطن، الأعداء في الخارج يتربّصون ويبتظرون أن يروا ضعف موقف الدولة لينقضّوا علينا.. ألا ترى ذلك؟

-نعم.. نعم صدقت يا عزيزي.. آمل أن نُوفَّق قريبًا في السيطرة على الوضع، فالخاسر الأكبر في النهاية هو الوطن والمواطن.

قال هذا ثابت كابحًا سيلاً كبيرًا من إشارات التعجُّب والاستفهام، حينما رأى في ردود صديقه - على غير ما انتظر - تغيُّراً واضحاً باتجاه موالاة ومواكبة الوضع الراهن للنظام، وميولاً نحو اجترار ذات اللغة الخطائية التي سمعها ثابت كثيراً من خلال الفرع ووسائل الإعلام، دعاه ذلك إلى السيطرة على نفسه، وحساب النتائج الممكنة لتماديه في التوغُّل بما لا يمكن التنبُّؤ بمداه في هذا الوقت بالتحديد الذي أصبح الأمر فيه أكثر من جدِّي..

هو يرى يومياً مئات المعتقلين من المدنيين والعسكريين وحتى الضباط منهم، يُساقون أمامه إلى أقبية التعذيب لمجرد الشبهة، هو يدرك تماماً أن النمر الجريح قد يفتك بأيِّ متحرِّكٍ أمامه..

ثابت نفسه يشعر بازدواجية قد تكون مشابهةً لصديقه في هذه الأثناء، فيبينما يدرك بعقله وبما يشهده مقدار العنف غير المبرَّر الذي تمارسه أجهزة الدولة.. بما فيها الجيش.. يجد نفسه مدافعاً عن كل هذه السلوكيات، ويلجأ أمام كل من يجادله في هذا من أصدقائه القدامى أو أقربائه إلى ابتداع الكثير من المبرِّرات..

يحاول ثابت اليوم في خضمِّ شعوره بالتورُّط أن يلمِّع موقف الدولة، ويشيطن موقف الناس، كأنه واحدٌ ممن يصوغون نشرات أخبار ووسائل إعلام النظام.. يدرك بنفسه في لحظات صدقٍ مع الذات كلما وقف أمام مرآة نفسه يومياً مقدار بعده عن الحقيقة في مزاعمه.. لكنه لم يدرك بعد لم يفعل هذا؟ أهو الخوف من العقاب الفظيع الذي ينتظر المخالف؟ وهو الذي يدرك حقاً حجم فظاعته أكثر من أي أحدٍ آخر، لأنه بدأ يعاينه مباشرةً من خلال أصوات

المعذِّين وأشكالهم التي يواكبها كل صباح - مع كل محاولاته بتحاشي الحضور في مواقع التعذيب عن قرب.. فهناك من هم اختصاصيون في هذا ويسمون (الجلَّادون) -..

أم أنه انحيازٌ لوضع يروق له الانغماس فيه حدَّ التغيب، وغُضَّ النظر عن وحشيته والحفاظ على مكاسبه.. حتى آخر قطرةٍ من إنكار؟ وجد نفسه يغير مجرى الحديث بسؤال صاحبه عن حبه الصامت القديم.. وما آلت إليه الأمور، فما وجد لدى صاحبه سوى التنهُّد والحسرات.. والمزيد من الصمت.. هنا أشار على صاحبه وربما للمرَّة العاشرة، أن يتَّخذ قرارًا وموقفًا حقيقيًا في هذا الصَّدَد، وإلا فإن التأخير في البتِّ فيه يزيده تأزُّمًا نفسيًا، ويعيقه عن مواصلة حياته بشكلٍ طبيعي، هذه المرَّة كان التحريض أكثر قوَّة.. إذ نصحه بأن يعجِّل باتخاذ قراره، ويواجه نفسه والفتاة وأهله وأهلها، وأن يبدأ بمصارحتها بالأمر في أقرب فرصة.. وهو الذي يعلم أن صديقه يتهرَّب من هذا الموقف لكي لا يصطدم برفض قاتلٍ لآماله، وليحافظ على بصيص أملٍ.. ولو من رسم خيال؟

لكن علي هذه المرة تأثَّر كثيرًا بما بثَّه ثابت في مسامعه وعقله، على ما يملك من مخاوف جدِّية بشأن فقدانها المتوقَّع.. فاتَّخذ قراره بأن يفعل هذه المرَّة بلا تردُّد..

في اليوم التالي توجهَّ إلى الكلية، حيث يعلم مسبقًا أنها في هذا اليوم ستكون فيها، انتظرها حتى خرجت من إحدى القاعات بعد حضور محاضرة، اقترب منها قبل أن يلتفَّ حولها الزملاء والزميلات، طلب منها أن تأذن له ببضع دقائق في حديثٍ خاصٍ، وترك لها الخيار في أن تختار المكان، وافقت واختارت أن يكون في الكافيتيريا..

هناك جلس علي يتصبَّب عرقًا، وهو يجد نفسه في أقرب نقطةٍ من حدود حلمه وأخطرها، يشعر بأن قلبه يكاد يقفز من صدره، وأن أنفاسه تتقطع، أعْيَتْه أبجديات البوح عن إيجاد الكلام المناسب، ليعبرَ لها عمَّا يجول في خاطره، وعن أمله بأن تكون هي شريكة حياته، بينما كان كل ما لدى الفتاة على ما يبدو من ردَّة فعلها وقسمات وجهها هو الاستغراب من طلبه.. ووجوده أمامها في هذا الحديث الخاص غير المسبوق.. وربما الفضول؟

تمكَّن أخيرًا من أن يطلق العنان للسانه في قول ما يريد.. ولكن بتحديد أنظاره عنها خجلًا.. خشية التأثير ربما بردود فعلٍ لا يريد أن يراها:

- أنت تعرفيني منذ سنواتٍ رغم أن العلاقة لا تتعدَّى بيننا الزمالة وإلقاء التحايا.. أنا علي من محافظة اللاذقية، تخرَّجت كما تعلمين من الكلية هذا العام، أخدم الآن خدمتي العسكرية الإلزامية، يقيم أهلي في قريةٍ ساحليةٍ صغيرةٍ، وهم عائلةٌ كبيرة.. بينما يقيم أكبر إخوتي هنا وهو ضابطٌ في الجيش، أوْدِي في الوقت الحالي خدمتي العسكرية في مكتبه بأحد فروع الأمن، عمري خمسة وعشرون عامًا تقريبًا، أفكّر في التقدُّم إلى أقرب مسابقةٍ لسلك القضاء.. فهذا هو حلمي.. لا أملك شخصيًا المال الوفير الآن، لكننا كعائلةٍ نملك بيتًا كبيرًا في القرية، وقطعة أرضٍ نستثمرها بزراعة الأشجار المثمرة، وقد وعدني أخي في حال استقراره هنا في دمشق بتأمين بيتٍ جيدٍ من بيوت ضاحية الأسد.. الفتاة التي تصغي لسرد علي مازالت لم تحدِّد بالضبط مراده من ذلك.. وإن كانت تلاحظ نظراته إليها منذ مدَّةٍ طويلةٍ وما تحمله من إرادةٍ في التقرب منها، يمكنها البناء على توقُّعاتها، فشكل الحديث حين يكون موجَّهًا من شابٍّ أعزبٍ إلى فتاةٍ عزباء وفي سنِّ الزواج ليس من الصعوبة تخمين مآله، لكنَّ ذلك كما يبدو ليس في واردها أبدًا، فحسب مفهومها وتربيتها وانتمائها،

وحسب ما توضّح من خلال حديثه.. وما تعرفه عنه وعن بيئته.. فإن أمر إقدامه على مثل ذلك ضربٌ من العبث، هو من ينبغي له أن يدرك من خلال وضعها المحافظ الظاهر في لباسها واسم عائلتها العريق المعروف في أحد أحياء دمشق القديمة.. مقدار استحالة تحقيقه.

- تشرّفت بمعرفتك أخ علي، وأشكرك على تعريفك لنفسك، وثقتك بي لدرجة أن تقدّم كلّ تفاصيل حياتك وتطلّعاتك.. لكننا عذرني.. إنني فقط أستغرب لمّ كل هذا؟ ولم بهذا التوقيت؟؟ وما شأنني أنا بهذه التفاصيل؟

علي الذي كان وما زال يخشى مثل هذا الردّ ويحسب له ألف حساب.. لم تنقذه مساحات التوقّع واستعداده الذهني والنفسي من مغبّة الشعور بالصّدمة من ردّ الفتاة، ازداد ارتباكاً وأخذ يسبح في بحيرة من العرق، احمرّت وجنتاه.. وارتجفت مفاصله، تابع بسرعةٍ كأنه يريد أن ينهي ما بدأه بكل ما أوتي من رغبةٍ راسخةٍ في قلبه قبل أن تلزمه المستمعة بالتوقّف عن هذا الانثيال:

- لا أريد سوى الخير وأن أدخل البيوت من أبوابها.. أنا معجبٌ بك منذ رأيتك هنا أوّل مرّة، لا أنكر أنّي حلمت كثيراً بهذه اللحظة التي أصارحك فيها، غير أنني لم أجد الشجاعة الكافية لقول هذا في يقين حضورك، أعلم أن الوضع ليس طبيعياً، وغير معتادٍ كثيراً، وأنا من طيبتين وثقافتين مختلفتين، أعتقد أنك تعرفين هذا جيداً، لكنني آمل أن أكون أولاً على قدر هذا التجاوز، وأنني الشخص المناسب ليجعلك تتجاوزين هذا العائق الكبير، ربما تكون حالتنا سابقةً أو إحدى السوابق.. هذا الأمر يتعلق بك وبرغبتك وبتقبّلك للأمر قبل أن نفتاح به العائلتين، ونسعى لتحقيقه.. أنا أرغب وبشدّة بالزواج منك؟

لم يكن مطلب علي بالنسبة للفتاة مفاجئاً بعد كل هذه المقدمات من خلال سياق الحديث الذي جرى، لكنها وجدت نفسها في وضعٍ محرجٍ

جداً.. فلا هي قادرة على إفهامه باستحالة حدوث هذا الأمر لسبب يدركه تمام الإدراك من خلال حديثه.. ولا تملك الجرأة لتوصل له أنها أصلاً لا تفكر به بذات الطريقة.. تخشى من أن ردّها مهما رافقه من مبررات، فإنه سيصبّ في جهة رفضها للسبب الأول وحده، وهذا ما تخشى حتى مجرد الخوض بالحديث فيه.. مع أنه سببٌ جوهريّ يدرك أهميته الجميع، وأن أهلها على الأقل لن يقبلوا حتى التفكير بحدوث مثل هذا الأمر، يوقنون وهي مثلهم أنه مخالفٌ للدين قبل العرف والعادة.. ماذا تفعل وكيف تسوّي الأمر.. دون أن تخسر أو تجعله خاسراً؟

- انظر أستاذ علي أنت شابٌ محترمٌ وأهلٌ لكل خير، ولا أخفي إعجابي بإمكانياتك ونواياك الطيبة وأسلوبك المباشر الراقي، بغضّ النظر عن المستوى المادي أو أيّ عائقٍ أو فارقٍ قد يحول بينك وبين تحقيق أمانيك ومستقبلك مع من تود.. أحبيّ فيك صراحتك وأقدر رغبتك، لكنني ابنة عائلةٍ محافظةٍ متديّنةٍ، ونحن متمسكون بأعراف وتقاليد لا يمكننا إغفالها والقفز من فوقها، تتوفّر فيك كل الموصفات المناسبة لأي فتاةٍ تريد الزواج، لكنني حتى لو أبديتُ موافقتي من حيث المبدأ، أقول -لو-.. فإن القرار النهائي سيكون للأهل.. أعتذر منك جداً إذ أقول لك أن موافقتهم على هذا الأمر ستكون مستحيلةً، فأرجو أن تتقبّل هذا الواقع وتعدرنني.. أدعو الله لك أن تجد من هي خيرٌ مني لك كزوجةٍ ورفيقةٍ درب..

قالت هذا بعد تدبّرٍ وتخطيطٍ، وهي تحاول قدر ما تستطيع ألا تصفع الشاب برّدٍ جارحٍ قاسٍ.. أعجبها فيه أنه مباشرٌ وذو نيّةٍ حسنةٍ، وليس من طبعها أن تواجه أحداً حتى وهي رافضةٌ تحت أي ظرفٍ برفضها اللفظ، علي الذي وجد في ردّها أفضل مما تأهّب له وأرحم، استنتج على خلاف الواقع

ما تريده نفسه المتعلقة بها، تمسك بخيوط الأمل الذي تهيأ له في ردها، خانه الإدراك في أن يلتقط إشارتها التي أرادت بها أن ترمي المسؤولية على أهلها لتتخلص من الحرج، عليظنها بأنه سيفهم صعوبة الموقف، وأنه ربما سينأى بنفسه عن مجرّد المحاولة، جاء رده صاعقاً، بل وضعها في موقف لا تحسد عليه.. ما بدر منه بعد كل هذا الحديث أتى ليرفع مقدار حرجها إلى أعلى حدًا.. فألجم كل ردّ:

- إذا فسأطلب من الأهل أن يتقدّموا رسمياً لأهلك بطلب الخطوبة بحسب العادات والتقاليد، متأملاً أن يتسامى الجميع عن موضوع الفروق والاختلاف، وأن يتم الأمر على خيرٍ ودون عوائق.. سيتم ذلك بأقرب فرصة إن شاء الله..

لم تدرِ ما يمكن أن تفعل في هذه اللحظة بعد أن تبين لها أنها أخطأت كثيراً بعدم صراحتها ومباشرتها بالرّد كما فعل بطلبه، الأمر الذي احترمه وقدرته فيه؟ عادت إلى المربع الأول، لم يعد بالإمكان التنصّل من الموقف، بعد أن قادته دون أن ترغب إلى مساحة أملٍ بردها الدبلوماسي، تدرك الآن أنه كان عليها ألا تفعل، تفكّر بما ستسببه لنفسها وله من حرج.. والأهم لأهلها المحافظين المسالمين في آنٍ معاً، كيف للجميع أن يخرج من هذا الموقف دون اعتبارٍ ليس هذا وقتها في هذه الظروف التي أشعلت ماكان خامداً.. لا يخفى على الفتاة ما للشباب من صلة بالدولة ومكانة أخيه العميد في المخابرات، والمخفي الذي قد لا تعلمه ربما أعظم، انفضّ اللقاء على أملٍ واستبشارٍ من علي بإمكانية أن يتحقّق حلمه القديم الجديد، وعلى شعورٍ مفرطٍ بالإحباط لدى ليلي.. وخوفٍ مما تحبّته الأيام القادمة؟

بدأت بعدها عند علي المرحلة التالية والتي لا تقل أهميةً بمفهومه عمّا سبقتها، وهي إقناع أخيه أولاً ثم والديه وجده بهذا المشروع، وهو الذي

يعرف أيضًا أنه كقنبلة في عُرفهم عليه أن يستوعب انفجارها بعقله وأعصابه ومشاعره ويحتويه؟ كان يستعجل طي صفحة النهار الطويل وعودة أخيه المتأخرة من الفرع إلى بيته، ليجده العميد غانم بانتظاره على أحر من الجمر.. حتى يلقي بهذه الفكرة التي بدأ يدرك كم هي مجنونة حين صار بمواجهتها بشكل مباشرٍ دونما أحلامٍ موخيال.. تلك الفكرة القابعة في فكره ووجدانه والمكبوتة لسنين صارت حقيقةً عليه أن يتحمل تبعاتها، مهما جرى ومهما لاقى البوح بها من ردود الأفعال، حتى أنه أقنع نفسه وهيأها لما بعد هذه المرحلة على أساسي القبول أو الرفض، معتبرًا أن رغبته أقوى من أن يقمعها صدمًا أو إنكار، ليقفز إلى الأخطر والأصعب وهي المرحلة الثالثة التي تتمثل بطلب يد الفتاة رسميًا من أهلها..

يعلم أن الظروف اليوم غير مناسبة على كافة الصُّعَد، فالتوتر في البلاد يزداد يوميًا بعد يوم، من طرف أهله وبيئته هو رد فعل طبيعي للشعور بأنهم صاروا مستهدفين أكثر، ومن الجهة المقابلة ما يورثه الاحتقان المتواصل بسبب العنف المركز على فئة بعينها أكثر من غيرها.. وهي التي تنتمي إليها حبيبة اليوم وفتاة الحلم.. هكذا وضمن هذه الظروف يأتي علي ليطلب من أخيه أن يوافق، بل ويقنع والديه وجده بطلب يد فتاةٍ من غير بيئته وانتمائه أحبها ويريدها زوجةً له، الأمر كما يعرف هو مسبقًا، وكما يعرف العميد غانم والجميع.. حدوثه أمرٌ أقرب إلى المستحيل، شذت عن القاعدة فقط بعض الحالات، والتي كان فيها أهل الفتاة ممن لا يقيمون للدين والعادات شأنًا كبيرًا، وفي بعض المدن الكبيرة التي ترتخي فيها غالبًا مثل هذه الأواصر المعقدة، أو بحركةٍ أحادية الجانب تقوم بها الفتاة رغما عن التقاليد.. لكن.. من الواضح أن حالة اليوم لا تنتمي لأي مما يشبه هذا.. وهنا تكمن صعوبة المسألة؟

حينما وصل غانم إلى البيت، فوجئ بوجود علي وهو الذي لا يأتي عادةً في مثل هذه الأوقات، فمِنذ أن بدأ بخدمته الإلزامية وأقام حيث أَمَنَ له أخوه مسكنًا قريبًا يأتي في أيام العطل فقط، أو بناءً على دعوة غداءٍ أو عشاءٍ مَتَّفَقٍ عليها في أثناء الدوام الرسمي.. علي الليلة لم يَنَسُقْ مع أخيه مسبقًا، ولم يتصل حتى بالجَوَّال..

- خيرًا إن شاء الله يا علي.. ما الأمر؟ هل هناك شيء؟

- لا شيء سيئًا يا أخي.. لا تقلق.. هناك موضوعٌ مهمٌ فقط أحب أن نتحدَّثَ به إن سمحت لي، وهو يخصُّني شخصيًا.. أعلم أنك مرهقٌ والظروف الصَّعبة التي تمرُّ بها كما الجميع.. ولكنني اضطرَّرت للمجيء وطرحه لأنه بالنسبة لي جدُّ مستعجل؟

- لا عليك.. تفضَّل وقل ما تريد

- كما تعلم يا أخي فإنني أنهيت الجامعة، وها أنا أخدم خدمتي الإلزامية، وأرغب قريبًا في التقدُّم إلى سلك القضاء.. أصبحتُ في الخامسة والعشرين عامًا...

- نعم نعم.. بَمَ تفكَّر يا علي.. هل بما أظنُّه؟

- فيمَ ظننتَ يا أخي؟

- لعلَّك تريد الزواج

- نعم صدقتَ ورَّبي.. هو ذاك

قال علي ذلك وقد صبغت بياض وجهه بقعٌ من دماء الخجل

ابتسم غانم ونظر في وجه أخيه مليًّا:

- رغم أنك اخترتَ توقيتًا غير مناسبٍ على الإطلاق، إلا أنني فرحتُ بهذا يا شقيقي.. الآن فقط أدركتُ أنك كبرتَ فعلاً، وأنَّ الزمن يعاجلنا دون

أن نشعر بخطواته السريعة، لكأنه يسبق آلية تفكيري وإدراكي لما حولي..
ومن صاحبة الحظ السعيد؟

هو ذلك السؤال الفاصل الذي كان يخشاه ويتحضر له:

- ذلك ما أردتُ الحديث فيه.. أرجو أن تسمعني جيداً وتتقبل وجهة نظري وتحترم رغبتني.. وألا تغضب مما سأقول؟

- ولم أغضب يا علي؟ هل هناك ما يُغضب في كونك تريد الزواج وبناء بيتٍ وأسرة؟ هذا بالنسبة لي ولعائتي ولأهلنا غاية المنى.. تفضل قل..

- الفتاة التي اختارها قلبي ليست غريبةً بالنسبة لي، فأنا أعرفها منذ انتسبت إلى الجامعة، وقد أحببها قلبي ومالت لها نفسي، لا أريد سواها زوجةً لي.. رغم صعوبة الموقف؟

- لم أفهم يا علي.. ومن هي؟ عن أي صعوبة تتحدث؟ لتكن من تكون، وليكن أهلها من يكونون، أنت يا علي تُشرف أي عائلة وأية زوجة.. نحن أيضاً من عائلة محترمة ولنا حضورنا.. أتخجل من هذا؟

- لا يا أخي.. لقد فهمتني خطأ.. ما قصدته أنها.. من عائلة دمشقية محافظة ومتديئة.. ولكنها صدقني أرجوك.. قبل أن تعلق على هذا.. هي شخصياً لا مانع لديها من...

- توقّف يا علي لا تكمل.. ماذا تفعل؟ .. هل جئت؟

قال هذا غانم وقد دبّت في بدنه رعشة الغضب وانتفاضة الرفض المتوقعة.. لكنّ علي الراغب بشدة في هذه اللحظات في أن يمرّر رغبته الجامعة سارع إلى احتواء غضبة أخيه وأخذ يستعطفه:

- لا يا أخي الحبيب.. أرجوك افهمني.. إنها أحكام القلب، حاولت كثيراً أن أتخاشى هذا الموقف منذ مدة طويلة، ضغطت على عواطفني

وكبّرْتُ غبتي.. لكن القلب للأسف.. لا يحتكم إلى منطقٍ أو إلى عاداتٍ، ولا يعترف بفوارق.. فماذا أفعل؟

- أنا لا أصدّق ما أسمع.. كلُّنا في فترةٍ ما راهقنا، وشعرنا بالحبِّ والميل لإحداهن، لكنّ ليس هناك أحدٌ من عائلتنا أو من قريتنا، ولم أسمع بأحدٍ من منطقتنا خرج عن المألوف والمعتاد كما فعلتِ أنت، تركناك تمارس أفكارك المخالفة وقلنا سيعقل يوماً ويعود..

لكنك تتماهى يا أخي.. وكثيراً.. المسألة لا تتوقّف عندي فربما أكون الحلقة الأسهل في هذا الأمر قبل أن تواجه والديك.. والأصعب جدك، ثم محيط الأقارب.. فكيف ستتصرّف؟

ثم من أخبرك أن أهلها سيوافقون، ما دمت تقول أنهم من العائلات المحافظة والمتديّنة؟ يا أخي متى ستفهم.. والحديث بيننا دائماً... أنهم لا يمكن أن يحبونا أو يتقبّلونا مهما فعلنا ومهما وصلنا؟.. ناهيك عن شعورهم بالدونية والمظلومية لأسباب سياسية بتّ تعرفها جيداً، ثم إننا كعائلةٍ وكيّنةٍ أيضاً لا يمكن أن نتقبّل وجودها بيننا، ما تفكّر به مستحيل الحدوث لكثيرٍ من الاعتبارات.. افهمها.. مستحيل؟

علا صوت غانم حتى استنفر غضبه جميع أفراد العائلة، تدخلت زوجته التي سمعت الحديث.. لتهدئ مساره.. كانت لها نصيحةٌ لزوجها على انفرادٍ أعجبت غانم وراقت له كثيراً وساهمت في تهدئته، عاد بلهجةٍ مسالمةٍ مختلفةٍ، طلب من علي أن يرجئ مناقشة الموضوع حتى يتسنى له فتح هذه السيرة مع والديهما وجدّهما في القرية في أقرب وقتٍ ممكن، سير الحديث باتجاه أن يُطمئن أخاه ويجعله مرتجياً خيراً.. بناءً على نصيحة الزوجة..

خرج علي متفائلاً باقترابه من تحقيق غايته أكثر، اعتبر أن جزءاً مهماً من هذه الرحلة الشاقّة الطويلة قد تمّ اجتيازه.. ولأنه يعيش متنقّساً تحقيق هذا الحلم، ولأن صديقه ثابت هو من حفّزه على التجرؤ وتحويل الخيال إلى حقيقة، خرج متزوّباً بنشوة ما ظنّ أنه أصبح قاب كلمتين من التحقيق من بيت أخيه مسرعاً باتجاه بيت ثابت، ليخبره بما جرى معه في هذا اليوم الطويل الجميل، ويشّره.. وليضمّه شاكرًا فضله، ويستأنس برأيه..

غانم خلال الأيام القليلة التالية الذي وجد فرصة سانحةً ولساعاتٍ ليسافر إلى القرية ويجتمع بأهله، ولأن نصيحة زوجته قد مهّدت له الطريق لإفناعهم بما يريد.. فقد التقاهم دون علي ليتّسع له المجال لمناقشة الأمر مع الأهل براحةٍ وتدبّر..

استغربوا جميعاً عدم حضور علي معه.. أخبرهم أنه تعمّد هذا ليتسنى له التحدّث معهم بموضوع يخضّ الشّاب المدلّل، وبينما كان القلق والفضول يتتاب الجميع، لم يكن لأحداث الساعة التي طرأت على البلاد إلا أن تكون سيّدة الموقف في مسار الحديث، خصوصاً من قبل الجد الذي يراقب باهتمام وخوفٍ كأهل القرية جميعاً تطوّرات الوضع منذ ثورة تونس ومصر، ويشغل كثيراً بالتفكير والتحضير لمرحلةٍ قد تكون مصيريةً في حياة الجميع..

- كنتُ قد قلتُ لك فيما مضى.. واستنكر الجميع قولِي.. هل كان ليحدث هذا أصلاً في عهد المرحوم الأب؟ لقد لقّن الجميع درساً قاسياً في حركة عام ١٩٨٢..

لقد جعل من حماة شاهداً وأنموذجاً، جزاء من يعبث في أمن البلاد، ها نحن اليوم نشهد ثمار التغييرات التي لم يكن لها أيُّ مبرّر، والتي قدّمت الفرصة للعابثين على طبقٍ من طمع.. لو أنك ترى الناس هنا ومقدار الاستنفار

الجماعي الذي نعيشه، ناهيك عنكم أبناءنا في الجيش والأمن والشرطة، لم يكن هذا ليحدث أبداً لو أنه ضرب بيدٍ من حديدٍ قبل أن يهيئ للناس فرصة التجرؤ بعد ما شاهدوا ما حصل في تونس ومصر وغيرها..

رحم الله القائد الأب.. كان يوماً قد قال لنا في اجتماع ضيقٍ هنا: «نحن معاً في خندقٍ واحدٍ منذ أن وصلت إلى القصر.. فإما أن نبقي معاً في الأعلى.. وإما نهبط معاً إلى الحضيض من جديد.. أنا أنتم.. وأنتم أنا».. لا تنسوا هذا يا بني وأنتم تواجهون أو تضغطون على الزناد..

- وهل تعتقد يا جدي أن الوضع هنا مثل مصر وتونس؟ يخطئ كل من يظنُّ هذا، لا تقلقوا، الأمور مازال وستبقى تحت السيطرة، هم يريدون أن يستثمروا الفرصة للانقضااض على البلد، لكن هيهات، فجيشتنا وأجهزة الأمن عندنا تختلف تماماً عن أي مكانٍ آخر، ولاؤنا للقيادة وللبلد ليس موضع مساومة، حينما ينبغي نضرب بيدٍ من فولاذٍ يا جدي فلا تقلق؟

هنا تدخّل أبو غانم والخوف يرشح من نبرة سؤاله:

- وماذا لو تدخّلت القوى الكبرى يا ولدي وضغطوا على القيادة كما فعلوا في مصر.. ألا يكون هذا وضعاً صعباً؟

- لا يا والدي.. أوكد لك أن الوضع هنا مختلفٌ، لا أحد له مصلحةٌ في تغيير الواقع السياسي القائم، فموقع سورية حسّاسٌ وقيادتنا ضمانَةٌ للجميع، لا تفكّروا في هذا الأمر بتاتاً، لا تنسوا أن روسيا وإيران ستدعمانا بكل الوسائل سياسياً وعسكرياً ومادياً إن لزم الأمر..

لكن الوالدة الخائفة جداً على أبنائها وإخوتها وأقاربها ممن يؤدّون خدمتهم العسكرية في كل المحافظات.. لم تتمالك نفسها حين أبدت مخاوفها:

- حفظكم ربّي جميعاً.. كونوا حذرين أرجوكم يا بني، أخشى من تطوّر الأوضاع، فهؤلاء لا يؤتمن لهم جانب، لن يتردّوا لو واتتهم الفرصة لإيذائكم بكل طريقة متوفّرة، حذاري ولا تفجعوني بكم..

- اطمئنّي يا أمي، الأمر لن يستمرّ طويلاً، القيادة ما زالت تتبّع حتى الآن سياسة استيعابٍ للوضع، وحين يحين الأوان سنبتز الأيادي التي تمتدّ لتعبت بأمن البلاد والدولة...

أنهى الجد الحديث بالموضوع بتوصياته المعتادة:

- عليكم برأس الأفعى.. الأغلبية التي لها المصلحة الكبرى، لا تثقوا بأيّ منهم.. قد يتحرّك البعض من الآخرين وهم قلة، لكن أمر هؤلاء مقدورٌ عليه.. أما أولئك المتربّصون يا ولدي فهم ممثلون غلاً وحقدًا، سينقّصون بكل ما يملكون من بأس، سيجدونها الفرصة التي ينتظرون.. إياكم والرافة والشفقة فستكون مقتلكم؟

- لا عليك يا جدي، لا عليكم جميعاً وقرّوا عيناً.. القيادة تعي ذلك ونحن أيضاً، لا مبرّر لأي شعورٍ بالخوف..

ثم راح يمهد للحديث الذي قدم من أجله رغم الظروف الصعبة، لأنه يخصّ الغالي علي.. فاتحهم بالموضوع بثقة رغم اعتقاده الكامل برفضهم القطعي، وربما بشعورهم بالغضب الشديد لمجرد طرح الفكرة.. لكنه كان يبيّت أمراً:

- جدّي الحبيب.. والدي ووالدتي الغوالي.. الموضوع الذي أودّ طرحه يخصّ علي.. يريد أن يتزوج، وهو يحب فتاةً دمشقيّة تكون زميلته في الجامعة...

صدمهم قبل أن يسمح لهم باستيعاب الأمر والإحاطة بتفاصيله ومحاكمته وإبداء أيّ ردّة فعلٍ لسماع الخبر، ولكي لا تلد بهجتهم بالفكرة مؤوودة،

عاجلهم فوراً بحقيقته.. ممّا جعلهم يصمتون من هول المفاجأة، نظروا في وجوه بعضهم مطوّلاً قبل أن يعلنوا غضبتهم واستنكارهم.. عاجلهم غانم أيضاً بإتمام الحديثمحتوياً ردود الفعل:

- أعلم ما ستقولون.. وأنا متأكّد أنكم لستم تظنّون أنني موافقٌ على هذا وأباركه، لهذا أردت أن أقابلكم بعيداً عنه، لكي أعبر عن وجهة نظري، وأطرح فكرتي حول الموضوع.. علي في النهاية أخي وابنكم، كلنا نجه ونراعي مشاعره، وقد يحظى بمعاملةٍ خاصّةٍ بحكم كونه الصغير المدلّل، وبحكم حساسيته وأفكاره المختلفة التي يحملها، نحن نعلم أنه لا يمكن مقارعة شابٍ عاشقٍ في هذه السنّ، وخصوصاً هذا العنيد، قد نخسره لو فعلنا، وسيفعل الأسوأ.. صدّقوني.

لذا اسمعوني وافهموا أرجوكم، الفتاة من عائلةٍ متديّنةٍ، وهي أيضاً محبّبةٌ وملتزمةٌ بالتقاليد، ومن المؤكّد أن أهلها لن يوافقوا على تزويجها من علي. فلمّ نظهر أمامه بأننا المعارضون الذين يكرهون له ما يحب؟ دعونا نقوم بطلب يدها، ولنخرج نحن بوجهٍ أبيض، وليواجه هو الحقيقة التي قد تعيد له رشده وتردّه لنا.. كما نشتهي ونريد...

سينسى بعد مدّةٍ كما فعل غيره من العاشقين الذين خاب أملهم، نكون خلالها قد أعددنا له الفرصة ليتزوَّج من إحدى صبايا القرية من قريباتنا، أو أيّة فتاةٍ تناسب أعرافنا، نكون بذلك قد أرضيناه وكسبناه من جديد؟
تدخل الجدُّ كاظمًا غيظه.. ومقطبًا جبينه:

- ماذا لو خالف أهلها المتوقّع.. ووافقوا؟ ما أدراك أن يفعلوا لأنهم يخافون من كونك ضابطاً في الأمن ولا يريدون التورط في جعلك عدوّاً لهم؟ خصوصاً في هذه الفترة؟

- هل تعتقد أنهم من الممكن أن يوافقوا لأبي سبب؟ يا جدي.. المسألة هذه.. وأنت أدري مني.. بالنسبة لهم أقوى من أي اعتبار، وعلى سبيل الاحتياط سوف أتيح لهم الفرصة أن يتملصوا ويعلموا رفضهم بكل أريحية، بعيداً عن أي ضغطٍ قد يشعرون به، سأرسل لهم من يتحدث إليهم ويجعلهم يشعرون بحرية القرار.. هل يرضيكم هذا؟

انتهى العرض العائلي للقضية بالموافقة على مقترح غانم الذي أسعفته به زوجته.. ولكن على مضضٍ وخوفٍ من إمكانية حدوث ما لا يرغبون؟

في اليوم التالي كان غانم يفاجئ أخاه بموافقة الجميع على مشروع زواجه، وبأنه عانى كثيراً لكي يقنعهم.. وقد أفلح مسعاه، طلب من علي موافاته بعنوان ورقم هاتف الأب لكي يتم التنسيق لموعد طلب يد الفتاة.. جعل هذا الشاب في حالة لا توصف من السعادة.. يرقص نبضه فرحاً.. بينما راح يُبدي شعوره بالامتنان الكبير لشقيقه الذي ازدادت مكانته في قلبه.. ضمّه وقبل جبينه، وطار إلى صاحبه ثابت مرةً أخرى ليشركه الفرحه والتطلع لتحقيق المراد، يطلب مشورته في كيفية البحث عن عنوان أهل الفتاة، ورغم علمه التام بأن الأصعب هو القادم، إلا أن آماله ربت في قلبه حتى غدا تفاؤله يريه المشهد الذي طالما حلم به.. عاش ليلته صاحباً يرسم من بوارد الفجر القادم قصوراً من خيال؟

كان يسابق في اليوم التالي لهفته، يكاد يطير.. وهو يتوجّه إلى الكلية راجياً أن يجد من يساعده على معرفة عنوان الخطيبة المرتقبة، أو رقم جوالها أو جوال والدها، يعضّ يديه ندماً على إغفاله طلب ذلك منها يوم التقيا في الكافيتريا وفاتها بموضوع الخطبة، وجد ضالته في فتاة كان دائماً ما يراها ملازمةً لليلي في كل مرة كان يراقبها فيها من بعيدٍ خلال سنوات

العشق المحتبس، تقدّم إليها وطلب منها ما أراد.. صعبه ردّها لدرجة أنه لم يصدّق.. أصابه الدهول، توسّعت عيناه حتى كادتا أن تبتلعاً حاجبيه..

وكمّن تعرّض لصدمة كهربائية ذات توتّر عالٍ ارتجفت أطرافه وخارت قواه، ثم انهار كلياً كانهيار حلمه الوردى، لم تحمله قدماء حين تأكّد أنها جادّة فيما قالت، جثا حيث كان واقفاً على ركبتيه، أطلق صرخةً مكبوتةً مجروحةً، وهو يضع كلتا يديه على رأسه، مما أثار خوف الفتاة وكل من كان قريباً من المشهد، ذلك التصرّف الذي لم يتوقّعه أحدٌ أدّى للشعور الجماعي بالتعاطف مع حالة الشاب الكسير.. ماذا قالت له الفتاة حتى تحوّل إلى هذه الحالة المأساوية؟

لقد رحلت ليلي مع أهلها خارج البلاد واستقرّوا في مصر، كان موعد سفرهم في هذا اليوم صباحاً.. كانت هي شخصياً ممّن ودعوا العائلة قبيل سفرها؟

كان هذا قرار أبي ليلي الذي علم من ابنته بما جرى، هو المسالم الذي يخاف على ابنته وعائلته في ظل هذه الظروف من مغبة معادة أهل علي، وقد علم عنهم ما لا يطمئن، كان أصلاً يفكّر بمغادرة سورية قبل هذا لمتابعة عمل له هناك، والنأي بنفسه وعائلته عما يتوقّعه من تطوّر أحداث البلد، وما بات يعرفه الجميع من إمكانية أن يقودها الحلّ العسكري إلى متاهات الضياع والتدمير.. وقد رأى أن تنفيذ تلك الفكرة صار واجباً الآن؟

عاش علي كابوسه هذا بعد أن صحا من أخيلته التي تنامت في نفسه وقلبه طوال شهور طويلة، ينتظر بها هذه اللحظة بكل ما فيها من إحباطٍ ممكن، لكنّه لم يكن يتخيّل أبداً شكل النهاية المحبط هذا، حزن حزناً شديداً لدرجة الانعزال عن كلّ من حوله لأيام، حتى عن أخيه وصديقه المقرب ثابت.. بل إن الأيام التي تلت استيعابه جزئياً للصدمة القاسية أبدت منه فتوراً ملاحظاً في علاقته مع ثابت.. كأنه كان يحمله جزءاً من المسؤولية الكبيرة التي حمّلها فيما يبدو للجميع.. وبالأخصّ أبناء بيئة الفتاة الهاربة؟

قلت لقاء اتهامها وصار يتحاشى اللقاء به إن أمكنه ذلك، أصبح أكثر عدوانية في سلوكياته تجاه الثورة والثائرين، يجالس أبناء منطقته تحديداً أكثر من أي فئة أخرى، وأحياناً يتعمد انتقاد الدين ورجاله في ملأ وتحت أنظار وأسماع الجميع بما فيهم ثابت، وعلى غير عادته يشارك في جلساتٍ جاهرون فيها بالسبِّ والتهكُّم الموجَّه للربِّ والدين.. وقد بات يعرف الجميع أن الشتم عموماً وشم الربِّ والدين خاصةً لازمةٌ مستفزةٌ عندهم يجهرون بها في كل مقامٍ حتى بدون مناسبةٍ أو سببٍ ظاهر.. كأنها لغوٌ مقصود؟

استلزم خروج علي من حالة الكآبة التي وقع بها الكثير من الوقت، بمساعدة الأهل ودعمهم ووعودهم له بالتعويض.. لم يدعوا الفرصة تفوتهم فاقتنصوها لتحريضه وبث روح العدائية في نفسه بشكلٍ مدروسٍ غير مباشر، مما حوَّله تدريجياً إلى شخصٍ مختلفٍ بتأثير ردود الفعل التي لم تحتجِ إلى الكثير من الشَّحن لتظهر جليَّةً في سلوكه، هو في معمعة هذه التأثيرات الفاعلة لم يسمح لصديقه بأن يكون إلى جانبه في هذا الظرف الشعوري الصعب؟

كان كل هذا يحصل بشهادة ثابت الذي بدأت تتصاعد حدة شعوره بالرفض لكل ما يجري حوله.. حين لم يعد يجد المزيد من المبررات لما يحصل في مدى نظره من تجاوزاتٍ وانتهاكات، وشعوره بالأسف على كل ما دافع عنه أمام أهله وأصحابه.. ومع هذا حاول ثابت جاهداً ومخلصاً أن يستوعب علي ويقدِّر وضعه، لا لخوفٍ أصابه.. بل لأنه أحبه فعلاً ويعلم أن علي الخارج سابقاً عن دائرة التأثير السلبي العدائي يبادلُه ذات الشعور.. وأن الظرف الذي يعيشه محزنٌ وشديدٌ على النَّفس.. أخذ يتخيَّل لو أنه حصل له مثله.. ولو هربت الفاتنة منه بعد أن متى النَّفس بها، ورسم لها في نفسه الكثير من اللوحات الحالمة.. وبنى عليها مدناً من الأمل.. ترى.. ماذا ستكون ردة فعله ؟ ؟



(٨)

مواجهةً وانشطار

المرايا لها ذاكرةٌ نشطة..

غير أننا نبحتُ فيها دائماً عن أحدثٍ لقطَةٍ

تخفي الباطنَ المشوّه.. وتُلَمِّعُ الظاهرَ المموّه..

عندما تلتصقُ الأقدامُ بالترابِ.. يصبحُ الارتقاءُ والتَّحليقُ بالحلمِ

معبراً عن قَمّةِ المفارقة، فللأرضِ قدرةٌ عجيبةٌ على التشبُّثِ

بقاطنيها.. ولمداراتِ التَّحليقِ نزعةٌ مفرطةٌ حينَ استيقاظٍ..

للتخلي عن الهائمين!

بعد أن تأخرت بعض المناطق في سورية عن الالتحاق بركب الثورة والاحتجاجات.. ولأسباب مختلفة.. بدأت تنضمُّ واحدةً تلو الأخرى، منها قرية أبي ثابت التي خنقت إرادة الثورة فيها عند البداية أيادي المتعاونين مع النظام والموالين له لمنافع شخصية ومادية.. من أمثال بيت الخليل، الذين تعاملوا كدأبهم مع أجهزة الأمن لقمع أي تحرُّكٍ ممكنٍ.. تمَّ تسليحُ معظم رجالهم وشبابهم.. غير أن منهم أيضاً من لم يعجبه هذا الوضع الراهن.. ولا سلوك أقربائه.. ولم يتفاعل مع هذا التوجُّه.. فما سار في ركب السَّائرين.

الشباب المتوقِّد الذي هيأ نفسه لهذه المرحلة، لم يعدْ بالإمكان السيطرة على ردّات أفعاله، بعد أن تمكَّن العاقلون من كبار القرية حتى الآن من التأثير فيهم للتأني قبل إعلان الصِّدام مع هؤلاء المرتزقة.. على حدِّ توصيف أبي ثابت:

-إنهم في النهاية أبناء القرية، وسيكون الصّدام معهم أمرًا ترغب به الدولة على مبدأ «اللهم أهلك الثّائرين بالمنافقين وأخرجنا من بينهم بالكرسي متشبّثين»، لتقف وتتفرّج على ما يمكن أن يحصل من أفعال عدائية وردّات أفعالٍ مقابلة.. مما يهوّن على أجهزة الأمن المهمّة، ويميّع جوهر الثورة وأهدافها الرئيسية.. ويحرف اتجاه مركبها..

هذه الجمعة كانت مختلفةً تمامًا باختلاف النوايا وشدّة الحماس لدى الكثيرين من أهل القرية شبّها وشبّانها، بيّت الشباب النية على الخروج بمظاهرة كبيرة بعد صلاة الجمعة مهما كلّفهم الأمر، جهّزوا لها وبشكل منظمّ مدرّوس، توزّعوا بين المسجدين الموجودين في القرية، وبقي قسمٌ منهم بعيدًا عن أيّ منهما.. بحيث يضمن لهم موقعهم عدم انتباه القوى الأمنية والشبيحة من آل الخليل للغاية المبيّنة..

الفكرة أن يجتمع الجميع في نقطة محدّدة بين المسجدين.. تكون منطلقًا للمظاهرة، مرتدين تحت أرديتهم الظّاهرة لباسًا خاصًا عليه شعاراتٌ أعدّت مسبقًا، ومتزّزين بالرايات المناسبة التي سترفع فيها.. على أن يكون انضمام باقي الشباب المراقبين من البعيد مربكًا لدوريات الأمن والشبيحة. حين يغدو العدد كبيرًا يصعب عليهم أن يجمعوه بسهولة، هذا ما فكّر فيه المدبّرون، خاصّة وأنّ الأوامر لم تأت بعد بإطلاق النار الحيّ على الناس، مازالت أساليب القمع تعتمد الضرب الجسدي الرّادع والاعتقال.. حدث مثل هذا التنظيم في قرية مجاورة يوم الجمعة الفائت.. وقد نجح نجاحًا ملفتًا..

تمّ الأمر كما أراد الشباب وتوافقوا عليه، اجتمع الجميع في المكان المحدّد، انطلقت المظاهرة الحاشدة وعلت الأصوات بالاحتجاج ورُفعت الرايات، حاولت دوريات الأمن أن تمنع ذلك فلم تستطع لقلّة عدد العناصر..

تدخل الشبيحة من بيت الخليل، راحوا يضربون أطراف المظاهرة باستهداف بعض الأفراد المشاركين بالعصيّ والبنادق على ظهورهم وأجسادهم فوق بعضهم مصاباً.. وبسحب ما أمكن من الشباب إلى الأطراف لاعتقالهم.

أثار هذا المشهد غضب الشباب الشجعان المتحمسين من المشاركين، هاجموا الشبيحة بأجسادهم وقبضاتهم.. واحتدم الوضع، فقد بعض الشبيحة ورجال الأمن أسلحتهم، وضمن الأمواج البشرية سقطوا بين أقدام الغاضبين، داسوهم على كثرتهم وهدير غضبهم، شجّع هذا المزيد من الشباب على الانتفاضة، لم تعد حكمة أبي خالد ورفاقه تجدي نفعاً ولم تعد أصواتهم محيط أفواههم، راح الشباب الثائرون يهاجمون كل من هو محسوبٌ على النظام.. أطلقت الدوريات الأمنية التي ما تزال صامدةً في الخلف وبعض الشبيحة النار أولاً فوق الرؤوس لمنع الشباب الثائرين الغاضبين، لكن ذلك لم يردعهم بل زادهم إصراراً وتابعوا هجومهم.. حتى أقدم أحد شبيحة النظام على إطلاق الرصاص الحي على المهاجمين بواسطة بندقية آلية وبرشقة موجهة مباشرة فأصابت مجموعة منهم..

عندما رأى الجمع الغفير الدماء تسيل وبعض الشباب يتلؤون على الأرض ثارت ثائرتهم أكثر، انقضوا على رجال الأمن والشبيحة بقوة وبكل ما أوتوا من تأثر وكثرة، ألقوهم أرضاً، تمّ انتزاع الأسلحة من معظمهم.. بينما فرّ الباقون بعيداً، فارت دماء الحاضرين بالغضب، غير أنّ الحكمة لم تغب تماماً بمتابعة أبي خالد وأقرانه من رجال القرية، حيث سيطروا على حدة الفوران بمنع الشباب من الخوض في دماء المهاجمين، اكتفوا بدحرهم وانتزاع أسلحتهم وأسر الكثيرين منهم، تولّى قسمٌ من الشباب مهمة إسعاف الجرحى إلى مستوصف القرية، وتابع الكثيرون المنتشون باندحار رجال

السلطة زحفهم نحو مراكز الدولة، اقتحموها ورفعوا فوقها علم الثورة الذي تمَّ اختياره من قبل جميع ثوار سورية.. وفرَّ كل رجالها منها..

المثير في الأمر أكثر أنهم سمعوا فيما بعد أنَّ ما حصل في القرية حصل مثيله في قرية مجاورة، كان هناك قتلى وجرحى أيضًا، كلُّ القوى الأمنية في المنطقة على إثر الحادثتين انسحبوا من القرى القريبة.. وانحسر تأثيرهم، استقرُّوا بوضعية دفاعية في مركز المنطقة بانتظار الأوامر.. تلك البلدة الكبيرة المركزية التي قامت بها أيضًا مظاهرة، لكنَّ تمَّ استيعابها دون حوادث جادة تُذكر، بدأت وفود المساندة والدَّعم تأتي من مناطق أخرى، بدا أن الأمر تحوَّل بين ساعةٍ وأخرى إلى متارِّم حدِّ التَّغير العام من الطرفين..

تمخَّض الاشتباك عن خمسةٍ مصابين من شباب القرية، أحدهم فارق الحياة فوراً، وهو من عائلةٍ صغيرةٍ وفقيرةٍ في القرية، تمَّ تشييعه دون تأخيرٍ بعد الصلاة عليه بمظاهرةٍ أكبر من سابقتها، وصل صوت تكبير المشاركين الكُثُر فيها إلى مسافةٍ بعيدةٍ حيث كانت بعض عيون الرِّقيب العتيد ترصد وتنقل.. أما الأربعة الآخرون فكانت إصاباتهم متفاوتةً، منهم أحد أقرباء أبي خالد من شباب العائلة، كانت إصابته هي الأخطر فيمن يتمَّ علاجهم علاجاً أولياً بواسطة طبيبٍ شابٍ من القرية وبعض العاملين في مجال الإسعاف، استقرَّت الرصاصة في صدره، ومصابٍ آخر استقرَّت الرصاصة في بطنه، كان لزاماً على أن يتمَّ إسعاف كليهما إلى مشفىٍ متخصصٍ لكنَّ إرسالهم إلى مركز البلدة أو المدينة محفوفٌ بالمخاطر الكبيرة، لسيطرة رجال الأمن على كل مشافي الدولة والقطاع الخاص، حار الجميع الذين كانوا يتوقَّعون القمع، ولكن لم يحسبوا حساباً لهذا المدى الواسع من تطوُّر الأوضاع.. حتى ظهر في الوسط أحد الشباب يقود سيارة (بيك آب)، طلب منهم وضع المصابين في عربته

فوراً، ليمضي بهم إلى المشفى الميداني الذي تم إنشاؤه من قِبل بعض الأطباء الشباب في القرية المجاورة، ما هي إلا لحظات.. حتى كان الشاب ومرافقيه من شباب القرية ينقلون المصابين إلى المكان المحدد، بينما بقي المصابان الأخيران في مستوصف القرية.. بحكم أن إصابتهما كانت طفيفة..

اجتمع رجال القرية في مضافة أبي ثابت يناقشون الوضع، وهم في حالة ذهولٍ وصدمة، مبدئين القلق الشديد على أبنائهم بعد التطورات التي حصلت، يبحثون مصير آل الخليل الذين كانوا خلال دقائق يغادرون القرية باتجاه مركز المدينة وبشكلٍ جماعيٍّ خوفاً من انتقام باقي الأهالي، حتى كادت بيوتهم أن تفرغ تماماً سوى من بعض النساء والأطفال وكبار السن.. ولرُذع الشباب الغاضبين من الانتقام من خلال مهاجمة بيوتهم، وما تبقى من عائلاتهم.. انتشر الكثير من الرجال الكبار في الحي الذي تقيم به معظم عائلات آل الخليل للحيلولة دون مهاجمته، وتهدة الأوضاع لو ذهبت نحو الأفعال الانتقامية، رابطوا جميعهم بالتناوب ليلاً ونهاراً، بينما استمرّ العقلاء وكبراء القرية في بيت أبي خالد يخططون لما بعد هذه المرحلة، كيفية استيعاب ما حصل واحتوائه، وامتصاص ردة فعل الدولة على ما جرى في القرية، الجميع كانوا متفقين على أمرٍ واحد.. لا عودة إلى الوراء مهما جرى بعد ذلك، ولكن تمحورت الخلافات في وجهات النظر حول آلية التعامل الحالي والمستقبلي مع الأزمة، فمن الموجودين من كان متفائلاً إلى حدٍ كبيرٍ متشياً بما تحقق، ويعتقد بأن ما جرى في القرية هو نتيجة حتمية حدث مثلها.. وسيحدث في جميع بقاع الوطن، المسألة لا تتعدى صبر أيام حتى يرحل النظام وتتغير الأحوال، بينما ذهب آخرون إلى أن الوضع أصبح معقداً جداً، ولكن بإمكان الجميع متكاتفين أن يتجاوزوه في الأيام القادمة.. غير أن أبا خالد ومعه من قل من الرجال ذهبوا في اتجاهٍ مخالفٍ تماماً:

- أربطوا الأحزمة يا قوم، وشدُّوا أسرجة الرواحل، الأمر ليس بالبساطة التي تتخيَّلون، ستكون لنا في هذا البلد أيامٌ عصيبةٌ.. وقد نَبَّهْتُ معظم شباب القرية لهذا، هم قبلوا المخاطرة رغم كل هذا، علينا نحن أن نواكب حماسهم وتقبُّلهم للثمن الباهظ الذي قد ندفعه، الأمر ليس مسألة أيامٍ كما تعتقدون، ولا حتى أسابيع.. ولا أعتقد أنه حساب شهور..

النظام أكثر استعدادًا الآن للضرب بكلِّ ما أوتي من قوَّة وبطشٍ.. لن يفرِّط أصحاب الكرسيِّ بمقعدهم مهما كلفهم الأمر، ستدفعهم إلى ذلك الكثير من الجهات في الخارج، فسقوط هذا النظام اليوم ممنوعٌ.. ممنوع.. وما جرى اليوم لا أراه سوى استدرجٍ مدروسٍ من أجهزة النظام الأمنية التي تعي تمامًا ماذا تفعل؟

- ماذا تقول يا أبا خالد وأي تشاؤم هذا؟ ظننت بالجميع إلا أن تكون أنت.. نحن نعرف مقدار حماسك للتخلُّص من هذا النظام.

قال أحد الحاضرين من أصحاب أبي خالد المقرَّبين، وهو العارف بجميع خبايا نفسه على مدى سنين طوال..

- افهمني يا عزيزي، هذا ليس تشاؤمًا.. إنها واقعيةٌ محضَةٌ ورؤيةٌ كاشفةٌ ممَّن يعرف بخلفيات الأمور، ستعلمون فيما بعد وتشعرون بقيمة كل كلمةٍ أقولها الآن، نحن الآن في وضعية العين بمواجهة المخرز، النظام لديه التغطية الكافية، وإشارات الأمان من معظم القوى العظمى بما فيها العدوَّة الظاهرية اسرائيل.. أشعر أنه أعطيَ الضوء الأخضر ليطش وينهي الأمر.. مهما كلفه ذلك.

- كيف سيفعل هذا يا رجل؟ الزمان تغيَّر وتغيَّرت معه كل الظروف والشروط، لم نعدُ الآن في عام ١٩٨٢.. نحن اليوم في زمن التواصل

ووسائل الإعلام وتأثير الشارع، لن تصمت شعوب العالم إذا استمرّ بطش النظام وقتله للمتظاهرين هنا أكثر من ذلك.. ثَقُ بما أقول.

-أثَقُ بك طبعاً وبِمَ تقول، وتعلم كم أحبك يا صديقي وأقدّر تفاؤلك.. لكن ثَقُ بأخيك أيضاً بما يدّعي والله تعالى أعلم، لو أرادوا أن ينهوه لما استغرقت العملية أكثر من ساعات.. وستذكرون كلامي، هذا لا يعني خوفاً أو تراجعاً عن مواقفي ولكن.. ضمّوا هذا في حسابكم.. واعلموا أننا سندفع الكثير، رغم إيماني العميق بأن الغلبة في النهاية مهما طال الأمر لأصحاب الحقّ والمظلومين..

انتشر خالد وإخوته وشباب القرية، شكّلوا حواجز على مداخل القرية وفي منتصفها بغير سلاح بناءً على توصيات أبي خالد وكبار القرية الذين نصّحوا الشباب وأقنعوهم باستمرار السلمية في الاحتجاجات، رغم وحشية التعامل من قبل النظام. من الخيارات المهمة المطروحة الآن أن يتمّ التفاوض مع السلطات على إعادة كل شيء لنصابه قبل المظاهرة وإطلاق سراح من احتجزهم الشباب من رجال الأمن والشيّعة، قد تساعد في نجاح هذا المسعى حقيقة أنه لم يتعرّض أيّ من رجال الأمن والشيّعة للقتل.. كل ما هنالك فقط بعض الإصابات الطفيفة جرّاء الضرب الجسدي.. مع التفاوض على استمرار المظاهرات السلمية دون ضغطٍ من السلطات..

خلال اليومين التاليين.. وبعد مراسلات واجتماعاتٍ مكوكية مع بعض ممثلي النظام من البعثيين تمّ لأبي خالد وأصحابه ما أرادوا، عادت الأمور إلى مجراها في القرية، وتمّ عقد الهدنة وإطلاق سراح المعتقلين من كلا الطرفين، استمرّت التظاهرات يومياً في كل مساءً وفي ساحة القرية الرئيسية دون تدخلٍ مباشر ولا حتى تواجد أيّ من رجال الأمن.. مع ضمان إبعاد

شبيحة القرية عن المكان، اطمأن الجميع خلال هذه الفترة على تحسّن حالة المصابين ونجاتهم جميعاً، إلا أنّ أبا خالد نبّه الجميع لتوخي الحذر.. وهو الذي يدرك أن هذا النظام كما قال لهم لا يراعي عهداً ولا ذمةً، ولا يحترم اتفاقاً.. ولا يتوانى عن الغدر في أي لحظة؟

في بيت أبي خالد جلست النساء حول أم خالد ومعهن أطفالهن، وهي تعمل على التهذئة ورفع معنوياتهن في هذه الظروف الطارئة، وتبثّ فيهن روح العزيمة لدفع الرجال والوقوف خلفهم بصبرٍ وثباتٍ.. والصّبر على أيّة مصيبةٍ قد تحدث..

بينما جلست المسكينة هادية وولدها عثمان في زاوية من الغرفة بهدوءٍ وكثير حزنٍ..

هادية تشعر بوخزات نساء القرية، من خلال ما تمتلئ نظراتهن بها، وما يخفيه من قولٍ جارحٍ لم ينطقه بألسنتهن بخصوص زوجها الذي ما يزال يخدم في صفّ الظلم هناك.. حتى الصغير عثمان الذي لا يعي كثيراً مما يجري حوله، والذي كان بالأمس خلال إحدى المظاهرات يجلس على كتف عمّه حاملاً علم الثورة.. كان يستطيع أن يميّز موقف والدته المختلف عن الجميع ضعفاً واندحاراً، بينما كان يحدث أحد أبناء عمّه عن والده الغائب البعيد.. بنبرة طفوليةٍ حشد لها كل ما يملك من براءة:

- أين أبي؟ ليتّه كان هنا، أتعلمون؟ لو كان هنا لساعد أعمامي في المظاهرات، ولكان في مقدّمة الخارجين.. لما سمح للشبيحة أن يضربونا، ولما حزنت أُمّي كثيراً، كنت سأخرج معه في كل مظاهرة وأجلس على كتفيه.. حينها سأكون أعلى من الجميع.. كم أشتاق إليه.. أريد أن أتحدث معه وأراه.. وأنام إلى جانبه كما كنت أفعل؟

كانت المسكينة تراقبه وتصغي إليه بألم، تمتلئ عينيها بدموع الضعف والقهر التي ما زال لديها القدرة على احتباسها تصبُّراً ومداراةً لمشاعر ولدها المسكين.. في الوقت الذي تحوّل كل حرفٍ مما قاله إلى طعنةٍ تمزّق ما ترتّق من شرايينها ذات علاج؟

بينما كانت أم خالد تدرك حجم المعاناة في نفس هادية وولدها، تحاول ما استطاعت أن تسمو فوق شعورها بالخيبة والحزن الغائر والكثير من الشوق لولدها.. بتبني دور السيدة الكبيرة القوية.. زوجة الزعيم غير المتوّج أبي خالد؟

كلما مرَّ يومٌ جديدٌ هناك في قلب الحدث بدمشق.. تفاقم شعور ثابت بالوحدة والإحساس الخانق بالذنب الذي حاول أن يطمسه جاهداً بتبرير ما أمكنه من الأفعال المشينة التي يراها كل صباحٍ ضدّ المدنيين العزل.. يساعده في التّحايّل على هذا الشّعور وجود الزوجة الجديدة الفاتنة التي كلما حضرت أمامه أنسّته كلّ فقدٍ وحزن، وعطّلت جميع مفاتيح ضميره وأصمّت جميع أوتار إحساسه المؤلم.. بما تهيه من فتنٍ ورقّةٍ ومعاملةٍ خاصّةٍ تنبع من عمق لهفتها التي يزيدها جمالها وعشقها الشديد له وتعلّقها المتزايد به إلى حدود الهوس تأثيراً.. ورغم أنّ واقع الحال المؤثّر في ازدياد عدد الضحايا الأبرياء، وعدد المعتقلين الذين يراهم دوماً، ويراقب ما يحلُّ بهم بين أيدي جلاّديهم في الفرع، ورغم حضور مشهد والده ووالدته وإخوته ورفيق روحه كمال وكل معارفه وأقربائه، وهم ينظرون إليه باحتقارٍ وازدراءٍ نصب عينيّ خياله.. فإن الحالة التي قيّضتها له الأقدار مع بيتٍ كالقصر وسيارةٍ فاخرةٍ ومالٍ وفيرٍ وزوجةٍ لم يكن يحلم قطُّ بمن تدانيتها حسناً ومكانةً.. جعلته حتى هذه الساعة يغيب هذا الواقع، يدفنه بكل ما أوتي من رغبةٍ وقدرةٍ على تجاوز مواجهة الذات..

غير أنَّ الأيام الأخيرة بدأت تجلِّي الصُّورة في عينيه وقلبه أكثر، من خلال بعض سلوكيات الفاتنة وردود أفعالها تجاه شعوره بالتعاطف مع ضحايا القمع، هذا الإحساس الذي لم يكن له القدرة على إزالة أعراضه تمامًا.. ازدادت عدوانيتها المفرطة للناس وتحيزها الفاضح للنظام وكل ما يقوم به تجاه الأبرياء ممن تعتبرهم متآمرين مندسِّين يريدون تخريب البلد وإشاعة الفوضى.. الأمر الذي يبرِّر ردُّعهم بكل الوسائل المتاحة.. ثابت رغم كل هالة سحرها وجاذبيتها التي سبق لها أن أنست كل شيء سبق أو كادت.. لم يستطع إلا أن يستنكر منها ذلك كلما أمعنت فيه.. ولكن بصمتٍ وكبت؟

بينما بدأت تظهر تدريجيًّا على السطح بوادر الخلاف بينهما حول منهجية الحياة وسير الأمور، لم يعد قادرًا على أن يدفن رأسه في الرمال أكثر مدعياً أن الحب يمكن له أن يفني الاختلافات الجوهرية أو يطمسها، لم يكن له بعد أن بدأت عوامل سكرته بالتنجُّي أن يستمرَّ بتسويق الأمور أكثر من ذلك.

فاتنة لم تغَيِّر شيئاً من أساليب حياتها كما وعدت سابقاً، بل لم تبدِ حتى نيَّة في ذلك.. استمرَّت في السَّهر الطويل خارج المنزل وحضور الحفلات العامة والخاصَّة، مرتديَّة ما كان يوماً موضوع نقاشٍ طويلٍ بينها وبين حبيبها.. ضاربةً بعرض الحائط كل تحذيرٍ أو تنبيهٍ من زوجها القروي المشبَّع بالتقاليد.

علي وبعد حادثة الخطوبة الأخيرة من ليلي الهاربة.. لم يعد كما كان من قبلُ مستودع سرٍّ ثابت والصَّدر الرِّفيق الذي يبيِّته أهاته كما كان يفعل، ولا ظلَّ هو أثيره بين الرِّفاق.. فقد قلَّت لقاءاتهما.. وإن لم تنعدم، عزَّ البوح بينهما، رغم حضور علي حفل زفاف صديقه، ومشاركته له الفرحة. ورغم أن المحبَّة المتبادلة لم تغبَّ تمامًا من قلوبهما.. إلا أنَّ هناك شيئاً لا يمكن تجاهله أو التسرُّ عليه قد حصل في علاقتهما.. مازال ثابت يأمل أن يترمَّم بمرور الوقت، ونسيان علي للصَّدمة التي تلقَّاها ساعة خيبة أمل؟

هناك في حمص ما زال جرح صديقه كمال غائرًا في صدره.. يُشجيه كلما خلا إلى نفسه ويبيكه.. الأعظم إحزانًا بالنسبة له هو أنه لم يستطع حتى أن يقوم بواجب العزاء والمواساة لمن هو بأُمس الحاجة لها.. لمن كان دائمًا المواسي الرَّحيم القريب له.. فيما اعتراه في سالف الأيام من خطوب..

ما زال لقاؤهما الأخير يؤرِّقه ويمنعه من التواصل مع صاحبه، حين التقيا في دمشق قبيل انفجار الأحداث المأساوية في حمص وكانت إحدى تركاتها الثقيلة فقدان الزوجة العروس.. وما دار بينهما من حديثٍ ناري، جعله حتى هذه اللحظة يعمل على ترميم الجرح الذي خلفه في نفسه، وحالة نكران الذات التي تسبَّب بها.. ما زال مستمرًّا بالمكابرة والتعنت برأيهرغم كل هذا، يدَّعي أحقيَّة ما ذهب إليه بمخالفة جميع أحنَّائه ووقوفه في صفِّ النظام والدولة..

-أنت أخي ولست فقط صديقي يا ثابت.. وما أريد أن أقوله لك والله منزَّة عن أي غايةٍ سوى المحبَّة والحرص الأخويِّ الشديد..

-تفضَّل يا كمال.. يا أغلى إخوتي.. أنا مصغٍ إليك.. ما لك عندي يجعلني أتقبَّل منك ما لا أتقبَّله من غيرك

-ألا ترى أنك أطلت الغيبة عن الواقع الذي يُفترض أن تنتمي إليه؟

-لم أفهم يا صديقي مقصدك.. عن أيِّ واقعٍ تتحدث؟ وأيَّة غيبة؟

-لعلك تفهمني.. ولكن جزءًا منك ينكر ذلك.. أو لا يريد؟

-هل تعني ما حصل مع أهلي وهادية.. وقصَّتي مع فاتنة؟

-ليس هذا فقط.. بل أعني أكثر وأعظم من هذا بكثير

-أسمعك يا صاحبي.. فلا تتردَّد في التَّصريح بكل ما يخطر ببالك أو يرد

في تفكيرك.. مرَّةً أخرى أو كد لك.. أنت بالذات كلِّي يصغي إليك، ولا أجد

حرجاً منك في شيءٍ حتى بانتقادي وتصوبيي.. لكن أرجوك أولاً.. افهم خلفية الأمر وحقيقته قبل أن تعاتبني وتجور علي في أحكامك.. فهذا بالنسبة لي قاسٍ ومخيف؟

أنا يا صديقي رغم ظاهر الأمر الذي يبدو سيئاً.. لم يكن لي ذنبٌ فيما جرى.. والمشاعر التي نالت مني وسيرتني ليست حركةً إراديةً مخططاً لها، أنت تعلم أنني عشت حياتي كما يريد أهلي وكما فرضته البيئة التي وُلدتُ فيها، وكنت بسبب التغيب الكامل راضياً، وأخطو في هذه الحياة كما هو مخططٌ لي، أسير بغير رغبةٍ، وبمحض أخلاقياتي التي تربيّت عليها.. نعم أجلبها وهي تستحق.. واحترمها وهي بلا شك أهلٌ لذلك، لكن أصل المشكلة كان مكمّنه في داخلي المختنق الحبيس، حين انقشعت كل الغشاوة عن عيني وعن قلبي، والتقيتُ-بعد ما تعلم من تغيّراتٍ حصلت في ظروفٍ-بفاتنة.. سلبت كل عقلي، وهدمت كل الحواجز التي تمنعني عن الخروج من الدائرة التي رُسمت لي.. لم أتعمد هذا.. ولم أَسعَ إليه، لكنني لم أستطع في الوقت ذاته أن أمنعه.. فماذا أفعل؟؟ أعلم أن ما فعلتُ من وجهة نظرك ومن خلال رؤيتك خطأً وجنايةً بحق زوجتي ووالديّ والبيئة وولدي، لكن في حقيقة الأمر إنني فعلتُ ولأول مرّةٍ ما أريد بكل صدقٍ ومشاعر حقيقية، فعلتُ ما أريد أنا وما وجدته الأجل والأصلح لنفسِي، أنا لم أقصُر ولن أفعل بحق زوجتي وولدي وأهلي وأصحابي.. إن قبلوا بواقع الحال.. ولكن.. أليس لي الحق في أن أمارس ذاتي بحرية دون أن أفكّر بمرضاة الآخرين، من غير أن أخشى تبعات ما يرضيني، أن أعمل لنفسِي ولو لمرةٍ في هذه الحياة؟ أرجوك يا صاحب العمر الحقيقي افهمني.. ولا تفكّر بالأمر أو تحكم عليه من خلال وجهة نظرٍ مسبقة.. جرّب أن تتقمّصني وتفكّر فيه من خلال رؤيتي أنا.. وشعوري؟

- سبق وأن تفهّمت هذا الأمر تمامًا، وأقدّر كل ما قلته، لكنني ما زلت أقول أنّ للأمر أبعاداً أكبر وأخطر من استسلامك لمشاعر لا أشكُ بصدقها، ولا أستطيع لا أنا ولا غيري أن نصادرها.. افهمني أنت يا أبا عثمان.. أنت وبلا إدراكٍ منك تنجرُّ نحو طريقٍ نائيةٍ خطيرةٍ، ما تعيشه الآن ليس ذنباً بحد ذاته، لكنّ توقّف لحظةً وفكّر فيما بعد ذلك.. إلى أين أنت سائر؟ بدأت الحكاية بفرصة عملٍ جيدةٍ، وانتهت وحتى الآن فقط.. ببعذك عن أعرافك وقيمك التي تربّيت عليها، وبانفصالك عن واقعك وعائلتك وأهلك.. والأخطر لم يأت بعد؟ حينما تجد نفسك في مواجهة نفسك، على خطّ الاختيار العظيم.. بين ذاتك ومبادئك ودينك وأخلاقك وجذورك.. وبين طارئٍ ترضى به أن تتنازل تمامًا عن جميع ما تأسست عليه، لعلّك ترى أن بوادٍ هذا الأمر قد بدأت بالظهور، وأنت أدري مني ما هي أفعال النظام، وكيف يتعامل مع الناس في حال أحسّ بخطرٍ يهدّد أمن وجوده.. وإن شئنا أو أبينا.. فلا مفرّ اليوم أو غداً من المواجهة.. فعلى أي صفةٍ حينها ستكون؟

مازال هذا الحديث الساخن يعشعش في ذاكرة وجدان ثابت، ويقصّ مضجعه.. كلما أراد لضميره أن يغفو قليلاً، اليوم تقتات إرهاصات هذا الصراع من ساعات نوم الشاب الأرق، زاد ذلك وأضرّمه أكثر تحذير أبي خالد الذي وصله عبر خالدة شقيقته الغالية التي تحمّلت عناء السفر إلى دمشق لتلتقي الغالي، حاملّة جميع محبتها وإحساسها بالشفقة والغيرة على الغالي، ورسالة الوالد الغاضب القلق، تحاول للمرّة الأخيرة بما تحمله له ويحمله لها أن تستعيده قبل فوات الأوان.. على حدّ تعبير أبي خالد.. حين قالت له:

- البطن التي حملت بك طاهرةً، والبيئة التي تربّيت فيها نظيفةً نزيهةً.. والمنبت الذي خرجت منه أصيلاً.. فعُدْ إلى رشدك وقفْ حيث ينبغي لك أن تقف.. لا تشارك بالجريمة.. فلا ندم بعد الولوغ في سفك الدماء؟

كانت رسالةً مقتضبةً قصيرةً... لكنَّه شعر بها أطول من سور الصين وأثقل من أهرامات مصر.. ومع ذلك فقد كابر، كان ردُّه جاهزاً للخالدة وأبيه كما كان لصاحبه كمال:

- لا يعني وجودي في هذا السلك أنِّي أوافق على أيِّ سلوكٍ خاطئٍ كما تعتقدون، أو أؤيِّد ظلمًا، أو أشارك في جرم، أنا لا أنسى أصلي وجذوري، أنتم أعلم الخلق بي.. لكنَّ الوضع اليوم مختلفٌ عن أيِّ مرَّةٍ سابقةٍ، أنا أقوم بواجبي ولست قاتلاً، وللدولة حقٌّ في الحفاظ على أمن البلد، وتقويض كل محاولة خارجية للمساس بالوطن وأهله، وهي لن تقتل بريئاً، هذا ليس من مصلحتها، كل ما على المواطنين جميعاً هو أن يقفوا خلف الدولة لا في مواجهتها، وأن يحققوا دماء الجميع، لذا أنصحكم بكل محبةٍ وحرصٍ بالتعقُّل وعدم الانخراط في هذه اللعبة الخطيرة التي تديرها أيدٍ خفيَّةٍ عابثةٍ.. وعدم المساهمة في تخريب البلد؟ أنت يا كمال تحديداً ودون أن تشعر.. إذا استمرَّيت في نهجك هذا وطريقة تفكيرك ستدفع الثمن غالباً.. وعندها لن يفيد الندم..

- لكنك لا تلاحظ أيضاً يا صديقي أن ثمن عبوديتك باهظٌ أكثر بكثيرٍ من أي ثمنٍ سندفعه لحريَّةٍ تستحق؟

ما زال ردُّ كمال الصَّادم هذا يفعل به الأعاجيب ويقلِّب عليه المواجه.. ويدفعه إلى تأنيب الذات وأحياناً إلى جلدها في كل وقتٍ يكون فيه خارج دائرة تأثير المحيط، يُشعره بالكثير من الخزي والخجل من فقدان صورةٍ ورديةٍ.. كانت فيما مضى جلَّ رأس ماله في الحياة؟

لم يعد هو اليوم مقتنعاً بكل ما يتذرَّع به أمام معارضيه، فكلما مرَّت الأيام وفار التثوُّر أكثر زادت مشاهداته المستمرَّة الكاشفة لممارسات الأجهزة الأمنية، وللدماء البريئة التي تسيل عبثاً.. إضافةً إلى ما يعاينه مباشرةً من

قلب الحدث من خلال ما يسمعه ويراه في أقبية الفرع وفي مكاتبه، خصوصاً وأن ظاهرة الانشقاق عن الجيش والشرطة والأمن بدأت أيضاً تزداد ظهوراً، يزداد معها كمّ التعذيب الهائل الذي يتلقاه المنشقون حدّ الموت، لمجرد انحيازهم للمواطنين، أصبح ذلك طقسً يوميّ مرعبً، بالإضافة إلى اطلاع الآن على الكثير من الأخبار التي كانت مغيبّة عنه من خلال وسائل الإعلام والمحطّات الفضائية الصّديقة المرتبطة بالنظام.. أو من خلال حاجزٍ ذاتيّ بناه لنفسه.. أراد من خلاله أن يمنعها من فهم الأمور كما ينبغي؟

صار بداعي الفضول يلاحق أخبار الأزمة خلسةً عبر محطّاتٍ محايدة ومن خلال وسائل التواصل.. يهتمّ بتحليلها وانعكاساتها، أخذ يدرك جوهرها وأسبابها عندما يكون وحيداً في المنزل بعيداً عن زوجته وأمها، مع ما يراه من صور تتسرّب من هنا وهناك، وبقينه النَّابع من مشاهداته بتدخّل الروس والإيرانيين في إدارة الأزمة بكل وسائل القمع والقتل، بل وقيادتهم لها في كثيرٍ من الأحيان.. على غير ما يدّعي النظام بتدخل قوى أجنبية ضده.. أدرك كيف يفكّر رأس الهرم هنا، وقد شاهد بأمّ عينه إطلاق سراح بعض أصحاب السوابق من المجرمين.. وبعض المحسوبيين على التطرّف الديني، ممن دعمهم يوماً ليخربوا في العراق تحت اسم الجهاد، ثم عاد فاعتقلهم وصنّفى منهم الكثير.. ها هو يطلقهم.. ليكونوا نواة حركة تطرّفٍ يوجّهها كيفما يشاء لتحقيق مبتغاه بشيطة الثورة وإعطائها صبغة الأسلمة والتطرف السني؟

في صباح أحد الأيام أتتهم الأوامر بالتحرك نحو (المزة) في قلب العاصمة حيث يوجد مبنى أحد الفروع الأمنية في الصباح الباكر.. رأى كيف أحلّي الفرع من معظم أفرادها ما عدا المعتقلين، وكيف تمّ تدبير انفجار أمام الفرع.. على أنه من صنع إرهابيين.. وقد كانت محطة تلفزيون النظام

متواجدةً قبل حدوث الحدث في المكان.. أدرك كيف تريد الأدمغة التي تخططُ لشيطة ثورة الشعب الأعزل، وتحويلها بشتي الوسائل المتاحة إلى حركةٍ مسلحةٍ.. وراحت تبحث عن كل إمكانيةٍ لإظهار ذلك عبر إعلامها الناشط المدعوم بالكثير من الأكاذيب الملفقة..

رأى كيف يطلق سراح بعض شباب الثورة الذين أظهرُوا ميولاً للعنف والتسلُّح.. في مقابل أنه ركّز جُلَّ اهتمامه فيالبطش بكلٍّ من يوجّه ويدعم ويخططُ للحركة السلمية من الناشطين، يصنّفِي منهم من يشعر باستمرار خطره.. إما من خلال الاغتيال الممنهج.. أو تحت التعذيب، ويطلق الآخرين بعد أن يزرع في أبدانهم وأفكارهم بوسائله القاسية الأثر الرّادع الذي يعتقد أنه سيقيه من نشاطٍ قادمٍ محتمل؟

يجبر أهل أيّ قتيلى في مظاهرةٍ برصاصه على التوقيع على إقرارٍ بأنه مات على يد الإرهابيين والعصابات المسلحة.. تلك التي خلق أسطورتها وصار يصدّقها هو، قبل أن يرغم الجميع على تصديقها والعمل وفقها، وهي وهمٌ أدركه ثابت بعد حين..

منذ أيام كان على ثابت أن يتوجّه على رأس مجموعةٍ من العناصر المسلحة للمشاركة في قمع تظاهرةٍ ليليةٍ في أحد أحياء العاصمة، كان هذا خلاف ما اعتاد عليه من البعد عن مراكز المواجهة خصوصاً في ساعات الليل، المظاهرة أعدّها لها من قبل الشبّاب بشكل سريٍّ كي تُحدث جلبّةً في هذه المنطقة التي لم تشهد سابقاً حراكاً مماثلاً ويتمّ تصويرها، على أن تنفّض بسرعةٍ وقبل وصول قوات الأمن إلى المكان، هذه المرّة كانت الأوامر واضحةً ومباشرةً بقمع الحركة بكل الوسائل مع إيضاح التفاصيل. كان عليهم بناءً على إخباريةٍ وصلت إلى الفرع من أحد المخبرين في الحي أن

تنتشر القوة مسبقاً في أماكن مخفية في المنطقة مع نصب القنّاصات وإيقاع المتظاهرين بالفخ، على أن تُترك لهم الفرصة للتجمّع قبل أن يتمّ حصارهم والفتك بهم قتلاً واعتقلاً ومن يستطيع الفرار تكون له القنّاصات بالمرصاد، هكذا كانت الخطة التي تلقى بنودها قبل أن يجد نفسه في مواجهة أخرج موقف له منذ انضمّ إلى السلك ذات واسطة؟

ما كان بإمكان ثابت أن يتملّص هذه المرّة.. وقد حارت به السُّبل وعدم الحيلة لتفادي موقف قد يصبح فيه قاتلاً ظالماً وبشكلٍ سافرٍ مباشرٍ.. اضطرب وهو يقود الحملة متوجّهاً بعناصره إلى موقع الحدث، تضرّع في هذا الوقت العصيب وتحت الضغط أن يلهم حلاً ينجيه مما خشيّه منذ أن بدأت حركة الناس في البلاد، حين وصلوا إلى المنطقة قبل الموعد المحدّد لانطلاق التظاهرة لم يجد بداً من أخذ حلفاء من عناصر الحملة ممن يتوسّم فيهم الإنسانية أو ما تبقى منها، على ما في هذه الخطوة من مجازفة كبيرة قد تؤدي به إلى مهاوي الردى.

لحسن حظّه أنّ الشاب الصديق من السويداء والذي سبق له أن حدّثه عن تفاصيل فضّ الاعتصام في درعا كان أحد المشاركين، تجرّأ ثابت وتنحّى به جانباً، وأخبره عن وجوب القيام بتصرّفٍ يُنجي القاتل والمقتول، فوجد تجاوزاً جيداً من الرجل، لا إنه أشار عليه ببعض العناصر الموثوقين، وتمّ الإعداد لسلوكٍ في غاية الخطورة يتبنّى فيه الشاب ورفاقه التوغّل في الحيّ قبل إتمام إعدادات خطة الحصار والبطش وتنبية شباب الحي لما يتظرهم، وقد لاقى إجراءهم النجاح وألغيت التظاهرة، وعادت القوة إلى الفرع بعد انتظار عدة ساعات، وتمّ إبلاغ القيادة عن زيف الإخبارية القادمة حول التظاهرة.

الأمر لم ينتهِ عند حدود هذا، فقد أصرَّ الضابط المسؤول عن العملية في الفرع أن يفتح تحقيقاً في الأمر، وكان على ثابت ومن معه أن يبرِّثوا أنفسهم من أيِّ شكٍّ محتملٍ بالتواطؤ.

وقد مرَّت هذه الحادثة على خيرٍ ودون عواقب، غير أنها قرعت ناقوس الخطر عاليًا عند ثابت الذي أصبح شيئًا فشيئًا يتوغَّل بمستنقعٍ ثمن الخلاص منه لن يكون زهيدًا في كلِّ مرّة.

كل هذا بدأ برفع الغشاوة شيئًا فشيئًا عن عينيه.. ولكن ما العمل؟ وماذا يمكنه أن يفعل ضمن هذا الصراع الذي يشدُّه نحو اللا قرار؟؟ حبيته هنا ما زال في طور بدء تحقيق الحلم معها، لها الأولوية في قلبه وتفكيره.. والمستوى الحياتي الذي صار فيه يشدُّه نحو التشبُّث به والحفاظ عليه ما أمكنه ذلك، في مقابل ضميرٍ متوجّع، وأهلٍ وأحبّةٍ ورفاقٍ.. وحقّيتُ عرض للسحق هناك؟

ظَلَّ يصارع هذا الشعور المضطرب المؤلم، حتى أتى ذلك الصباح المشؤوم الذي التحق به في الفرع مبكرًا، وشهد فيه ثابت مفاجأة متلاحقة فاقت كلَّ ما يمكن لخائفٍ متوجّسٍ أن يتصوّره.. كان على رأس مرافقة اللواء كالعادة يواكبونه من قصره وحتى باب الفرع، هناك حيث وجد في مدخل الفرع مجموعةً من الأشخاص ينتظرون اللواء، لم يكن هذا مفاجئًا بحدّ ذاته، حتى تبَيَّن غريمه اللدود الشبيح على رأسهم يرتدي ثيابًا عسكريةً يحيي اللواء ويرافقه باتجاه مكتبه؟

وقبل أن يستوعب الأمر ويجد له المبرّر الكافي لإخماد الدهشة المستعرة في نفسه طلب منه أحد العناصر أن يتوجّه إلى غرفة رئيس مكتب اللواء الذي يُعتبر قائده المباشر.. حيث طلب منه ذلك الضابط وبأمرٍ من اللواء أن يشرف

شخصيًا على التحقيق مع أحد الأشخاص، ومراقبة تعذيبه واستخلاص المعلومات اللازمة منه..

كانت تلك هي المرة الأولى أيضًا التي يجد نفسه مباشرةً في وضع كهذا.. بعد أن كانت توصيات اللواء بحقه بناءً على مكانته الاجتماعية الجديدة، وقربه من الفاتنة.. تنقذه من مواجهاتٍ مثيلة.. لا مفرَّ بعد أن صدر الأمر، عليه أن يواجه هذا الموقف ويتصرّف فيه، توجّه ثابت إلى القبو.. يعتريه الخوف والرجفة وعدم الاتزان..

لم يكن هذا مخطئًا له فيما رسمه لنفسه، وهو الحريص على أن يتجنّب أيّ موقفٍ يُضطرُّ فيه لارتكاب ما لم يعتدّه ولا هو من أساسيات فطرته وتربيته:

- يا إلهي ماذا أفعل وكيف أتصرّف؟ لا يمكنني أن أقود عملية تعذيب وتحقيقٍ كما يفعلون.. هذا لا يمكنني حتى تخيل حدوثه.. ليس باستطاعتي أن أفعل؟ لا أستطيع أن أتحمّل هذا الوزر.. وأنا أدرك أن المعتقلين الذين سأواجههم مجرد مواطنين أبرياء أرادوا أن يعبروا عن رأيهم بحرية ويطالبوا بحقوقهم.. هم أخي وابنة عمي وصديقي ووالد زميلي وجاري.. وحتى لو كانوا مذنبين.. كيف أبيع لنفسي تعذيبهم وهم بشرٌ مثلي.. يا إلهي.. كيف؟

كان يردّد هذا في قرارة نفسه، وهو يُساق بفعل فاعل إلى القبو كأنه يُقاد إلى حتفه.. تتعالى في أذنيه أصوات من عارضوه.. فتارةً يعلو صوت والده وهو يتحسّر على حاله.. ثم يؤنّب، وأخرى صوت رفاقه وإخوته، وثالثةً أصوات المتظاهرين الذين يصرخون، ترافقها أصوات المعدّبين.. كل هذه الأصوات معًا تضافرت في تلك اللحظة لتصفعه بقسوة..

أخذ يتصبّب عرقًا قبل أن يصل، كاد أن يفقد وعيه فُيّل دخول المكان المخصّص للتحقيق المباشر مع التعذيب.. لكنّه ما إن نظر في وجه الشاب

الذي ظهر أمامه معلقًا من كلتا يديه وشبه عارٍ، ومن خلال بصيص الضوء الخافت الذي يأتي فقط من نافذة صغيرة تؤدي إلى فجوة تصل القبو بسطح الأرض، وتوصل بعض أنوار المبنى في الأعلى، بينما قسم ضئيل آخر يصل من الممر الذي دخل منه للتو، حتى راوده شعورٌ لوهلة أنه يعرفه، أو أنه يشبه أحد معارفه، اقترب وقدماه تثقلانه وتوقانه عن المسير باتجاه الرجل.. تكاد الأجواء تخلو من الهواء.. لتزيد من إحساسه بالاختناق خوفًا وحرًا من مواجهة صارت أو كادت أن تصبح أمرًا واقعا؟

كان صوت المعتقل الشاب قبل أن يصل ثابت إلى قاعة التعذيب يعلو رويدًا رويدًا وهو يصرخ مستنجدًا ومستغيثًا من الألم، لكن هذا الصوت الذي خفّ قليلًا وتحول إلى أناتٍ مختنقة حين وصوله أيضًا ممّا ألفتة أذناه من الأصوات خارج هذا المكان، ولكن ليس بهذه الطريقة.. وليس بهذا اللحن الباكي الأليم؟ أراد أن يكذب ظنه.. صار يفرك عينيه بيديه، ويحملق أكثر مركزًا في الوجه الذي أصابت أيدي وأدوات الجلّادين صاحبه الشاب المعلق بالفوضى والكثير من التدمير..

وجهٌ متورّمٌ مدمى، وجفنان أزرقان متهلّان بأثر الانتفاخ والتضخم على عيين خافتين مستترتين تحتهما، ورأسٌ انحنى على جذع مشوّه، وجسدٌ لا موضع فيه يخلو من أثر ثقبٍ أو جرحٍ أو كدمةٍ، وأنفاسٌ تخرج على غير ما تعود سماعه من الأحياء.. تشير إلى كائنٍ حيّ يحتضر بانتظار النزع الأخير:

- يا إلهي.. هو وربّي.. يا ربّ أنجذني بتكذيب عيني.. يا رب اجعل هذا كابوسًا وصحّني منه حالًا.. إنه هو.. كيف؟ ولماذا؟؟ ولم أنا؟؟

وقف ثابتٌ في حالة ذهولٍ وصدمةٍ أخرجته عن طوره أمام أكبر وأفظع مفاجأة يمكن لامرئٍ أن يواجهها.. إنه هو بلا ريب؟ صاحبه الحبيب كمال..

وهو في هذه الحال المزرية.. كاد قلب ثابت أن يتوقَّف، احمَرَّت وجنتاه وانتفخت أوداجه.. وأخذ نبضه يتسارع.. وبقي بينه وبين فقدان الوعي لحظة صمودٍ أخيرة.. وما باليد حيلة؟

لا يمكنه في هذه اللحظة أن يصرِّح باسمه أو بمعرفته له.. ولا أن يخاطبه تعاطفًا.. أو يضمِّمه منجداً ومغيثاً كما دعت مشاعره الطبيعية التلقائية أن يفعل.. الشاب أصلاً في حالةٍ لا تمكِّنه من معرفة أحدٍ أو إدراك ما يجري حوله.. من شدَّة ما تعرَّض له..

رأى المثقاب الكهربائي الذي يُستخدم في أعمال الصيانة في يد الجَلَّاد، وقد فرغ للتوقُّل وصول ثابت من ممارسة التوغُّل بواسطته في جسد الشاب والعبث في عظامه.. الدماء تقطر منه، والرجل يكاد يقضي بين يديه.. بينما يحمل آخرون الأكبال المعدنية الرباعية المجدولة، والتي سَطَّرت على بدن كمال ملاحم الوحشية والسادية.. الكثير من الأخاديد والعلامات.. كما فعلت مع غيره، بينما كان بالقرب أحدهم يتخَيَّر من أدوات التعذيب مالم يُستخدم بعد.. ليجرِّبه في جسد الضحية.

أول خاطرٍ إيجابيٍّ ورد إلى ذهنه في هذا الموقف الرَّهيب رغم كل الضغط العاطفي والعصبي وزخم المفاجأة المرَّة كان أن يطلب من الجَلَّادين التوقُّف عن تعذيبه.. بحكم رتبته وكونه المحقِّق المعين المسؤول.. طالبهم بغسله بالماء وتقييم جروحه، وهو يخفي من خلال هذا المكان فقير الإضاءة.. دموعاً هطلت.. لم يستطع أن يجلسها خلف حدقتي عينيه المتجمدتين حسرةً وذهولاً..

- افعلوا ما قلته لكم وأحضروه إلى مكانٍ آخر لأحقِّق معه.. لا أريده أن يموت قبل أن نلتقط منه بعض المعلومات..

يقول ثابت للجَلَّادين.. راجياً ألا يدركوا معرفته بالمعلق الجريح، لعلَّه يكتسب بعض الوقت يضمن فيه إنقاذ صاحبه من الموت الذي رآه يراود

صديقه عن جسده المنهك وروحه المحطمة.. وأيضاً عساه يستدرك نفسه التي شتتها المشهد وهول المفاجأة، ويحاول أن يجد منفذاً لكمال يخرج به مما آلت إليه حاله..

في الخارج وفي الممر.. كان أحد عناصر قسم التحقيق يحمل ملفاً المعتقل، ينتظر ليسلمه إلى ثابت.. فيه كل تفاصيل حياة الشاب، راح يطلع عليه في زاوية من زوايا البهو المضاء، ترتجف أوصاله، ويهزُّ برأسه مستهجنًا كل ما جاء فيه؟

باستثناء المعلومات الأرشيفية الصحيحة عن كمال وعائلته وعمره ودراسته.. كل ما جاء فيه هو أدري تمامًا بأنه ملفٌ وكاذب، الملفت في الأمر أنه قرأ مجموعة كبيرة من التقارير الاستخباراتية، والتي كتبها مخبرون معيّنون من قبل فروع الأمن في حمص، بالإضافة إلى سيرة ذاتية يكتبها كل مواطن بين الحين والآخر عن نفسه بيده.. كلما أراد أن يتقدم للحصول على موافقة أمنية معينة..

أكثر ما أثاره وأشعره بالغيظ هو التقرير الأهم الذي اعتمد عليه فرع الأمن الجوي في حمص، وبناءً عليه حوّل المعتقل إلى دمشق للتعامل معه، كان مليئاً بالمغالطات والافتراءات إلى حدٍّ أشعر ثابت بالاشمئزاز، فقد صوّر التقرير كمال على أنه إرهابيٌّ خطيرٌ، وأنه يحرض على الطائفية ومقاتلة عناصر الأمن والجيش والعمل المسلح ضد الدولة.. أنه أحد المسلحين الذين تسبّبوا بالفوضى في مظاهرات حمص، وقد أطلق النار على الكثير من المدنيين.. كما جاء فيه أنه من أوائل منظمي أعمال الشغب وأنه داعمٌ ماليٌّ لها، وأن له علاقات مشبوهة مع جهات خارجية عدوة ومغرضة.. لكن كل هذا ليس ما أثار انتباه ثابت ودهشته بقدر ذهوله حين اطلع على التوقيع الذي

ذُيِّلَ به التقرير المطوّل اللئيم.. لقد كانت المفاجأة بأنه توقيع صديقه ورفيق طاولته.. صقر؟

ماطل ثابت في تنفيذ عملية التحقيق، وطلب تأجيلها ريثما يصبح المتهم جاهزاً لذلك، غادر مسرعاً بحالةٍ مزريّةٍ، يستر عورة حالته النفسية وحجم وهول مفاجأته، يفكر بطريقةٍ تنقذ صديق عمره الطيب.. خرج من الفرع، ونأى بنفسه عن أقرب شخصٍ مسافّةٍ تسمح له بالتحدّث بحريّة.. أخرج هاتفه المحمول واتصل بفاتنة.

شرح لها متأثراً ومهتراً ما حصل معه ومقدار تأثره وحزنه على صاحبه، طلب منها راجياً التدخّل فوراً لأجله عند اللواء.. مع محاولة أن لا يبدو الأمر بأنه من وجّهها لذلك؟

وعدته فاتنة بإيجاد حلّ سريع للمشكلة بعد أن تأثرت بموقف حبسها وعريسها الذي أصبح بالنسبة لها كل شيءٍ في هذه الحياة.. وأمل المستقبل القادم؟

- لم تَمَّ اختياري لهذه المهمة بالذات وفي هذا الوقت.. ولم أكن من قبل من ضمن المفترضين لأعمال التحقيق ومتابعة المعتقلين؟ هل هي صدفة؟ أم حالة اضطرارية حدثت بسبب زيادة عدد المعتقلين الكبيرة وقلة عدد المحقّقين؟ أم أنها حركة متعمّدة لوضعه في هذا الموقف المدمر المحرج؟ من يكون وراء هذا؟ أهو صقر ذاته صاحب أكثر التقارير لؤماً بحق صاحبه؟ أم الشبيح الغريم الذي كان قبل قليل يتجوّل بصحبة اللواء؟ هل أصبحت في دائرة الشك والاتهام بعد كل ما قدمته من ولاءٍ وأنكرت حتى ذاتي وقناعاتي وشككته من جديد لتوافق موقعي الذي قبلت فيه أن أكون سوط ظالمٍ لا صوت مظلوم؟؟؟

كانت هذه هواجس ثابت المرعبة التي تكرر نفسها في رأسه حين دخل إلى مكتب قائده، طلب منه تأجيل التحقيق بضعة أيامٍ بسبب حالة المعتقل

السَّيِّئَةُ صَحِيًّا، وناشده أن يتمَّ إسعافه والعمل على تحسين حالته الصحية لأنه مهمٌّ جدًّا في مسار التحقيقات في الكثير مما يتعلَّق بأحداث حمص.. متحملاً نتائج المغامرة بعدم إخباره بالعلاقة التي تربطه بالسجين، الأمر الذي رفضه قائده بشدَّة، وبشكلٍ قاسٍ وفظٍّ لم يعتدّه ثابت منه سابقاً.. مما زاد من ضراوة هواجسه.. وافق الضابط فقط على التأجيل إلى اليوم التالي، أبلغه بلهجةٍ منذرةٍ بأنه ينتظر منه نتائج سريعةٍ ومهمةٍ؟

كانت ليلةٌ عصبيةٌ تلك التي قضاها ثابت بانتظار أن يجد مفرجاً لما وقع فيه، ويتولَّاه المولى برحمته.. ويسعد قلبه بنجاة أخيه وصديقه الذي لا تفارق صورته المأساوية خياله.. تحرمه حتى من الاستلقاء على أحد جانبيه.. فضلاً عن النوم؟

يمرُّ الوقت ثقیلاً مرهقاً، والمكان على رحابته لم يعد يتسع لقلقه وتوتره، لا تكاد الساعة تمضي حتى تستغرق من روحه دهرًا.. وأتى أخيراً بعد طول انتظارٍ وترقُّبٍ الاتصال المنتظر من فاتنة:

- صباح الخير حبيبي

قالتها بلهجةٍ باردةٍ حزينة.. مما جعل نبض ثابت يغيب حدَّ التوقف.. وأنفاسه تضلُّ طريقها نحو رثتيه:

- أرجو أن يكون لديك الخبر المريح؟؟

- للأسف حبيبي.. لا أجد لك ما أريحك به.. اعتذر عمِّي اللواء عن تنفيذ مطلبي، وطلب مني راجياً عدم التدخل في هذا الأمر، لأنه يخصُّ أمن الدولة وخاصةً في هذه الظروف.. بالطبع لم أقل له من أين أعرف الشاب، ومن طلب مني التدخل بشأنه، ولا هو سألني.. لأن الوقت لم يسمح له أن يفعل.. قطع عليَّ الطريق باكراً.. أعتذر جدًّا.. أعلم ماذا يعني هذا الأمر لك، لكنني أرجوك

أيضاً ألا تحمّل نفسك عبئاً كبيراً، وتأكدّ بأنه لولا ضلوعه في أمرٍ يمُسُّ أمن الدولة وثبوت ذلك لما تمّ اعتقاله.. لا أريد أن أزعجك بالحديث حول هذا.. ولكنني أجد كل من يشارك بالتخريب الآن جانياً يستحق العقوبة، حتى ولو كان أقرب المقربين.. مع هذا تمنيت أن أفرح قلبك وأبّي طلبك.. ولكن..

- لا عليك.. فعلت ما بوسعك.. أشكرك فاتنة، واغذريني لا وقت لدي.. سأعاود الاتصال بك حالما أستطيع..

أغلق الخطّ متعجلاً لإنهاء ما لا يؤدّ سماعه ممّن لأجلها يصبر نفسه الغارقة بإنكار الواقع.. وحمّى الاغتراب.. لم يكن بمقدوره وهو العارف لطبيعة ما يحصل فعلياً أن يتحمّل منها المزيد.. كان في بيت العجوز حين وردته مكالمتها المخيّبة للآمال، ذلك المكان العزيز على قلبه والذي لم يسلمه بعد لأصحابه بعد زواجه.. كدأبه كلما أراد أن يكون وحيداً ويختلي بذاته المصابة بالتصدّع والانكسار، هو اليوم في أمس الحاجة لهذه الخلوة؟ لم يجد مفراً في هذه اللحظات التي يعزّ عليه فيها أن يتخيّل نفسه معدّباً صديقه الحبيب حدّ الموت.. من أن يطلق لنفسه السبيل إلى جلد الذات ولعينيه العنان في قذف مخزونها المحبوس من الدموع.. وانهار الشاب تماماً، انفجرت في وجهه هو يجلس مختلياً بنفسه مواجهةً قاسيةً تصوّرهما مع والده وأهله وأحبابه وأهل صاحبه وماضيه وبقايا قيمه.. منذ أدرك أول قيمة أخلاقية تلقّاها من لدن والديه.. وحتى لحظة وقوفه هذه بين يدي ضميره المشخن بالطعون؟

أمسك بمسدسه الذي لم يلمس قبضته بنيةً إطلاقاً حتى اليوم.. منذ أن تسلّمه من الفرع حين التحق بهذا السلك.. لقّمه ووضع على رأسه.. يريد أن يفعل آخر ما يمكن له أن ينجيه من فجيعة بمواجهة ما هو أسوأ من الموت..

وهو اضطراره لممارسة ما لم يطق التفكير فيه.. تعذيب أخيه؟ وقف طويلاً وإصبعه لا تطاوعه بالضغط على الزناد.. فهذا أيضاً يخالف أهم قيمة الدينية العالقة في وجدانه.. والتي تحرّم الانتحار..

سقط على الأرض، وراح يصرخ ويستنجد بخالقه... لم يصحح إلا على رنين الجوال حيث كان قائده المباشر على الطرف الآخر يتصل به.. ويطلب منه أن يحضر مبكراً إلى الفرع لأن اللواء شخصياً يريد مقابلته... تمالك نفسه وتحولت حالته إلى مزيج من القلق والريبة من توقيت طلب المقابلة.. والأمل في بادرة خير ممكنة؟

غادر البيت مبكراً بعد أن أعيته ساعات الانتظار الكئيبة، توجه مسرعاً باتجاه الفرع، وصل قبل حضور اللواء والتحق بمكتب مديره ينتظر بفارغ الصبر، كله يرتجف والعرق ينساب من جميع مسامات جسده المنهك، أخذ الضابط يرمقه بين الحين والآخر بنظراتٍ بدت له مريبةً ومرعبةً.. وراح خياله الذي أصبح يبني على كل شيءٍ ممكنيؤلف الكثير من الروايات المتوقعة حوله، القائد لم يعلق على الأمر، انشغل باتصالاته ومقابلاته مع الداخلين إلى المكتب منذ الصباح.. مما زاد من ريبة ثابت وانشغاله أكثر بتوقع (السيناريوهات)؟

وصل اللواء إلى الفرع، قبل أن يدخل من الباب العريض لمكتبه وقف بمواجهة ثابت.. وبلا أي سلام أو ابتسامة اعتاد أن يراها ثابت ترسم على شفتيه كلما قابله، طلب من مدير مكتبه أن يكون ثابت هو أول الداخلين إليه فوراً، التحق ثابت باللواء الذي طلب منه إغلاق الباب والجلوس، سقط الشاب المرتجف والمتصبب عرقاً على كرسيّ مقابل طاولة المعلم الكبير بعد أن أشار له بالجلوس كأنه ينهار دون أي كلام.. يحمل كل أنواع الرعب

والقلق..أخذ اللواء ينظر في ملفّاتٍ موجودةٍ على سطح مكتبه بنظرةٍ قاسيةٍ جافّةٍ، ويلقي بين كل حينٍ وحينٍ نظرةً على ثابت.. ولكن بصمتٍ يطول.. ألهب مع استمراره قلب ثابت، وارتعدت له فرائضه أكثر فأكثر؟

لم يكن الخوف من أي عاقبةٍ تصيبه هو أكبر ما يشغله في هذا الوقت، فقبل ساعاتٍ فقط كان يهيء نفسه.. لو أذنت له عقيدته.. للانتحار.. لتلقّي أقصى عقوبةٍ يعرفها الإنسان، لكنّ ما يشغله أكثر الآن هو نجاة صاحبه ورفيق عمره. أخيراً خلع اللواء نظارات القراءة وتوجّه إلى ثابت بنظرةٍ صارمةٍ:

-كيف حالك يا ثابت؟

-بخير يا سيدي.. وأرجو أن تكون سيادتك بخير

-ما هذا الذي أقرؤه هنا عنك؟

-ماذا هناك يا سيدي؟

-وصلني للأسف ما لا يسرُّ بشأنك.. رغم أنني كنت وما زلت أراهن كثيراً عليك، فأنت بمثابة صهري شخصياً، وأنت تعرف قيمة من جعلوني أثق بك وأجعلك قريباً مني، وكم أشادوا بك حين رشّحوك لي.. أليس كذلك؟

-نعم سيدي وأنا فخورٌ بهذا وأتشرّف به.. أرجو ألا أكون قد فعلت ما يلوّث هذه الصحيفة البيضاء بغير قصدٍ مني..

-الثقة تُكتسب ولا تُعطى من غير حساب.. فهل أنت فعلاً قد فعلت ما يجعلك مؤهّلاً للحصول عليها؟ هل كنت تعتقد أننا لن نعرف أن المعتقل كمال والذي حدّثني فاتنة بشأنه هو صديقك المقرب.. وزميل الدّراسة؟

وقبل أن يحاول ثابت أن يستوعب الصّدمة ويردّ متجاوزاً شدّة ارتبائه.. أسكته اللواء بإشارةٍ منه ليتابع بلهجةٍ جادّةٍ أميل للغضب:

-أم أنك تتوهم أننا لا نعرف أن أهلك على رأس من افتعلوا المشاكل في قريتك، وتمردوا على الدولة واعتدوا على رجال الأمن؟
-سيدي أرجوك فقط اسمعني..

-أنا لم ألتق بك لأسمع.. بل لأسمعك وأفتح بصيرتك، وأدلك على طريق تُنجي بها نفسك من المأزق الذي أنت فيه.. اسمعني جيدًا.. وفكر فيما سأقوله قبل أن تجيب، هذا كمال لا شك في أنه متوغل في مشاركته بالشغب في حمص، بل هو من رؤوس المدبرين له، وأهلك أيضًا لا شك لدينا بما وصلنا من معلومات أنهم غارقون في أعمال التمرد التي حصلت في منطقتكم.. على رأسهم والدك وأخوك وقد صدر القرار باعتقالهما منذ الأمس؟

اهترّ ثابتٌ على وقع الحديث الذي صدمه وفاجأه.. إلى درجة أنه ألجم آية حروفٍ يمكن أن تقال، تجدد الدم في عروقه، فقد دخل اليوم على همٍّ صاحبه ليجد همّين أخطر وأكبر بوالده وأخيه المهدّدين بما هو أقسى من الموت.. وهو أشدّ العارفين؟

لم يستطع أن يبادر بشيء في هذه المعمة من الضغوط يخلق له آية ذريعة أو مبرر، أو يقدم بارقة أملٍ بإنقاذ ما يمكنه أن ينقذه في هذه اللحظات، لأن إشارة اللواء له بالسكوت، ولهجته الصّارمة المخيفة، وحالة الإرباك التي أصابته أجهضت كل فرصة ممكنة لذلك، تسمر في مكانه وقلبه الرّاجف يدعو ويستمطر رحمةً تخلصه وتُنْجيه.. اكتفى مصدومًا بالنظر إلى وجه اللواء وترقب القادم من حديثه؟

- انظر يا بني.. مازال عندي أمّلك شخصيًا رغم كل هذا، واحتفظ لك بصورتك التي رسمتها منذ لحظة معرفتي بك، للغالية فاتنة مقامٍ خاص في

قلبي.. وأنت شريك عمرها، أظن أنك حتى اللحظة بريء من سلوكيات أهلك وصديقك.. أريد فقط أن أذكرك بخطورة موقفك، وبأن الولاء الذي أظهرته للوطن وللقيادة مازال قيد الاختبار، وهو أهم وأسمى من كل قُربى أو دم.. هل تفهمني يا ولدي؟؟

ثابت الذي أراحته أعصابه قليلاً جمل اللواء الأخيرة.. حين أبعدت عنه شبح النهاية المقيت، أشعرته بإشارات اللواء بأن معضلته في سبيلها إلى حلٍّ يرضيه ويرضي صاحبه هذاً روعه قليلاً، استبشر خيراً، وعاد له بعض الأمل.. فلم يتردد بالرد فوراً:

-نعم سيدي أفهمك جيداً، وأرجو أن أنجح دائماً بالاختبار تحت كل الظروف، صدّقني يا سيدي.. أنا لا أعلم لي بكل ما تفضّلت به، لكنني أرجو أن تكون هذه السلوكيات نابعة من جهلٍ وفقدان تركيزٍ مؤقتٍ، وأن أمل أن أستطيع القيام بدورٍ لردّهم.. وردّهم إلى الطريق السليم بأقل الخسائر..

-نعم.. هذا ما أمله منك أيضاً، وما أردتُ أن أسمع، وعلى الرغم من أنني رفضتُ طلب الغالية فاتنة من أجل صديقك، إلا أنني سأوفّر لك الآن فرصةً وله، وسأعطي أمراً بإطلاق سراح كمال لتتولّى أنت شخصياً مداواته قبل أن يعود إلى أهله، والعمل على توعيته وإعادةه إلى رشده، ليكون معنا عنصراً إيجابياً يساهم في وأد هذه الفتنة التي أصابتنا بتحريضٍ من أعداء الوطن والأمة.. أيضاً سوف أطلب تعطيل أمر القبض على والدك وأخيك، لتقوم أنت بدور التواصل معهم والتأثير عليهم، ليقودوا الجميع إلى القرار الصائب، ولينقلوا الحالة إلينا بجميع تفاصيلها.. أعلم أنك لست اليوم على علاقةٍ طيّبةٍ معهم، لكنني أمل أنك ستصلحها من خلال ما سأقدّمه لك، وترمّم الشّرخ بينكم، وتستند إلى هذه الهبة التي سأمنحها لك ولهم على مسؤوليتي الشخصية في القيام بمهمتك

المطلوبة، أنتظر منك قريباً أن تبشّرني بأخبار طيّبة وسارة.. وعليك أن تعتقد جازماً أن هذه الفرصة ستكون الأخيرة لك.. وإلاّ..؟

-يا الله.. ما أرحمك.. لك الحمد والشكر؟

يتمّ ثابت بعد أن انتهى الحديث مع اللواء بما هو أكبر وأروع مما ترجّاه، حتى في أشدّ ساعات تفاؤله، رغم لهجة التهديد الأخيرة المرعبة، النتيجة النهائية للمحادثة هي التي استولت الآن على مراكز اهتمامه وسعادته، بغضّ النظر عن تخيل الآلية التي ينبغي من خلالها أن يتصرّف في المرحلة التالية.. أصبح بمقدوره أن يتنفّس الصّعداء؟

خرج مستبشراً من مكتب اللواء، متجاهلاً أسباب ما حصل وخلفياته، وهو يمسك بيده قراراً موقعاً من اللواء بإطلاق سراح صاحبه، جرى سعيداً ملهوّفاً باتجاه مكتب التحقيق ليتمّ تنفيذ اللازم.. كل ما يهّمه في هذه اللحظة هو إبعاد صديقه وإنقاذه.. وكسب الوقت، أول ما فعله وهو ينتظر إتمام الإجراءات واستلام كمال كان اتّصاله بفاتنة ليخبرها بما حصل مع اللواء، ويشرح لها مقدار سعادته بإطلاق سراح صديقه الحبيب، شاركته فاتنة الفرحة مع الكثير من علامات التعجّب التي رسمت على محيّاها.. أخبرها عن إمكانية غيابه عن البيت لمدّة، ريثما يطمئنّ على وضع المسكين الصحي..

خلال الساعة اللاحقة كان ثابت يضع صديقه شبه الغائب عن الوعي.. وهو في حالٍ مأساوية.. في سيارته، يغادر به إلى المشفى العسكري بناءً على اتفاهه مع اللواء وبوصية منه، ليتمّ التسترّ على حالته وإخفاء آثار أدوات الجلّادين ما أمكن مع ضمان معالجته.. يمضي ثابت بصديقه محمّلاً بكل معاني البهجة، لا يكاد يصدّق أنه أفلح في انتشال صنو روحه من قبو الموت، يدعو الله أن ينجو كمال من التدمير الذي تعرّض له جسده المتهالك ونفسه

المكلومة أصلاً بفقد عروسه الغالية سميرة منذ أقل من شهرين، كانت حالته حسبما صرَّح به الأطباء صعبةً نتيجة الالتهابات والتعفُّنات التي أصابت الكثير من المواضع في جسده، وحالة الصدمة النفسية التي وصل إليها من طبيعة الاعتقال القاسية وشدة الآلام المبرِّحة.. تمَّ إجراء اللازم له.. على أن ينتظر ثابت الذي احتفظ بسرِّيَّة تواجد صاحبه في المشفى بوادر تحسُّنٍ يرجوها ويمنِّي النفس بها قريباً.

بدأ كمال يدي استجابةً ذهنيَّةً ابتداءً من اليوم التالي، أدرك تدريجياً ما حوله ورأى ثابت وهو يعتني به، قبل أن يبدأ الأطباء بنقل أخبار سارَّةٍ عن استجابة جسد كمال للمضادات التي يتلقَّاها، وعدم وجود أضرار دائمةٍ ممكنةٍ له في المستقبل، مع توصياتهم بوجوب بقائه مدَّةً لا تقلُّ عن أسبوعٍ تحت المراقبة والمتابعة.. وهي فرصةٌ أيضاً لتخفيف شكل الآثار الناجمة عن شهرٍ من التقلُّب في الجحيم؟

أبو كمال الرجل المتقاعد المكلوم بولده.. كبر خلال الشهور الأخيرة أكثر من كلِّ ما سبق من سنين عمره، فما جرى له يفوق قدرته على التحمُّل، وخبرته في تجرُّع المآسي والخطوب.. كقوسٍ عظميٍّ جفَّفه العمر وأفرغته المصيبة.. يجلسمكتباً وحيداً في زاويةٍ من الصالون الكبير يتابع أخبار المحطَّات الفضائية المختلفة.. بينما جلست أم كمال الحزينة المنهارة مع بناتها في جانبٍ آخر، تضع يدها على خدِّها الذي قرَّحته الدُموع.. صامتةً متحسِّرةً على فقدان الكنة وغياب الولد الوحيد؟

الحالة بالنسبة للعائلة تفوق أمر الحزن على فقدٍ عاديٍّ يصيب الجميع هذه الأيام.. هو أشبه بالحرمان من كل أملٍ بالحياة، كان كمال هو بوابته وسبب إشراقته بالنسبة لهم، لا يسمع الحاضر في أرجاء البيت طوال اليوم

سوى بضع أدعية وتضرع لأمّ مازالت تتعلّق ببصيص ضوءٍ بعد أن أرهقتها الانتظار.. في ظلّ مناخ خيم عليه اليأس من كل جانب.. كل الذين علموا أن كمال تحوّل إلى ذاك الفرع بالتحديد في دمشق صدرت عنهم حركة يأس تشير إلى انقطاع الرجاء كأن يضرب أحدهم كفًا بكفّ محوقلاً.. أو يصفر صفرة طويلة تعبّر عن صعوبة الأمر.. أو ينفث زفرةً وتنهيدة.. فكل من سمعوا عن حالة تشبه حالته يعلمون أن الداخل إلى هناك لا يخرج إلا بمعجزة إلهية.. والمؤلم أكثر أن أم كمال وأباه يدركان هذا تمامًا ويشعرانه؟

أصدقاء كمال الذين شاركوه طاولة البوح خلال سنين طويلة، ثم ساندوه في لحظات الثورة الأولى.. كانوا إما قتلى أو في المعتقلات أو من الفارين، التحق معظمهم بالجيش الحرّ الذي تشكّل من المنشقيين عن جيش النظام والمتطوّعين الذين لم يعودوا يطبقون الصبر على القتل الرخيص وما تعرّض له المتظاهرون في كل أرجاء المدينة والوطن.. أخذوا على عاتقهم الدفاع عن المتظاهرين بما أوتوا من أسلحة خفيفة، لعلهم يقلّلون من عدد الضحايا ما أمكن.. كان كثيرٌ منهم عرضةً للقتل أو للاعتقال والتمثيل به في أقبية أجهزة الأمن.. يُستثنى من أصدقائه المقرّبين صقر العلوي الذي كان يعرف مسبقًا وجهته والجانب الذي عليه أن يتوقّف فيه.. وجوزيف الذي ظلّ يتعاطف مع حركة الشباب ويدعمها ولكن بالسرّ وبالخفاء؟

بقي أصدقاء كمال الهاربين يمرّون للاطمئنان على أهل أحيهم كلما سنحت لهم من أجنحة الظلام فرصة تسترهم عن أعين الرقباء.. يستعلمون من والد كمال ووالدته عن أخباره إن وُجدت.. ويعرضون خدماتهم على العائلة؟

بقي هذا الحال ما يقرب من شهرين، لا أخبار تصلهم حتى ولو كانت سيئة... كأنّ الشاب كان ولم يعد.. حتى كانت تلك الليلة، بعد أن أغلق الجميع عيونهم محاولين النوم الذي عزّ عليهم كثيرًا خلال هذه الأيام،

سمعوا صوت جرس الباب الخارجي في وقت متأخر.. أثار لديهم هذا الخوف والقلق، أصبح الوالدان الآن يفكران بجديّة في موضوع ابنتيهما، بعد أن أصبح من العادي أن تكون هناك حالات انتقاميّة من الجميع، خاصّة بعدما تشكّلت ميليشيات الموت المؤيَّدة في أحيائهم تحت مسمّى كتائب الدفاع الوطني، بدعم من الأمن والدولة، صار التشيع وضعاً اعتيادياً، وخبر اختطاف النساء والاغتصاب والقتل أمرٌ شبه يومي..

خرج أبو كمال باتجاه باب الدّار متوتّراً بعد أن طلب من زوجته وابنتيه أن يبقين في الداخل مخفيات، نظر من العين السحرية للباب.. لم يتبنّ أحداً، تردّد للحظات في أن يفتح، قبل أن يقرّر ذلك فعلاً..

رأى خلفه أجمل هدية من الله تُهدى لأبٍ مكلوم.. وجد الغالي كمال في مواجهته مبتسماً وفاتحاً ذراعيه؟ .. عطّل ذلك الموقف أيّ ردّة فعل لدى الكهل، سوى النظر بذهولٍ، وإهراق دمعين ساختين، والتسمّر في المكان.. استمرّ هذا الموقف لثوانٍ طويلة، قبل أن يهجم كمال ويضمّ والده باكيًا، ويستدرك الأب الموقف، يضمّ ولده ويكي بحرقه بكاء الفرح الشديد.. منعه ذلك الموقف المهيب من القيام بما ينبغي وإخبار الوالدة على الفور؟

بينما لم تستطع أم كمال أن تصبر طويلاً بعد أن طال غياب زوجها، لدى سماعها لأصوات تصدر من جهة الباب الرئيسي، تسلّلت بهدوءٍ لتستطلع.. ويا لها من مفاجأة جعلتها تشهق باكيةً وصارخةً حيناً، وضاحكةً حيناً آخر بلقاء الغالي الذي كان قبل حينٍ حلم يوم المنى وقد تحقّق الآن، راحت تقبض عليه بقوة تضمّه وتشمّه.. بلا توقّف..

اجتمعت العائلة أخيراً، عاد الفقيد من الموت.. أجلس كمال أخته إلى جانبه فرحاً برؤيتهما سعيدتين سالمتين.. وراح يحدث أهله بتفاصيل ما جرى له منذ أن تمّ التقاطه من بيته ذات مدامه؟

(٩)

المخاض

قالت لي الأشجار ذات عَصْفَةٍ: ما ينقذ الأكمَامَ من إغلاقيها
قلتُ: الرَّبِيعُ.

قالت: وما يصون لونَ بوحِ الزَّهرِ من إزهاقه.
قلتُ: الرَّبِيعُ.

قالت: وما يفيدُ حينما يسودُ ملحُ موتِ الحبِّ في جُذورنا.
وعندما تَجْتَاحُ دَفءَ النُّضجِ في أحلامنا رُؤى الصَّقِيعِ
قلتُ: الرَّبِيعُ.

قالت: فما بنا إذا آذُرُ يَبْكِي قَهَرًا.. مُرْتَلًا جِراحَهُ لَحْنُ الدِّمَا..
يختارُ إيقاعَ الدُّمُوعِ؟

قلتُ: اعذريه.. بُرْهَةً.. هذي سَطَايَاهُ الَّتِي قَدْ بُعِثِرَتْ
ما بينَ أشلاءِ الغَمَامِ.. رُبَّمَا..
تَغِيبُ لَكِنْ..... لَنْ تَضِيعَ..

وصل علي على غير العادة مبكرًا اليوم إلى الفرع، لأنه كان نائمًا في بيت صديقه ثابت، بعد أن رجعت العلاقة بينهما إلى عهدها السابق نسبيًا وذاب بعض الجليد.. عادت سمات الود إلى ليالي البوح، مع بقاء رواسب في نفس علي لم يتمكن ثابت من إزالتها أو حل (شيفرتها).. لا تخصه شخصيًا فقط

بقدر ما تخصّص نظرة علي المتغيّرة حديثاً بحق المجتمع والناس بأثر إحباط عاطفي صادم، تأخّرا في السّهر مما دعا فاتنة إلى إعداد غرفة خاصّة لينام فيها علي ليلته تلك، أكثر ما كان ملفّتا لثابت في طبيعة الحوار بين الصديقين خلال السّهرة الطويلة هي الثّبرة الجديدة كليّاً في صوت علي، التي يبدو أنها فقدت ذاكرة الطموح والعنفوان، وحسّ التمرد المعتاد لديه، كأنها انكفأت لتصبح ترديداً أجوفاً لما توارثه في قلب بيئته، وما تجيده دوماً وسائل إعلام النظام ومسانديه وتابعيه، كان هذا ملزماً بحكم التورّع لثابت أن ينسّق لهجته وطبيعة نقاشه وفق إيقاعها المتبدّل، مما أفقد العلاقة بين الطرفين أهمّ نكهة للتميّز جمعتهما ذات لقاءٍ أول.. على الأقل حسب رؤية ثابت للأمر؟

كان يُفترض أن ينتظر علي كما جرت العادة أمام بيته القريب من منزل أخيه العميد، لتمرّ سيارة المرافقة وتلتقطه باتجاه الفرع أثناء خروج أخيه باتجاه عملهما، غير أن هذا البرنامج تبدّل اليوم بحكم الوضع الطارئ.. وحضر إلى الفرع برفقة ثابت في سيارته.

انخرط الشابّان كلّ حسب موقع عمله في الفرع بين رفاقهما، ثابت خرج بمهمة عاجلةٍ بأمرٍ من قائده خارج الفرع، بينما جلس علي في غرفة مدير مكتب شقيقه كالعادة ينتظر الأخ الكبير القائد وما سيوجهه إليه من مهام..

مرّ وقتٌ طويلٌ على موعد حضور العميد اليومي المعتاد، علي ينتظر عند مدير مكتبه، بدأ القلق يأخذ منه كل مأخذ.. ما إن اتجهت نيّته إلى الاتصال بأخيه ليستعلم منه عن سبب التأخير، وقبل أن يضغط على الاسم المطلوب في جواله.. حتى تلقّى مدير المكتب اتصالاً انتفض على إثره واقفاً بحالةٍ من الهستريا، أخذ يصيح بألفاظ نابيةٍ ويعربد، ثم يتمالك نفسه قليلاً ويسأل ولكن بغير رشاد:

- كيف؟ متى؟؟ وأين هو الآن؟؟

استدعى ذلك من علي أن يتأثر ويشعر بالخوف الشديد.. اقترب من طاولة الضابط حتى كاد أن يلتصق به، أخذ يسأله إن كان الأمر يتعلق بأخيه ويلح عليه بالسؤال.. والرجل لاهٍ مصدومٌ لا يجيب.. كل ما فعله أنه اتصل بمكتب رئيس الفرع وأبلغهم بحدوث أمرٍ مريع..

لقد تعرّض موكب العميد لانفجارٍ وهو في طريقه إلى الفرع، المعلومات الأولية لا تؤكد أو تنفي فقدان العميد ومرافقيه.. طلب الإذن بمغادرة الفرع فوراً باتجاه المشفى، لكنّه قبل أن يخرج من المكتب على عجلةٍ مرتعشاً تذكر أن الذي أمامه هو علي شقيق العميد فازداد ارتباكاً وراح يفكر بطريقةٍ مواتيةٍ للاستدراك، حاول ما استطاع أن يهوّن الأمر على الشاب الذي بدت عليه علامات الانهيار من وقع الخبر الفظيع.. بدا كأنه سيقع مغشياً عليه؟

أحبُّ أهله إليه بعد والدته.. العميد غانم الذي كان الأب الحقيقي والأخ الداعم والسند.. لا يدري الآن في هذه اللحظات المريرة أهو حيٌّ أم ميتٌ، طلب منه الضابط مرافقته بعد أن أعاده إلى بعض وعيه، أخذ يجري علي وراء الضابط بلهفة المفجوع باتجاه سيارةٍ خارج الفرع أفلتتهما إلى المشفى العسكري الكبير، هناك وعلى باب المشفى تلقى الخبر الصّادم الأكيد بمقتل العميد ومن كان برفقته في السيارة؟.. وقد كانت صدمةٌ فوق الاحتمال، صار على إثرها يلطم كالنساء، يبكي ويثور هائجاً على غير هدًى.. اضطرَّ الحضور إلى تهدئته بقوة، والإمساك به بعد أن فقد السيطرة على أعصابه..

ثابت الذي سمع بالخبر في الفرع بعد خروج علي.. طلب صديقه على الجوال مراراً فلم يرد، التحق به في المشفى حيث وجده في حالةٍ يرثى لها، حاول أن يهدّئه ويبعده عن المنطقة قليلاً فلم يُفلح أيضاً، وظلَّ مراقباً له حتى ساعات ما بعد الظهر.. حيث كان موعد نقل جثمان العميد القتيل إلى قريته في اللاذقية، بناءً على طلب عائلته..

بعد الظهر انطلق باتجاه قرية غانم موكبٌ كبيرٌ يضمُّ اللواء والكثير من رؤساء الفروع وضباط الأمن والجيش والشرطة وأقرباء العائلة ومسؤولين في الدولة.. طلب ثابت الإذن بالخروج مع الموكب ليشارك صديقه العزاء، وكان له ما أراد مع مجموعةٍ من الزملاء من مختلف الرُتب العسكرية..

الحركة المسلّحة تبلّور ظهورها أكثر في هذه الفترة بتأسيس الجيش الحر، وقد بدأت الاشتباكات المسلّحة تشتعل بين الحين والآخر في مناطق مختلفةٍ في القطر.. أخذت قوافل القتلى تترى إلى هذه المنطقة وغيرها من مناطق السّاحل الموالي، بحكم انتماء معظم رجالهم للقطاع المواجه لحركة التمرد الشعبية التي كبرت وتوسّعت وصار لها فصائلها المقاتلة المدافعة عنها.. العميد لم يكن أول الضحايا الواصلين بالنّعش إلى هنا.. لكنه كان صاحب الرتبة الأكبر من بين كلّ من سبق وشيّعتهم المنطقة..

كان يوماً مُترعاً بالحزن الشديد في قرية أبي صالح.. امتلأت فيه المقبرة بأهالي المنطقة ووجهاؤها ورجال الدين فيها، مع الحشد الغفير من الضيوف والموكب المرافق، لم يخلُ التجمع من المجاملين المشاركين من مختلف الفئات والمناطق، غير أن هذا لم يمنع المتحدثين الغاضبين من التصريح بالعدوانية والميول إلى الحلّ المسلّح وارتكاب المزيد من العنف والقتل، والتوعّد بالثأر من الإرهابيين والمسلّحين في كل مكان، مع التنديد بمن يؤيّد أو يساند أو يصمت حتى عن هؤلاء.. وأحقّية القضاء عليهم جميعاً بشتّى السُّبل دون أن تأخذهم بهم الرحمة.. كان على رأس المتحدثين الغاضبين الجدُّ الكبير الذي مثّل آل الفقيد؟

حرص ثابت على ملازمة علي كظله، لتهوين الأمر عليه، والأخذ بيده في هذه الظروف الحزينة.. لكنّ ذلك لم يمنعه لي من إظهار المزيد من الحقد

والكراهية، أبدى عدوانيةً مفرطةً لم تكن إحدى سمات شخصه من قبل.. أخذت تنعكس سلبيةً على علاقته ونظرتة للآخرين حتى على علاقته بثابت، صار يتجنبه ويحاول الوقوف بعيداً عنه، يتفكر بمصيبته التي لم يعد قادراً على تحملها وحبس أثارها في نفسه وعلى محيائه.. مما اضطرَّ ثابت إلى مراعاة هذا الظرف أيضاً ومحاولة استيعاب الموقف..

- بالأمس كنتُ الصديق الأوفر حظاً بالاحتفاء والمحبة هنا والتكريم.. واليوم أراني وكأنني عدوٌّ مبين.. ماذا أفعل؟ عليّ أن أصبر وأحاول احتواء أزمة صديقي مرّةً أخرى حتى تعود المياه إلى مجاريها.. وإني لأرجو ذلك قريباً

يحدث نفسه وهو يشعر بألمٍ على وضع صديقه، ثابت أصلاً ما زال في موقفٍ صعبٍ أمام اللواء، إذ لم يقدّم له بعدُ ممّا وعده شيئاً، بعد أن كان سبباً في إطلاق سراح كمال، وإنقاذ والده وأخيه من مغبة الوصول إلى أقبية المعتقلات.. عليه أن يمتصّ كل فورةٍ تواجهه في هذه الظروف.. هو مرغّم أن يساير الوضع ما استطاع ليضمن نجاته من أن يكون هدفاً وطريدةً بعد أن ظل مدةً طويلةً في دائرة الأمن محسوباً مع المطاردين؟

تمّ دفن الفقيد غانم وصحت العائلة على صدمتها الكبيرة، كانت ليلةً ليلاء تلك التي قضتها القرية والأقارب والأهل وبالأخصّ أم غانم ومعها زوجها، فقد كادت العائلة أن تفقد الأم أيضاً لشدة ما أصابها من الحزن والكد، بالكاد استطاعوا أن يقنعوها بمغادرة المقبرة والهجوم في فراشها، بينما خارت قوى الجدّ المتين، وشعر بالوهن والكثير من العجز، كأنّ عدداً العمر اليوم فقط راح يشير إلى درجةٍ متقدّمةٍ من درجات الكهولة.. غير أن أكثر المصدومين وما زال هو علي الذي هام على وجهه في القرية

وأصدقاء الطفولة يحاولون لَمْ شعثه، بينما بقي جميع الإخوة والأخوات قرب قبر غانم حتى ساعة متأخرة من الليل.. يرثون وينتحبون؟

ثابت لم يجد ضرورة للبقاء في القرية مع صديقه، بعد أن تأكد من عدم استحسان وجوده حتى من قبل صديق الأُمس الغالي علي.. تبدَّى ذلك بشكل واضح في نظرات الجميع من أصحاب العزاء، عاد مع العائدين إلى دُمشق ليلاً، أخبر الغالية فاتنة بما جرى وبالتفصيل، وبثَّ في مسامعها حزنه وخيبة أمله من الجفاء الذي لقيه في قرية صاحبه، وهي بدورها هَوَّنت عليه الأمر وربَّت على كتف حزنه بأنامل رفقها.. مؤكِّدة له ثقتها بأن هذا لن يستمرَّ طويلاً، وأن كمال سيعود إلى عهده ووداده قريباً.. بعد أن يمتصَّ صدمة المصيبة الكبيرة التي ألَمَّت به.. وجنحت به إلى تلك الجاذبة النَّائية؟

بعد أيام عاد علي من إجازته في القرية حاملاً بقايا حزنه والكثير من ذكريات الفَقيد الغالي.. ورواسب من حقدٍ وغلٍّ أورثتهما في نفسه المصيبة وموشحات العدائية التي ظلَّ يصغي إليها هناك.. ورغبة شديدة بالتَّأرُّ؟

أصبح واضحاً بالنسبة لثابت بعد ساعاتٍ من لقائهما في الفرع أن علي ما بعد الحادثة ليس هو الذي كان ذات قربٍ يتقاسم مع صديقه الهمَّ والاهتمام واللقمة والوقت، وأنَّهما قد شرعا في حقبة جديدة لا يمكن تخمين مخبئها والسيطرة على اتجاهااتها، أو مقدار النجاح الممكن في إعادة نصابها إلى ما قبل جرح الحادثة الأليم؟



كما توقَّع أبو خالد ونَبَّه الجميع منه.. تناهت إلى أسماع الجميع أخبار الحشود من الجيش المدجَّجة بكامل عتادها، والتي أصبحت جاهزة في موقعٍ عسكريٍّ قريبٍ على تخوم المنطقة لاجتياح مرتقبٍ، كما سبق أن فعلت في العديد من المناطق في سورية، مما سبَّب الكثير من الخوف

والقلق خصوصاً لدى النساء والأطفال وضعيفي القلوب الذين سبقت إليهم أخبار ما حلّ بكل منطقةٍ مرّ من خلالها طوفان الجيش والشيّحة، كان لابدّ من أخذ الحيطة واتخاذ ما يمكن من إجراءاتٍ لمنع أو تأخير هذا الاجتياح..

رغم كل ما تمّ الاتفاق عليه يعلم أبو خالد علم اليقين أن النظام لن يسمح باستمرار الاحتجاجات مهما كلف الأمر، لا فرق عنده إن كانت التكلفة هي عديد الرؤوس الحيّة التي تُحصّد يومياً، أو مناطق تُدمّر فوق أجساد ساكنيها وتصبح ركائماً.. أو أراضٍ تُحرث بالقذائف والصواريخ والقنابل؟

كان هناك خياران أمام أهل المنطقة لا ثالث لهما.. إما التسلّح ومساندة فصائل الجيش الحرّ التي بتدخّل أبو خالد ووجهاء القرية والقرى الأخرى المجاورة قد ابتعدت عن المنطقة تواجداً وتشكيلاً، للحفاظ على الاتفاق الذي تمّ مع أجهزة الدولة، وإما الفرار باتجاه الشمال نحو الحدود التركية هرباً لإنقاذ أرواح الأهالي، وترك الجيش الحرّ يدخل إلى المكان ويحاول صدّ الهجوم.. مع كل ما يتوقّعون من النظام بغية إخماد الحركة الاحتجاجية وإخضاع الناس من استخدام كل صنوف الأسلحة الثقيلة لذلك المنطقة، ومختلف الأساليب لتحقيق الغرض؟

خلال فترة المناقشات والأخذ والردّ وصل إلى بيت أبي خالد خبرٌ موجعٌ أصاب الجميع بالصدمة والحزن، هو خبر اعتقال خالد مع مجموعة من الشباب بكمينٍ مدبرٍ، خالد الذي لم يلتحق بالجيش الحرّ كثيرٍ من شباب العائلة والقرية، ليبقى معيناً للعائلة وسنداً لأبيه في البيت وفي قيادة الحركة السلمية، علماً إن باقي إخوته من الشباب قد التحقوا بالفصائل، وأصبح لقاءهم بالأهل عزيزاً ونادراً.. العملية المدبرة والمخطّط لها سلفاً بدأت بمراقبته ورفاقه من قبل مخبري أفرع الأمن في المنطقة، كان أحدهم

الشاب الذي سبق وأطلق عليه النار من آل الخليل، تحيّنوا فرصة اضطرابه مع بعض رفاقه للخروج إلى أطراف القرية على الطريق المؤدّية إلى مركز المنطقة ضمن مهمّتهم الموكلة إليهم في مساعدة سكان المناطق المتطرفة، حيث تمّت محاصرتهم من قبل دوريات مخابراتٍ اقتادتهم جميعاً معتقلين باتجاه المجهول؟

هزّ نبأ اعتقال خالد الجميع، وخلف غصّة كبيرة، خصوصاً لدى الأب الذي لخالد ولده البكر عنده مكانة كبيرة.. مع ما يعلمه عن أخبار المعتقلين النّاشطين وما يتعرّضون له من شتى أنواع التعذيب مما لم تعرفه بشريّة ولم يخطر على بال مستبدٍّ، والأم التي تفقد ولدها الثاني بعد ثابت الذي صار بالنسبة لهم في عداد المتوفّين أصلاً، بينما أصاب خالدة الحنون ارتفاع الضغط من جديد، وصارت بحالةٍ صحيّةٍ سيئةٍ مهدّدةٍ كما أبلغهم الأطباء في التّوبة السابقة بحدوث جلطةٍ دماغيةٍ أو قلبية، مما دعا الوالدين للطلب من زوجها أن ينتقل مع العائلة إلى بيت أبي خالد لتتمّ مراقبتها من قبل الجميع، ولأنّ الوضع في بيت العائلة حسب اعتقادهم قد يكون أكثر أماناً من بيتهم الذي يقع في المدخل الأقرب للاجتياح المتوقّع..

في اليوم التالي وقبل أن يتم البتُّ في أمر الإجراءات التي ستّخذ مقابل إمكانية تدخّل الجيش والشبيحة مع أجهزة الأمن.. في فجر يوم الثامن من تشرين الثاني ٢٠١١.. كان أهل القرية على موعدٍ مع جلبةٍ مفاجئةٍ كبيرةٍ سبّتها الطّائرات وجنازير الدبّابات وهي تهزّ مضاجع الجميع قبل أن يستيقظوا.. وصلتهم أصوات تحرّكها المزعجة قبل أن تبدأ بإرعابهم قذائفها من خلال القصف العشوائي على جميع الحارات مع إطلاق (الدوشكا) على المنازل.. ل تمنع أي حركة مقاومةٍ ممكنةٍ قبل حدوثها...

تلت ذلك اقتحامات البيوت في أطراف القرية، تمّت قبلها السيطرة على أعلى المباني، ووضع القناصون في حالة تأهب واستعدادٍ لرمي وإصابة كل متحرّكٍ بذات الأسلوب الذي استعملوه في كل بقعةٍ اقتحموها من قبل، فعلوها في حمص وحماة ودرعا وغيرها من المدن والبلدات.. كل من حاول الخروج من المنازل تعرّض للقنص أو للإصابة جراء القصف.. شعر الجميع وكأنّ حرباً هوجاء مدمرةً من طرفٍ واحدٍ قد أُعلنت عليهم.. أحسّ الجميع بقرب موعد المجزرة التي لا بدّ من حدوثها؟

بدأت أعداد القتلى والمصابين بالازدياد، ممّا جعل العائلات تلجأ إلى اختيار الأمكنة الأبعد والأعمق، والتي يتوقّعون أنها الأسلم لوضع النساء والأطفال فيها، ليخرج الرجال ومن هم موجودون من الشباب مغامرین بحيواتهم في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، قوافل المعتقلين أيضًا أخذت بالتزايد، كان واضحاً أن غزاة الفجر لا يوفّرون أحدًا كبر أم صغر.. في مقدّمة المقتحمين شبّيحة آل الخليل الذين كانوا يقودون الجيش إلى الطرق المناسبة والبيوت المهمة، مع المشاركة في إطلاق النار والاعتقالات..

أبو خالد يعلم أنه وعائلته أحد أهمّ أهدافهم بالتأكيد، لكنه لا يستطيع الابتعاد وترك عائلته كبارهم وصغارهم صيداً للعابثين، حتى لو توفّر له الطريق إلى ذلك.... أول أمرٍ فعله هو محاولة الاتصال بأولاده في الجيش الحر لإبلاغهم بما يحصل، وجد كغيره أنّ الخطوط الهاتفية السلوكية والخليوية مغلقة.. ولا وجود لشبكة الانترنت؟

تناول بندقية صيدٍ يمتلكها معلّقةً على أحد الجدران، ومسدّساً قديمًا يحتفظ به للضرورة كدأب الكثيرين من أهل القرى وبعض المدن.. و يضع طلقاتٍ لا يملك غيرها، أخذ موقعاً في مدخل الدار.. يريد أن يقوم بواجبه

تجاه أهله وبيته، رغم الشعور بالخسارة المضمونة ومعرفته بعدم جدوى المقاومة.. لكن يأبى الكرام الأباة أن يسلموا الراية دون مقاومة؟

في هذه الأثناء سمع الجميع ارتفاع أصوات إطلاق النار الكثيف من كل الاتجاهات، تحوّلت الأصوات هذه المرّة إلى ما يشير لوجود اشتباكات، استدّلوا من خلالها إلى أن عناصر الجيش الحرّ قد وصلوا إلى المكان، سمعوا أصوات تكبير وتهليل من مسجدي القرية.. خلال دقائق مرّت كأنها شهورٌ أطلّ عليهم أحد أولاد أبو خالد من المتطوّعين في الجيش الحرّ ومعه ضابطٌ منشقٌّ برتبة نقيب، يشير إليهم بالمغادرة جميعاً وفوراً.. واللاحق بالمجموعة المرافقة، أثناء تنفيذ هذا أصبح نشاط الطائرات والمدفعية وراجمات الصواريخ وغيرها من الأسلحة أكبر.. نتيجة تراجع الدبّابات والمدرّعات وقوى الجيش والشيحة إلى أطراف القرية بعد تدخل الشّباب المسلّحين بأسلحة خفيفة ومتوسطة.. وتصديّهم لهم وتكبيدهم خسائر في المعدات والأرواح..

دقائق رهيبّة.. كانت تكفي لوصول قذائف المدفعية والطيران إلى الكثير من منازل القرية ومنها دار أبي خالد وتدميرها كلياً أو جزئياً.. لكنها لم تكن كافية لإخلائها ممّن فيها.. انهيار قسمٌ كاملٌ من بيت أبي خالد بصاروخ موجّه كبير.. أسفرت الدقائق الدامية عن حدّثجلٍ.. عن فاجعة كبيرة ومجزرة مهولة.. أصاب الصاروخ القسم الداخلي البعيد والذي تجمّعت فيه النّساء والأطفال.. فقدت العائلة على إثرها خالدة وأولادها وزوجة خالد وطفلها الصغير وزوجة أحد الأبناء الآخرين وطفليها، وجرح العديد من أفراد العائلة.. منهم من كانت جراحه تبدو خطيرة.. في الأنحاء كانت صيحات الناس تشير إلى وجود خسائر كبيرة في الأرواح والمنازل؟

راح المفجوعون جميعاً بمساعدة الجيش الحر يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وإخراج الضحايا من تحت الأنقاض.. تمّ نقل من استطاعوا الوصول إليه أو ما تبقى من أشلائهم إلى سيارات توقّفت قرب المنزل.. الجميع ما يزالون تحت وابل النّار معرّضين لاستمرار القصف، انطلقت بهم العربات المتوقّفة باتجاه طريقي احتفظ بها رجال الجيش الحرّ نظيفةً ونائيةً للطوارئ يخرجون منها خارج المنطقة.. وتمّ نقل ما تبقى من أحياء في بيت أبي خالد ومصائبهم، وباقي سكان القرية باتجاه مخيم قرب الحدود التركية..

لم يستطع أفراد الجيش الحرّ أن يقاوموا طويلاً بعد أن فعلوا ما بوسعهم.. وانسحبوا تاركين القرية شبه فارغةٍ تنتظر قدوم المهاجمين.. حملوا شهداءهم ومصائبهم وغادروا باتجاه أماكن تركزهم السابقة.. قرب الحدود..

أبو خالد ثبت واحتسب رغم المصاب الأليم.. وقف صامداً يصبر عائلتَه، رغم حالة الحزن الشديدة التي انتابته، ما جرى من وحشيةٍ فاق حتى ما نبّه إليه وتوقّع حدوثه يوماً.. وقف يراجع ما حصل وهو يرى مع الجميع منازل القرية تتداعى تحت وقع القصف الكثيف، وتتصاعد ألسنة اللهب والدخان من كلّ بقعةٍ حولهم، تحوّلت الأرض إلى جحيمٍ تملؤه أشلاء ودماء الضحايا نساءً وأطفالاً وكهولاً ورجالا... حتى الحيوانات لم تسلم.. فقد ودّع ركاباً محترقاً مفتتاً يغطي بقايا أشلاء أولاده وأحفاده.. ومخزون العمر.. تذكّر مشهد الحيوانات وبعضها قد نفق والآخر كان حينما غادروا مسرعين يلفظ أنفاسه الأخيرة.. بينما انكشف صبر أم خالد وانهارت في خضمّ موقفٍ لم يكن لها أن تتصوّر حدوثه يوماً، ثكلها في ابنتها الغالية وكتّيتها وأحفادها.. وهم يدفنون على مرأى منها بعيدين عن الأرض والبيت.. بينما كانت ما تزال تندب الغائبين الأغلى خالد وثابت وترى جرحى العائلة ينتظرون رحمة الله في مشفى ميداني

فقير.. وقف الآخرون من سكان القرية أيضًا بعد مواراتهم لجثث أحبائهم الثرى.. مودعين بيوتهم وقريتهم.. ربما بلا موعدٍ للعودة قريب؟

- خالدة يا بنتي الحبيبة أراد القدر أن يتولَّك الموت عندي، وقد جئنا بك من بيتك لتتفاداه.. رحمك الله يا ابنتي وجميع من خسرواهم.. آله الموت يا غالبية التي قتلوك بها وقتلوا العشرات في قريتنا، والآلاف في سورية، والتي ظَلَّتْ تنكدس في مستودعات الطغاة عشرات السنين، أعدت فقط ليوم كهذا يقتلوننا بها فيه، هي بعض كدك وكد أمك وأبيك وجدك وأعمامك والناس جميعًا، دفعوها من ناتج عرقهم ليسيل بها دمهم الطاهر البريء اليوم في مختلف البقاع، لا أستطيع أن أعيدك إلى الحياة أيتها الشهيدة الغالية الحنون، لكنني أعدك بأنه مهما طال الزمن وزادت المحن.. فلن تموت إرادة الحياة فينا ولو كره المجرمون؟

بكي زوج خالدة زوجه الشهيدة وأبناءه بحرقة صدمة جعلته يعيش حالة ذهولٍ وانهيأٍ كغيره من ذوي ضحايا المجزرة المروعة، وقد تبين أنهم كثيرون بكثرة شواهد القبور النائية التي انتشرت بعيدًا عن أرضها؟

وقفت هادية المصابة بجروح في رأسها ويديها تحضن ولدها في المخيم الذي أنشأه الأهالي على حدود تركيا في ليلٍ باردٍ، بانتظار أن تفتح لهم السلطات التركية الحدود لعبورها.. وتهيء لهم كما هيأت لمن قبلهم مخيمات اللجوء؟

تبكي هادية المسكينة فقد الزوج الغائب وبعضًا من أهلها وأهل زوجها.. تتمنى لو أنها تستطيع إخبار ثابت بما جرى لهم.. وتشكو له همها وجرح عائلته الكبير؟

بينما وقف هناك منعزلًا طفلٌ بعمر الورود.. نظر إلى الجميع.. وهويكي ويناشد في سره أباه البعيد أن يأتي مسرعًا لنجدتهم.. ويرد كيد المعتدين؟

هذا الصباح في هذا التاريخ ليس كغيره بالنسبة لثابت.. الثامن من تشرين الثاني ٢٠١١.. ها هو يتهياً للخروج في مهمّة إلى حمص مع الكثير من زملائه إلى حي (بابا عمرو) لاجتياحه مع رفقة من بعض ضباط الحرس الجمهوري وضباط إيرانيين وعناصر كثيرين من الجيش وباقي فروع المخابرات وقوّات من حزب الله اللبناني الموالي.. والذي بدأ يدخل في الصراع بشكل تدريجي وفق الحاجة لدعمه، بما لعناصره من قدرات قتالية متقدّمة في مثل هذه الظروف ومن بأسٍ شديد.. والأهمُّ بما يحملون من ولاءٍ مقدّسٍ لانتمائهم الطائفي الحميمي لإيران مركز دعمهم، ولحليفهم المباشر في سورية... النظام؟

أهالي الحيّ وفيهم الكثير من المسلّحين من الجيش الحرّ المشكّل حديثاً.. أظهروا صموداً كبيراً في وجه التّدخلات المتكرّرة من أجهزة الأمن والجيش المحليّة القريبة، وكبّدوهم الكثير من الخسائر البشرية والمعدّات، وتحملوا مع الأهالي حصاراً طويلاً.. النظام ضاق ذرعاً بهذا الاستعصاء المقلق لأجهزته.. جاء اليوم الموعد الذي وُضعت فيه الخطّة لاجتياحه بكل قوّة بمساندة الأسلحة الثقيلة والطيران..

كان أمر مشاركته مع علي ومجموعة من عناصر الفرع وعلى رأسهم ضباط كبار قد صدر في اليوم السّابق، بعد أن التقى ثابت باللواء وطلب منه مهلة إضافية لتحقيق ما أراد منه في لقاء صفقة كمال.. مع السّماح له بالمشاركة بموقعة (بابا عمرو) المرتقبة، والاتصال من خلال وجوده في حمص بكمال صديقه ليكمل مهمّته، ويأتيهم بالأخبار عن تحرّكات مستقبلية ممكنة للحركة التمردية في حمص.. فكان له ما أراد؟

لم ينم هذه الليلة كالطفل ينتظر إطلالة فجر العيد مرتدياً ثيابه الجديدة ليتلقّى هداياه وعيديّته، يمارس ما طاب له من الألعاب، لم يطو

الليل الطويل صور الأحبة من أهل وأصدقاء التي ظلت ماثلة في خاطره.. لكن صورة وجه هادية المسكينة الطيبة، ووجه حبيبه وفلذة كبده عثمان كانتا هما الأبرز في حفل الليلة من استعراض شريط الشوق والذكريات..

ودّع ثابت فاتنة وداعاً أثار ربيها وقلقها، وهي التي كانت ترجوه من الليلة الفاتنة أن يدعها تحدث اللواء، وتطلب منه إصدار الأمر بعدم مشاركة ثابت في المهمة.. وهو يرفض ذلك متذرعاً بوجوب مشاركته لإثبات حسن نواياه وإعادة الثقة..

بعد أن ارتدى ثيابه العسكرية مع الدرع الواقى التي تسلمها من الفرع في اليوم السابق.. صمّ حبيبته بقوة وأطال العناق، ثمّة شعورٌ مقلقٌ انتاب فاتنة الخائفة على حبيبها، أحسّت أنه يودّعها الوداع الأخير.. أدركت بأنه يوارى عينيه عن ناظريها، وهما محتبستان بالدموع.. أبكاها كثيراً هذا المشهد، وكادت أن تتمسك به وتمنعه بالقوة من الرحيل لولا أن أمر الذهاب قد تم البتّ فيه، ظلت تشيّع بنظراتها الלהفة.. وعينها الباكيتين.. وقلبها المرتجف، إلى جانبها أمّها تحاول أن تواسيها وتخفّف عنها، وتطمئنّها بالحديث عن عودة ثابت القريبة.. سالماً غانماً؟

انتقل ثابت بسيارة من سيارات قصر السيدة ميرفت برفقة سائقها إلى الفرع، حيث أفلتتهم مروحية من مطار (المزة) العسكري القريب.. إلى حمص.. جلس مقابله تماماً صديقه اللدود علي، حاول ثابت خلال الطريق أن يلفت انتباه علي، يجامله ويداعبه.. كما تعودا من قبل.. فوجد الطريق إلى قبوله شائكاً صعباً..

- إنه الآن شخصٌ مختلفٌ بكل المقاييس بعد مقتل أخيه.. يبدو أن التاريخ لديه أصبح بعهدين.. قبل مقتل العميد وبعده، فما جرى من إرهاباتٍ في نفسه بُعيد هروب ليلى وأهلها لم يكن سوى النذر اليسير مما يعتمل في نفسه

الآن، لم يعد يتصوّر حتى أن يكون له صديقاً مثلي.. بعد أن استحضر كل مخزون التأثيرات العائلية والطائفية التراثية المتعلقة بخلفيته، وأضاف لها رصيذاً طازجاً من ردود الفعل الآنية، جرّاء ما اصطدم به في الواقع من خلال الأحداث الأخيرة، وتأثيرات مضافّة من وسطٍ يعيش فيه أغلق على نفسه من خلاله باب التفهّم وتقدير الأمور بحجمها، وتسمية الحوادث بمسمياتها الطبيعية.. هو يرى وحوشاً آدميةً تنتمي إلى فئةٍ معيّنة، مسؤولٌ بمجملها عمّا حدث، ترتبّص به وبأهله ومحيطه من كل جانب.. تريد سحقهم وإلغاءهم.. هذا ما أراد النظام أن يفصله على مقاس أبناء منطقته المغيّب معظمهم.. وقد نجح في ذلك إلى حدّ كبير..

ثابت يحدث نفسه، وهو ينظر إلى عيني صديقه السّاهمتين ووجهه المكفهر.. يأسو لحاله، وهو في ذات الوقت يراجع ليلة الأمس وفجر اليوم، حيث كان مواعده مع المواجهة الحقيقية الكاملة لنفسه، من خلال مرآةٍ مختلفة هذه المرّة.. لم يسمح لأيّ مؤثّر أن يمسّ نقاءها ومصداقية رصدها لتفاصيله، أطلق لها العنان لتصفعه بالحقيقة المرّة دون مقاومةٍ وتسويقٍ، وبكلّ ما تقدّم من ظروفٍ وتقلّباتٍ وسقطاتٍ أخذته بعيداً عنه..

رأى في هذه المرّة أذرع الحقيقة.. من خلال أهله ومحبيه وأصحابه وأصحاب الحقّ المقهورين.. تمتدّ لتشدّه وترفعه من الوادي السّحيق الذي أدرك أنه غاص فيه حدّ الغرق، وجد نفسه أخيراً يصالح نفسه.. وقد انسحب بعيداً عن عيون المراقبين، خلف ستارة العتم.. سجد بين يديّ خالقه بناجيهِ ويتوسّل إليه أن ينير دربه، ويثبّته على الصراط المستقيم، وأن ينقذه مما هو فيه، اتخذ قراره الذي يعلم أنه تأخّر؟

بعدها لم يعد يؤرّقه خوفٌ على مكتسبٍ ناله ذات صدفةٍ، أو حبيبةٍ أسرته ذات فتنةٍ، رغم شعوره العاصف بالفقد والفراق.. وهو بحدّ ذاته أمرٌ مؤلّمٌ

ومحزن.. لقد وجّه دفّة سفينه بمعزلٍ عن أي تأثيرٍ طارئٍ، ودونما مواردٍ كما في كل مرّةٍ سابقةٍ واجه ذاته بها، أطلق عهده لنفسه، خطّط، نوى، وهو في طريقه إلى التنفيذ؟

عندما هبطت الطائرة بهم في ساحة التجمّع مع باقي القوى التي تجهّزت للمشاركة، كان في استقبالهم قائدٌ من الحرس الثوري الإيراني، وضباط برتبٍ عليا من الجيش والمخابرات.. لاحظ أيضًا وقوف بعض الضباط الروس بعيداً.. يراقبون.. ولعلهم كانوا المخطّطين؟ ألقى قائد العملية كلمةً بمسامع جميع المشاركين حمّسهم بها، ولقّنهم خطّة الهجوم.. أباح لهم فعل ما يريدون.. عدا عن عودتهم خائبين مهزومين..

بمباركة جميع الحاضرين انطلقت العملية الكبيرة، كانت الخطّة مبنيةً على سياسة وحيدة يعرفونها في مثل هذه الحالات هي سياسة الأرض المحروقة، حصارٌ كاملٌ، استخدام كل أنواع الأسلحة الثقيلة والطائرات لدكّ المنطقة وتسوية معظمها على الأرض، ومن ثمّ اقتحام كل الحي بيتاً بيتاً.. وزقاقاً زقاقاً.. وقتل المسلّحين المتواجدين فيه مهما كلّف الأمر من فقد أرواح للمدنيين أو حرقٍ للمنازل.. الغاية تبرّر الوسيلة.. وهؤلاء الناس هم وبيّتهم الحاضنة مُتاحين لكل إجراءٍ حتى موعد رفع العلم في منتصف الحي، وتصوير القوّات المنتصرة من قبل وسائل إعلام النظام وهي تحتفل داخله.. حيث يُحضرون إلى أنقاض المكان مرتزقةً يتحدثون على أنهم أصحاب المكان.. يشكرون الجيش الباسل الذي أنقذهم من براثن وشرور الإرهابيين المفسدين.. ثابت بدأ يعتاد مثل هذه (السيناريوهات) مؤخراً..

حينما اقتربت الحشود من المنطقة وحاصرتها من عدة جهاتٍ، انطلق الرصاص باتجاه المهاجمين من الحي.. وبالمقابل بدأت المدفعية بقصف

الحيّ بلا أيّ تحديدٍ للأهداف، والدّبّابات والمصفحات بالتوغّل في أطرافه.. وأثناء كلّ هذا.. الطيران المروحي والحربي يحوم فوقه ممهداً قاصفاً بكلّ قوّة وحزم.. كان على المهاجمين أن يكتفوا بالتسلل إلى الأطراف ريثما تنهي الأسلحة الثقيلة تمهيداً لاقتحام المركز..

تقدّم ثابت مع مجموعةٍ صغيرةٍ تضمّ علي أيضاً باتجاه أحد البيوت المتطرّفة، هنا وجد ثابت الفرصة المواتية التي كان يبيّت لها عزمه عن سابق قرارٍ وتنسيق، جنح عن رفاقه على أطراف الحي في طريقٍ جانبيةٍ، يريد من خلالها الوصول إلى مكانٍ محدّدٍ سلفاً.. لكنّه ما إن خطا عدّة خطواتٍ دون أن يتنبه الآخرون لغيابه، حتى سمع صوت انفجارٍ قويٍ من المنزل الذي اقترب منه علي ومعه عنصرٌ من الجيش وآخر من أصحاب العصابات الصفر من حزب الله اللبناني.. توقّف ثابت لبرهة.. سمع أصوات استغاثة نساءٍ، تربّص في المكان متأثراً، وتردّد.. لم يعدّ يعرف كيف يوجّه قراره.. هل يمضي قدماً نحو هدفه للالتقاء بصديقه كمال ومجموعته المدبّر بينهما والمنسّق مسبقاً.. ليتسنى له الانشقاق والالتحاق بالصفّة الأخرى؟ أم يعود لنجدة نساءٍ معرّضاتٍ للنهب والاعتصاب والقتل وأطفالهن؟ ربما كنّ أخوات رفاقه أو زوجاتهم.. تخيّل أن يكنّ شقيقاته في القرية أو زوجات أشقائه وأولادهم، حارت به السُّبل وعَدِم حينها الحيلة وإرادة القرار... حتى عزم على اختيار العودة، ودخول البيت المصاب بقذيفةٍ للتوّ.. وجد أثناء عبوره فوق جدران المنزل المهذّمة من الخارج جثتين لرجلٍ متوسّط العمر، وفتىٍ ربما كان في الرابعة عشرة من عمره.. ملقيتين في مدخل المنزل..

توغّل مسرعاً ليجد علي وصاحبيه يمسكون بامرأةٍ وابنتها.. يمزّقون ثيابهما ويهمّون بنشب أظافر الهمجية الشهوانية وحراب الانتقام السادية في

جسديهما.. بينما كان طفلٌ صغيرٌ ليس بوسعه سوى البكاء مرميًا في زاوية الغرفة.. لم يرد أن يصدق حتى هذه اللحظة أن علي يمكن أن ينحدر لمثل هذا.. ما استطاع من خلال تأثره الشديد وغيرته على النسوة إلا أن يرمي نفسه بينهن وبين الوحوش التي اجتمعت لتنهش لحومهن.. وجّه خطابه لعلي:

- أرجوك يا علي.. أتوسّل إليك يا صديقي.. لقد قتلتم الذكور في البيت فاعفوا عن النساء وهذا الطفل على الأقل.

- ابتعد يا ثابت عن طريقي فورًا.. ولا تتدخل.. فإن لي ثأرًا سأخذه من أرواح وأجساد كل هؤلاء ولن يكفيني ذلك.. ابتعد عن طريقي فورًا

كان يقول هذا وهو يصرخ بهستريا واضحة، يكاد زبد الحقد أن يفيض من أطراف فمه، وفي عينيه نظرة ذئبٍ جائعٍ شره.. لا يرى أمامه سوى فريسته.. وقف ثابت في وجه صاحبه وواجهه عن قربٍ ووجّه نظراته الحازمة في عيني علي الذي أراد أن يشيح بوجهه عن صاحبه تهرّبًا من من مواجهته لا يحبّها:

- انظر هنا يا علي.. هذا أنا ثابت، هذا ليس من شيمك يا صاحبي، أنت الإنسان الطيب المثقف صاحب الفكر النير.. لطالما كنت ودودًا رفيقًا.. ومتفهمًا، أستطيع أن أقدر حجم غضبك وحقدك، لكنّ النسوة لم يقتلن أخاك.. ولا هذا الطفل البريء.. صدّقني.. هي فقط أعراض النزق، دعنا نخرج ونبحث عن القتلة الحقيقيين.. أرجوك يا صديقي..

- قلت لك وأقولها للمرّة الأخيرة ابتعد عني وإلا قتلتك.. كفاك نفاقًا وخداعًا.. ولا تقل لي يا صديقي.. لست أفضل منهم.. كلكم مجرمون إرهابيون.. أوغاد.. لن تفوّتوا فرصةً لقتلنا وتشريدنا واغتصاب نساتنا.. لو استطعتم.. كلكم؟

هجم بشراسةٍ من جديدٍ يدعمه صاحبا.. دفعوا ثابت دفعةً قويةً رمته جانباً، وتابعوا ما شرعوا به، والمرأة وابنتها تستغيثان وتصرخان:

- يا الله.. اللهم سترك.. اللهم نجدتك

هنا لم يجد ثابت بداً أمام هذا الموقف المهيّب إلا أن يقوم كالسبع بقوةٍ رغبته ولهفته لإغاثتهن، وراح يدفع الرجال بكل ما أوتي من طاقةٍ بأخمص البندقية حتى استطاع أن يبعدهم.. لكنه ما كاد يفعل هذا حتى لَقِم الجميع أسلحتهم ووجهوها إلى صدره بسرعةٍ وشرارات الغضب والحدقت تطاير في المكان، بينما انكفأت النسوة إلى زاوية الغرفة..

في لحظةٍ لم يكن ثابت يتوقَّعها مطلقاً أطلق علي ومن معه عليه النار.. ثابت الذي كان سلاحه في حالة الاستعداد للرمي.. ضغط على الزناد حين كانت طلقات زملائه تطيرُه بعيداً باتجاه الجدار ثم على الأرض.. وبشكلٍ لا شعوريٍّ وبردةٍ فعلٍ.. لم يتوقَّف حتى أفرغ مخزنه.. وعمَّ الصَّمت والهدوء؟ انقشع المشهد عن جريحٍ يتلوَّى في بركةٍ من دمائه، وثلاث جثثٍ مرميةٍ فوق بعضها في زاويةٍ أخرى، يبدو أن اثنين منهما كانا قد خلعا الدروع الواقية فأصابتهما الطلقات في مختلف أنحاء جسديهما.. وامرأةٍ وابنتها وطفلها على الجدار.. تمسح المرأة الدماء المتناثرة عليها وتلملم لها ولابتنها مزق الثياب لتستر الجسدين المتكورين على بعضهما بتأثير الخوف والحياء الفطري، الأم تضمُّ ابنتها وطفلها الصغير بذهولٍ ورعبٍ مستندةً على جدارٍ ثالثٍ في زاوية الغرفة.. لم يُصَبَّ بأذى..

شعر ثابتٌ أنَّه لا يستطيع التنفُّس، وأنَّه مصابٌ بعدةٍ طلقاتٍ لم يستطع أن يميِّز مناطق اختراقها لجسده، أدرك بما يرى أن خصومه جميعاً قد فارقوا الحياة.. كان في حالة ذهولٍ جعلته بعيداً عن الوعي والإدراك، وبينما هو في

طور النَّزْف الشديد والصَّدمة مما حصل للتوّ.. سمع ومعه النَّسوة والطفل المرتعب المأخوذ خطوات قادمين بسرعة.. خاف.. وارتعبوا أكثر.. شعر أنَّ نهاية المطاف قد أُرِفَتْ.. وأنه لا مفرَّ من التَّشبُّث ببقية الرَّمق الأخير ليدفع ما استطاع عن النساء والطفل شرور القادمين.. قام باستبدال مخزن سلاحه الفارغ بآخر ممتلئ، وأخرج قبلةً يدويَّةً وضعها على الجانب الأيمن آخذًا وضعية الرامي.. متحاملاً على جروحته ونزفه.. صاحت به المرأة وهي تمسك بأجساد ولديها بقوة وتحضنهما:

-أخي أرجوك.. أتوسَّل إليك اقتلنا أنا وابنتي الآن وفورًا قبل وصولهم.. وللطفل ربُّ رحيمٍ يتولَّاه.. لا تتردَّد.. أتوسَّل إليك.. هيا..

يا الله.. ماذا تقولين؟؟ أنا أموت ألف مرَّة ولا أمسكما بسوء..

-أرجوك يا أخي.. أناشدك بالله العظيم أن تفعل.. فهذه رحمةٌ لنا ونجدة.. ذلك أهون ألف ألف مرَّة من وقوعنا بين أيدي الأوغاد السَّفلة.. أرجوك أيها الحرُّ النبيل.. إن كنت تغار على عرضك.. لا تتركنا فريستين لهذه الوحوش؟

بكى ثابت وهو مستلقٍ يسبح بدمائه السَّاخنة.. لم يجد ردًّا يواكب بلاغة وتأثير ما جاءت به المرأة ونبل ما طلبت هذه العفيفة الطَّاهرة.. إلا المزيد من الدموع.. حين أصبحت الأصوات أقرب.. رفع بندقيته بقهرٍ وحزنٍ.. وجَّه فوهتها مرتعشًا لهول الموقف إلى الأم وابنتها.. يريد مرغماً أن يقوم بهذا الاختيار الصعب.. بعد أن قام بمثله قبل قليل، ولكن برْدَة فعلٍ لم تتطلَّب منه التفكير وحشد النِّيَّة.. حين أَرَدَى صديقه القريب ومن معه.. هو الذي لم يقتل قبل هذا اليوم حتَّى مجرد حيوانٍ في حياته؟

في هذه اللحظات سمع صوتًا مألوفًا.. يصيح:

- نداءً إلى من في الداخل.. ارموا أسلحتكم وسلّموا أنفسكم.. نحن عناصر من الجيش الحرّ وقد حاصرنا البيت.. لا مفرّ لكم من تسليم أنفسكم إن كنتم تريدون الخروج أحياء..

لم يكن صوت كمال يومًا بمسامع ثابت أحلى وأجود وأطيب من هذه اللحظة.. ابتسم وهو خائر القوى وراق وجهه وابتسم.. نظر إلى الأم ببهجة رغم النزيف والحزن على ما حصل قبل دقائق.. أرخى بدنه المتشنج واستلقى على الأرض.. طمأنهن بإشارة منه، ونادى بما توفّر له من صوت:

- هذا أنا يا كمال.. لا يوجد أحد سواي ومعني أهل البيت

دخل كمال مسرعًا، ومعه صديقه حامد شقيق العروس الشهيدة سميرة ومجموعة من زملاء السلاح.. هاله ما رأى من حالة صاحبه، صاح بالجميع لإنقاذه ونقله إلى جهة تتمّ فيها معالجة جروح.. ثم وجّه للإحاطة بالنسوة والطفل وسترهم ومساعدتهم على الخروج من المكان.. المرأة تبكي وتدعو لثابت بالشفاء وتشكره..

ثابت كان قد أصيب خلال الاشتباك السريع بعدّة طلقات كان معظمها في الواقية، ربما كسرن أحد ضلوعه.. ثلاثة منها خارج الدرع استقرّين في جسده.. واحدة ما بين كتفه ورقبته، وأخرى في ذراعه، وثالثة في أعلى الفخذ.. أجلسه كمال.. رفع يديه رأسه المتثاقل.. وأخذ يصيح معاتبًا:

- لم دخلت إلى هنا؟.. ألسنا على اتفاق على اللقاء هناك؟ أحمد الله أنني خمّنت أن تكون هنا فقد راقبك أحد الشباب وأنت تعود في هذا الاتجاه.. الحمد لله أنك بخير يا صاحبي.. ستتعافى بإذن الله.. ستغادر فورًا باتجاه المشفى.. إصاباتك ليست خطيرة يا صاحبي.. عمر الشقي بقي؟

ثابت العائد الجريح أصرَّ على أن يساعده في الاقتراب من جثة صديقه علي، نظر في وجهه المغطى بالدماء.. أصابته إحدى الطلقات في جبهته كانت هي القاتلة بينما احتفظ بدرعه الواقي بخلاف زميله.. مسح ثابت عن وجه صاحبه الدماء وقربه إليه وأخذ يعاتبه:

- لماذا فعلت هذا يا صاحبي؟ أنا صديقك ومستودع سرِّك ثابت.. أنسيت؟ هل عليَّ أن أذكرك؟ ألم تكن أنت من قال لي يومًا: أفديك لو لزم الأمر بروحي؟ ألم تقل: لِمَ يُقتل الناس ويهانون وتُمتهَن كراماتهم.. ولمن؟ ألم تقلنا رفيقي: أفصل أن أموت مقتولًا مظلومًا.. على أن أكون شريكًا فاعلاً في الظلم؟ ألم تنزه نفسك عن هذا حين قلت لي: أنا أكبر وأسمى من أن أحكم على الناس من خلال انتمائهم الطائفي أو العرقي؟ لِمَ فعلتَ هذا يا صاحبي؟ ألم نكن معًا بنبي حلم التعايش والسلام.. وعهد الإخاء؟

ألم نعمل على أن نكون أنموذج العيش الجميل؟ ورصدنا له الأيام والأحداث وخطط المستقبل يا زميل السرير والبيت والمكتب.. وزيناه حتى يغدو يقينًا؟ ليتك بقيت كما كنت.. ولم تجعلني قاتل أخي ورفيقي؟ ليتك فعلت؟؟

أخذ بجهدش بالبكاء والصرخة تكاد تخنقه.. بينما كان صوت الرصاص.. والمدافع.. وجنازير الدبابات.. وهدير الطائرات.. يعلو أكثر فأكثر.. وكمال يناشد صاحبه بالرَّحيل عن المكان.. قبل فوات الأوان..

- إنه يا أخي ضحيةٌ على هيئة جانٍ.. صدَّقني

كانت هذه هي آخر كلمات ثابت قبل الخروج من البيت.. محمولًا من قبل رفاقه.. قالها موقفًا بقدر ما عرف داخل علي.. وما أوصله إلى هذا السبيل؟

خرج الجميع من البيت متسللين، حيث كان بعض الرفاق الآخرين خلف المنزل.. يركنون سيارةً شاحنة.. أقلّت الجريح والنساء والطفل باتجاه مقرّ بعيدٍ يقع في منطقةٍ نائية، فيه مشفىٌ ميدانيٌّ يُعنى بمصابي الاشتباكات.. بينما راح الآخرون ومعهم كمال القلق على صديقه الجريح في اتجاه خطوط المواجهة.. للدّفاع ما استطاعوا عن الحيّ وأهله.. عن الإنسان.. والبيت.. والمال..... والعرض المستباح؟

استلقى ثابت في حالة ما بين الوعي وفقدانه على ظهر الشاحنة، وهو يرى من خلال الدموع أعمدة الدخان وآثار الدمار وعجاج الغبار.. يسمع أزيز الرصاص، وصفير القذائف.. وأنّات الموجهين، وصراخ المستغيثين..

يمضي ثابت الآن باتجاه عالمٍ جديدٍ وحياةٍ مختلفةٍ، ينظر إلى السّماء متتبّعاً بعض خيوط الشّمس تقاتل حتى وجدت لها منفذاً من بين حشود الغازات والأغبرة والأدخنة لتداعب وجهه المثقل بالتعب والحزن..

في مكانٍ آخر هناك ومن مبنى قصر العدل في دمشق.. حيث توجد محكمة الأحوال الشخصية.. وفي ذات التوقيت.. كان ثمة من يحمل أوراقاً ويخرج لينقل إبلاغاً بالطلاق.. هو في طريقه إلى فيلا السيدة ميرفت، لإبلاغ فائدة التي دقّت آخر مسمارٍ في نعش ثابت المتحوّل في دمشق منذ شهرٍ.. وأسهمت دون أن تدري في قيامته الجديدة.. حين قالت لثابت قبل أيام:

- لا أكثرث أبداً لأعداد الضحايا.. ولا لأجناسهم، أو أعمارهم.. ليتم الجميع.. المهم عندي أن يعود الأمن والاستقرار لهذا الوطن تحت ظلّ القيادة التي ننع بعطاياها.. ونستفيء؟

يرفع رأسه في مرحلة الانتقال الأخيرة نحو الغيبوبة.. قبل أن يسدل جفنيه
المثقلين، يرى أباه أبا خالد.. حين كان يقول له مبتسمًا:

- لقد وُلِدْتَ يا ولدي برفقة الدماء..

يحبيه هذه المرة متممًا.. وهو يبكي بكاء الأييين التائبين:

- نعم.. لكن ليس مرةً واحدةً يا أبي الغالي..... بل مرّتين؟

تَمَّتْ بِعَوْنِ اللَّهِ..

ولكن..

للوليد حكاياتٌ مستمرةٌ...

المؤلف في سطور

- وليد عبد الغفار الرشيد الحراكي شاعر وأديب سوري من مواليد محافظة درعا- أقام في حماة مدة طويلة قبل أن يغادر الوطن إلى المملكة العربية السعودية لمدة أربع سنوات ثم يستقر في ألمانيا.
- العمر ٥٤ عاما.. متزوج وله ثلاثة أولاد ذكور.
- حاصل على إجازة في الطب البيطري من جامعة البعث.
- له ديوان شعري مطبوع بعنوان (اقرئني)
- كتب العشرات من القصائد والقصص القصيرة والقصيرة جدًا ونصوص النثر الإبداعي.
- له قصائد عديدة وقصص قصيرة مطبوعة ضمن أعمال مشتركة .. كما نشرت له بعض الصحف والمجلات العربية العديد من أعماله.
- أحد رواد ديوان شعراء الشام الذي أصدرته دار النخبة بالتعاون مع نخبة الشعراء العرب.
- عضو اتحاد الكتاب الأحرار وعضو فاعل في عدة متدييات أدبية وعضو لجنة تحكيم في عدة مسابقات شعرية على صعيد وسائل التواصل لعدة سنوات.
- هذا هو العمل الروائي الأول.